الطبعة الأولى

رواية
Novel

أيمن العتوم

الحَوارِيُّون

الجزء الثاني من ثلاثية المسيح

ساحر الكتب

الحَوارِيُّون

الجزء الثّاني من ثلاثيّة المسيح

المؤلف: أيمن العتوم

الناشر: الإبداع الفكري للنشر والتوزيع - الكويت

رقم الإيداع: 0362/2024

الترقيم الدولي: 978-9921-714-77-7

الإبـــداع الفكري
للنشر والتوزيع

ebdaafekry
www.ebdaafekry.com

هاتف: 22675321 – فاكس: 22675365
ص.ب 28589 الصفاة 13146 الكويت

تصميم وإخراج: 6Y4

جميع الحقوق محفوظة للناشر: (شركة الإبداع الفكري)
يمنع النسخ أو التصوير أو النقل أو النشر في موقع الشبكة الإلكترونية أو الاقتباس من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر. (ومن يخالف ذلك يقع تحت طائلة الملاحقة القانونية)

٤١

كيفَ تقتلُ مَنْ لا ذنبَ له؟!

لم يَمُرَّ يومٌ على (أَنْتيباس) بأسعدَ من ذلك اليوم ولا بأشْأَمَ منه!! دخل عليه قائدُ جيوشه، وانحنَى أمام عَرْشِهِ، ثُمّ تراجع إلى الوراء خُطوتَين، وجثا على إحدى رُكبَتَيه، وهتف:

- سيّدي.

- قُلْ ما عندك أيّها القائد.

- اليوم تَوَّجْنا انتصاراتِنا؛ لقد أنزلْنا هزيمةً ساحقةً بأعدائنا. طهّرْنا كُلّ الحامِيات، وامتدّ مُلكُكَ في كُلّ الجهات. ورضخث لسلطتك كُلّ بلادِ الجليل وشرقِ الأردنّ وجنوبِ سوريّة.

وقفَ (أنتيباس) مزهُوّا، وصرخَ صرخةَ المُنتَصِر: أنا ربّ هذه البلادِ كُلِّها، سأسحقُ كُلَّ مَنْ تَبقّى من الفِئران المُتطاوِلة على مَمْلكتي. ثُمّ صمتَ لحظة. كان القائد ما زال يقفُ كالتّمثال أمامه. وجّه كلامَه إليه: «أريدُ أنْ أحتفل بهذا النّصر العظيم، أريدُ أن يصلَ صوتُ احتفالاتنا إلى روما، إلى القيصر نفسه، أريدُ أن يأكل كُلّ ملوكُ فلسطين، ويشربوا، ويرقصوا، ويفعلوا كُلّ المُنكرات الّتي نهث عنها آلهةُ المعبد... هيّا أيّها القائد أعْلِنْ ذلك في المملكة، وادْعُ الرّؤساء والأمراء ليشهدوا عَظَمتي».

كانث (هيروديّا) تنتظر هذه اللّحظةَ من زمنٍ طويل. أسرعث إلى عربةٍ تُقِلُّها إلى القصر. قابلَث قائدَ الجيش. وهبتْه جسدها مُقابِلَ طلبٍ واحد: أن يُقنِعَ (أنتيباس) بأنْ ترقُصَ

(سالومي) وحدها في حفل انتصاره. قال لها: أمرٌ سَهل مُقابِلَ جَسدٍ صَعب.

دخل القائِدُ في صباح اليومِ التّالي على (أنتيباس)، انحنى كعادته، سأله المَلِك:

- هل دعوتَ عِلْية القوم إلى حفل النّصر؟!

- بلى يا سيّدي. وأعددتُ الطّعامَ والشّراب.

- والرّقص؟!

- ستتكفّل به أفضلُ من رقصت في الأرض.

طرب الملك لِما سَمِع، لانت تقاطيبُ وجهه، وسأل بِخُبث:

- وَمنْ تكونُ أيّها الشّقيّ؟!

- إنّها (سالُومي).

- وَمَنْ (سالومي) هذه؟!

- ربّما نَسِيتَها؛ إنّها ذات الجسد الأفعى الّتي رقصتْ في وصلتها وحدها في إحدى حفلاتِكَ السّابقة.

- تقصد ابنة (هيروديّا)؟!

- بلى، يا سيّدي.

- ولكنّ أمّها ذِئبة، أخافُ مِنْ أنيابِها؟!

- أنتَ قلتَ أمّها؛ فما شأنُها هي؟!

- وَمنْ تكونُ البِنتُ غيرَ أُمِّها!!

- مختلفتان يا سيّدي؛ ألا يجتمعُ الوردُ والشّوكـ!!

- ألا تُوجدُ أخرى؟!

- لا يُوجَد أفضل مِنها؛ إلاّ إذا أردتَ أنْ يكونَ حفلاً عادِيًّا.

- كلاّ.

- هِيَ وحدها.

- وحدها؟! لِماذا؟!

- لأنّها ترقُص بإيقاعٍ لا يُمكن لراقِصةٍ أخرى أن تُجارِيَه؛ ولأنّه لِنَصْرٍ مُتفرِّد يجب أنْ تقومَ في حفلِه راقِصةٌ مُتفرّدة. أيُمكِنُ أن تقاتِلَ في معركةٍ على ظهر حِمار؟!!

- لكَ ذلك. ومتى سيُقامُ الحفل؟

- بعدَ أسبوعٍ سيّدي، حتّى نُعِدَّ له إعدادًا يليقُ بانتصارٍ إمبراطويٍّ عظيم.

بدأ قلبُ (هيروديّا) يخفِقُ بشدّة، لقد حانتِ اللّحظةُ الحاسِمة؛ فإمّا أن تُطلِقَ سهمَها المَسموم إلى الهدفِ فتُصيبَ فيه مقتلاً أو تدعَ السِّهامَ والأمر كلّه جانِبًا. قالت لابنتِها: حفلةٌ واحِدةٌ في قصر (أنتِيباس) تُغنِيكِ سنةً كامِلةً عن الرّقص في هذا المَبغَى. لا ترقصي من الآن فيه حتّى يوم الحفل؛ معنا أسبوعٌ للاستِعدادِ لذلك.

أريدُ أنْ أُعلّمكَ فنونًا لم تخطُر على بالِ الشّيطان نفسه، سأجعل الأرض ترتجّ على اهتزازاتِ هذا البطنِ المُخمليّ الفاتِن، إنّها فُرصَتُنا لنُريهم أيّ مهارةٍ نملك، وأيّ سِحرٍ نَحوز!

قضتْ هيروديّا وسالومي أسبوعًا كامِلاً تستعدّان للحفلة، رَقَصَتا معًا في كلّ يومٍ نهارًا مُبصِرًا ونِصفَ ليلٍ أعمَى. رَقَصَتا حدّ الثُّمالة حتّى رقصَ معهما عمودُ الرّخام، ومرآة الحائِط، وإطارُ اللّوحة، ومِزلاجُ الباب، وكوبُ الشّراب، وطبلُ العازِف... كانَ حِقدُ هيروديّا على يحيى يُفضي بها إلى اختراع فنونٍ للرّقص لم تعرفْ هي نَفْسَها أنّها قادِرةٌ على اكتِشافِها مِنْ قبلُ، كان الحقد شعرةً من زُجاجٍ تَحزّ قلبَها، وآنَ لها أن تتخلّصَ منه بغرزِهِ في صَدْرِ مَنْ كانَ سببًا في إهمالِها. بدا أنّ العالَم يتّسع أمام ناظِرَيها، كُتلةُ السّواد المكتظّة في كَبِدِها ستلفِظُها عن قريبٍ بعد أن تَشفي غليلها مِنْ غريمِها.

أَلْبَسَتْها لِباسَ الرّقص، وأتقنتْ زِينَتها حتّى غدتْ خلاّبةً جَذّابةً، ولم يَكُنْ لفتنةٍ أن تمشي على ساقَينِ يومَئِذٍ سواها. أقلّتْهُما العَرَبَةُ الملوكيّة إلى القصر الفخيم. تعرفه هيروديّا تمامًا. وتعرفُ مداخله ومخارجه، كانَ هذا يومَ كانت سيّدتَه، أمّا اليومَ فليسَ لها إلاّ أن تنظرَ إلى أسوارِها، كانَ القصرُ نزوةً، وكانَ أنتيباس يُمكن أن يُبيحه لعابِراته مُقابِلَ قضاء هذه النّزوة. اليوم ستُريه كيفَ تستعبده مقابِلَ طرده لها. اليومَ ستري يحيى كيفَ تَثأر منه مُقابل فتواه اللّعينة. وَمنْ قال لهذا الأفّاكَ أن يُفتي لهذا الملعون!! ومنذُ متى يُؤمنُ الخنزير بالفتوى ويعمل بها؛ هل رأيتُم خِنزيرًا يَستفتِي على دَنَسِه!!

نزلتْ (هيروديّا) من العَرَبةِ عند مدخل القصر، ودخلتِ العَرَبةُ بسالومي دونها. كان اللّيل يزحفُ تدريجيًا على جِبال الجليل الجاثِمة في هذه البُقعةِ العالية، وكانَتْ نوافِذُ القصر

الزّجاجيّة تعكِسُ لَمَعانَ الشّمس في آخر إشعاعاتها مثلَ ذُبالةِ شمعةٍ توشكُ أن تنطَفِئ. اتخّذت لها مكانًا منزويًا بعيدًا عن الأعين، ولا يعرف به إلاّ ابنتُها؛ الفخّ الّذي تأمُل أن يصيدَ فأرَه. لم يكنْ أحدٌ ليراها أو حتّى ليعرفها فيما لو رآها، في حين أنّها كانت ترى كُلّ عرباتِ المدعوّوين وهي تجتازُ البوّابة إلى داخل القصر في السّاحة الّتي تمتدّ أمام قاعة الاحتِفالات. رأتْهم واحِدًا واحِدًا يعبرون؛ هذه مقصورة فيلُبّس زوجها الأسبق، تنهّدتْ حينَ مرّتْ عَرَبَتُه؛ رأتْ وجهه الصّفيق ما زال كما هُو، وإلى جوراه تجلسُ امرأةٌ لأوّل مرّة تراها، فلم تعرفْ إنْ كانت زوجةً جديدةً أُضيفتْ إلى قائمة زوجاته السّابِقات، أم هِيَ جاريةٌ حَالَفها الحظُّ عَبْرَ جسدِها بالارتقاء إلى عربةٍ ملكيّةٍ والجُلوس إلى جِوار مَلِك. وتتابعتِ الوفود. ميّزتْ وفدَ (بيلاطُس)؛ هتفتْ في نفسِها: الخنزير لا يدعو إلاّ الخنازير الّتي تُشبِهه. ثُمّ مرّتْ عَرَباتِ الأمراء الحالِمين، الّذين لم يبلغوا الحُلُمَ بعد، ولم يعرفوا غابةَ السّياسة والمُلْك، ولا صِراعَ الوحوش الّذي يملؤها.

ضَجّتِ القاعةُ الكبيرةُ بالمدعوّيين، اتّخذ الملوكُ الثلاثةَ مَواضِعَهم في المنصّة الخاصّة بهم، صدَحَتِ القَينات، ودخلت (سالُومي) كانت جسدًا تلبّسته الفِتنةُ في كلّ شيءٍ فحاصرتْ كُلَّ مَنْ رآها، وكانت كُلُّ عينٍ كأنّما شُدّتْ بحبلٍ إلى جسدِها فلمْ تُفارِقه أينما ذهبتْ. ولمْ يتَمالَكْ (أنتيباس) نفسَه حينَ رآها؛ أحسَّ بعاصِفةٍ تجتاحه فوقفَ بحركةٍ لا إراديّة، وحطّمَ الكأسَ الّتي في يده حينَ ألقاها بقوّة على الأرض. ضَحِكَ الملوك والأمراء لِما فعل، أمّا هُوَ فظلَّ صامِتًا مأخوذًا مُتجهّم

القَسَماتِ للحظاتٍ قبل أن ينفجرَ بالضَّحِكِ، وجسده ينبعج إلى الخلف من شِدّة ضَحِكه. ثُمّ جَلَس. كانَتِ الموسيقَى الّتي ستُرافِق رقصةَ سالومي أيضًا قد أعدّتْها (هيروديّا)؛ هل سمعتم من قبلُ بموسيقَى تفيضُ بالجوعِ إلى الجسد!! هذه كانت من هذا النّوع!! تعاَلى صوتُها عابِرًا فضاء القاعةِ الفسيحة إلى أذنيّ (هيروديّا) فرقصَ قلبُها افتِخارًا وابتِهاجًا؛ لقد بدأ السّحر الّذي أعدّتْهُ يعمل إذًا.

بهدوءٍ جريح؛ كأنّ شالاً حريريًّا يُداعبه النّسيم كانَ جسدُها يتثنّى. وبليونةٍ مذبوحة؛ كأنّ غُصنًا طريًّا يتأوّد كانَتِ الموسيقَى تُعزَف. وبرشاقةٍ خاطِفة؛ كأنّ سربًا من الطّيور يُهاجِر كانت يداها تُرفرِف. وبارتِجافةٍ ناعِسة كأنَّ صفحةَ ماءٍ على سَطحِ بَحرٍ تَتَرَقْرَقُ كانَ خصرُها يَتَرَجْرَج. نسيَ (أنتيباس) نفسه، فأرخى يدَيه على مِسنَدَي كُرسيّه، وفغرَ فاهُ، وظلّت عيناه مُحملقتَين كأنّما رَأَتَا منظرًا يخطفُ الأبصار منذُ قرون واستمرّ إلى هذه اللّحظة. وأمّا الحاضرون فملكَ المشهدُ عليهم لُبّهم فانقطعوا عن أحاديثهم الجانبيّة، وانجذبوا إلى هذه الآسِرة الّتي تعبث بكيانهم كُلّه. وأمّا هِيَ فكانَ الشّيطانُ يرقُصُ بدلاً عنها. حتّى أولئكَ الخُبراء بهذا الفنّ الّذين شاهدوها في تلك اللّيلة يُؤكّدون على أنّ هذه الّتي اعتلتِ المسرح لا يُمكِنُ أن تكونَ بشريّة. لو كانوا يعرفون الأبالسة لقالوا إنّها هِيَ الّتي ركبتْ هذا الجسد المُشكّل من لحمٍ ودم وأدّتِ الحركاتِ المُدهِشة الّتي أدّتْها، لكنّهم لا يعرفون إلاّ الآلهة، فلم يَشُكّوا للحظةٍ أنّ الآلهةَ هبطت من السّماء وصاغها القَدَر في جسدِ فتاةٍ في الخامسة عشرة ترقُصُ بهذا الشّكلِ

الجنونيّ. لم يتوقفِ الجنونُ لحظة. الآلهةُ لا تتعب هكذا قال (أنتيباس)؛ إنّ هذه الصّبيّة تفعل ما لا يُمكن أن تفعله حتّى تلك الآلهة، ويلٌ لي مِمّا أرى. أيّها اللّعينُ الّذي اقترحَ عليّ أن ترقُصَ وحدها: كم كُنتَ مُحِقًّا؛ لا يُمكن أن تؤدّي هذه الرَّقَصاتِ فتاةٌ في العالَمِ كُلّه. لكنها لا ترحمني هذه الخاطِفة، ولا تقبلُ أنْ تُعتِقَني؛ لقد بدأتْ تستحوذُ على عقلي؛ ماذا أفعل؟! يجبُ أن يكونَ لهذا السّحر نهاية!!

قفزَ (أنتيباس) بشكلٍ مُفاجِئٍ من عَرشِه. صرخَ. فانخفضَ صوتُ الموسيقَى، لكنّ الجِنّيّة ظلّت ترقُص. في الخارج عرفت هيروديّا أنّ الفخّ اصطادَ الفأر. ثُمّ صرخَ صرخةً أقوى فسكتتِ الموسيقَى لكنّ السّاحرةَ ظلّت تَرقُص. في الخارج عرفت هيروديّا أنّ الفَخّ أحكمَ الخِناقَ على الفأر. ثُمّ أشار بيده لها أن تتوقّف، امتثلت تدريجيًا، فانسابِ السّحر بهدوءٍ واستقرّ في فؤادِ (أنتيباس). في الخارج عرفتِ هيروديّا أنّ الفأرَ قُضِيَ عليه. تطلّعتِ العُيونُ إليه تنتظر ما يقول، هتف: «أيّها المُلوك.. أيّها الأمراء.. إنّني أُعلِن أنّني مُستَعِدٌّ على أنْ أُعطِيَ سالومي ما تطلبه... نعم ما تطلبه؛ ولو كانَ نصفَ مَمْلكتي. سأُعطيها ما تطلبه... ها أنذا أُشهِدُكم على ما أقول... ليذهب نصفُ المملكةِ إليها؛ إنّ خصرَها يستحقّ المملكةَ كُلَّها». ثُمّ توجّه إلى سالومي لينحني أمامها، خَجِلتِ الجُدران؛ مَلِكٌ يَنحني أمام راقِصة!! سألها: «ماذا تطلبين أيّتها المُذهِلة؟!». جعلت من انِحناءته تعبيرًا عن فَرَحِها وشُكرِها رقصةً. لكنّها جثت من جديدٍ على رُكبتَيها، ووضعت كفَّيها عند وجهها، وقالت بأدبٍ رفيع لا يليقُ براقِصة ماجِنة: «أتأذنُ

لي بالمَشورة؟!». «هل الأمر يحتاجُ إلى مشورة؟!». «بلى يا سيّدي؛ عَرْضٌ كبيرٌ كهذا قد يستدعي مشاورة أهل الخِبرة». «وَمنْ ستستشيرين؟!». «مَنْ علّمتْني هذا الفنّ يا سيّدي». «الأمر يستحقّ إذًا، إنّ وراء هذه السّاحرة الصّغيرة ساحِرةً أكبر». «هل أفعل يا سيّدي؟!». «افعلي لكنْ قبلَ أنْ ينفَضَّ السّامِر». «سأعودُ قبلَ أنْ تُنهِيَ الكأسَ الّتي بينَ يديك».

لفّت شالاً أبيضَ على جسدها خشيةَ أن تُصيبَها العُيونُ في الطّريق. قابلتْ أمّها في المكانِ الّذي اتفقَتا عليه. حَضَنتْها (هيروديّا) بفرحةٍ لا يتّسع لها الكون، كادتْ تبكي مِنَ الفَرحة. قالتْ لها: «لو لم تتفوّقي عليّ لما اعترفتُ بكِ ابنةً لي؛ الخمرُ مع الزّمنِ تتعتّق في الجِرار؛ أنتِ في فنّ الرّقصِ جَرّةٌ مُعتّقة». «لقد قال لي: اطلُبي ما تشائين ولو كانَ نصفَ مملكتي. فُرصتي يا أمّي لكي أنسَى عهدَ الشّقاء، وأعيشَ أميرةً. فماذا أقول له؟!». «العيشُ يا ابنتي في القُصورِ الشّامخة لا يهبُ الفؤادَ ليلةَ استقرارٍ واحدة؛ إنّ قلبي يحترقُ من الدّاخل يا سالومي، ولا يُطفِئه إلاّ شيءٌ واحدٌ!!». «وماذا أطلبُ منه إذًا؟!». «اطلبي رأسَ يحيى بن زكريّا على طبقٍ من ذهب. لِيَ الرّأسُ ولكِ الطّبق».

عادتْ إلى القاعةِ مُسرِعةً. اعتلتِ المسرح من جديد. رفع (أنتيباس) يده وهو يحملُ الكأس مُشيرًا لها أن تطلب. انحنتْ. جثتْ. طأطأتْ هامَتها. صمتتْ. هتفَ بها مُشجّعًا: «اطلُبي في حضرةِ هؤلاء النّبلاء فلن أردّ طلبكِ مهما كان؛ ما لمْ يَزِدْ عن نصفِ المملكة؛ أريدُ أن أعيشَ بالنّصفِ الثّاني».

ثُمّ أطلق قهقهةً عالية. ردّث كأنّها تدرّبث على طلبها هذا في الطّريق: «أُريدُ رأسَ يحيى بن زكريّا على طَبَقٍ من ذَهَب». أوقفَ (أنتيباس) ضَحِكتَه الفاجِرة، سَقطَتِ الكأسُ من يده فتحطّمث عندَ قدميه، كذّبَ ما سَمِع، توقّع كُلّ شيءٍ إلاّ هذا، سألها كأنّه يريد أن يتأكّد من أنّ الّذي سَمِعه صحيح. أجابته بوضوحٍ هذه المرّة سَمِعَه كُلُّ مَنْ في القاعة: «أُريدُ رأسَ يحيى بن زكريّا على طَبَقٍ من ذَهَب». بلعَ ريقَه. سَمِعَ صوتَ يحيى قادِمًا إليهِ من أوّل لقاءٍ رآه فيه. استعادَ ما قاله آنذاكَ له فرجف. اضطرب. لأوّل مرّة يُحسّ أنّ ساقَيه تَرتعِشان كأنّما رُكّبتا على جَناحَيْ ذُبابة. استعادَ بعضَ الهدوء. قال لها وهو يهزّ جِذعه: «أُطلبي أيَّ شيءٍ آخر... أيّ شيءٍ آخر... لا أستطيع أن أقتُلَ هذا الرّجل؛ إنّه قِدّيس». هتفث به بقوّة هذه المرّة كأنّها ليستِ الرّاقصة المِغناج ذات الخمسةَ عشرَ ربيعًا: «لقد سمعتَ طلبي، وسَمِعَه كُلّ هؤلاء، أتريدُ منّي أن أُعيده عليكم من جديد أيُّها السّادة؟!».

لقد صادَته العَجوز. هذه الفاجرة تغلّبث عليه. لم تكنِ ابنتُها إلاّ طُعمًا. وهو؟! وقعَ في ورطةٍ يبدو أنَّ التّخلّصَ منها مُستحِيل. هل يجرؤ على أن يقتلَ قِدّيسًا؟! قد يفعل. لكنّه بالتّأكيد لن يجرُؤ على أن يتراجع عَن وعده، لو كان وَعَدَها بينَهُ وبينَها لاستطاعَ أن يتملّص من هذا الوَعد بسهولة، أَمَا وأنّ الوعد قد قطعه على نفسه بأنْ يُلبّي لها أيّ شيءٍ تطلبه وأمام كُلِّ هؤلاء الشّهود فكيفَ يستطيعُ الفِرار منه؟!!

خرجث (سالومي) إلى (هيروديّا). حَضَنتْها من جديد، قالث

لها وهي تحضُنُها: «مُلكُ الدُّنيا كُلّه لا يُمكنْ أن يَشفي قلبَ امرأةٍ تتطلّع للانتِقام. الآن ارتاحَ ضميري». عادَتا إلى المَبغَى. في اللّيل ظّلث (هيروديّا) تحلمُ برأس يحيى يأتيها على طبقٍ من ذهبٍ وعيناه جاحِظَتان، إنّ بينها وبينَه حديثًا طويلاً يجب أن تُسمِعه له. إنّها لن تهدأ وإنْ كانَ رأسُهُ المَقطوعُ بينَ يدَيها حتّى تُفرّغ في وجهه كُلّ الكلمات الّتي صاغَها الحِقدُ الأسود المكنوزُ في قلبِها.

أمّا (أنْتيباس) فلم يجد إلى النّومِ سبيلاً. لقد لدغتْهُ الأفعَى وانتهى، والحلّ الآنَ يكمُنُ في تقليلِ أثر السّمّ الّذي بدأ ينتشر في جسده. تصارعث في أعماقه مئاث الهواجِس، سأل نفسه: «كيفَ تقتلُ مَنْ لا ذنبَ له؟!». أجابه الشّيطان القابعِ بينه وبينَ نفسِه: «أنتَ مَلِكٌ وتستطيع أن تقتلَ مَنْ تشاء». «ولكنْ رأسَ يحيى؟! لو طَلَبَث أيّ رأسٍ آخر، لو طلبث رأسَ (فيلُبُّس) لكانَ أسهل». أجابهُ الصّوتِ باستِهزاء: «أَكُلُّ الرُّؤوسِ سَواء؟!!».

كادَ اللّيلُ يُزهَق ولم يجدِ النّومُ إلى عينَيه سبيلاً. فكّر بطريقةٍ قد تُخلّصه من عذاب الضّمير هذا، نادَى قائِدَ الجيش، شاورَه في الأمر، فأشارَ إليه أنْ يبعثَ إلى كاهنِ اليهود (قيافا) الأكبر يَستشيرُه في ما هو مُقدِمٌ عليه. ففعل. قال لكاتبه اكتبْ: «أيّها الحَبْرُ الأعظم إنّي اضطُرِرتُ إلى قطعِ رأسِ يحيى ابنِ كاهنكم زكريّا، فَبِمَ تُشيرُ عَلَيّ؟!».

٤٢

مَنْ كانَ مِنْكُمْ بلا خَطِيئةٍ فَلْيَرْمِها أوّلاً بحجرا

غادرَ النّاصرة، وأغارَ وحده هذه المرّة على (مَجْدلة)؛ الأمر لا يتطلّبُ رِفاقًا معه في هذه الجولة؛ يستطيعُ أن يقومَ بها وحده؛ ثُمّ مِنَ العار أنْ يفعل ذلك مع آخرين، والخصمُ ليسَ إلاّ امرأة!! امرأة ناعِمة، يُميّزها جسدٌ رخيصٌ، وشعرٌ أسودُ فاحمٌ ينسدل خلفَ ظهرها حتّى يكاد يمسُّ خصرَها.

ترقّبَ طلعتَها مِنَ الدّار. منذ شهرٍ وهو يجلِسُ في زاويةٍ مُطلّةٍ على بيتِها ويُتابِعُ ما يجري. رأى العشرات يدخُلون، والعَشَراتِ يخرجون. كانوا موزّعين بين فِتيانٍ في العقد الثّاني، ورجالٍ في العَقدِ السّادس؛ بعضُهم جاءَ ماشِيًا، وبعضهم على حِمار، وآخرون على خيول، وصنفٌ مُميّز، عبرَ الطّريق الموصلة من هذه الزّاوية إلى بيتها على عَرَبةٍ فاخرة. قال لنفسه: «بيتُ الفاجِرةُ لا يَرُدُّ أحدًا. إنَّ لبيتِها قدرةً على استقطِاب أصنافٍ مُتنوّعة من النّاس لا يقدر على استقطابهم بيتُ الله!!».

لَبَدَ مكانه في ضُحَى يومِ سبتٍ من الأسباتِ الّتي يتوقّف فيها العمل مُراعاةً لحرمته وقداسَته!! تعدّتِ العتبةَ حتّى نفذتْ من فَمِ الطّريق، ثُمّ سارتْ في الزّاروبةِ الضّيّقة الّتي تمتدّ أمام بيتها وبيوتٍ أخرى مُفضِيةٍ إلى طريقٍ أوسع، ومنها إلى السّوق. حينَ صارتْ بموازاته انقضّ عليها كما ينقضُّ أسدٌ على غزالٍ شارِد. عقدتِ المُفاجأةُ لِسانَها، همّتْ بأنْ تستغيثَ

من هذا الوحشِ الكاسِر، لكنّه عاجلها بوضعِ يدِه على فَمِها فأخرسَها. نظرَ في وجهها والشّرر يتطايَرُ مِنْ عَيَنيه، وهتف: «استمتعتِ بما يكفي، الآنَ جاء دور الحِساب». سحبَ من جانبه قِطعةً سوداءَ من القماش، كمّمها بها. قَيَّدَ يدَيْها خلفَ ظهرها. جاءه صوتُها نازًّا من وراء الكِمامة، مثلَ مُشفٍ على الموتِ يُعالِجُ روحَه المُتَحَشرِجة. أتمّ مَهمَّته؛ ربطَ يدَيها خلفَ ظهرها، وقذف بها على حِصانه، وعدَا بها إلى أطرافِ النّاصرة.

تزحزحتِ الكِمامة عن فَمِها قليلاً. لم تنبِسْ بحرفٍ واحدٍ، انتظرتِ اللّحظةَ المُناسِبَة لتفجّر صرختها الاستِغاثيّة. مرّتْ في طريقِها بعجوزٍ تقفُ أمام بابِ بيتها الخشبيّ. صرخث بكلّ ما أوتيَث من قوّة: «أنجديني يا أمّاه، إنّهم يختطفونني». فتحتِ العجوزُ فمَها، أرادتْ أن تقولَ شيئًا فلم تفعل. حدّقت في المرأةِ المُستغِيثة، فعرفث أنّها مريم المجدليّة؛ فتأفّفث واستعاذتْ بربّ موسَى منها، كان آنذاك قد هُرِعَ إليها أحدُ أبنائها مُستطلِعًا: «ماذا يجري يا أمّي؟!». «لا شيءَ يا بُنيّ مُجردّ ساقِطة قُبِضَ عليها. يبدو أنّنا سنتخلّصُ منها ومن السّمعة السّيّئة الّتي تجُرُّها على بلدتنا إلى الأبد». «لِيُساعِدْها الرّبّ». كانَ الحصان قد تجاوزهم بمسافة حينَ التفتَ إليها (باراباس)، وصَفَعَها على وجهها صفعةً فقدث معها الوعي سريعًا.

نزلَ بها إلى السّاحة الواسِعة الّتي تجمّع فيها عددٌ من قُطّاع الطّرق مع (باراباس)، قال لهم: «هل حفرتُم الحفرة كما قلتُ لكم؟!». ردّوا كمن ينتظرون صيدًا ثمينًا: «بالطّبع يا باراباس

كلّ شيءٍ جاهِز» لمعث عُيُونُهم؛ لقد جرّبوا أن يقتلوا قبلَ هذه المرّة، قتلوا بالسّيف وقتلوا بالسُّمّ وقتلوا بالخَنقِ؛ لأوّل مرّةٍ سيقتلون بالرَّجْم، غامرهم شعورٌ بالسّعادةِ لا يُوصَف، بدا أنّ القاتِل يستمتع بضحيّته أكثر إذا غيّر أسلوبه في القتل؛ فاللّوحة ذات اللون الواحد لا تُبهِجُ مثل تلك الّتي تتعدّد فيها الألوان!

خلفَ زيتونةٍ كبيرةٍ قبعَ رئيسُ الأَخَوِيّة، كبير فرقة فرسان المَسِيَّا (يهوذا) يُراقِبُ المشهدَ عن بُعد، آلاف الأفكار يتفجّر بها رأسُه، ما زال على توجّسٍ من يسوع؛ يتبعه أم لا؟! هل سيُحقّق المسيح رغبته في القضاء على الجنس البشريّ الفاسِد بالسّيف والمِقصلة، أم يدعو إلى هذا الخلاص بالبسمةِ والكلمةِ الطّيّبة؟!! ومتى كانتِ الكلمةُ الطّيّبة تُثمر في القلوبِ المُظلِمة!! هل رأيتُم صخرَةً تُنبِتُ عُشبًا ولو سُقِيَت بِماءِ المُحيطات!! كَمَنَ خلف الزّيتونة يراقبُ ما سيحدُث وأرسلَ طرفَه في البعيد كأنّ الأمر لا يعنيه. عندهُ حدسٌ كبيرٌ أنّ هذه الحفرة المُرعِبة الّتي حُفِرتْ من أجل هذه البائسة المسكينة ستشهدُ أحداثًا تتعدّى مجرّد رَجمْ امرأةٍ زانِية. لا بُدّ أنّ قدمَيه ساقتاه إلى هذا المكان لحِكمة، بالطّبع ليسَ للقدر علاقةٌ بالأمر، إنّه نداؤه الخفيّ الّذي يتبعُ صوتَه دائِمًا ليعرفَ ما يريد. واليومَ قال له هذا الصّوت: إنّ المَسِيّا هُناك؛ فحضر.

كانت مريم المجدليّة لا تزالُ مُلقاةً على الأرض مثلَ حيوانٍ جريح، ويداها مربوطتان خلفَ ظهرها. اقتربَ منها (باراباس)، بصقَ في وجهها واستعاذ بربّ موسَى من

الشّياطين الّتي تسكنُها، فَكَّ قيدَ يدَيْها، أوقفها بُجثّته الضّخمة مثلَ شاةٍ مَذبوحة، شَدَّها مِن شَعْرها، وسحَبَها إلى الحُفرة، وهناك فَكّ قيودها. علث أصواتُ اللّصوص في المكان، كانتِ الشّمس تتوسطُ السّماء، زادتْ حرارتُها من هِياجِهم فصاحوا: هيّا.. هيّا... هذه الحجارة تنتظرُ أن تشبع من دمكِ... ورفعوا حجارةً تكادُ تنوءُ أيديهم بحملها لِثِقلها. سيطرَ الرُّعبُ على مريم، بدأتْ بالصُّراخ داخل الحفرة فلم يُعِرْها أحدٌ اهتِمامًا، لكنّ صدى صرخاتها كان يُدفَنُ معها هُناك. تزايدَ عددُ النّاس، لقد طلبَ (باراباس) من بعضِ رفقائه أنْ يدعُوا أهل (مَجدلة) كُلّهم ليشهدوا نِهايةَ الآثِمة. بدأ النّاسُ يَهتِفون، كانَتْ أصواتُهم تنمّ عن ابتِهاجٍ كمن يحضُرُ احتِفالاً لا كمنْ يُعايِنُ مأساةً.

حشدٌ آخر من النّساء برزْنَ من كُلّ جهةٍ. لا أحدَ إلاّ الله يعلَمُ لِمَ تحضر امرأةٌ عذابَ امرأةٍ أخرى!! مُعظمهنّ كُنّ من الشّابّات في العشرينيّات أو الثّلاثينيّات، العجائز كُنّ الأقلّ. قالث شابّة بِتَشَفٍّ لأخرى تقف إلى يمينها: «إنّها تستحقّ. لِتَذْهبِ إلى الجحيم». أجابتها الأخرى: «لقد استأثرتْ بالرّجال دونَنا». «إنّها لم تُبقِ لنا صغيرًا ولا كبيرًا، لا فلاّحًا ولا قائِدًا». «الّذي يأكل وحده يُصابُ بالجوع». «ما أسعدني اللّحظة!!». هتفتْ بهنّ عجوز كانتْ تتلصّصُ على ما يَقُلْن: «لو عَمِلتُ معي لما جَرُؤَ أحدٌ على أنْ يقتربَ منها!».

وقفَ (باراباس): على طرفِ الحفرة، ووجّه كلامه إليها: «أيّتها المرأة الخاطِئة...» قال يهوذا لنفسه مُتَنَدِّرًا: «اللّص بدأ يَعِظ..». تابعَ (باراباس): «لقد زَنَيْتِ...» ردّ يهوذا في نفسه عند

هذه العبارة ساخِرًا: «وما تكونُ أنتَ مع المجدليّات اللّواتي أتيتَ بهنّ ذاتَ ليلةٍ لنا جميعًا!!». تابعَ (باراباس): «وحسبَ شريعةِ موسى...». ردّ يهوذا: «الذّباب عندما يتحدّث عن النّظافة...». تابعَ (باراباس): «فإنّني أحكمُ عليكِ بالرّجمِ حتّى الموتِ». وانفجر المشهد. تعالتِ الأصواتُ مُؤيّدة، زغردتْ بعضُ النّسوة، حَجَلتْ بعضُ العجائز، وتناولَ الحجارةَ كثيرٌ من الرّجال استِعدادًا لتنفيذِ الحُكم. في تلك الأثناء كنتُ أنا وعددٌ من التلاميذ نمشي، صعدْنا من بئرِ بلدةِ (مجدلة)، وتوجّهنا إلى بعضِ شعابِها نلتمسُ الرّاحَةَ والهُدوء من جَلَبَةِ النّاس وتكاثِرهم علينا. تناهتْ إلينا تلك الأصواتُ، فلمْ أرتحْ لها، فطلبتُ من التلاميذ أن نتجنّبَ المكان أو أن نعودَ أدراجَنا، فهتفَ بي يُوحنّا: «يا مُعلّم قد يكونُ من الخير أن نتبعَ هذه الجَلَبَة، لعلّ أحدًا محتاجٌ إلى مُساعدِتنا، ونحن قادِرون». اقتنعتُ بقوله، فعجّلْنا مسيرَنا. ولمّا وصلْنا إلى السّاحةِ حيثُ الأعداد الغفيرة من النّاس تَصِيح عَرَفني بعضُهم لمّا رآني، فصاح: «أفسِحوا الطّريق... إنّه يسوع النّاصريّ... أفسِحوا الطّريقَ له». تقدّمتُ فرأيتُ (باراباس) فعرفتُ أنّ شرًّا مُستطيرًا سيقع. كانتِ الأصواتُ قد هَمَدتْ تمامًا، لمْ يرتَحْ (باراباس) لرؤيتي، وتناوَلَ حجرًا كبيرًا. قال وهو يرفعه: «أنا سأكونُ أوّل البادِئين». فهتفتُ به: «على رِسْلِكَ يا باراباس، ومَنْ أعطاكَ الحقَّ في أن تُنصّبَ نفسكَ قاضِيًا على شريعةِ موسى». كانتْ يدهُ قد ارتفعتْ فجمدتْ مكانها لمّا سَمِعَ ما قلت، ثُمّ ارتختْ فأسقطَ الحجر من يده. أمّا المجدليّة فكانتْ تقبعُ في أسفل الحُفرةِ وقد لفّتْ رأسَها بذراعَيها وانتظرتِ

الموتَ المُحقَّقَ الفظيع وهي ترتجفُ من الخوف. فلمّا طال وقتُ انتظارِها عَلِمَتْ أنّ أمرًا ما قد تغيّر فوق، على الأرض. فنهضتْ بحذرٍ وارتِجافٍ تستطلعُ ما يجري، فتراءتْ لها وهي واقِفةٌ على رؤوسِ أصابِعها سيقانُ الّذين جاؤوا ليشهدوا عذابها وقد تشكّلتْ مثل غابةٍ من الجذوع الكثيفة على شكل حلقةٍ دائريّة، وفي الوسط شاهدتْ (باراباس) الّذي اختطفها، وآخر يقفُ في مواجهته لم تره من قبلُ لكنّه بدا وَدودًا. سمعتْهما يتجادَلان، ورأتْ عُيونَ المتجمهرين قد غَفِلَتْ عنها وتعلّقتْ بهذين الرّجلَين، ففكرّتْ أن تحتمي بهذا الرّجل الّذي يُواجه (باراباس)، إنّها فرصتها الأخيرة للإفلات من براثنِ الموت. قالتْ لنفسِها: «سأجرّب، لن أخسرَ شيئًا؛ فأنا كنتُ في عِدادِ الموتَى قبلَ قليل». أنشبَتْ أظافرها في طرفِ الحفرة، دفعتْ بجسَدِها في محاولتها الأولى للقفزِ خارجَ الحفرة لكنّها فَشِلتْ، وقعتْ في أسفلها مثل كلتةٍ من الطّين. قامتْ من جديد، كان جدار الحفرة من الدّاخل طريًّا، ربّما ماءُ البئرِ رطّبَ كُلَّ الأرضِ الّتي حولها. راحتْ بنهمٍ شديد تحفرُ بأظافرها الجدار الرّطب على بُعدِ ذراعٍ من أسفلِ الحفرة، حفرتْ ما يُمكّنها من أن تضعَ قدَمها هناك، فعلتْ ذلك بسرعة. ركزتْ قدمًا واحِدةً في الحفرة الصّغيرة، وقفزتْ إلى أعلى، صار بإمكانها أن تضعَ باطنَ كفّها على الأرض الّتي تُحيطُ بالحفرة، اعتمدتْ على ذراعها المركوزة على الأرض وعلى قدمها المثبّتة في النَّقْبِ، وقفزتْ بجسدها الخفيف، وصارتْ بلحظةٍ خاطِفة في الأعلى. ركضتْ مسرعةً باتّجاهي. رمتْ جسدها تحتَ قدَميّ، وتشبّثتْ بهما كطفلةٍ صغيرة، وراحتْ

تتوسّل إليّ: «أنقذني أيّها السّيّد، بحقّ الإله الّذي تُؤمن به أنقذني». صرخَ بها (باراباس): «كيفَ خرجتِ أيّتها اللّعينة؟!». تناولَ حجرًا من الأرض وهَمَّ أن يُلقِيَه عليها. تكوّمت المرأةُ من جديدٍ تحتَ قدمَيّ وهي تلفُّ ذراعَيها حول ساقَيّ: «بربِّ موسَى أنقِذني». هتفتُ بباراباس: «ما أكثرَ الّذينَ هَلَكُوا بسببِ القضاءِ الجائر وما أكثرَ الّذين أوشكوا أن يَهلِكوا». «أتُهدّدني يا بن النّجّار؛ أنا لا يُهدّدِني أحدٌ». «أنا لا أهدّدكَ يا أخي». «وتقول عنّي أخي». «نعم وأنصحك وأنصحُ كُلّ الّذين يتّبعونَ أسلوبك: لا تَدِينُوا فلا تُدانَوا». تراخَتْ مفاصلُ يدِ (باراباس) القابِضة على الحجر قليلاً، وكان أنفُهُ يهتزّ عصبيّةً، يريدُ أن يفعل شيئًا لكنّه غير قادرٍ عليه. تقدّمَ رجلٌ في السّتّينَ مِن العُمر، ظلّ يخطو باتّجاه (باراباس)، حتّى صار في مواجهته، رفعَ كعبَه عن الأرضِ حتّى وَصلَ إلى صدره، ومدّ عنقَه إلى أعلى وهتفَ به: «جَبان!!». أخذ منه الحجر، وقال إذا لم تبدأ أنتَ برَمْيِها، فسأفعل أنا. قلتُ له: «يا أخي إنّكَ كُلَّ مرّةٍ تُصلِحُ أخاكَ بالرّحمةِ تنالُ رحمةً من الله وتُثمِرُ كَلِماتُكَ بعضَ الثّمر، ولكنْ إذا فعلتَ ذلك بالقسوة يُقاصّكَ عدلُ الله بقسوةٍ، ولا تأتي بثمر». ردّ بصوتٍ مشمئزّ: «من جديدٍ عُدتَ إلى تهديدنا يا بن النّجّار». فهتفتُ بالجميع: «مَنْ يَغْفِرْ يُغفَرْ له». فتعالتْ أصواتٌ من هنا وهناك: «ارجموها إنّها تستحقّ.. لِمَ كُلّ هذه المُماطَلة... خَلِّصونا من هذه الشّيطانة». تراجعتُ إلى الوراء على وَقْعِ هتافاتهم الغاضِبة، زحفتْ معي وهي ما زالتْ متشبّثة بقدميّ، وهتفتْ بي وهِيَ تنظر إليّ بعيْنَين مُتوسِّلَتَين: «بربّك لا تتركني أيّها القِدّيس». أشرتُ بيدي لهم

أنْ يسكُتوا، ثُمّ هبطتُ إلى الأرض، بدأتُ أكتبُ على التّراب بإصبعي، مَدَّ أكثرُ من نِصفِ الحاضِرين عُيُونَهم إلى الرّمل، وهتفتُ وأنا أكتب: «مَنْ كانَ مِنْكُمْ بلا خَطِيّةٍ فَلْيَرْمِها أوّلاً بحجر». فهمدتِ الأصواتُ شيئًا فشيئًا حتّى لم تعدْ تسمعُ كلمةً واحِدةً. ثُمّ بدأ الرّعبُ يشتعلُ في صدورهم وهم يرقبون حركةَ أصابعي، وخُيِّلَ إليهم أنّني أكتبُ أسماءَ الخاطِئين فازدادتْ نارُ الرّعب في صدورهم اشتِعالاً، فبدأ ينسحبُ بعضُهم واحِدًا وراء الآخر. رأتْ مريم المجدليّة المشهد؛ فعلمتْ أنّ هذا الّذي تحتمي به ملاكٌ هبطَ من السّماء بعثتْه الآلهة ليحميها، فازدادتْ به تَشبُّثًا. في اللّحظة الّتي بدأتِ الطّمأنينةُ تعودُ إليها شاهدتْ رجلاً آخر أعادَ سُحُبَ الخوف لِتُغشّي عينَيها، تقدّمَ الرّجل وأمسكَ بحجرٍ وتوجّه إلينا قائلاً: «أنا بلا خَطيئة». جاءَه صوتٌ من رجلٍ آخر بدا قصيرًا بصورةٍ مفرطة، خرجَ صوتُه كحبلٍ رفيع: «أنسيتَ ما أخذته منّي بالمُراباة. أتذكر يوم اضطررتَ جارَنا إلى بيع أرضِه بسبب دَينه لك؟!». تراخَى الحجر من يدِ هذا القادمِ نحونا، تابَع ذو القامة القصيرة: «ألمْ تدخلْ بيتَ أرملةٍ في اللّيلِ مرّة؟!». أَسقطتِ العبارةُ الأخيرةَ الحجر من يده على قدمه المكشوفة فسحقَ أصابعها. وصاحَ، ثُمّ تراجَعَ وهو يعرجُ على رِجلٍ واحدةٍ من الألم. كانتْ صرختُه كفيلةً بأنْ تدعُو آخرينَ للانسِحابِ من المكان.

برز في هذه اللّحظةِ (يهوذا) من خلف الشّجرة، كان يُراقِبُ كلّ شيءٍ. كانَ الغيظُ قد بلغَ مبلغَه من (باراباس)، احمرّ وجهه المجدور، وأزبدتْ شفتاه، ورفعَ قبضته في وجهي يريدُ

الإيقاعَ بي، كان (يهوذا) قد وصل، صرخَ به: «باراباس... ماذا تفعلُ أيّها الغبيّ؟!». زادته الكلمةُ الأخيرةُ حِنقًا، تمنّى لو أنّه تمكّن من أن يهوي بيده قبلَ أن يظهر (يهوذا)، لكنّ أمنيته تلاشت في الهَواء. حينَ تواجَهَ الرّجلانَ، أرجعَ (يهوذا) يده إلى الخلف بقدْرِ ما يستطيع ثُمّ هَوى بها على وجه (باراباس)، تحسّسَ (باراباس) موضع الصّفعةِ غيرَ مُصدّق، جاءه صوتُ (يهوذا): «أتمدّ يدك على يسوع أيّها الخائب؟!». نعم إنّه صوتُ (يهوذا) ولا أحدَ يجرؤ على أنْ يفعلَ ذلك سِواه بحكم موقعه في فرسانِ المَسِيّا. لم يكدْ يستوعبْ أنّ الصّفعةَ القويّةَ الّتي انقدَحَ لها شررُ عينَيه هي صفعةُ (يهوذا) حتّى هوَى هذا الأخير عليه بصفعةٍ أخرى قائِلاً له: «انسحبْ من هنا... هيّا...».

كانَ عددُ المُتجمهرين قد تناقص إلى النّصف. لكنّ المشهدَ راق للنّصفِ المُتبقّي فراح يضحك، ويهتف، ويَسخَر. كانتِ الصّفعتان هما السّكّين الّتي انقطعَ بها الحَبلُ ما بينَ الاثنَين. إنّها بدايةُ النّهاية. هتفَ به (يهوذا) من جديد: «قلتُ لكَ امضِ من هنا». لملمَ (باراباس) أذيالَ خيبتِه، شعرَ بمهانةٍ لم يشعر بها في حياته، كانَ رفقاؤه ما زالوا موجودين، أشار إليهم، وبمشاعرَ كسيرةٍ قائلاً: «هيّا بنا». امتثلَ لأمره أكثر من ثُلُثَي فرسانِ المَسِيّا، لقد كانوا يُؤثرونه على (يهوذا).

توالَى انسِحابُ الباقِين من الّذين أرادوا أنْ يشهدوا حفلةً لم تتمّ. قال أحدهم مُحدّثًا نفسه: «عليّ أن أنسحب، لقد سرقتُ قمحَ جاري قبل ثلاثةِ أعوام، كدتُ أموتُ من الجوع، ماذا كانَ عليّ أنْ أفعل، أنْ أنتظر الموتَ وجاري يتفرّج عليّ، لقد

كان القمح الّذي في مخزنٍ بيته يكفي عشر أُسَرٍ لعشرة أشهر، وهو؟! جلسَ يتنعّم ونحن نموت. كلاّ. إنّها خطيئةٌ على أيّة حال». انصرف ثانٍ وهو يهمسُ في نفسه: «وماذا أكونُ أنا؟! بعتُ زيتًا قديمًا بسعر الجديد؛ أيكونُ هذا غِشًّا، وماذا أفعل إذا كنتُ محتاجًا؟! على أيّة حال لقد أخطأت». قال ثالث دون أنْ يسمعه أحدٌ: «لقد كذبتُ على الله حينَ قدّمتُ له جديًا ميّتًا العامَ الفائت. إنّها خطيئة فكيفَ أقوى على أنْ أحمل الحجر؟!».

لَمْ يبقَ أحدٌ إلاّيَ ويهوذا والمرأة وبعضُ تلاميذي، انسحبَ الباقون إلى بيوتهم. فهتفتُ بها: «يا امرأة أينَ هُم أولئكَ المُشتكونَ عليكِ؟ أما دانَكِ أحدٌ؟». فقالتْ: «لا أحدَ يا سيّدُ». فقلتُ لها: «ولا أنا أدينُكِ. اذهبي ولا تُخطِئي». وقفتْ غيرَ مُصدّقة. وكانَ يهوذا يراقبُ الحِوار صامِتًا. نظرتْ في عَينَيّ: «يا سيّدُ مَنْ تكون؟!». «اذهبي ولا تُخطِئي». «إنّكَ طهّرْتَ جسدي، لكنّ روحي تُعاني». «وما ذلك؟!». «إنّني أسمعُ شياطين تتصارعُ في أعماقي، تفتكُ بي، تجعلني أرتكبُ الخطيئة دون أيّ شعورٍ بالإثم، إنّني أرى النّورَ في وجهك، وهذا النّور لا بُدّ أنّه من السّماء، والسّماءُ في حربٍ مع الشّيطان، ولا بُدّ أنّكَ قادِرٌ على قهره، مثلما قهرتَ هؤلاء الشّياطين الّذين كانوا يرقصون لموتي... يا سيّد، إنّكَ أنعمْتَ عليّ، وإنّي أريدُ أنْ أعودَ طاهِرةً كما كنتُ، فأعنّي على شياطيني».

فبسطتْ إليّ كَفُّها، فقلتُ لِمَنْ شَهِدَ: «إنّما أفعل بقدرةِ الله

لا بقُدرتي؛ آمُرُكِ أيّتها الشّياطين أن تخرجي من جسدِ هذه المرأة؛ فإنّها تابت توبةً لو وُزِّعَت على أهل الأرضِ لَكَفَتْهم». فارتجّ جسدها، وراحَ يرتَجِفُ كأنّه ورقةٌ صفراءُ في ريحٍ شديدة، وانخفضَ رأسُها بينَ كَتِفَيها، وزاغتْ عيناها، وظلّتْ على هذه الحال وأنا أهتف: «اخرجي واتركي جسدها لها، فالله خلقه من أجله». وسَمِعَ الحاضِرون أصواتًا كأنّها فحيحُ أفاعٍ تقول: «ما لنا ولكَ يا بن الله؟!». فنهرتُها نهرًا شديدًا، وصرختُ: «إنّما أنا عبدُ الله ورسوله. اخرجي بإذن الله». وهدأ جسدُ مريم المجدليّة، وعادَ إلى وجهها الصّفاء الّذي كان مخطوفًا، فلمّا استعادتْ وعيَها، وذهبَ عنها الخوف، هتفتْ بي: «لقد وهبْتَني حياةً جديدةً، أيُّ قَدَرٍ هذا الّذي جَمَعني بك؟! أعاهِدُكَ أنْ أكونَ عابِدةً مُطيعةً أتبعُ خُطاكَ النّورانيّة». وغادرتْنا ليكون لها فيما بعدُ حكاياتٌ وحِكايات.

قال (يهوذا) لي:

- لقد رأيتُ كُلَّ شيءٍ... أنا لا أريدُ أن أعرفَ عنكَ مِمّا أسمعه من النّاس، النّاسُ تكذبُ أكثرَ مِمّا تصدُق. أريدُ أن أعرفكَ عن قُربٍ.

- اتْبَعْنِي إذًا.

- لكنّني لستُ مرتاحًا تمامًا إلى أنْ أتبعَكَ.

- ماذا تقصد؟!

- أنا لستُ مثل باقي تلاميذِك، إنّني أرى أنّهم يضعونَ خُطاهم على خُطاكَ بعيونٍ عمياء. أنا لي عيون. إنّني أراهم

يُصدّقونكَ في كلّ ما تقول دون أن يُناقِشوكَ بكلمة؛ أنا لا أتّبع هذا الأسلوب، أنا أناقش حتّى في الجزئيّات، يقولون إنّني كثيرُ الكلام، سريعُ الغضبِ لما لا أراهُ صوابًا، حُمرةُ وجهي لازمتْني لكثرةِ ما رأيتُ من مواقِفَ أغضبتْني. أنا لا أخفِضُ رأسي حينَ تتلو صَلَواتِك، لأنّ رأسي يجب أن يبقى مرفوعًا، ولا أبسطُ كفّي لمبُايعتِك، إلاّ إذا رأيتُ منك ما يحيطُ بعقلي. أنا مختلفٌ تمامًا أيّها المعلّم؛ فهل أنتَ مُستعدٌّ على أن تقبلني على هذا النّحو؟!

- نعمْ أقبلُكَ، فاتْبَعْني.

****

كانَ للصّفعة الّتي تلقّاها (باراباس) من (يهوذا) ما بعدها. كفرَ بما اجتمَع عليهِ معه. وكوّن فرقةً جديدةً ليسَ لها هدفٌ غير نهبِ كلّ شيءٍ يقفُ في وجوههم، وحَرْقِ كُلِّ ما يجدونه أمامهم؛ كانَ بأعماله الفظيعةِ تلك كأنما يَنتقمُ من نفسه الّتي لم تفعل شيئًا أمام تلك الصّفعة التّاريخية، وخصوصًا أنّ شهودها كانوا أكثرَ مِنْ أن يُعَدّوا. لقد تحوّل (باراباس) إلى آلةٍ إجراميّة خطيرةٍ تُدمّر كُلَّ شيءٍ، وتقتلُ كُلَّ أحدٍ!!

٤٣

إنّه قَدَرُه، ولا يُغيّرُ القَدرَ إلاّ رَبُّ القَدر

«لقد جَمَعْتُكُمْ لأمْرٍ جَلَل». قال (قَيافا) الأكبر لمجموعةٍ من الكهنةِ هبطوا إلى الغرفةِ السّريّة التّحتيّة الّتي غالِبًا ما تُعقَدُ فيها الاجتِماعات الطّارِئة. «نحنُ مُصغُون؛ فما عندَكَ؟!». «لقد بعثَ إليّ الملك (هيرودس أَنْتيباس) يَستشيرُني في أمرٍ لم أكنْ لأقطَع به دونُكم». «قد عَلِمْنا فَبِمَ يستشيرُكَ المَلِك؟!». بسطَ أمامهم (قَيافَا) رُقعةَ الجِلدِ الّتي تحتوي رِسالةَ المَلِك. تجمّعتْ رؤوسُ الكَهَنَةِ نحوها، شكّلتْ بهذا التّجمّع طوقًا بيضويًّا، حوافّه أَعِمّةٌ مُزَخرَفة. بَدَتِ القُلُنسُوات الّتي يعتمرها الكَهَنَةُ فوقَ رؤوسهم مثلَ غرابيبَ سُود قد علا رُؤوسَها تيجانٌ صُفْر.

أخذَ (قَيافا) نَفَسًا عميقًا، استردّ الرّسالة الّتي بَسَطَها على الطّاولة، أرجعَ ظهره إلى الوراء ونظرَ في كلّ كاهنٍ من تحتِ عينَيه، تنحنحَ، وتهيّأ لِقراءَتها: «"أيّها الحَبْرُ الأعظم إنّي اضطُرِرتُ إلى قطعِ رأسِ يحيى ابنِ كاهنكم زكريّا، فَبِمَ تُشيرُ عَلَيّ؟!» زَفَر الكَهَنة بعد أنْ سَمِعُوا الرّسالة، أخرجوا ما في صُدورهم من هواءٍ حارّ كانوا قد حَبَسوه وهم يستمعون إلى كُلّ كلمةٍ يقولها (قَيافا)، ثُمّ أرجعوا رؤوسَهم إلى الوراء. وبسطَ بعضُهم كَفَّه على الطّاولة ولِسانُ حاله يقول: «ظنَنّا أنّكَ جمَعتنا لأمرٍ أشدّ خُطورةً؛ إنّها لمسألةٌ بسيطةٌ هذه المَشورة». تطلّع فيهم (قَيافا)، وقبلَ أن يَقول كلمةً واحِدةً،

وقف على قَدَميه، سَقَطَ الرّداء الأبيضُ الطّويل الّذي يرتديه عن القُلُنسوةِ السّوداء المُذَهّبة الّتي تعلو رأسه، أعادَه إلى مكانه، مَسّدَ على لِحيته الكَثَّةِ الطّويلة، ونظر في وجه الكاهنِ الأوّل، وسأله: «ما تَقول؟!». «ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ، ولا على أبيه، ففيمَ يُقتَل؟!» أجابه الكاهن الأوّل. فردّ عليه (قَيافا): «إنّه نشأ بعيدًا عنّا وعن أبيه؛ فما يُدريكَ ما صنعَ من بعدنا؟!». «وفِيمَ يُضطَرّ المَلِكُ إلى قَتْله؟!». «هذا شأنُ المَلِكِ وليسَ شأننا». «قُلْ فيمَ يَقتلُه الملك يا (قَيافا)، فأنتَ تعلم». قال ذلك كاهِنٌ آخَر. ظلّ (قيافا) صامِتًا كأنّه حجر. فردّ الكاهن الأخير عليه: «إنّه يُقتَل تلبيةً لرغبةٍ راقِصة؛ أتقتلونَ نبيًا في راقصة!! ما لَكُمْ كيفَ تَحكمُون؟!». حينَها صعدث فورةُ الغضبِ إلى رأسِ (قيافا)، كان لا يزال واقِفًا، فصرخ: يُقتَل في راقِصة أو في قِدّيسة؛ ما شأننا نحن؟! أنسيتم ما فعل يومَ جاءَ إلى هذا المعبد بعد غيابٍ طويل، كيفَ حَطّم التّسر، وكاد يقضي علينا بفِعلته تلك أمام الرّومان؟! أم نسيتم شَغبَه، وخِطاباته التّحريضيّة يومَ اعتلى شرفةَ المواعِظِ الكُبرَى في المعبد دونَ أنْ يستأذن أحدًا... أنسيتم؟! أمْ أنّكم تعُدّون ما فعل أمرًا هيّنًا، وربِّ موسى لو مُلِّكْتُ أمره لقتلته بنفسِي؟!». ألقَى (قَيافا) هذه القنبلةَ وخرّ جالِسًا على كرسيّه لاهِثًا. سادَ صمتٌ رهيبٌ المكان المُظلِم إلاّ من قنديلٍ يتدلّى من السّقف فوق الرّؤوس. كانَ يبدو أنّ (قيافا) اتّخذ قراره بِقَتْلِه، لكنّه يريدُ شرعيّة لفَعلته هذه. وقفَ كاهِنٌ ثالث، قال وهو يُميلُ رأسه بزاويةٍ حادّةٍ جهةَ اليمين: «إنّه أفسدَ علينا المَعبَد، وشغبَ علينا النّاس، وناقضَ شريعةَ موسَى، فأيّ سببٍ أوجبَ من ذلك

لِتُخَلّي بينه وبينَ الموت؟!». عبرتِ البسمةُ فؤادَ (قَيافا). قام كاهنٌ رابِع: «إنّه قَدَرُه، ولا يُغيّرُ القَدَرَ إلاّ رَبُّ القَدر». صعدتِ البسمةُ من فؤادِ (قَيافا) باتّجاه صَفحةِ وجهه. قام كاهنٌ خامس، استندَ بباطنِ كفّيه على الطّاوِلة، أطرقَ مَلِيًّا قبل أن يرفعَ رأسه وهو يَزُمُّ شَفَتَيه: «مِنَ الحِكمةِ أن تُضحّي بشخصٍ واحدٍ من أجلِ المجموع؛ فَلْيُقتَل إذًا بدلَ أن يُقوَّضَ المعبد». طافتِ البسمةُ وجه (قَيافا) ثُمّ ارتسمتْ على شفتَيه واسِعةً. وقفَ بدوره: «الآنَ أثبتُّم لي أنّكم ورثةُ النّبيّين الصّادقين... الآنَ اطمأنَنْتُ على شريعة مُوسَى من أنْ تُنقَض. إذًا هُو القتل؛ لكنّ القولَ وحده لا يكفي، يجبُ أنْ نكتبَ الرّدّ على رسالةِ الملكِ وتضعون خاتمكم واحِدًا واحِدًا عليها». كتبَ (قيافا) على ظهر الرّسالة: «أيّها المَلِك، مَشورتُكم محلّ تقديرنا، ونحن لا نرى غَضاضةً في قتلِ يحيى من أجل الله والوطن. خادمكم الأمين: قَيافا الأكبر». طافتِ الرّسالة الّتي تحمل الردّ على الكَهَنةِ، خطّ كُلُّ كاهنٍ في ذيلِها اسمه وخَتْمَه. رَجَفَتْ يَدُ بعضهم وهو يرسمُ الخَتْم، واضطربَتْ تُرْقُوَةُ آخَر وهو يخطّ اسمه، وابتلع ريقَه الجافّ ثالِثٌ وهو يُناوِلُ الرّسالةَ إلى الكاهنِ الّذي يُجاوره لتتمّ العمليّة. لكنّهم في المُحَصّلةِ وقّعوا على قتله جميعًا!!!

وصلتِ الرّسالةُ إلى (أنتيباس)، انزاح عنه الهَمّ، وقفَ أمامه القائد، أرادَ أن يُزيحَ ما تبقّى على كتفيه من ذلك الهَمّ، قال له: «قَتْلُهُ سيُريحُكَ مِنْ كلماته». ردّ عليه أنتيباس: «صدقت؛ كلماته كانت أحدّ من السّيف، إنّني بذلك أدافع عن روحي وعن مملكتي؛ لو لمْ أقْتُله لقتلتْني كلماته». «سأتولّى الأمر يا

سيّدي». «بدون أيّ ضجيج. في القلعة. وائتني برأسه. وابعثْ به إلى الفاجِرَتين على طبقٍ من ذهب». «حاضِرْ يا سيّدي». «أغربْ وعدٍ أقطعه على نفسي وأَفِي به. بعضُ الوعود الّتي تقطعها على نفسك تقطعُ نفسَك».

عبرتْ فرقةٌ من الخيّالةِ نهرَ الأردنّ، كان يبدو صامِتًا كسيرًا، سائِرًا بهدوء، مُتخلّيًا عن تدفّقه الّذي كان يضربُ به الصّخور في دروبه المتعرّجة، لكأنّما أصيبَ بالمرض والوَهَنِ في ذلك اليوم. دخلَ القائدُ على مدير القلعة. قرأ عليه طلبَ المَلِك فارتاع، سأله إنْ كانَ أحدُ السّجّانين هُنا مُوكّلٌ بِقَطْعِ الرّؤوس، فهزّ رأسه من الذّهول بالنّفي. فأجابه: سأقومُ أنا بذلك إذًا، وبسيفِك. تقدّمَ منه بخطواتٍ بطيئةٍ واثِقةٍ، استلّ سيفَه من جانِبه، وأقامه من كرسيّه ودفعَ به إلى الأمام، وأمره بصوتٍ خَشِنٍ: «افتحْ لي باب الزّنزانة». صَرّ البابُ الحديديّ الثّقيل كأنّه يُعايِنُ النّزع ويُفارق الحياة، عاندَ الدّافِعَيْن له، لكنّه بعد مُغالِبةٍ قصيرةٍ استجابَ لِما أرادا.

في صباح هذا اليوم، هطلَ مطرٌ خفيفٌ على (مكاور)، كانتِ الشّمسُ في الأفق تبدو كاسِفةً من وراءِ مجموعةٍ من الغيومِ السّوداء العابِرة، بَلّ الرّهامُ الثّرى قليلاً، سقطَ على النّافِذة، قامَ يحيى حينَ سمع وَقْعَ قطراتِ المطر الخفيفة على قُضبان النّافذة لِيَسمعَ ما تقول، الرُّقعة الّتي تُطلّ من السّماء على النّافِذة كانت بابًا، بابًا سماويًا ينفتح على مصراعَيه لَه. الطّيور الخُضر كانت في مدى الرّؤية تُرفرف فوق ذلك الباب، ووجهٌ لطالَما رآه في أحلامِه ورُؤاه كان يبتسمُ؛ عرفَ يحيى

أنّ الوقتَ قد حان. واصلَ المطرُ الخفيف سُقوطَه، عزفَ لحنًا ملائِكيًا مع الهواء، سَمِعَ مُنادِيًا يهتف به، عرف أنّه مِنَ السّماء، قال له: «اصعَدْ سفينتي». سأله يحيى: «أنا لا أراها». «لا تنظرْ بعينَيك، إنّهما حِجابٌ. انظر بقلبِك». «صِفْها لي إذًا». «إنّها مثلُ النَّفْس لا تراها إلاّ إذا قدّمْتها قُربانًا لي.. تتخفّى في الجسد، فإذا صَعِدَت إليّ رأيَتها». «قُلْ لي كيفَ سأراها حينَ تصعد حتّى أطمئنّ؟!». «إنّها طيّبة، أرأيتَ ندى الفجر؟! تُشبهه. أرأيتَ نسيمَ السّحر؟! تُشبِهه. أرأيتَ شفقَ الأصيل؟! تُشبِهه. أرأيتَني؟! إنّها لي». «وهل أراكَ؟!». «مَنْ كانَ بلا خطيئةٍ رآني». «ها أنذا أراكَ حقًّا». «أُسجُدْ واقتربْ».

خرّ على رُكبَتَيه رافِعًا صدره، شخصَ ببصره إلى السّماء ثُمّ هوى على الأرضِ ساجِدًا. كانَتِ الشّمس قد عبرتْ مُنتصفَ القُبّة، صارتْ في الثلث الأخير من القوس، ظلّ ساجِدًا من شروقها إلى هذه اللّحظة الّتي دخل فيها القائد عليه، سَمِعَ أصواتًا قادِمةً من الفانِية كأنّها نِداءاتٌ غائمة، لم يُعِرْها أيّ انتباه، لقد كانَ يقفُ على القَنْطَرة، كادَ يصل؛ تبيّنَ له أنّ الفارقَ حتّى يقترب صارَ ضئيلاً جدًّا. رَكَزَ القائِدُ قدَمَيه عندَ كتفِه الأيمن، رفعَ السَّيفَ بكلتا يَدَيه حتّى صار عموديًّا ثُمّ هَوَى بكلّ ما يَملِكُ من قُوّة على عُنُقِه، طارَ الرّأس، تدحرج إلى الزاوية، تراشقَ الدّم على ثِياب السّيّاف، سالَ على الأرض دافِئًا، ظلّ الجسدُ ساجِدًا، لحقتْ به روحه حيثُ يقفُ على القنطرة، وضعتْ يَدَها في يده، عَبَرا القنطرةَ معًا، وحلقّتْ به خفيفًا باتّجاه بوّابةِ السّماء. لقد صارَ في الباقِية.

صرخَ القائدُ صُراخًا عالِيًا وهو يرى الرأسَ المقطوع: «لقدْ فَعَلْتُها... لقد فَعَلْتُها...». قهقهَ الحاضِرون بشكلٍ هستيريّ: «نعم؛ لقد فعلتَها...». أقلعَ عن صُراخه بشكلٍ مُفاجِئ، وقال لهم وهو يزفر: «هاتي لي طستًا أيّتها الكِلاب». حُمِلَ الرّأس في الطّست، عبرَ النّهرَ، بكى النّهر، رآه الشّجرُ انتحب الشّجر، نظرتْ إليه الطّيورُ غنّت لحنًا حَزِينًا، قال للنّهر والشّجر والطّير: «ما هذا العويل؟! أجُنِنتُم!! أريدُ أنْ أسمعَ لحنًا بَهِيجًا».

قال القائد لأنتيابس والدّم ما زالَ يُغطّي ثِيابه: «إنّ رأسه في الطّستِ على مدخل القصر يا سيّدي». ردّ عليه: «ضَعْهُ على طبقٍ من ذهبٍ وابعث به إلى الفاجِرَتَيْن».

حُمِلَ على ظهرِ خيلٍ جامحة، صهلتْ خلفها عشرُ خيولٍ أخرى، قال قائدُ المهمّة: «علينا أنْ نُسلّم هذا الطّبق بما عليه إلى سالومي وهيروديّا قبل أن تُشرِقَ شمسُ الغد». عبروا اللّيل باتّجاه (مجدلة)، كان اللّيل شديدَ العتمة، ظلّ الرأسُ يتأرجحُ على طبقِ الذّهب داخلَ صُندوقٍ أسود. توقّفوا في منتصفِ اللّيل والمسافة والعمر والهاوِية؛ لم يكنْ من شيءٍ ليرحمَ الخُطاة إلاّ ربّ الخُطاة، و... وهو، قال بعدَ أن عبر القَنطرة: «لقد كان حظّي من الفانية جِدّ قليلٍ، ولا أريدُ أيّ شيءٍ منها حتّى ولو كان معاقبةَ قاتِلِيّ». أجابه الصّوت السّماويّ: «عقوبةُ الفانِية نعيمٌ بالقِياسِ إلى عقوبة الباقِية».

حينَ صاروا على أبوابِ المَبغَى حَرَنتِ الخيل، هَمَزَها القائدُ فأبتْ، وقفتْ مثل قَدَرٍ صامتٍ. حاولَ معها مرّة أخرى فلم تبرحْ موضعها. تعجّبَ، التفتَ حوله ليعرفَ سببًا لحرانها فلم

يهتدِ إلى أيّ شيء. نزل عنها. صاحَ بالفُرسان الّذين خلفه: «إنّها تأبَى أن تتقدّم خُطوةً واحدةً؛ ما رأيكم؟!». ردّ أحدهم من خلفِ الخيّالة: «أليسَ الرّأسُ الّذي نحمله على هذا الطّبق رأسَ قِدّيس؟!». «وإنْ يُكنْ؟!» أجابه القائد بصوتٍ عالٍ ليسمعه. «أجسادُ القِدّيسين مُحرّمةٌ على مواطن الدّنس». «وما العمل إنْ كانَ كلامُكَ صحيحًا؟!». «سأذهب أنا إلى المبغى وأناديهما؛ قلتَ لي ما اسمهما؟!». «هيروديّا وسالومي أيّها الجنديّ.. هيروديّا وسالومي». تقدّمَ الجنديّ الأخير بحصانه، هَمَزَه، وسابقَ الرّيح باتّجاه المَبغَى. ربطَ حِصانه على مقربةٍ. دخل. حدّثتهُ نفسُه أن يلهوَ قليلاً مع الغانِيات، لكنّه نَهَرَها حينَ خطر بباله أنّ رأسه قد يطير بسبب هذا اللّهو؛ «ما من رأسٍ يطير إلاّ وخلفَ ذلك امرأة» حدّث نفسه بهذه العبارة وهو يتذكّر ما فعلته (كليوباترة). ضَحِكَ. أحاطت به غانِيةٌ تترنّح، كانت تحمل في يدها كأسًا. لفّت ذراعَيها حوله قبلَ أنْ يُبعِدهما بكسلٍ ويسألها: «أينَ هيروديّا وسالومي؟!» لكنّها حدّقت فيه بعَينَينْ نِصف مُغمَضَتين، كانَ يبدو أنّها لم تسمعْ سؤاله أو لم تفهمه. تركها. توجّه إلى طاولةٍ تجلسُ إليها مجموعةٌ من الجنود الرّومان، سألهم. ضَحِكوا وهم يتبادلون نَظَراتٍ ماكِرةٍ فيما بينهم. أشاروا إلى راقِصةٍ تتلوّى فوقَ المسرح. شعر بأنّه تأخّر. أراد أن يُنجِزَ مهمّته بأسرع وقتٍ. قفزَ على المسرح. ذَرَعَه بخطواتِ جنديّ يهربُ من موتٍ ناشِبٍ أنيابَه في ظهره. همسَ في أذنِ الرّاقصة فتوقّفت على الفور. نزلت برفقته. عمّ صِياحٌ وهَرَجٌ واحتِجاجٌ وقهقهاتُ المكانَ. قادته من يده بعجلةٍ. عَبَرا ممرًّا ضيّقًا، ودخلا إلى

غرفةٍ جانبيّة، قالتِ الرّاقصة لامرأةٍ طاعنةٍ في البؤس تجلسُ على حافّة سريرٍ قَذِر: «إنّه مبعوثُ (أَنْتِيباس) يا أمّي؛ يقول إنّ الرّأسَ بحوزته». قفزتْ من مكانها مثل وترِ قوسٍ مُهترئة. ركضتْ باتّجاههما: «أينَ هو أيّها الجنديّ؟!». «اتْبعاني».

أردفهما خلفه على حِصانه، وَعَدا به إلى المُنتظِرين هناك. كانَ الصُّبح قد شرعَ يفتحُ نوافِذه. بعضُ خيوط الظّلام راحت تنسحبُ في الأفق البعيد تاركةً لخيوطِ النّور أن تتقدّم. غَبَشُ الليل ما زال مُهيمِنًا لكنّه يستعدّ للرّحيل.

وقفتْ (هيروديّا) وابنتها أمام قائد الخيّالة ورِجلاها تغوصُ في حشائش اللّيل: «أنا هيروديّا؛ أينَ رأسُ يحيى؟!». ترجّل القائد عن حِصانه، حمل الصّندوق، فتحه، ورفعَ الطبق الذهبيّ وقدّمه إليها. لمعتْ عيناها. كان ألفُ شيطانٍ يسكنهما. لم تُصدّق. صرختْ بصوتٍ رقصتْ له كلّ شياطين الأرض: «أخيرًا... أخيرًا... لديّ كلامٌ كثيرٌ أقوله لك أيّها...» هَمّتْ أن تُكمِلَ لولا أنّ برقًا في السّماءَ لَمَع دونَ سابِقِ إنذار، تلاهُ رعدٌ مُخيفٌ. رجفَتْ. أضاءَ البرقُ من جديدٍ فكشفَ السّاحةَ الّتي يَقِفون فيها. كيفَ يلمعُ برقٌ في نهار؟! ظلّ البرقُ يلَمع دون أن يتوقّف. بدا وجهُها المُجعّد بمساحيقه وجهَ ساحرةٍ قادِمةٍ من باطنِ الأرض. ارتعشتْ يداها. وضعتِ الطّبقَ على الأرض كأنّ يدًا أخذته منها وأنزلته!! صرختِ ابنتُها الواقِفةُ إلى جانبها، كانَ صُراخَ استغاثةٍ حقيقيّ. الأرضُ الّتي تقفُ عليها انفتحت. غاصت قدَمَاها قليلاً في التّراب القاسي. حاولت أن تتحرّك فلم تستطعْ. كانتْ قَدَماها مُسَمّرَتين في الأرضِ كأنّ يَدَين

من تحتها تُوثِقانها. صاحث بأمّها: «أنقذيني يا أمّي». لكنّ الأمّ كان قلبُها يضربُ صدرَها بذبذبةٍ عنيفةٍ، وضعث يدها على صدرها تريدُ أنْ توقفَ رَجَفانه لكنّه ازداد؛ صرخث بابنتها: «أنقذيني يا ابنتي». دبّ الرّعبُ في أوصال الجُندِ. كانَ المشهدُ مخيفًا. ضربوا بالأسواطِ الّتي في أيديهم أكفالَ خُيُولهم وفرّوا من المكان لا يلوونَ على شيء. غاصث أقادم سالومي أكثر. كانث ساقاها العارِيَتَين قد غاصتا إلى الرّكب. استغاثث من جديد لكنّ صدى استغاثتها ذهبَ أدراجَ الرّياح. انفتحَ قلبُ هيروديّا. رأث بعينَيها قلبَها يقفِزُ خارجَ جَسَدَها، تسمّرثْ خُيوطُ الرّعبِ في عَينَيْها. لم تُصدّقْ ما ترى. ولكنّه قلبُها. كانَ أسودَ فاحِمًا ليسَ فيه نقطةٌ حمراءُ واحدة. خرجَ من صدرها بُخارٌ ساخِنٌ، خرّتْ على رُكبَتَيها. غاصتِ البنث إلى وسَطَها. لعنث أمّها. لولاكِ لما حدث ما حدث. قالث أمّها الّتي بلا قلب: «مَنْ قال من قبلُ إنّنا كلّنا أبناءُ المبغَى. المبغَى ينتمي إلى عالَم الجحيم. وها نحن نعود إليه». صرختِ البنثُ من جديد. لكنّها كانتِ الصّرخةَ الأخيرة، ابتلعتْها الأرضُ ذاهِبةً بها إلى أغوارها العميقة. نظرتِ الأمّ وهي تلفظُ أنفاسَها إلى رأسِ يا يحيى. تحرّكت شفتاها: «لقد عشث من أجل هذه اللّحظة. أموتُ الآنَ وأنا مُرتاحةٌ». أمسكَ رِجلَها شيطانٌ من شياطين الجَحيم وسَحبَها إلى عالَمه!!

٤٤

ما فائدةُ البكاءِ بعدَ فواتِ الأوان؟!

في تلك اللّيلة سمع قائدُ الحرس وهو يضع ثيابه المُلطّخة بدم النّبيّ صوتَ هزيمِ الرّعد لكنّه لم يكترث. رمَى ثِيابه إلى إحدى الخادِمات وسألها أن تغسله. خرجَ نِصفَ عارٍ. اهتزّتْ به الغرفة وهو يهمّ أن يتناولَ ملابسَ جديدةً. ظنّ أنّه التّعب ومنظر الدّماء. لكنّ الخِزانة الّتي وقفَ أمامها ارتجّتْ. تراجع إلى الوراء خُطوتَين وهو ينظر إليها بذهول، تابعتِ ارتجاجها ثُمّ هَوَتْ عند قدَميه، فتطاير بعضُ خشبها المكسور فأصابَ ساقه. فعرفَ أنّ زلزالاً يضربُ القَصر. هرب. ركضَ بثيابه الدّاخليّة باتّجاه المقصورة الملكيّة ليطمئنّ على المَلِك. وجده في منتصفِ الطّريق يركُض. كان القصر يتمايل مثلَ غُصنٍ طريّ لعبث به الرّيح. سادَ الذّعر في المكان. خرجَ من الغُرَف والقاعات والممرّات العشراتُ من ساكني القصر. كانَ الجميع يركضُ بكلّ الاتّجاهات. لفّ قائدُ الحرس ذراعه حولَ الملك، ثُمّ ركضا معًا باتّجاه العربة الملكيّة الّتي تنتظر في الأسفل. رَكِباها. وانطلقَ بها سائِقها يُسابِقُ الرّيح في الإفلاتِ من الموت. كانت التّيجان الحَجَريّة الرّومانيّة تتهاوَى من فوقِ الأعمدة، وتتناثرُ حُطامًا على الأرض. كانتْ أعمدةُ القناديل تهوي فيُحدثُ هُويُّها صوتًا عالِيًا. صرخَ الجُندُ والقادة. استغاث العبيدُ والسّادة. ولم تسمع الحجارة من تلك الصّرَخات شيئًا. ظلّتْ تتداعَى وتُحطّم تحت رُكامِها بعضَ الفارّين. أفلتتِ العربةُ من الموتِ بأعجوبة. قال (أنتيباس)

لقائدها وهو يشتمه كالمجنون: «إلى قصر أريحا أيّها الكلب... إلى قصر أريحا». حينَ أفلتتِ العربةُ من قبضةِ الهلاك. نظر (أنْتِيباس) من خلال نافذتها الخلفيّة إلى القصر كان نصفه قد تحوّل إلى أنقاض. لم يُفِق من الصّدمة إلاّ بعد أن ظنّ أنّه نجا. سأل قائدَ الحرس الّذي يجلسُ إلى جانبه: «أهو زِلزال؟!». «ظننتُه كذلك». «وماذا يكون إذًا؟!». «أيّ شيءٍ آخر، سَمّه غضبَ الآلهة مثلاً». «ولماذا لا يكون زلزالاً؟!». «لأنّه لم يضربْ إلاّ القصر، وإلاّ لكان ابتلعنا ونحن في هذه الطّريق!!».

****

قال الله لزكريّا: «اصبِرْ فإنّ العاقِبة للمُتّقين». سجد مثلَ ابنه في المعبد. بكى. تحدّر الدّمعُ على خدّيه. سقطَت على أرضِ المعبدِ لآلِئَ لمعث على أضواء المعبد الشّاحبة. ارتجّ جسدُه وهو ساجِد. تذكّر كيفَ أنّ الله رزقه به بعد أن بلغَ المِئة. رآه في سُجوده. ها هو. رآه كما لم يره من قبلُ. كانَ مَلاكًا. أتث به إلى الدُّنيا يدُ الرّحمة. يدُ الحَنان. ها هو. ها هو تمامًا. لم يبكِ في المهدِ. لم يَلْهُ. لم يلعبْ. لم يكنْ له من الدُّنيا ما كان للصّبية في مثل عمره. منذ نشأته كان قلبُه معلّقًا بالسّماء. ها هي أمّه تطيرُ من الفرح كلّما عاينث وجهَه القادم من الغيب، وجهه الملائكيّ. ها هو يدبّ على الأرض. ها هو يثغو. ها هو يُناغِي. ها هو يُسبّح وهو ابنُ سنة. ها هو ابنُ سنتَين يرافقه في المعبد. ها هو يتعلّم لذّة السُّجود منه وهو ابنُ ثلاث. ها هو يسأل أباه أسئلةَ الكِبار والعلماء وهو ابن أربعٍ. ها هو يمتلئ حكمةً عجيبةً من الله وهو ابنُ خمس. ها هو ابنُ ستٍّ

والعُيون تتقحّمه من كلّ صوبٍ والحسدُ يأكلُ قلوب الكَهَنة، وهم يَهمِسون: «هذا الطّفل سيسحبُ البِساطَ من تحتِ أرجلنا». الكَهَنَةُ في المعبد يُصلّون للدّرهم والدّينار أكثر مِمّا يُصلّون لله. إنّهم يتوجّهون إلى الكرسيّ أكثرَ مِمّا يتوجّهون إلى المحراب. لقد نَفِسوا ابني عليّ. أخافُ أن يقتلوه. ها هو لم يبلغ السّابعة وقد نضجَ قلبُه. ما أجمله!! هذا الفتى المَمشوق كالرّمح ما أوسَمَه!! ما أروعَ يقينه!! ما أشدّ ما آتاهُ الله من فضل!! ها هو يغادر المعبد إلى مدرسة الحكمة حتّى لا تمتدّ إليه أيدي الغدر في هذا المعبد.

ظلّ زكريّا في سُجوده يتذكّر مراحل ابنه. دعا الله أن يُلحقه به شهادةً ونبوّة ومنزلةً. قضى اللّيل في سجوده. قامَ من السّجود. اضطجع على يمينه. نام. في النّوم رأى زوجته. تبسّم في وجهها ثُمّ عضّ على شفتَيه ليحبسَ دمعةً تتفلّث من عينَيه. لم يمنعها تمامًا فانسكَبَت. ثُمّ سالتِ الدّموع على خدّيه مِدرارةً. نَشَج. قال لها: «تَرَكْتِني وحيدًا وها هو يحيى يتركني أيضًا. أليسَ لكما قلبٌ. كيفَ تتركان عجوزًا مثلي وحيدًا؟! أيّ نفسٍ تلك الّتي طاوعتْكما على أن تتركا شيخًا يدبّ على الأرضِ مثلي يتيمًا. وا لوعتاه!!». مدّت يَدَها نحوه. مسحت دموعه. ابتسمت من جديد. قالت له: «سبقناكَ إلى الجنّة لكيْ نُهيّئ لكَ أفضلَ ما فيها. لقدْ وصل اللّيلةَ يحيى. كانَ رأسُهُ يقطرُ نورًا. لا تخفْ علينا. لو رأيتَ ما عندنا لبكَيْتَ على حالكِ لا علينا. لا تُطلْ غيبَتَك». سألها: «أينَ يحيى؟! لِمَ لمْ يأتِ معك ولو في الحُلم؟!». قالت له: «إنّه عندَ الله. استأثرَ به اللّيلةَ يُحادِثه فَنَسِينا». قال لها: «لا أصبرُ على فِراقكما». غابتْ في

البعيد. ظلّ صوتُها يتردّد في أذنيه: «لا تُطلْ غيبَتَك» قبلَ أن ينقطَع تمامًا.

كانتِ الشّمس قد أشرقت تمامًا حينَ مرّ (قَيافا) مع مجموعةٍ من الكَهَنةِ تحتَ القوسِ الكبيرة الّتي تُؤدّي إلى المعبد. قال لهم وهو يخطو بخطواتٍ واسعة: «لقد قُطِعَ رأسُ يحيى. سيثور بعضُ الشّعبِ هنا في هذا المعبد. علينا أنْ نكونَ حَذِرين. هلْ جهّزتُم رجالَكم من أجل أنْ يُخمِدوا أيّ حركةٍ احتجاجيّة؟!». ردّ أحدهم: «بلى يا سيّدي. الضّربُ على الرأسِ مباشرةٍ في حالةِ التّمرّد». واصلوا مسيرهم حتّى دخلوا المحراب. وجدوا زكريّا نائِما. تقدّم نحوه (قيافا) حتّى إذا صار بجانبه ركله برجله على بطنه، وصاحَ به مُستهزِئًا: «قُمْ أيّها العابِدُ الزّاهد. المعبدُ ليسَ نُزُلاً». ثُمّ ركله مرّة أخرى فتأوّه. استيقظَ ونظرَ باتّجاه (قيافا)؛ قال له الأخير: «إيّاكَ أن تحرّضَ على الشّعب من أجل ابنك. أنا سأضربُ بقسوة كلّ مَنْ يتمرّد في المعبد؛ المعبدُ مملكتي وأنا مَلِكُها، ولا أسمح فيها لأيٍّ كانَ بأنْ يُلوّثها». «اشبَعْ بها» ردّ عليه زكريّا. «لا يغضبْ أحدٌ لموتِه». «غضبُ النّاسِ لا يساوي شيئًا أمام غضبِ الله». رَكَله مرّة ثالثة، فتكوّر على نفسه من الألم: «أتهدّدنا أيّها الخَرِف؟!». «ليسَ بي حاجةٌ إلاّ لرحمةِ الله». تركه يتلوّى وتولّى إلى الشّرفة. تبعه الكهنة إلى هناك. اجتمع بهم في الغرفة المجاورة لها.

كانَ سبتًا. احتشدَ النّاسُ في السّاحة. وقفَ (قيافا) واصطفّ خلفه الكهنة بشكلٍ مُنتظمٍ يقبضون بأيديهم على عِصِيّهم

الّتي ترتكز عن يمين كلّ واحدٍ فيهم، وتطول حتّى تُجاور رأسَه أو تُجاوِزه. أشارَ (قَيافا) الّذي يتصدّرهم بكلتا يديه يخفِضهما إلى أسفل ليُعْلِمهم بالصّمت، وهتف: «إنّ الله لَمّا أعطى هذه النُّفوس الحياةَ ركّبَ فيها مع الحياةِ الموت، وإنّ...». اهتزّتِ الشّرفة. «وإنّ الإنسانَ ليجزعُ على فِراق...». اهتزّتِ الشّرفةُ أكثر. تماسَكَ. «على فراقِ أخٍ حبيبٍ وابنِ أخٍ...». سقطَت بعضُ المَشربيّات حول الشّرفة، فَخَارَ النّاسُ. «وابنِ أخٍ حبيبٍ، وإنّ قلبي...». مادتْ الشّرفةُ بمن فوقها من الكَهَنة، نظروا في وجوه بعضهم بعضًا، ارتسمتْ على بعض الوجوه الدّهشة، وارتسمَ على بعضِها الآخر الفزع. «وإنّ قلبي ليتقطّعُ لِـ ...». عندَ هذه الكلمة كانَ أحدُ أركانِ الشّرفةِ قد هوى إلى السّاحة. ارتطمَ بالأرضِ المرصوفة فأحدثَ ارتِطامه دَوِيًا هائِلاً. تراجعَ (قَيافا) إلى الوراء. لم يدرِ ما يفعلْ. غالبَ خوفًا لم يستطع كِتمانه بدا في سُكُوتِهِ المُفاجِئ. ثُمّ انطلقَ لِسانه، صاحَ بالنّاس الهائِجين: «إنّ ربّ زكريّا قد غَضِبَ لزكريّا، فلْنقتُلْ زكريّا». وصاحَ من تحت الشّرفة الغاصّة بالنّاس الهائجين والمرعوبين: «نَعمْ فَلْنَقْتُلْ زكريّا». فردّد خلفه جمعٌ كبيرٌ من الرّعاع: نَعمْ فَلْنَقْتُلْ زكريّا». «إنّه في المعبد منذُ أمسِ». دخلوا إلى المعبدِ مثلَ أسراب الذّئابِ الهائِجة. لم يجدوه. جاءه أحدُ أصدقائه بعدَ أنْ خرجَ من عنده (قَيافا)، فحذّره: «إنَّ القَوْمَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِيْنَ». فخرج إلى بيته. في منتصفِ الطّريق حدّثَ نفسه: «ولكنّهم يعرفون البيت وسيقتحمونه ويقتلونني». غيّر وجهته. قصدَ إحدى الجبال المُحيطة ليختبئ في أحد كُهوفه

القَصِيّة. سأهربُ إلى الله. كانَ بطيءَ الحركة. هَرَمُه لمْ يُمكّنه من أن يقطعَ مسافةً بعيدة. في غمرةِ بحثِهِ عن الحياةِ في مكانٍ آخر لَقِيَه الشّيطان في الطّريق. تمثّل له بصورةِ راعٍ من رُعاةِ الجبل. سأله:

- إلى أينَ يا زكريّا؟!

- أَوَ تعرفني أيّها الرّاعي؟!

- ومَنْ لا يعرفُ نبيّ الله وصَفِيّه؟!

- أهربُ من قومي.

- أعرفهم، هُمْ شرُّ خلقِ الله، ولكنّكَ عجوزٌ لا تُمكّنك أقدامُكَ من السّير مسافةً بعيدةً، ولو كانتْ عندي دابّةٌ لحملْتُكَ عليها. ولكنْ لديّ فِكرةٌ أفضل.

- قُلْ أيّها الرّجل الطّيّب.

- اختبئ داخل جذع شجرةِ الزّيتون الضّخمةِ هذه.

- كيفَ أختبئُ داخِلها؟!! هل أنتَ مجنون؟!!

- كلاّ. ألستَ نبيَّ الله؛ فادعُه أن يفتحَها لك، ثُمّ ادخُلْها بسلامٍ، ثُمّ ادعُ الله أنْ يُغلقها عليكَ ويحمِيكَ من شرّهم.

فدعا زكريّا. فانفرجَ جذعها إلى مصراعَين، كأنّها بابٌ مُقام. فدخل. ثُمّ انطبقتْ عليه، فأخفته عن العيونِ تمامًا إلاّ طرفُ ثوبِه. وجلسَ الشّيطانُ الرّاعي جذلانَ ينتظرُ قُصّاص الأثر. فلمّا استبطأهم، صرخَ. فسمع النّاسُ صوتًا. فتوجّهوا نحو مصدره. فإذا مجموعةٌ من الكهنةِ ومعهم عددٌ كبيرٌ من

الهائجين يبحثون. فسألوا الرّاعي:

- أرأيتَ رجلاً عجوزًا مرّ من هنا؟!

- بلى؛ إنّه داخلَ شجرةِ الزّيتونِ تلك.

- أتهزأ بنا أيّها الرّاعي؟!! أمْ أنّكَ جُنِنتَ؟! داخلَ شجرةِ الزّيتون!! يبدو أنّك فقدتَ عقلَكَ!!

- مَنْ منكم يعرف زكريّا عن قُرب؟! (صاحَ الشّيطان الرّاعي وهو يتنقّل بينهم. رفع أحدُ الكهنةِ يده، وقال):

- أنا.

- تعالَ معي. (أخذه من يده وسارَ به إلى جذع الشّجرة. وَقفَا عندها. وأمسكَ بطرفِ الثوبِ البادي خارِجها، وقال للكاهن):

- أليسَ هذا ثوبَه؟!

قرفصَ الكاهِن، دقّقَ النّظرَ في الثّوب، قام، تراجعَ إلى الوراء قليلاً، واجه المتجمهرين، وصاح بذهول:

- إنّه ثوبه، أنا أعرفه، بلى إنّه ثوبه، إنّ زكريّا يقبعُ داخِلَ هذه الشّجرة.

- ما العمل أيّها الكاهن؟! (صاحَ أحدُهم).

- لا أدري.

- أنا أدري (هتفَ الرّاعي). تجاهلوه فليسَ واحِدًا منهم.

- لقد تخلّصْنا منه. لقد دُفِنَ في جوفِ الشّجرة. (هتفَ بهم

الكاهن)، فلتعودوا من حيثُ أتيتم، وستحلّ عليكم بَرَكَةُ الرّبّ.

- لا... لا أيّها الكاهن... لا... إنّ الّذي أدخله إلى هُناك لقديرٌ على أنْ يُخرجه، وإذا خرج فدعا ربّه فإنّ سُخْطَ السّماواتِ السّبع سينزلُ عليكم.

- فما ترى أيّها الرّاعي؟!

- أرى أن تأتوا بأشدّكم قوّةً وشكيمةً، وليأتِ بمنشارٍ وينشرَه إلى نِصفَين.

- نَنشرُه؟! (صاحَ الكاهن مستغربًا).

- ألستم خرجتم تطلبونَ قتله؛ ففيم العَجَب؟! هل تقتلُ مَن يختبئ داخل شجرةٍ إلاّ بالنشر!!

- فَلْنَنْشُرْه ونرتحْ منه إلى الأبد (صاحَ أحدُ القُساةِ وهو يَفرِد عضلاته، ويُبرِز صدره النّافر).

- فَلْنَنْشُرْه... فَلْنَنْشُرْه... (تصايَحَ النّاس).

تولّى الرّاعي إلى غَنَمه مسرورًا، وجلَس ليشهدَ العمليّة. تقدّمَ ذو العضلاتِ البارزة، جيءَ له بِمنشارٍ يعدلُ نصفَ طوله، وضع رأسه على وسطِ الشّجرة، وبدأ ينشرها، وصلَتْ أسنانُ المنشارِ إلى جسدِ النّبيّ الطّاهر، فأنّ أنينًا خافِتًا. فرجفتِ السّماء. فبعثَ الله إليه ملاكًا يقول له: «لأقلبنّ عليهمُ الأرض ولأجعلنّ عالِيَها سافِلَها، أو تسكت. إنّ أنينَك لَتَهْتَزُّ له السّماوتُ السّبع، ويتفطّر له الكون». فسكتَ زكريّا رحمةً بقاتِليه أنْ يخسفَ بهم اللهُ الأرضَ. فمضى المنشار، فأكل ثوبه، فتذكّر ابنه: «لقد كانَ

أصبرَ منّي على الأذى». فأكل طرفَ لحمه، فتذكّر ابنه: «لقد أكل السّيفُ من عُنُقِه». وصل إلى عِظامه، فتذكّر نعيمَ الآزِفة، فهانَ عليهُ عذاب الزّائلة؛ فاحتمل، فغاصَ فيه المنشار فَشَقَّه نِصفَين؛ فَهَنِئ.

بكى مديرُ السّجن أسبوعًا. زارَ (أندراوس) في بيته، وسلّمه صندوقًا قال إنّ يحيى طلبَ منه أنْ يُسلّمه له قبل ذلك اليوم المشهود. شهق أمامه وهو يرجو منه أن يُسامحه. قال له (أندراوُس): «إنّ مَنْ يُجيبُكَ إلى طلبك لم يعدْ معنا؛ ما فائدةُ البكاءِ بعدَ فواتِ الأوان؟!». غادره وهو ينشج. فتحَ (أَنْدراوُس) الصّندوق، كان يضمّ تعاليم يحيى. قال وهو يقلّب الصُّحف كأنّما يُخاطِبُ (أَنتيباس): قَتلْتَه لكنّك لم تستطع أن تقتلَ كلماتِه، الكلمات روحُ القائل وهي أخلدُ من الجسد الزّائل.

٤٥

أنا المسيحُ الآخَر!!

صارَ (يهوذا) الحواريَّ الثّاني عشر. لَزِمَني مُراقِبًا ومُستطلِعًا، ولم يقبلْ أمرًا دونَ نِقاش. وكانتْ صُحبته لي قَدَرًا مِنَ الله جرى عليها النّاموس لكي يَتِمّ ما أراد. اختَلى بي مَرّة، واقتربَ منّي حتّى لفحتْني أنفاسه، نظرَ إليّ بِعَينَين تدوران يمينًا وشِمالاً كفأرٍ هارب؛ وتلمعان على ضوءِ القمر كشهابٍ ثاقب. أمسكَ بقميصي، فجذبني جذبةً كِدتُ أقعُ من جرّائها، وهتفَ بي وأنفاسهُ ما زالت تتقطّع في وجهي:

- أريدُ أن أعْقِدَ معكَ اتّفاقًا.

- نحنُ متساوون كأسنانِ المُشط. (أجبتُه)، فدفعني بيده، ليصرخ:

- لا تُراوغْ يا مُعلّم. ولا تُجبني إجاباتٍ صَمّاء، أنا أريدُ إجاباتٍ واضِحة. ما على هذا اتّبعتُك.

- إنّ الله يقبَلُ التّائبَ أكثرَ مِمّا يقبَلُ العاصي. (وضَع كلتا يَدَيه مبسوطَتَين فوقَ أُذُنَيه وحنى جِذعه قليلاً، وصرخَ من جديد):

- قلتُ لك؛ أنا لا تُؤثّر فِيّ مواعِظُك. ولديّ هدفٌ أريدُ أن أصلَ إليه.

- إذًا اذهبْ وحقِّقْ أهدافَك؛ فأنا لستُ جزءًا منها (قلتُ له هذه المرّة بصوتٍ حادٍ وأنا أشدّ على الحروف). تبسّم لِهذه

الشّدّة، حرّك رأسه ببطء يمينًا وشِمالاً واقتربَ مِنّي من جديد، وهو يقول:

- ولكنّكَ جزءٌ من أهدافي.

- حقًّا؟! هل أنتَ تحتاجني؟!

- بلى؛ للأسف!!

- ففيمَ إذًا؟!

- على المسيح المُنتَظَر الّذي به الخَلاصُ للبشريّة أن يكونَ عظيمًا حتى لا يَفضُلَه مَلِك، وقويًّا حتّى لا تقدر عليه قوّة، وعنيفًا حتّى إنّه قادرٌ على إهلاكِ الآلاف بكلمةٍ واحدة؛ فهل أنتَ هو؟! هل أنتَ قادِرٌ على أن تفعل ذلك؟! إنْ كنتَ قادِرًا عليه؛ فقل لي، لأنّني أبحثُ عن مَسِيًّا هذه صفاته. إنّني على يقينٍ من أنّك قادرٌ على أكثرَ من ذلك، ولكنّك لا تريد؛ إنّكَ تُحيّرني، أتعرفُ ربّما أنتَ تنتظر اللّحظةَ المناسِبة، ربّما أنتَ لا تريدُ أن تُظهِر سِرَّك لي؛ ربّما أنتَ خائفٌ من أن تجرّب كلّ تلك القُوى الجبّارة قبل وقتها فتفقدَها حينَ يأتي وقتُها. بربِّكَ الّذي أرسلكَ قل لي الحقيقة... الحقيقة يا يسوع... الحقيقة كاملةً، فأنا لا أقبلُ بأنصافِ الحقائق.

- أنتَ تريدُ أنْ تعرفَ كلّ شيء؛ كأنّه خُلِقَ اللحظةَ ولهذه اللّحظة. والتّلميذُ...

- أنا لستُ تلمِيذًا يا يسوع.. أنا رفيق... أنا سِرُّكَ المكنون، فأطلِعْني على ما لم يعرفْه أحدٌ من العالَمين، وأرني أَنْظُرْ إليكَ مُتجلِّيًا.

- تريدُ أنْ ترى كُلّ شيءٍ إذًا يا يهوذا؟!

- بلى... بلى... بلى يا مُعلّم... (قالَ ذلك وهو يهتفُ بلهفة)

- «طوبَى للّذين يُؤمنون ولم يَرَوا».

صَرَخَ، وَلْوَل، هتفَ، قفزَ مكانه:

- عُدْتَ إلى ضبابيّتك الّتي أكرهها. أنا أريدُ أنْ أُطلِعَك على سِرٍّ من أسراري.

- أعرفُ كُلّ أسرارِك.

- أعرفُ أنّكَ تعرف، ولكنّ هناكَ سِرًّا لو اجتمعتْ كُلّ الآلهة لكي تُطلِعكَ عليه ما قَدِرَتْ. أمستعدٌّ أنْ تسمعه؟!

- بلى.

اقتربَ منّي، أعطاني طرفَ جذعه ومال بعنقه نحو صَدْرِي ونفَثَ فيه:

- أنا سأعيشُ أطولَ منك.

- أعرف.

- كلا. لا تعرف.

- ماذا تعني؟!

- أنتَ تظنّ حينَ قلتُ لك إنّني سأعيشُ أطولَ منك بأنّك ستغادر هذا التّراب قبلي، وأتبعكَ من بعدُ... كلاّ أيّها المُعلّم المُتحاذِق. إنْ كانَ لديكَ سِرٌّ واحِدٌ، فلديّ أنا أسرارٌ لا يَقضيها

الدّهر.

- قُلْ إذًا.

- سأقول؛ اقتربْ اقتربْ أيها الجسد... اقتربْ لعلّك لم تعرفْني بعدُ... اقتربْ واستمعْ إليّ جيّدًا، ودعكَ من سذاجاتِ تلاميذَ صغار لم يطّلعوا على شيءٍ من الأسرار.

- قُلْ...

- أنا المسيحُ الآخَر!!

رجفتُ لِما قال.. شعرتُ بكلماته الأخيرة تنفذُ إلى قلبي؛ خُيّلَ إليّ للحظةٍ أنّه الشّيطان، أوْ أنّ الشّيطان حلّ عليه... اقترب منّي، وهمسَ في أذني من جديد:

- أنا أعرف أنّك تظنّني الشّيطان في هذه اللحظة.

ارتجفتُ أكثر حينَ عرفَ ما يدور بخلدي. باغتَني من جديدٍ بكلماته النّافِذة:

- الحقَّ أقول لك؛ إنّ الشّيطان ضعيفٌ جدًّا أمام قُدْراتي.

اقتربَ حتّى لم يعدْ بيني وبينه شيءٌ، وضعَ رأسه على صدري، وكتَمَ أنفاسَه، فسمعتُ أصوتًا تتصارعُ داخِلَ رأسِه؛ سمعتُ أصواتَ كِلابٍ تتهارَش، وزئيرَ وحوش تتعارَك، وأمواجَ نيرانٍ تتلاطَم. رفعَ رأسه، ثُمّ قال لي:

- ماذا سمعتَ؟!

- سمعتُ الحقّ.

- قُلْ إنّكَ سمعتَ الحقيقة. فهي أقدمُ. يا يسوع أنا سأعلّمك هذه المرّة.

- أأعطاكَ الله مثلما أعطاني؟!

- بل أعطاني أكثر. وسأعيشُ آلافَ السّنين، وستَذرُني في كلّ طورٍ من أطوارِ الحياة، وسنسير على نفسِ الصّراطِ، ولكنّ كُلَّ واحدٍ منا على ضِفّة. لكنْ...

- لكنْ ماذا؟!

- أما زِلتَ عازِمًا على عقدِ اتّفاقٍ معي؟!

- ماذا تريدُ من الاتّفاق؟!

- الخراب.

- الخراب؟!

- بلى؛ الخراب الّذي يقضي على الصّلاح، والدّمار الّذي يقضي على البناء.

- ولكنّ دعوتي لم تجِئْ لذلك.

- أنتَ مسكين. يومَ نلتقي في طورٍ آخر، وزمنٍ آخر، سترى مَنْ سيتبعه من النّاسِ أكثرَ من الآخَر. ضَعْ يدكَ في يدي نمتلكِ العالَمَ بأجمعه!!

- كلاّ.

- أعرفُ لماذا ترفض، لو أنّ يوحنّا أو سِمعان أو حتى أندراوُس طلبَ ذلك منكَ لرضيت، ترضَى من هؤلاء الضّعفاء،

ولا ترضَى مِنّي؛ لماذا تتجاهلني؟! هه... لماذا تتجاهلني؟!

- أنا أعامل كلّ تلاميذي كأنّهم واحد.

- ليسَ صحيحًا. أنتَ لا تحبّني.

- ومن قالَ لكَ ذلك؟!

- عيناك؛ عيناكَ تفضحانكَ يا يسوع. أنتَ لا تريد أن تقولَ لهم عنّي. وأعرف لماذا تتكتّم على حقيقتي. لكنّ ما يُؤلمني كُرهكَ لي.

- هل سمعتَ منّي مرّة كلمةً واحدةً تدلّ على أنّني أكرهك؟!

- لستَ مُضطرًّا لأنْ تقول. أنا أعرف لماذا تكرهني.

- إذًا قُلْ لي.

- لأنّني رفعتُ الخنجرَ في وجهكَ يومَ التقينا قبلَ أكثر من عشر سنواتٍ في دَيْرِ الرّاهب، لأنّني حززتُ به شيئًا من عُنُقِكَ الرّائعة يا يسوع. ولكنْ ألا يُمكنْ أنْ تُسامحني؟! ألا يُمكن أن تنسَى ما حدث أو تتناساه؟!

- لقد نسيتُه!

- ليسَ صحيحًا. ما زالَ أثرُ حدِّ الخنجرِ بادِيًا في عينَيك. نعم فعلتُ ذلك؛ أتعرفُ لماذا؟! لأنّني كنتُ أعرفُ حقيقتَكَ، قبلَ أن تعرفَ أنتَ حقيقتَك، لكنّني كنتُ في شكٍّ من أمري، فأردتُ أنْ أختبركَ لأتأكّد... أتدري يا يسوع أنّكَ لم تكنْ يومَها تعرفُ مَنْ أنتَ، ولكنّني بذلكَ الخنجرِ أنا الّذي عرفْت... فلماذا تكرهني وتكره ذلك الخنجر؟! لقد كان له فضلٌ في معرفتي لك...

ولذلك تابعتُكَ عن كثبٍ...

- كنتَ تراقبني إذًا؟!

- مسكينٌ أنتَ... أتذكرُ يومَ المجدليّة؟! أنا مَنْ طلبَ من (باراباس) أنْ يأتي بها.. أتعرفُ كلّ ما حدث؛ كان مسرحيّة؛ كانَ تخطيطًا منّي... لأنّني علمتُ عِلمًا لا تعلمه أنتَ، أنّكَ ستمرّ بذلك المكان، فكنتُ أريد أنْ أنصبَ لكَ فَخًّا، لأتأكّد من أنّكَ ستضع يدكَ بيدي ونحقّق أهدافنَا في امتلاك البشريّة أم لا؟!

- وماذا وجدتَ؟!

- وجدتُ إنسانًا ضعيفًا يغفر لامرأة أضعفَ منه... أنا أبحثُ عن الجَبَروت.

- وأنا أبحثُ عن الرّحمة.

- شتّانَ ما بيننا، شتّان!!

خرجَ وهو يهزّ رأسه أسفًا. قال الله لي: قدرُك. سيظلّ واحِدًا من تلاميذك إلى أن أقضيَ في أمري. أمري الّذي كتبتُه في اللّوحِ المحفوظ. قال الله ذلك لي أمْ أنا؟! صوتِي أم صوتُ السّماء؟! أم صوتُ يهوذا، أم صوتُ الشّيطان، أصختُ السّمع أكثرَ لأتبيّنَ مصدره، لكنّني لم أوفّق إلى الاهتِداء إليه، ومضى. ظلّ أثرُ كلماته يتردّد في أعماقي إلى اليومِ المشهود.

٤٦

الأحلام مِرآةُ الزّوال

قال لي بطرس: «أينَ كُنتَ يا معلّم؟! منذ اللّيلةِ الفائتة ونحن نبحثُ عنك». «كنتُ مع يهوذا». «ولماذا يا مُعلّم؟!». «كنتُ أقولُ له بعضَ الأشياء». «بعضَ الأشياء؟! عَنْ ماذا؟!». «لا تُكثِرْ مِنَ الجدال يا بُطرس». «ولكنّه استأثرَ بِكَ ليلةً كامِلةً دوننا... أترى؛ لقد أعطيتَ وقتًا كبيرًا لواحدٍ ونحن أحدَ عشرَ تلميذًا لم تفعلْ لنا مثلما فعلتَ له، وأنا أوّل تلاميذك وهو آخرنا، بل إنّنا لا نكادُ نراه، وإذا رأيناه يَنزوي كأنّه غريبٌ عنّا أو ليسَ واحِدًا مِنّا، أتُعطِي هذا الغريبَ أكثرَ مِنّا نحنُ الّذين نُحبُّكَ أكثرَ من أنفُسِنا؟!». «أتغارُ يا بطرس؟!». صَمَت، وأطرقَ رأسه في الأرض. قال أندراوُس: «هل ما دارَ بينَكما ليلةَ أمس كانَ خاصًّا؟ أعني هل يُمكن أن تُطلِعنا عليه؟». «كلاّ يا أندراوُس». شعرَ أندراوُس بالخيبة، فقال: «لعلّكَ خَصَصْتَهُ بأسرارٍ لم نكنْ بمقامٍ يكفي لنعرفها». تدخّل بطرس من جديد: «اسكتْ يا أندراوُس، أنتَ على الأقلّ رافقتَ يحيى وأفضَى إليكَ بتعاليمه، وها أنتَ تأبَى أن تُظهِرها حتّى على يسوع». «أتغارُ منّي يا بطرس؟! لعلّكَ كُنتَ مشغولاً بأمورك الخاصّة إلى الحدّ الّذي منعكَ أنْ تزورَ يحيى في سجنه». «ولماذا أزوره وأنا لا أعرفه ولم ألتقِه في حياتي؟». «لماذا تزوره؟!! إذًا لماذا تحسدني على إفضائه لي بتعاليمه، أتعرفُ كم يومًا تتطلّب الطّريقُ حتّى تَصِلَ من هنا من كفر ناحوم إلى مُؤاب وإلى مكاور يا أخي... أتعرفُ؟! أظنّكَ لا تعرف... وكيفَ تعرفُ وأنتَ

لمْ تُفكّرْ بأنْ تتحمّل التّعبَ قليلاً من أجل المعرفة؟! ولو عرفتَ أظنّكَ لن تُغامِرَ وتذهب». حينَها استشاطَ بطرس غضبًا، فوقف وصاحَ بصوتٍ عالٍ: «اشبع بتعاليمه كما تشاء يا أخي... لقد باعها لكَ بصناديقَ من السّمك؛ أنا أعرفُ القصّة كلّها، أتظنّني جاهِلاً؟!!». تدخّل يُوحنّا في الأمر، فهتف: «لِمَ كُلُّ هذا الضّجيج يا إخوة؟! يجب ألاّ تُظهِروا حماقاتكم أمام المعلّم». «حماقات؟! اصمِتْ أنتَ، فأنتَ لم تعرِفْ معنَى أن تقضي ليلةً كامِلة تستمع إلى يسوع أو يحيى». «لا لم أجرّبْ، ربّما لو جرّبتُ لعرفتُ» ثُمّ هَزّ رأسه ساخِرًا وأطلقَ ضَحِكةً عالية.

كنتُ أرقبُ الحِوار، وأبتسمُ في داخلي؛ التّلاميذ يتنافَسون فيما بينهم. كان صوتُهم ما زال يعلو حينَ أشرتُ بيدي ليسمعوا منّي: «هَدِّئوا من رَوْعِكم يا إخوتي. سنُصلِح كُلّ شيءٍ اللّيلة، ما رأيُكم أن ندعوَ كُلّ التّلاميذ، أو مَنْ نستطيعُ منهم، ونبيتُ اللّيلةَ في بيتِ بطرس، وسأحدّثكم طَوال اللّيل، وسأُطلِعكم على بعضِ الأسرار». كان هذا الإعلان كفيلاً بأنْ يتوقّفوا عن جدالهم، وتهشّ قلوبهم للاقتراح. تقدّم منّي بطرس، وقال لي: «شرفٌ لي يا سيّدي أن تبيتَ اللّيلةَ في بيتي، إنّ البيتَ وأهله سيكونون مُبتهِجين لقدومك، وهؤلاء التّلاميذ سيزيدونه بهجةً. قدَماكَ ما وَطِئَتا شيئًا إلاّ بارَكَتاه، وإنْ وَطِئتا عتَبَةَ بيتي فسيكونُ ذلكَ عِيدًا بالنّسبة لي».

هبطَ اللّيلُ على البيت. كانَ خارجَ البلدة، تؤدّي إليه طريقٌ رومانيّة عتيقةٌ مرصوفةٌ بالحجارةِ المَلساء. كانَ الطّريقُ فيما سبقَ يُستَخدَمُ لِرَبْطِ منطقةِ فلسطين بشمال الإمبراطوريّة

الرّومانيّة. ثُمّ هُجِر، لأنّ البلدةَ اقتصرتْ على حاميةٍ أشبهَ بنقطةٍ عسكريّةٍ من أجل الحِفاظ على الأمن، والسّرعة في تلبية صَرَخات الاستغاثة من حاميات الوسط والجنوب فيما لو أغار عليها بعضُ اللّصوص أو المُتمرّدين. ظلّتِ الطّريقُ قائمةً لكنّها لم تَعُدْ مطروقةً كما كانت في السّابق. إلاّ أنّه في سكون اللّيل العميق، كان يتناهَى إلى مسامع النّازلين في البيوت المُتناثرة على كتف الجبل أصواتُ عجلاتِ عرباتٍ تقطعُ الطّريقَ الرّومانيّ العتيق، وبعضُ صَرَخاتِ الجُندِ وهم يستحثّون الخيلَ على الإسراع في المُضيّ.

كانَ اللّيلُ ساحِرًا في كفر ناحوم، البحيرة تربضُ مثلَ غمامةٍ غيرِ عابرةٍ في السّهل الّذي يمتدُّ طويلاً وحوله مجموعةٌ من الهضاب المُشرِفة. البيوتُ الّتي على هذه الهِضاب كانت تكشِفُ عن منظرٍ لا يُساويه في السّحر إلاّ ما وُعِدَ به المتّقون في الدّينونة. وخاصّة إذا أُضيئت البيوتُ المُتناثرة في الهِضاب البعيدة وسطَ ليلٍ داجٍ شديد الظّلمة. وأشجارٍ سامقةٍ ناعِسة شديدةِ الغُموض. كان بيت بطرس، يقع على سفح هضبةٍ من هذه الهِضاب في الجهة الغربيّة من البحيرة، تلك الهضبة الّتي حوتْ مُدرّجًا رومانيًا بديعًا قُدّ من حجارةِ النّيازك كما دأبَ الكبار على قَوْلِ ذلك في هذه البلدة.

على طول الطّريق المرصوفة كانت ترتفعُ أشجارُ نخيلٍ سامِقة، كُلّها رائعة لكنّها ليست بروعة النّخلة الأمّ الّتي حَنَتْ عليّ وعلى والدتي يومَ الانبِعاث من جسدِ هذه المُطهّرةِ النّقِيّة. جلسْنا في حَلَقةٍ دائريّة على الأرض في غرفةٍ تقع

على يمين الدّاخل إلى البيت. كانَ البيتُ بسيطًا كما ينبغي لصيّادِ سَمَكٍ أنْ يكون. ومصنوعًا من الخشب، قامَ بطرس نفسه ببنائه، وهو كذلك الّذي بَنَى هو وأخوه سفينتهما الّتي التقيتُهما عندها أوّل لِقائي بهما، قبل ما يقربُ من عامَين. كانتِ الأرضُ بارِدةً قليلاً، والوقت بعدَ منتصفِ اللّيل، إلاّ أنّ الدّفءَ كان يُغلّفُ قلوبَنا، والسّكينة تستقرّ في أرواحنا، فوجدْنا لمسةَ المودّة في علاقتنا معًا في كلّ لحظة. كانَ بطرُس قد سبقَ مجيئنا إلى بيته بالجلوسِ لساعاتٍ طويلةٍ على البحيرةِ يصيد سَمَكًا كثيرًا لعشاء اللّيلة. أعدَّ لنا عشاءً من السّمكِ المشويّ، شَواه في الحديقةِ القائمة خلفَ البيتِ، ورشَّ عليه من التّوابل ما جعلَ منظره يلمَع على ضُوءِ القِنديلَين المُعلّقَين في سقفِ الغرفة، فيزيدهُ اللّمعان شَهِيّة، وكانت رائحةُ الشّواء اللّذيذة تزكمُ الأنوفَ. والخُبزُ الّذي سخنّاه على موقدٍ فوقَ نارٍ من الحطب كانت أبخرته تتصاعدُ لِتُعلِنَ عن طَعامٍ يليقُ بليلةٍ مُؤنِسةٍ مع الحواريّين. أكلْنا وشَبِعنا، وشربنا وارتَوينا. قال لي مَتّى: «هل سنرافِقُكَ في الدّينونة ونأكلُ معك مثلَ هذا الطّعامِ الشّهيّ؟!». ضَحِكَ الجميعُ بلا تَحَفُّظ، أجابه بطرس: «لا تقلَقْ، أنا الّذي سيقوم بشواء السّمك، سوفَ تأكُلُه بَحَسَكِه هُناك». «يقولون إنّ سَمَك الدّينونة أكبرُ من هضبةٍ بأكملها». «إذًا عليّ أنْ أقطع غابة كامِلةً من الشّجر لكي أتمكّن مِن شِوائِها» ردّ بطرس. وانفجر الجميعُ ضاحِكين. قلتُ لهم: «لقد صارتِ الفرصةُ مناسِبةً لأقول لكم بعضَ الأسرار». بدتِ الجدّيّةُ على وجوههم جميعًا، عدّلوا من جِلستهم لكي يسمعوا ما أقول. «إنّ بقائي بينكم قصير، وإنّ زمن صُحبتي

لكم قد شارفَ على الانقِضاء». «لِمَ تقول ذلك يا مُعلِّم؟!» هتفَ يوحنّا. «لأنّه يجب أن تعرفوا. احفظوا كُلَّ ما قُلتُه لكم. لأنّه سيحفظكم. وإذا غيّرتموه فمعنى ذلك أنّكم تغيّرتُم». «أنتَ تُحزِننا بهذا الكلام يا معلّم». «لا تحزنوا، أنتم أصدقائي، إنَّ مَنْ وجدَ صديقًا وجد إحدى مسرّاتِ الفِردَوس، بل هُو مِفتاحُ الفِردَوس... فإذا أردتُمْ أن تدخلوا الباب فلا تكسروا المِفتاح». «يا مُعلّم، كأنّه قدِ اقتربَ حدوثُ شيءٍ لك». «لنْ يحدثَ لي وحدي، سيحدثُ للكثيرين، ومَنْ ماتَ على ما سَمِعَ منّي دون أنْ يغيّره لسببٍ أو لآخَر فسيكون رفيقي». «سببٍ مثل ماذا يا مُعلّم». «القلوبُ أيّها التّلاميذ؛ ثباتُ القلوبِ على الفِكرة ليسَ سَهلاً، الإيمانُ خاتَمٌ يختِمُ به الله مُختاريه. لو تزعزعَ هذا الإيمانُ قليلاً فسيحلُّ محلّه الخوف، وبمقدار ما يتركُ الإيمانُ في القلب من فراغ بمقدار ما يُملأ هذا الفراغ بالخوف، فإذا سيطرَ الخوفُ على القلب، استعظمَ الصّغير، وهابَ الوضيعَ». «كأنّكَ تُودِّعنا يا مُعلّم». «كُلُّ بِناءٍ إذا أُزيلَ أساسُهُ تساقطَ خَرابًا، إنَّ أساسَ خَلاصِنا هو الله الّذي لا خَلاصَ بدونه، فلمّا أخطأ الإنسانُ خَسِرَ أساسَ خَلاصِه». «إنّكَ نَبيّ، وإنّ الله لنْ يُضيِّعَك، وإنّنا كُلُّنا معك نتبَعُ خُطاك». «إنَّ العالَم كانَ يمتهِنُ الأنبياءَ الصّادِقين دائِمًا ويُحِبُّ الكاذِبين. أنسيتُم ما حدثَ لِيَحيى». «إنّ ما حدثَ له لا يُصدَّق». «فهل تدعونهم يفعلون معي ما فعلوا معه؟!». «كأنّكَ خائفٌ أيّها المُعلّم». «لَقدْ أُسلِمَ إلى الثّعلبِ أَنتِيباس ولم يقفْ معه أحدٌ، فماذا تُسمُّونَ ذلك؟!». «لقد كانَ يحيى وحدَه، وأنتَ لستَ مثلَه؛ نحن معك». «كلاّ. لقد كان أتباعُه أكثرَ من أتباعي. ولكنْ هكذا قَضى الله على

الصّادقين. إنّ البشر يخافون مَنْ يحملُ السيف لا مَنْ يحمل الكَلِمة. ولكنّي أقول لكم: إنّ الكلمةَ أقوى من السّيف. وإنّ آلافَ الأسياف الباطِلة لا يُمكنها أن تقتلَ كلمةَ حَقٍّ واحدة. السّيفُ خُلِقَ للفناء، والكلمةُ خُلِقَتْ للخلود؛ وأنا كلمةُ الله، وكلمةُ الله هِيَ العُليا». نَظَرَ بعضُهم في وجوه بعضٍ ولاذوا بصمتٍ رهيبٍ كأنّ دهرًا من الحُزنِ قد حلَّ على رُؤوسِهم. لم يأتِ أيٌّ منهم بحركةٍ بعد أنْ سَمِعوا منّي ما قلتُ. وهمدوا في أماكنهم كأنّهم كُتلٌ من الحجارةِ المصفوفة. كانَ عليّ بعد أنْ وَعُوا ما قلتُه لهم أنْ أغيّر الماءَ الرّاكِدَ في البركة، هتفتُ بـ (توما): قُمْ يا توما أَنْشِدْ لنا مقطعًا من الإنشاد، وأطربْ قلوبَنا قبلَ أسماعِنا. كانَ (توما) يملكُ مزمارًا من مزامير داود، شجنٌ شَفيف يحفّه نغمٌ رشيق، نظرَ إليّ (تُوما) مُستطلِعًا كأنّه لم يصدّقْ أنّني طلبتُ منه ذلك. هززتُ رأسي لأقول له: نعم. قُمْ. هل مِنكم مَنْ يَنقُرُ على الدُّفّ؟! فَغَنّى:

«خُذُوا لَنا الثَّعالِب...

الثّعالِبَ الصّغارَ المُفسِدَةَ الكُروم

لأنَّ كُرومَنا قد أقْعَلَتْ

حَبِيْبِي لِي وَأَنا لَهُ

الرّاعِي بَيْنَ السَّوْسَنِ

إلى أَنْ يَفِيْحَ النَّهارُ وَتَنْهَزِمَ الظِّلال

اِرْجَعْ وأَشْبِهْ يا حَبِيْبِي الظَّبْيَ

أَوْ غُفْرَ الأَيائِلِ عَلَى الجِبالِ المُشَعَّبَة».

وغنّتْ معنا الرّيح في البعيد... ورقصتْ لنشيدنا النّجومُ في السّماء... وصَدَحتْ على إيقاعنا أطيارُ الحقول... ومالتْ مِنَ الطّربِ أعناقُ الأشجار... وغَرِقنا في نومٍ عميق.

استيقظْنا في الصّباح نشيطين، كأنّ أمسِ كانَ كُلُّه حُلمًا. وكأنّ الأحلامَ مرآةُ الزّوال. تذوبُ في الزّمن مثلما يذوبُ الماءُ في الملح. مضينا في طريقنا إلى السّامرة. كانَ من عادتي أنْ أدعُوهم إلى أنْ يضرِبوا في الأرض، ويدعوا إلى الله مَنْ يلتقون في طريقهم حتّى ولو طالث بهم هذه الطّريق ووجدوا فيها من العناء ما وجدوا. فإنّما خُلِقنا للعمل لا للقعود، وللتّعب لا للرّاحة، إنّما راحةُ القلبِ في أنْ يكونَ الإنسانُ فيما لله، فَمَنْ حادَ عن ذلك فعليهِ أن يُهيِّئَ نفسهُ لِتعبٍ طويل لا تعقبه راحةٌ أبدًا.

هبطنا الهَضبة. كُنّا لا نزال نُغنّي في الطّريق المحفوفةِ بأشجارِ النّخيل، ما من أغنيةٍ نحفظها في هذا الصّباح الجميل إلاّ رَفَعْنا أصواتَنا بها. لم نكنْ نمشي معًا طوال الوقت. كانت الطّريق تتعرّج في بعضِ المواضِع فيسبقُ بعضُنا الآخر، فيبدو ويختفي. آثرتُ أنْ أتركَ لهم الحرّيّة ليتهامَسوا بينهم في سِرّ أمس. لقد أردتُ أن يعرفوا أنّ كلّ شيءٍ ماضٍ في الدّربِ الّتي اختطّها الله للبشريّة كُلّها، وأنّ التّعلّق بالأشخاصِ يكون رديئًا إنْ لم يكنْ تعلّقًا بالمبادئ الّتي يحملها هؤلاء الأشخاص، فالمبادئ الصّالحة لا تموت بموتِ أصحابِها.

طالَ الوقت. سبقتُهم في الدّروب. حتّى وصلتُ إلى بئرٍ

مقامةٍ على جانب الطّريق، فعرّجتُ عليها أستقي منها الماء. فجلستُ على حافّتها دون أنْ أرسلَ الدّلو إلى قَعْرِها. ولمّا هممتُ بذلك تراجعتُ فكفَفْتُ. وأردتُ أنْ أُعلِّمَ التّلاميذَ شيئًا. فلمّا وصلوا سألتهم: «لِمَ تأخّرتُم هكذا؟!». أجابوني: «قد عرجّنا على بعضِ السوق لنبتاع طعامًا ونأتي بماء». «أيُّ ماءٍ هذا الّذي معكم؟!». مَدّ إليّ مَتّى بجرّة صغيرةٍ فيها ماءٌ عذب، رفعتُ الجرّة أمامهم: «أترونَ هذا الماء الّذي أعطيتُمونيه؛ إنّه ماءُ الفانِية؛ كُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ هذَا الْمَاءِ يَعْطَشُ أَيْضًا. وَلكِنْ مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الأَبَدِ، بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعَ مَاءٍ يَنْبَعُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ . فإيّاكم أن تُؤثِروا ماءَ الفانِية على ماءِ الأبديّة». فنظروا في وجوه بعضهم بعضًا دون أن يقولوا كلمةً واحدة. ثُمّ تقدّمَ إليّ يوحنّا، فمدّ إليّ خُبزًا وتمرًا ولبنًا. وقال لي: «يا مُعلّمُ كُلْ. فلا بُدَّ أنّكَ جائعٌ مثلنا، فمنذ ساعات الصّباح الأولى لم نأكلْ شيئًا، وها هي الشّمسُ قد شارفتْ على المغيب». فقلتُ له: «أنا لي طَعامٌ لآكُلَ لستمْ تعرفونه أنتم». فردّ: «لعلّ أحدًا أتاكَ بشيءٍ منه يا سيّدي». فقلتُ لهم: «طَعَامِي أَنْ أَعْمَلَ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي وَأُتَمِّمَ عَمَلَهُ. أَمَا تَقُولُونَ: إِنَّهُ يَكُونُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ثُمَّ يَأْتِي الْحَصَادُ؟ هَا أَنَا أَقُولُ لَكُمْ: ارْفَعُوا أَعْيُنَكُمْ وَانْظُرُوا الْحُقُولَ إِنَّهَا قَدِ ابْيَضَّتْ لِلْحَصَادِ. وَالْحَاصِدُ يَأْخُذُ أُجْرَةً وَيَجْمَعُ ثَمَرًا لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ، لِكَيْ يَفْرَحَ الزَّارِعُ وَالْحَاصِدُ مَعًا».

تعجّبوا؛ قلتُ لبرنابا: «هل تكتبُ كلّ ذلك يا برنابا؟!». نظرَ برنابا مع إخوته إلى الحقول البعيدة والشّمسُ تعانِقُ أطرافَها، بدتِ الحقول تُمسِك بخيوطِ الشّمسِ كأنّها ترجوها ألاّ تغيب:

«لقد تأخّرنا يا مُعلّم، لعلّه آنَ لنا أنْ نعود».

٤٧

أنا هو فلا تَخافُوا!

عُدْنا إلى كفر ناحوم. أخذتِ الأرضُ حَظّها من شمسِ آذار في ذلك المساء، وغادرتْنا يتامَى مع نَسماتِ الهَواء البارِدة. في الجزء الأوّل من رحلة العودة كان المشيُ يسيرًا، فالأرضُ منبسطة في أكثر مواضِعها، وجافّة من آخر مرّة هطلَ فيها المطر هنا قبل حوالي خمسةِ أيّام. لكنّ اللّيل حينَ بدأ يُمعِنُ في حُلكتهِ بدأتِ الرّيح تجرّبُ معه رقصَتها، فراحت تصفُر، وتتلاعبُ بالأشجار العِملاقةِ المبثوثةِ في كلّ مكان، بدونا مثلَ خيولٍ عجوزةٍ حائرةٍ ما تفعل وسطَ غابةٍ من الشّجر الكثيف. عُواء الرّيح أدخلَ بعضَ الخوفِ إلى قلوبنا، لم نعد نمشي مُتفرّقين كما فعلنا في الصّباح، صرنا نمشي مجموعةً متلاصِقة من الأجسادِ الرّاجفة من الدّاخل، وإنْ كان ذلك لا يبدو على وجوهنا ونحنُ نتظاهر بالشّجاعة حينَ تلتقي عُيوننا. قال (يوحنّا): دعونا نسترِحْ قليلاً ونوقدُ نارًا لنستدفِئ بها فالبردُ غطّى أضلُعَنا». «لو أوقدْنا النّار لَدَلّلْنا على مكاننا كُلّ الهوام، وإذا هاجمتْنا الذّئاب كانتِ الخسارةُ كبيرةً» ردّ (برنابا). سأله (توما) مُمازِحًا: «منذُ متى صِرتَ خبيرًا بالرّحلات؛ لا أعرفكَ إلاّ كاتِبًا أقصَى ما يُجيده هو خَطّ الكلماتِ على الأوراق». أجابه برنابا: «إنّ هذه الكلمات هي الّتي ستُخَلِّدُ هذا التّاريخَ المُشتَرَكَ الّذي يجمعنا». قلتُ لهم: «افعلوا ما قال برنابا». فتابَعنا السّير. بعدَ ساعتَين من المشيِ المُستمرّ، أشرفْنا على البحيرة من جبلٍ عالٍ، رأيتُ أنّ الوقتَ صار

مُناسِبًا لأَعِظَهم. جلسنا على صخرةٍ استوعبتْنا جميعًا، تلفّعنا بأغطِيَتنا، بعضُنا لفّ وجهه بفضلةِ ردائه، وآخرون جلسوا مُتربّعين وقَوّسوا جذوعهم إلى أرجلهم طلبًا للدّفء، قلتُ لأنْدراوُس الّذي كان يجلس فارِكًا يدَيه مرّة ونافِخًا فيهما مرّةً أخرى ليُدفِئهما: «على الصّخرة تتقدُ النّار؛ فأشعلها». قَفَزَ بطرس من مكانه، جمع حطبًا بسرعة، كوّمه، هيّأه للاشتِعال وفي دقائق كانتِ النّار في الوسط تُضيءُ وجوهنا جميعًا. «لعلّكَ تريدُ أن تقول شيئًا أيّها المعلم». «الحقَّ أقول لكم: إنّه كما جمعنا الله في الدُّنيا سيجمعنا في الآخرة ما دامتْ بوصلة القلبِ تُشير في الاتجاه الصّحيح. وما دامتِ الرّوحُ لم تتخبَّثْ. لقد أُهبِطَ الشّيطان مع أبينا في أوّل العهد وليسَ له من شُغلٍ إلاّ أن يحرفَ البوصلة». «فكيفَ نعرفُ أنّه حرفها؟!». «حينَ يُوهِنُ البصيرةَ إلى حَدٍّ لا يُمكنها معه أنْ تكونَ مُستعدّةً لقبول الحقّ». «هل هُناكَ نفسٌ لا تقبلُ الحق؟!». «بلى؛ إذا سَمِعتْ صوتَ الشّيطان؟!». «وكيفَ نعرفُ أنّ هذا الصّوتَ هو صوتُه؟!». «ليسَ للشّيطان صوتُ الوحشِ المُخيف، ولا الرّعد المُرعِب، ولا البركان الفائر؛ إنّه يبثُّ سُمومَه في صوتِ الوردةِ المُتفتّحة والسنبلةِ المُخضرّة والشّجرةِ الباسِقة، والطّير المُغرّد...إنّه يدخُلُ بينَكَ وبينَ نفسِك». كانَ يُمكن أن يُسمَعَ صوتُ تنهّداتهم على إيقاع النّار والكلمات. رَمَينا في النّار ثمار البلّوط، ورُحنا نأكل منها بعدَ نُضجها، ثمارٌ أخرى كانتْ في يدَي (متّى) أخرجها من حقيبته الّتي يحملها على جنبه، وألقاها في النّار، فكانتْ طعامًا شهيًّا... ثُمّ سِرْنا من جديد.

أشار بُطرس إلى كتلةٍ رماديّة تتوضّح على غَبَشِ الفجر الّذي

بدأ يرسمُ بياضَه في الأفق: «انظروا؛ لقد صارَ قريبًا» وضَحِك. وصلْنا إلى البيتِ وقد أنهكَنَا التّعب، وأخذَ مِنّا السّفَرُ كُلَّ طاقةٍ، كُنّا عَطشى وجوعَى وهَلْكى. بدتِ الوجوه شاحِبة واهِنة على الضوء الشّاحب لقناديل البيت، كانت أضواؤها الخافِتة تتراقصُ على الجُدران الخشبيّة البارِدة. أوقدَ بطرس لنا نارًا في موقدٍ خاصّ، وتجمّعنا حوله نستدفِئ مِنَ البردِ الّذي سكنَ عِظامَنا في الجزء الأخير من رِحلتنا. حينَ سَرَى الدّفءُ في أجسادِنا، دبّ إلينا النُّعاس، بعضنا مال على جنبه لينام في مكانه، وبعضُنا ألقَى برأسه على صدره وسكنتْ جوارِحُه. هتفتُ بهم قبلَ أن يُغلِقَ النّومُ أجفانهم جميعًا: «أراكم تركتُمْ أنفسَكم عندَ النّار!! ألا تُنقِذونها؟!». اعتدَلوا بعدَ هذه الكلمات، فتابعتُ: «الصّلاةُ هِيَ شفيعُ النّفس... الصّلاةُ هي صِيانةُ القلب... الصّلاةُ هي سِلاحُ الإيمان... الصّلاةُ هِيَ لِجامُ الحِسّ... الصّلاةُ هِيَ مِلحُ الجسد الّذي لا يسمح بفساده بالخطيئة». هبّوا أعمدةً من نور، صلّينا معًا. دعونا الله أن نكون رفقاء في الأبديّة، ثُمّ أوينا إلى فُرُشٍ مُتفرّقة.

صحونا ضُحى اليوم. حملوا ما توافَرَ في البيتِ من طعام، وقلتُ لهم: «اتبعوني، سنهبِطُ إلى البحيرة، إنّ فيها أقوامًا ينتظروننا». عندَ الظّهر وصلْنا إلى جمعٍ غفيرٍ من النّاسِ اصطفَّ على ضفافها، كانَ لكلّ واحدٍ منهم حاجته، أكثرُهم مرضَى ومساكين وأيتام، ونفرٌ منهم جاءَ ليسمع كلمة الله فحسب، وقطع مسافاتٍ طويلة لكي يراني ويأخذَ عنّي.

«هِيَ ذي سفينتي يا يسوع. بارِكْها. إنّها تحتَ تصرّفك».

هتفَ بي بطرس. قلتُ له: «انتظرْ حتّى أباركَ كلّ هؤلاء المساكين». وقفُوا عندما رأوني مُقبِلاً عرفوني من تلاميذي، رَقَّ قلبي لهم، وضعوا رجاءهم فِيَّ فأنّى لي أنْ أُخيِّبَهم!! إنّ القلبَ الجريح تُداويه كلمةٌ صادقة. وإنّ الوجه الحزين تُفرِحه نظرةٌ دافِئة. وإنّ الرّوح المُتعبَة تُريحها بسمةٌ صافِية. ما أهونَ البِرَّ على مَنْ أراد!! مشيتُ بينهم. صافحتُهم واحِدًا واحِدًا. سمعتُ من كلّ حزينٍ شكواه، ومن كلّ مريضٍ بلواه، ومن كلّ يتيمٍ أوّاه. ثُمّ لمّا عَمَرَت السّكينةُ قلوبهم جلسوا يستمعون، ولم يكنْ لهم من حاجةٍ إلاّ النّظرَ إليّ، فقلتُ لهم: «لا تحزنوا يإخوتي؛ كُلُّ البلايا حَسَنة؛ إمّا حَسَنةٌ لأنّها تُظهِرُ الشَّرَّ الّذي فعلْناه، وإمّا حَسَنَةٌ لأنّها تمنعنا عن ارتِكابِ الشّرّ، وإمّا حَسَنةٌ لأنّها تُعرِّفُ الإنسانَ حالَ هذه الدُّنيا لكي نُحِبَّ ونتوقَ إلى الأبديّة». ثُمّ تركوا لدموعهم أن تسيل، ولم يبرحوا أمكنتَهم.

قال لي (يعقوب): «يا مُعلّم قد صارَ الوقتُ مساءً؛ فاصرِفْ هؤلاء المتجمهرين هنا إلى السّوق أو بعضِ القُرى ليبتاعوا لهم طعامًا». أجبتُه: «لِمَ يذهبون إلى السّوق؛ نحن نُطعِمهم». «يا معلّم لَيسَ عِنْدَنَا ههُنَا إلاَّ خَمْسَةُ أَرْغِفَةٍ وَسَمَكَتَانِ» . «تكفي». «تكفي؟!! لكلّ هؤلاء، انظر إنّهم بالمئاتِ ينتشرون على طول الضّفاف يا مُعلّم». «قلتَ لك تكفي. اذهبْ وائتني بها». ولما جاءني بالسّمكتَين، والأرغِفة الخمسة، جعلتُ (توما) يحملُ طبقَ الطّعام، ورحتُ آخذُ من كلّ رغيفٍ لُقمةً ومن السّمكةِ قِطعةً وأضعها في فمِ الجائع. حتّى استوفَينا جميعَ الموجودين، وبقيَ على الطّبق الّذي يحمله (توما) ما يكفي لي وللتّلاميذ. قال (بطرس): «ما الّذي في الطّعامِ القليلَ حتّى

كفى كُلّ هذا الكثير؟!». «البَرَكة» أجبْته.

ثُمّ مالتِ الشّمس، ودخلَ المساء في جُبّةِ الليل، فطلبتُ من التّلاميذ أن يصرفوا الموجودين إلى بيوتهم. وأن يدخلوا هم إلى السّفينة، ويسبقوني إلى النّاحيةِ الأخرى؛ لأنّني أريدُ أن ألقاهم هناك. وانصرفَ النّاسُ إلى بيوتهم وقُراهم، وانسربَ التّلاميذ إلى سفينتهم، وصعدتُ هضبةً قريبةً من هناك، حتّى إذا غبتُ عن العيون وغابتْ عنّي العيونُ، خَلوتُ بالله وحدي.

تحتَ شجرةِ زيتونٍ نبتتْ هنا قبلَ ألفِ سنةٍ أسندتُ ظهري، نظرتُ للقمر الذي كانَ على مساواة بصري في الأفق، وكان يسقطُ على ماءِ البحيرةِ ليصنَع قَمَرَين في سماءَين. وسرحتُ بأفكاري بعيدًا. تذكّرتُ طفولتي، كانتْ صعبةً لكنّها لم تكنْ بائسة، كانَ يمكن أن تكونَ شديدةَ البؤس لولا تلك الطّاهرة!! تُرَى هل تتفهّم منّي كُلّ هذا الغياب. أينَ أنتِ الآنَ يا أمّي؟! «أنا معك في كلّ حين يا بُنيّ، كلّ جارحةٍ فِيّ تدعو لك». جاءني صوتُها كحفيفِ أوراقِ الشّجر إذْ تُداعبها نُسيماتُ الصّباح. «البعدُ ذابحٌ يا أمّي». «البعدُ من أجل الله قُرب». «أنا في المنفَى يا أمّي». «أنتَ في قلبي يا بُنيّ». «هل تلاميذي صادِقون؟!». «لِمَ تسألني هذا السّؤال؟!». «مَنْ سيبيعني منهم يا أمّي؟!». «تلاميذُك بَشَر؛ يجري عليهم ما يجري على البشر؛ فلا تَلُمْهم». «لا ألومهم، لكنّني لا أريدُ لِلطّعنة أن تأتيني من الخلف. سأقبلها لو كانتْ في صدري». «خُذْ من عمرك ما شاء الله لك، واتركْ في يديه روحَك؛ إنّما البشر منذورونَ للفناء». «يا أمّي؛ ما عَلامةُ الرّضى؟!». «اصطِفاءُ الله». «وما

علامة الغضب؟!». «تمكُّن الشّيطان». «وكيف أنجو؟!». «هل أنتَ خائف؟!». «كلاّ. أريدُ أنْ أعرف؟!». «إنّه الغيبُ يا بُنيّ، لو أطلعني الله عليه لأطلعتُك». «سؤال أخير؛ هل سترافقينني حينَ أصعد؟!». «لقد هبطتَ إليّ من السّماء وحدك، وستعودُ إليها وحدك». ثُمّ اختفَى طيفُها، وهي تبتسم. نفضتُ رأسي، وخفضتُ بصري، فرأيتُ الماءَ يجري من تحتي. تذكّرتُ يومَ النّهر. أمعنتُ فيه، رأيتُ وجه يحيى، هزّني ظُهُوره المُباغِت، تبسّم ليُطمْئِنني، قال لي: «لقد سبقتُك». «إلى أين؟!». «إلى النّعيم. لا أريدُه وحدي». «سأتبعكَ يا ابن خالتي». «لا تُطلْ غيبَتَك... هناك...» وأشار إلى السّماء، وتابع: «هُناك مجموعةٌ تسألني عنكَ في كلّ يومٍ، لقد ماتَ الجواب لكثرةِ الأسئلة». «قُلْ لهم إنّني سأعود. لا بُدّ للمَنفيّين أن يعودوا إلى أوطانهم». سمعتُ أصواتًا تأتي من بعيد. غابتْ صورته في النّهر. ذابَتْ كأنّها غَرِقتْ هناك. علتِ الأصواتُ من جديد: «يا معلّم... يا معلّم...». أكانَ صوتَ الرّيح؟! أم صوتَ الشّيطان؟! أم صوتي؟! أصخْتُ قليلاً. فهبّتْ نحوي رياحٌ شديدة؛ إنّها العاصِفةُ إذًا. عَلَتِ الأصواتُ من جديد: «يا مُعلّم... يا مُعلِّم...» نهضتُ. نظرتُ أسفلَ الجبل، رأيتُ قطعةً بُنّيّة تتأرجحُ في رَهوٍ أزرق. أمعنتُ النّظر، فسمعتُ الصّوتَ قادِمًا منها، صاحوا من جديد: «يا مُعلِّم... يا مُعلِّم... أدْرِكْنا». عرفتُ أنّهم هم، رفعتُ رأسي إلى أعلى، وشخصتُ ببصري إلى السّماء، وهتفتُ: «يا مُعلِّم... يا مُعلِّم... أدْرِكْنا!!».

هبطتُ الجبلَ سريعًا. كانَ صوتُهم لا يزال يَأتيني من بعيد. اشتدّتِ العاصِفة. دمدمتِ الرّيح. زمجرتِ السّماء. أخذتِ

الرّياحُ سفينَتهم إلى وسطِ البحر الهائِجِ، ففقدوا السّيطرة عليها. سمعتُ صوتَ روحي يهمس: «ها أنذا يا ربّ أُنقِذُ سفينةَ البشر، فهل ستُنقِذُ أنتَ سفينتي!؟». حتّى إذا صرتُ على الضّفّة، بدَوا مثلَ أشرعةٍ يائسة وهو يُلوّحون لي بأيديهم. «ماذا سيفعل لنا المُعلّم؟!» قال بطرس. أجابه برنابا: «لا تكنْ جاحِدًا يا أخي. املأ قلبَك باليقين». كانتِ الضّفّة خالِيةً من المراكب. نظرتُ إلى الماء. بدث أمواجه العاتية تتقلّب بشدّة كأنّ أرواح آلاف الشّياطين قدْ مسَّته. تذكّرتُ أخي موسى. إنّ الّذي نجّاه قبل زمنٍ سحيقٍ لم يزلْ حيًّا إلى اليوم، وإنّه قادِرٌ على أنْ يُنجّيني وتلاميذي من هذا. خطوتُ وصوتُ الله يملأ كياني. مشيتُ على الماء. خطوتُ الخُطوةَ الأولى، فوجدتُه أنعمَ من اليابِسة وأرقّ من ثوبٍ مُخمليّ. فخطوتُ الثّانية، فكأنّني أمشي على النّعيم. وتابعتُ خطُواتي باتّجاههم. فَغَرُوا أفواههم وهم يرونني أمشي على الماء. ظنّوني شبحًا. لم يُصدّق أحدٌ منهم ما رأى. فركوا عُيُونَهم. أحدّوا أبصارَهم. وتأكّدوا أنّني هو. صرخَ بطرس من وسطِ السّفينة: «هل هذا أنتَ يا مُعلّم؟!». «أنا هو فلا تَخافُوا». «سآتي إليكَ يا مُعلّم». «تعالَ». وضعَ بطرس رِجله في الماءِ فغاصَتْ. فرجف. فصاح. فتراجَع. «لا تخفْ يا بُطرسْ تقدّمْ نحوي». حاولَ مرّة أخرى. غاصتْ ساقُه من جديدٍ حتّى وصلَ الماءِ إلى ركبته. نظرَ إليّ. تشجّعَ قليلاً. أرادَ أن يخطوَ الثّانية فانكفأ على وجهه. صرخَ وهو يخبِطُ في الماء. أسرعتُ نحوه. أمسكتُ بيده. قلتُ له: «لقد فقدتَ إيمانَك». «يا معلّم لقد كانَ الماءُ مخيفًا». «لو كانَ إيمانُك صحيحًا لما عرفَ الخوفُ طريقَه إلى قلبِك».

شَعَرَ بطرس بغصّة. تراجَعَ إلى الوراء. ونكصَ على عَقِبَيه، نظرتُ في وجوه التّلاميذ، رأيث بعضهم يتشفّى بما حصل معه، فقلتُ لهم: «هو على الأقلّ حاولَ». فأداروا رؤوسهم إلى الأرض. حينذاك سَكَنَتِ العاصِفة. فجمعتُهم في صَفٍّ واحدٍ، وقلتُ لهم: «لا بُدّ من شُكرِ الله على أنْ نَجّاكم إلى البرّ».

٤٨

ليسَ ما يدخُل الإنسانَ هو ما يُنجّسه؛ بل ما يخرجُ منه

مضتِ السّفينةُ في مسيرتها جنوبًا حتّى رست على النّاحيةِ الّتي بها كورة الجَدَريّين. فارتاحوا في بعضِ أنحائِها. وابتاعوا خُبزًا وسمكًا. وابتدؤوا يأكلون، فمرّ بهم جماعةٌ من الفريسيّين كانوا يُساكِنون المعبَد في أورشليم عندَ قيافا، فلمّا مضى عليهم مُدّة عادوا إلى ديارهم هنا. فرأوني وتلاميذي فعرفوني، وكنتُ حاججتُ بعضَهم مِن قبلُ. فتوقّفوا في سيرهم، والتفتوا ناحيتنا مُشمَئِزّين مِمّا نفعل، وكادوا يعبروننا بسلامٍ لولا أنّ أحدهم توقّف، ثُمّ توجّه نحونا فتبعه الآخَرون. وقفَ أمامي، فقال: «إنّ تلاميذَكَ يأكلون الخُبزَ قبلَ أن يَغسِلوا أيديهم». فأجبْته: «وماذا في ذلك؟!». «إنّ هذا في شريعةِ مُوسَى يُعَدُّ تَعَدّيًا على تقاليدِ شيوخك وشيوخِهم». «هذه التّقاليد من ابتِداعكم، ولم يأتِ موسَى بشيءٍ منها». «إنّ أكل الطّعامِ قبلَ غسلِ اليدَين يُنجّسُ الإنسان». «ليسَ ما يدخُل الإنسانَ هو ما يُنجّسه؛ بل ما يخرجُ منه». «ماذا تعني؟!». «ما يخرجُ من القلب من أفكارٍ خاطِئة من الشرّ هو ما ينجّس الإنسان». «لسوفَ يبلغُ ما تفعل إلى أورشليم». «إنّه يبلغُ إلى الله قبل أورشليم». «ولسوفَ يطلبونَ دمكَ بسببِ ما تفعل». «يَا مُرَاؤُونَ... يَقْتَرِبُ إِلَيَّ هذَا الشَّعْبُ بِفَمِهِ، وَيُكْرِمُني بِشَفَتَيْهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيدًا». فتركونا ومَضَوا وهم مُغضَبون.

وبعدَ أنْ غابُوا عن العُيون، هتفتُ بهم: «ألمْ أقُلْ لكم وقد سلمتِ السّفينةُ من الغرق، ورستْ على البرّ أنّه وجبَ علينا شُكرُ مَنْ أنقذنا؟!». فهتفوا بصوتٍ واحدٍ: «بلى». «فما بالكم لم تشكروا الله». «لقد فعلنا يا مُعلّم». «شُكرُ اللّسان لا يكفي أيّها التّلاميذ». «فما ينبغي علينا أن نفعل؟!». «أن نشكره بالجَوارحِ والجنان». «فكيفَ يكون ذلك؟!». «بالصّيام». «نصومُ؟!». «بلى؛ عن كلّ شهوةٍ للعينِ أو للبطنِ أو للفرج أو للنّفس، فلا تقربوا شهواتِكم ثلاثينَ يومًا». «نفعلُ مثلكَ يا مُعلّم فإنّنا لم نعهدْ هذا من قبلُ». «لقد كان الصّيامُ شرعَ الأنبياء، وأنا أُتِمُّه».

ثُمّ أشرتُ للتّلاميذِ أن يتبعوني. صارتِ البحيرةُ خلفَنا، وإنْ ظلّتْ هِيَ والضّفة الّتي تذهبُ صعودًا عن شِمالها ظاهرةً لنا. قصدنا مقبرةً تضمّ قبورًا من آلافِ السّنين. كانَ قَدَرُ الله يرسُمُ لي الطّريق. فلمّا صِرْنا على بابِها بدت مدينة من الأشباح قائمةً على حافّة الجحيم. كانتِ الحجارةُ الّتي تُوضَع عند رأسِ القبر سوداء كالِحة، أكلَ قلبَها الظّلام حتّى بدتْ كأنّها خارجةٌ من رأسِ الشّيطان. لا بُدّ أنّ غَضَبًا إلهيًّا اكتنفَ هذا المكانَ فحوّله إلى ساحَةِ رُعْبٍ في لَحَظات. كانتِ القُبور لطول العهدِ قد قامتْ حولها نباتات شوكيّةٌ غطّتْ كثيرًا من حجارتها، حتّى لم يعُدْ يظهر منها إلاّ شواهدها القائمة عند رؤوسها، وقد بدتْ كأنّها ساحِراتٌ شَمطاوات سُخِطْنَ في لحظةِ هولٍ إلى حجارةٍ مَقيتة. بعضُ العِظام كانتْ تتناثرُ حول بعضِ القُبور المَكشوفة، لا بُدّ أنّ حفّاري القُبور مرّوا من هنا، أو لعلّ سيلاً آخَر من الغضب داهِمَ هؤلاء المقبورينَ فنبشَ عِظامهم وأبرَزَها على وجه الأرض. مشهدٌ آخر من الرّعب

تمثّلَ في عددٍ من الكلاب الّتي بدث تطوفُ في الممرّات الضّيّقة الموجودة بين القبور وهي تتشمّمُ الأرضَ لعلّها تحظَى ببعضِ العِظام الطّريّة الّتي لم يَنخرْ تعاقُبُ الأزمنةِ مُخَّها. ارتعشث جوارحُ التّلاميذ. لم يكونوا قد شاهدوا منظرًا مثلَ هذا من قبلُ. انكفؤوا على أنفسهم خلفي كأنّهم يحتَمون بي. سألني بطرس: «كيفَ عرفتَ مكانَ هذه المقبرة؟!». «مكتوبٌ أنّني أشفعُ لأحدهم هنا». زَوَى نظره بعيدًا. سمعتُ لسانَ خاطره يقول: «لا بُدّ أنّ شيئًا ما أصابكَ يا مُعلّم؛ مَنْ يشفع لساكني القُبور؟!». التفتُّ إليه وابتسمْتُ: «طهِّرْ قلبَكَ يا أخي، إذا كُنّا سنُعرِضُ عن الخاطِئين فعلى مَنْ نُقبِل!!». «ولكنّ هؤلاء موتى يا مُعلّم». «انتظرْ قليلاً سيخرجُ لكَ مِنْ بينهم من تراه بعينِك، وتسمعه بأُذنك. العَجَلةُ سَهمُ إبليس».

مرّتْ لَحظَات ثقيلةٌ ونحن واقِفون، ننتظر بصمتٍ. انفجرَ فجأةً صوتُ صُراخٍ مُرعِب. ظهر لنا بغتةً رجلٌ في العقد الثالث من عمره، لم يشكّ أحدٌ منّا لمنظره المُخيف أنّه خرجَ للتوّ من أحدِ القبور، صاحَ صيحةً عظيمةً، وتناولَ حجرًا من الأرض حادّ الحوافّ وراحَ يُشرِّحُ به وجهه وجسده العاري، سالتِ الدّماء حتّى غطّث وجهه، واستمرّ في استغاثاته الفجائعيّة، كانث يداه مَربوطَتين بسلسلةٍ حديديّةٍ يبدو أنّه تمكّن من قَطعها والإفلاتِ من القيد. لوّح بيده اليسرَى بالسّلسة المقطوعة ثلاثَ مرّات في الهَواء قبلَ أنْ يضربَ بها وجهه فتلتفّ في ارتدادتها حول رأسهِ وتُفجّر مزيدًا من الدّماء. ثّمَ راح يقبضُ بكلتا يديه على شعر رأسهِ فينتفه قِطَعًا قِطَعًا، ويأكلُ ما يأخذُ من شَعرِ رأسه، ثُمّ يصيح. ويجمع من

السلسلة المَقطوعة فيلفّها على خَصرِهِ العاري، ويشدُّ بِها حتّى تأكلَ من لحمِ بطنه، فيأخذُ نُتَفًا من اللحمِ والدّم فيمضغهُ ثُمّ يبصقه خارِجًا وهو يصرخُ صرخاتٍ تشقّ طبقاتِ السّماء. احتمى التّلاميذ بي من هول المنظر. تركتهم خلفي وتقدّمتُ نحو الرّجل، كان صراخُه قد تحوّلَ إلى جُؤار حينَ وصلتُ إليه، رفع كَفَّيه أمام صدره ومَدَّهما على اتّساعهما إلى الأمام، صارِخًا بصوتٍ مخنوق يكادُ يظهر فيه أثرُ بكاءٍ واستِجداء: «لا تُعذّبْني يا يسوع». «إنّما جِئتُ لأُزيلَ عذابَك». «أنا أعرفُ مَنْ أنتَ». «مَنْ أنا؟!». «أنتَ الله». «اخسأ أيّها الشّيطان». نظرتُ إلى تلاميذي فرأيتُ عيونهم تدور في محاجرها كالّذي يُخشَى عليه من الموت، هتفتُ بهم: «إنّه الشّيطانُ؛ هذا الصّوت الّذي سمعتموه إنّما كانَ للشّيطان الّذي يسكنُ فيه، ما أنا إلاّ عبدُ الله ورسوله. إيّاكم أن يخدعكم صوتُه. أعرفُ أنّه سيظلّ يرنّ في آذانكم طويلاً حتّى يُغلَبَ عليكم فتظنّوا أنّه حقّ، وما هو إلاّ عينُ الباطل. إنّما الله واحد». «أستحلفُكَ بالله، لا تكنْ قاسِيًا عليّ». هتفَ الصّوتُ الّذي فيه من جديد، كان هذه المرّة مُضخّمًا وبطيئًا كأنّه مُركّب من أصواتٍ مُختلطة. سألته: «وأنتَ مَنْ تكون؟!». «أنا لَجِئون». «اخرجِي أيّتها الشّياطين الملعونة، وأيّتها الأرواح النَّجِسة من جسد هذا الإنسان». «لن نخرجَ حتّى تُعطِيَنا الأمان». «لا أمانَ لِمَنْ يُؤذي بريئًا». «إذًا اسمح لنا أنْ ندخلَ في أجسادِ الخنازير». «وأينَ هِيَ الخنازير هذه الّتي تتحدّثون عنها؟!». «انظر وراءكَ نحو الضّفة المُطلّة على البحيرة ألا ترى قطعانًا كثيرةً من الخنازير ترعَى هُناك؟!». «بلى». «فاسمح لنا أنْ ندخل فيها». «إذا كانَ

الأمرُ فيه خَلاصُ هذا البشريّ فافعلي». خار الرّجل. ارتجّ جسده مثل أغصانِ شجرةٍ ليّنةٍ في عاصفةٍ هوجاء. تهدّلث يداه على جنبَيه في ارتِجافته، وواصلَ ذبذبات رأسه وهو يرفعه إلى أعلى، ظلّ على هذه الحال حينًا من الوقت حتى عادَ إلى جسده استقراره التدريجيّ. تحوّلتِ العُيونُ المُثبّتة عليه في اهتِزازته إلى صوتٍ آخر جاءَ من خلفنا. كانَ صوتًا جوفيًا يملأ الفضاء. نظرنا باتّجاه الصّوتِ، فرأينا مئاتٍ من الخنازير تهوي من الهضبة باتّجاه البُحيرة وهي تثير زوبعةً من الغُبارِ خلفَها، كانت تبدو هائِجةً هيجانًا كبيرًا. لا بُدَّ أنَّ أمرًا عظيمًا لا يُطاق قد حَدَثَ لها؛ ما الّذي رأته حتّى يحدثَ لها كُلُّ هذا الهَيَجان الشّديد؟! لم يستطعْ الرّعاة أن يُوقِفوا ثورتَها، أو يُسيطروا على حركتها. ظلّت تتدحرج من الهضبة جارّةً خلفَها حجارةً ضخمة، وجذوعَ أشجارٍ مُتكسّرة حتّى اندقّ عنقها على الضّفة، بعضُها فارقَ الحياةً وبعضُها غَرِقَ في البحر. صاحَ الرّعاةُ من الخوف. وتراجعوا إلى الوراء، وهم يضعون باطنَ أكفّهم على صَفَحاتِ وجوههم ويشهقون. هربوا بِدَوْرهم إلى القُرى الّتي قَدِموا منها وراحوا يُحدّثون أهلَها بما رأوا وبما حدث.

نظرتُ إلى التّلاميذ، وقلت لهم: «ها أنتم رأيتم بأُمّ أعيُنِكم أنّ الخنازير تسكنها الشّياطين منذ اليوم، فَهِيَ عليكم مُحرّمةٌ إلى يوم الدّينونة. لا يأكلها إلاّ مَنْ كَرِه أنْ يتّبع ديني. وأمّا الأجيال القادِمة فحدّثوهم بما رأيتم حتّى يعرفوا لِمَ حُرِّمَ لحمُ الخنزير عليهم، إيّاكم أن يطول عليكم أو عليهم العَهد والزّمن فتنسَوا، وتُبدِّلُوا!!! لا تقولوا قد كان ذلك على زمانه،

أمّا زماننا فمختلفٌ. إنّ الحُكمَ السّماويّ عابرٌ لكلّ الأزمنة؛ إذا قَضى به الله لم يتبدّلْ ولم يتغيّرْ مهما مرّتْ عليه من أحقابٍ متطاولة».

أمّا الرّجل، فنظر إلى جسده المُجرَّح، وقد عادَ إليه عقلُه، ففرح رغم الدّماء الّتي تُغطّي جسده، تلمّسَ جسده بيدَيه، وأحدّ نظره قليلاً قبلَ أن يأخذَ نفسًا عميقًا ويصرخ كمن خرجَ لتوّه من أعماقِ سجونٍ غائرة: «أنا حُرّ... لقدْ حرّرني يسوع... أنا حُرّ...». وراحَ يقفزُ، قبلَ أن آمُرَ أحدَ التّلاميذ أن يُعطِيَه ماءً ليغسِلَ جِسمه، وآتيه بقدّومٍ ليتخلّص من بقايا القيد الحديديّ في يَدَيه. خَرّ تحت أقدامي وهو يقبّلهما. أنهضتُه: «كُنْ صالِحًا. لولا أنّكَ سمحتَ للشّياطين أن يُنجّسوا روحَكَ لما استطاع أصغرهم وأقلّهم شأنًا أن يفعل لكَ شيئًا».

عُدْنا أدراجَنا إلى السّفينة الّتي كانت ترسو على الضّفّة بانتِظارنا. لَحِقَ بنا ساكِنُ القُبُور. وطلبَ منّي أنْ يكونَ من تلاميذي. قلتُ له: «عُدْ إلى قومِكَ وحدّثْهم بما رأيتَ. واذكرْ فضلَ الله عليك. وحرّمْ عليهم ما حرّمْتُه على نفسي وعلى أتباعي إلى يومِ الدّين».

٤٩

لا راحةَ لمُؤمِن

لم يغمَضْ لمريم المجدليّة بعد ذلك اليومِ جَفنٌ. هذا الّذي أنقذها من الموتِ وأعادها إلى الحياة يستحقّ أن تُبذَل الحياةُ كُلُّها فِداءً له. أيّ شابٍّ في وسامته وهدوئه وقُوّة منطقه وشجاعته؟! إنّها عرفت كثيرًا من الرّجال والشّباب، لكنّها مثلَ هذا لم تعرفْ في حياتها. أيُّ حياةٍ تلك؟! هل كانت لها حياةٌ قبلَ أنْ تراه؟! إنّه هو الّذي انتشلَها من الموتِ والضّياع وأعادَها إلى ذاتِها المنسيّة؛ ذاتِها المُلقاةِ على طُرقِ الهاوِية. لقد أشعرها بقلبها الّذي فقدته منذُ زمنٍ بعيد. أدركَ بأنّها بشرٌ من لحمٍ ودم، لها مشاعرها، ولها إيمانُها وإنْ كانَ الشّيطانُ قد سلبَها هذا الإيمان حتّى جاءَ هذا الفتى السّماويّ وقدّمه إليها من جديد. كانتِ النّهارات قبله بلا شمسٍ والآن هو شمسُها الوحيدة. كان الوجود قبله بلا طعم، والآن هو الوجودُ كُلّه!! من أينَ هبطَ هذا المَلاك الّذي لا يُمكن أن يكونَ من طينةِ البشر؟! بهذه الكلماتِ حدّثتْ (مريمُ) نفسَها، وهي تترقّبُ في كلّ مرّةٍ المكانَ الّذي يعظُ فيه النّاس لكي تكون أوّل السّامعين، وإنْ كانتْ تتّخذ لها مكانًا تراه فيه ولا يَراها!!

سمعتْهُ يومَ الصّفْقة، يومَ أطعمَ الآلاف بخمسةِ أرغفة. وظلّتْ ترقبه في ذلك اليوم عن كثبٍ دونَ أن يشعر أنّه يراها، لكنّ كُلَّ كِيانها كان يشعر به، فهل عرفَ - وهو العارف - بوجودها يومئذٍ؟! هل دلّه القلبُ عليها؟! امرأةٌ تابت كأحسن ما تكون

التّوبة، وأحبّتْكَ كأحسنِ ما يكونُ الحُبّ، ألا تستحقُّ منكَ أن يلتَفِتَ قلبُكَ إليها قليلاً؟!

إنّها (مريم) ليس لأنّ اسمها يُشبه اسم أمّي الطّاهرة المُطهّرة، ولكنْ لأنّ قلبَها سرعان ما تخلّص من ماضيه وامتلأ بحبّ الله. امتلأ بهذا الحبّ حتّى كاد يفيضُ هذا الامتِلاءُ على البشر كلّهم فيكفيهم، إنّها (مريم) الّتي أرادَ لها البشر الموت وأراد الله لها الحياة، أرادوا لها أن تظلّ مُدنّسة وأراد لها أن تُصبح مُقدّسة؛ فشتّان شتّان بين ما يريدهُ البشرُ لأنفسهم، وما يُريدهُ الله لهم!! إنّها (مريم) الّتي انحنث لأمر الله فكان انحناؤها رِفعة. وتذلّلت لجلاله فكان تذلُّلها عزّة!! إنّها مريم وكفى بالاسم فخارًا!!

تَبعثني في كلّ مواقفي. وتتوارَى لتَبين، وتغيبُ لتعود. وفي كلّ موعظة كانت عيناها تقولان: مَنْ عرفَ لذّة الأنسِ بالله لم يرَ وحشةً في حياته، ومَنْ فَهِمَ مراميه لم يضلَّ أبدًا. كانَ قلبُها يُطرِقُ خاشِعًا فتسمعُ كُلُّ جوارحها، تجلسُ فتمتلئ بحكمة الرّب ولا تُناقِشُ أبدًا، فتقوم ومعها زادٌ من كلامِ الله يكفيها إلى موقفٍ آخر، وتظلّ تُعظّمُ ذلك حتّى يسكن إليها الرّضا. صحيحٌ أنّها لم تصعد معي الجِبال ولم تهبط بصحبتي الوديان، لكنّها كانت تلقاني في المُنتَهى، فحيثُما تنتهي الرّحلةُ تبدأ الموعظة، ولا يهمّها من الأمر أكثرَ من الموعظة، والموعظةُ بعدَ ذلك تكونُ زادَ رِحلتها، كانتِ الرّحلةُ تأخذُ من أجسامِنا أنا والحواريّين، أمّا هي فكانتِ الرّحلةُ تأخذُ من قلبِها، ولذلك عَظُمَ إيمانها في عيني حتّى ارتقتْ إلى مرتبةِ

القِدّيسين. ويح البشر؛ كم قتَلوا أرواح الخاطِئين وهم أحياء!! وكم عذّبوهم بجهنّم قبل أنْ يأتوها، ألمْ يعظِّمُ اللهُ الرّحمةَ حتّى صارتِ اسمًا له؛ فما بالُ هؤلاء القُساةَ يرجمون إخوتَهم وهم أحقُّ بالرّجم منهم؟! ما بالهم لا يأخذون بأيديهم إلى السّماء ويتركونهم في الحُفر وحدهم مع العقارب والأفاعي!!

شُدّ الرّحال يا برنابا، وأنتمْ أيّها التّلاميذ الرّائعون هيّا بنا، كفاكم كسلاً!! خُلِقنا لنعبدَ الله ثُمّ نبلّغ رسالته إلى العالَمين، دعونا نَطُفْ في بلاده حتّى تطوفَ رحمتُه بقلوبنا. لا راحةَ لمؤمن. الجنّة تتزيّن لِمَنْ يتزيّن لها، وزينتُها العمل الصّالح. ولِباسُها التّقوى؛ ففيم القُعود؟! «وإلى أينَ يا مُعلّم هذه المرّة؟!». «سنجعل القُدسَ بوصَلَتنا في كلّ مرّة، فإنْ مرّتْ بِنا على قُرىً ظاهرةٍ هنا وهناك عرّجْنا عليها. كُلّ طريقٍ إلى أورشليم مُبارَكة ما دامتِ هي الغاية». ومَضينا.

مَا أَعْذبَ المَاءَ لَوْ صَحّتْ مَشارِبُهُ... وَأَجْمَلَ العَيْشَ لَوْ هَلّتْ سَحَائِبُهُ. القَلْبُ يَشْكُرُ لِلرَّحمَنِ إنْ نَزَلَتْ... بِهِ الخُطُوبُ وَإنْ جَلَّتْ مَصائِبُهُ. وَالشُّحبُ تَسْقِي عُصَاةَ اللهِ إنْ هَطَلَتْ... والطَّائِعِينَ، فَما يَرْتابُ طالِبُهُ. وَحِكْمَةُ اللهِ فِي الحَالَيْنِ ظَاهِرَةٌ ... كَالشَّمْسِ إنْ طَلَعَتْ غَابَتْ كَوَاكِبُهُ.

لَقِيتُها على الماء. أعرفُ أنّها لم تَجِئ إليه اعتِباطًا، بل جاءتْ إليه لأنّها تَضبِطُ إيقاعَ حركتي فتعرفُ موعد ورودي عنده. صباحَ هذا اليوم سعيتُ أنا والتّلاميذ إلى أورشليم. بلغَنا اعتدالُ الشّمس في وسطِ السّماء ونحن قُربَ ماءِ (بيتِ عَنيا)، حتّى إذا هَوَيْنا في الطّريقِ إليها خرجتْ إلينا من كرمةٍ على

جانب الطّريق كانت تنتظر عندها. عرفَها بعضُ تلاميذي، قال بطرس: «ألستِ الّتي...». فأشرتُ إليهِ بيدي أن يكفّ قبلَ أن يُخطِئ: «لو خرجتْ كَلِمتُكَ من فَمِك لما استطاعَ أحدٌ في الكونِ أن يُعيدَها إليه إلاّ الله بالمغفرة، فلا يسبقنّكَ الشّيطانُ بالقول». فكفّ وهو خَجِل. ثُمّ التفتُّ إليهم وقلتُ: «أترون؛ هذه مريم أخت عازَر، وأنا أحبّهما لأنّهما يعرفان حقّ الله فِيَّ وفي أنفُسِهما، وحينَ أتركُ هذا التّراب ستقفُ إلى جانبِ أمّي يومَ يعزّ على الآخرين أن يقفوا إلاّ إلى جانبِ أنفسهم». جثتِ المرأة عندَ رجليّ، أرادتْ أنْ تُقبِّلَ قَدَميّ، فرجعتُ إلى الوراء وهبطتُ إليها: «يا مريم؛ إنّا من التّراب وإلى التّراب فَهَوّني عليك، إنّما يرفعُ مقامَكِ عندَ الله وعند النّاس مكانُ الله في قلبِك، فانهضي». نهضتْ وهي صامِتة لم تَفُهْ بكلمة. انتظرتُها لتتحدّث، فآثرتِ الصّمتَ مُطرِقةً في الأرض، قلتُ لها: «أعرف؛ إنّه أخوكِ». فخرّتْ من جديد: «مَنْ أنبأكَ أيّها السّيّد؟!». «إنّه الله». «إنّه مريضٌ، وبينه وبينَ الموتِ ذراع». «إنّه يُستَخلَصُ من خطاياه، ما المرضُ إلاّ غُسْلٌ من الذّنوب. قومي وعودي إليه وأنا ألحق بِكُم». فمضتْ ولسانها يلهجُ بشكري. ومضينا نحن في طريقنا، فقال لي (توما): «إلى أينَ يا مُعلّم؟!». «وهلْ يُقصَدُ غيرُ أورشليم؟!». «لكنّكَ وعدتَ مريم بأنْ تلحقَ بها». «لم يجِئْ أوانُ ذلك ففيمَ تُطيلُ الجِدال؟! هيّا بنا». ومضينا. حتّى إذا صِرنا على بُعدِ جبَلَين من المدينة المُقدَّسة، استوقَفَنا جَمٌّ غفيرٌ من النّاس، توافدَ من أقطارٍ شتّى وعرفَ خارطةَ الطّريقِ الّتي نَسلُكُها. أقمْنا بينهم يومَين فذكّرْناهم بما لله عليهم من حقّ.

في اليومِ الثّاني دفعَ أبٌ مكلومٌ ابنَه الّذي يُصابُ بالصّرعِ فيُؤذي نفسه في غيابِ عقله إلى بعضِ التّلاميذ، فقرأ عليه بلا إيمان فزادَ ما به من عِلّة. ثُمّ جاءني الأب باكِيًا يائِسًا: «إنّ تلاميذَكَ أيّها السّيّد زادوا ما في ابني من صَرَعٍ». فجمعتُهم: «أيّها الأغرار، إنّه ليستِ اليدَ الّتي تشفي، ولا النّظرة، إنّها الكلمة المُؤمنة، إنْ لم تتخلّوا عن أنفسِكم له فأنّى لكم أنْ تقدروا على شيءٍ، ما أبأسَ الإنسان ينطقُ كلمةَ الإيمان وقلبُه مع الشّيطان!». ثُمّ نظرتُ إلى السّماء فسألتُ الله أنْ يُزيلَ ما بالفتى من ضُرّ، وأنْ يُخرجَ منه كُلَّ خَبَث، ويُطهّره من كُلّ دَنَس، فَبَرِئَ من لحظتها. وبقينا في المكانِ يومًا ثالِثًا.

في اليومِ الرّابع، قلتُ لهم: «أتذكرون مريم، الآنَ حانَ وقتُ الذّهابِ إلى بيتِ أخيها عازر». وانطلقْنا إلى بيتِ عَنْيا، فقال لي يُوحنّا: «كيفَ تذهبُ وهو في اليهوديّة، وخبرُكَ شاعَ بينَ اليهود وهم يتربّصون بِكَ لقتلك؟!». «إنّهم لن يملكوا لي من الله شيئًا. وعليّ أنْ أعملَ في خدمة الله حتّى ألقاه. هل يعملُ الباحِثون عن النّورِ إلاّ في الظّلام؟!». ومضينا إلى قرية عازر.

حتّى إذا شارفْنا على البيت وجدْنا جمعًا على بابِ بيته من اليهودِ يُعَزّونَ فيه، وكان هذا يومَه الثّالث في الوفاة. ودخلتُ إلى البيتِ مُعرِضًا عن أولئكَ الواقفين بالباب، فإذا أختِه (مريم) تبكي، وقد دفنتْ وجهها بينَ كَفّيها، فسألتني: «ألا تدري يا سيّد، لقد ماتَ منذُ ثلاثةِ أيّام، لو جِئتَ معي يومَ لقيتُكَ لأدركتَه قبلَ أنْ يموت؛ فلربّما شَفَيْته». وأجهشتْ بالبكاء. فقلتُ لها: «لا تقولي ذلك؛ إنّه لم يمت». «كيفَ وقد

دفنّاه وصارَ تحتَ التّراب». «إنّه نائم، وإنّه سيقوم وسيتزوّج ويُنجِب؛ ماذا تُريدين أن أقولَ لكِ أكثرَ من ذلك؟!». «يا مُعلِّم إنّكَ تُخيفني». «ألا تُؤمنين بي؟!». «بلى». «إذًا دُلّيني على قبره وسوفَ يقوم من مثواه كما يقوم النّائم من سريره».

ومضينا باتّجاه الموضع الّذي دُفِنَ فيه، وتَبِعَنا عددٌ كبيرٌ من اليهودِ يريدون أنْ يروا بأعينهم ما أصنع. ولمّا صرنا حول الجدث، ضجّت مريم بالنّحيب، وتظاهر الفريسيّون من اليهود بالبكاء، فقلتُ لهم: «لِمَ تبكون؟! إنّه سيقوم الآنَ من رقدته». فقال بعضُهم في خاطره: «ليتَكَ ترقدُ مكانه فنستريحُ من شَعوذاتِك». فالتفتُّ إلى الّذي حدّثَ نفسه بذلك وابتسمتُ في وجهه فارتعب، وارتعشتْ قَسَماتُ وجهه، وقلتُ له: «لكلٍّ منّا ساعتُه؛ وساعتي لمْ تَحِنْ بعدُ» فازدادَ ارتِعاشًا، أدار ظهره ببطءٍ مثل جذع نخلةٍ يابسة، وولّى وهو يهتِف: «ساحر... إنّه ساحر».

ثُمّ قلتُ لهم: «ارفعوا الحجر عن القبر». فقالتْ مريم: «إنّه جسده تعفّن يا يسوع وأخشَى أن تروه على هذه الهيئة». «ألم تُؤمني بعدُ يا مريم؟!». «إنّني أقولُ ذلك لِيُؤمِنَ الحاضِرون، أمّا أنا فقدْ عرفتُ طريقي منذ ذلك اليوم». وأزيحَ الحجر عن القبر. فهتفتُ بالجُثّةِ المُسجّاة: «يا عازَر إنّما أنا عبدُ الله أعطاني كلمتَه؛ فبكلمته أُحيي، وإنّني آمرك أن تقوم من مقامك السّاعة». فقامتِ الجُثّة بالكفنِ الّذي يُغطّيها ووقفتْ على قَدَمَيها مثلَ تمثالٍ من رُخام». فقلتُ لهم: «حُلّوا عنه أربطته فقد عادتْ إليه الحياة». ونفضَ عازر يديه، وفركَ

عينَيه، وأقبلتْ إليهُ أخته تبكي فاحتضَنَها. وآمنَ عددٌ من الفريسيّين وكفرَ أكثرهم، وصاحُوا: «إنّه شيطانٌ كبير، إنّه لا يقدر على ذلك إلاّ الشّيطان، إنْ كان يُعيدُ إلى الجُثثِ أرواحَها المسلوبة فبقدرة الشّيطان الأكبر».

قال عازر لي مُمازِحًا: «تأخّرْتَ قليلاً عليّ يا يسوع». فرددتُ عليه مِزحته: «وماذا أفعل إذا دفنوكَ في هذا المكانِ البعيد؟!». وعلتِ البهجةُ القلوب. وعاشَ عازر بعدَ ذلك، وتزوّج كما وعدتْ أخته، وأنجبَ، وشاخَ، وماتَ عن مئة عامٍ أو يزيد!!

وانطلقْنا في بعضِ الطّريقِ إلى أورشليم، فلقِينا بعضَ الجنودِ الرّومان. فأوقفهم قائِدهم لمّا رآني. ونزلَ عن صَهوةِ جواده، فالتفّ حولي التّلاميذ ليحموني، وقال لي (أندراوُس): «من الأفضلِ أن نمضي من هنا. لا تكلّمْهم يا مُعلّم؛ فإنّما يريدون بِكَ شَرًّا». فقلتُ له: «هَوِّنْ عليكَ يا أندراوُس، كلمة الله تُقال لكلّ النّاس، وهؤلاء في مُقدّمتهم». ظلّ القائد يدرجُ وفي يده خِطامُ جواده، ووراءه عشرونَ جُنديًّا آخر، حتّى إذا صار قريبًا جدًّا مِنّي، خاطبني بازدراء:

- أأنتَ الّذي شاعَ خبرُهُ في البلاد من أنّكَ تُحيي الموتى؟!

- أنا الّذي شاعَ خبره، ولكنّني لا أُحيي الموتى.

- فمَن يُحييهم إذًا؟!

- الله.

- ومَنْ إلهُك؟!

- الّذي يَملِكُ كُلَّ شيءٍ ولا يَملِكُهُ شيءٍ.

- فَمِنْ أيّ شيءٍ هُو؟! إنّ لروما ثمانيةً وعشرينَ ألفَ إلهٍ منظورٍ، فهل لكَ إلهٌ منظورٌ؟!

- إنّه يُدرِكُ الأبصارَ ولا تُدرِكه الأبصارُ؟!

- أهذه أُحجية؟! أتُحبُّ أن تطرحَ الألغاز؟! أنظُرْ أيّها الرّجل، سأعقدُ معكَ اتّفاقًا؛ ما رأيُك؟!

- قُلْ.

- أَرِنا إلهَكَ نَكُنْ يهوديّين مثلك، ونُؤمنْ بكَ وبه. هه ماذا تقول؟!

- لو كانَ لكمْ عيونٌ لأريتُكم إيّاه. لكنّكم عُميان.

- لا بُدّ أنّ شيئًا ما سلبَكَ عقلَك، ربّما أصابَتْكَ بعضُ آلِهتنا بسوء. يبدو أنّ الحقّ ليسَ عليكَ، بل على هؤلاءِ الأغرار الّذينَ يُشايِعونَك ويُصدّقونَكَ فيما تهذي به. نحنُ بلا عُيون!! وماذا تكون هذه الّتي في رؤوسنا؟!!

- إنّها عيونكم الجسديّة الّتي لا تُبصِرون بها إلاّ آلهتَكم الوثنيّة المَقدودةَ من حجارةٍ أو من ذهبٍ أو من خشب. هل تحسب أنّ هذه العيونَ ترى!!

- وما العيونُ الّتي ترى إذًا؟!

- إنّها عُيونُ الرّوح.

- إذا لم يقتُلْكَ قومُكَ ليدرؤوا عن أنفسهم جُنونَكَ؛ فأظنّ أنّ

الرّومان سيفعلون ليتخلّصوا من حماقتك.

ثُمّ لوى عِنانَ فرسه، وامتطاه، تقدّمَ جُنودَه المُتحفّزين، وعدا هو وحاشيته قبل أن يقول بصوتٍ مُرتفعٍ وهو مُوَلٍّ: «خيرٌ لكَ أن تختبئ من أن أراكَ مرّة أخرى، لأنّكَ إنْ نجوتَ في مرّة فلن تنجوَ في الثّانية». نظرتُ إلى تلاميذي، قلتُ لهم: «أترونَ هذا؟ لو دفعَ الذّبابةَ أن تقعَ على أنفه لدفعَ السّيفَ في وجهي!! إنّه لا يملِكُ لنفسِه شيئًا فكيفَ يملكُ لغيره؟! لا خوفَ مع الإيمان، لقد آنَ الأوان للقاء الحشدِ الأكبرِ من النّاس».

طلبتُ منهم أن يُعلِنوا عن حجّي هذه المرّة للبيتِ المُقدّس، لكي يُوافِيني أكبرَ عددٍ منهم هُناك، فيسمعوا كلماتي الّتي أرجّحُ - بناءً على حَدْسي كما قلتُ لكم - أنْ تكونَ الأخيرة.

٥٠

المائدة

في منبسطٍ بين يدي أورشليم، في سهلٍ يمتدّ كرحمة، وتُشرقُ عليه شمسٌ دافِئة، من سماءٍ صافية. جلسْنا. انضمّ إلينا (يهوذا). لم يغبْ من المجموعة إلاّ واحدٌ أو اثنَين. رحّب الإخوة بالغائب المُنتظَر، قال له بُطرس: «لا تُطِلْ غيبتَك؛ إنْ لم تكنْ لكَ زوجةٌ حسناءُ تشغلكَ عنّا فَلِمَ كُلُّ هذا الغِياب؟!». «أُعِدُّ لليومِ المُنتَظَر» أجابه يهوذا. «ماذا تقصد يا أخي؟!». «صعبٌ عليكَ أن تفهمَ يا أخي. لقد أوتيتُ عِلمًا لم يُؤتَه أحدٌ منكم». يصمت، ثُمّ شَدّ رقبة بطرس إليه وهمس في أذنه: «ولا حتّى يسوع». «يا أخي لا تتجاوزْ حَدّك». «ألم أقلْ لكَ إنّك لن تفهم؟!». «يا أخي لماذا ترى نفسكَ أفضلَ مِنّا؟!». «لأنّني فُضِّلْتُ بأسرارٍ لو عشتم عشرينَ قرنًا فلن تحوزوها». «أنا بدأتُ أخافُ منكَ يا يهوذا». «أنتَ بدأتَ تحسدُني. كُلُّكم ستحسدونني بالفعل لو عرفتم ما أعرف». «اصمتْ فالسّيّدُ قادمٌ».

جلسْنا طيورًا مُهاجرة. قلتُ لهم: «اليومَ تَمّ صِيامُكم. وسنُفطِر على ما توافرَ لنا من طَعام». قال مَتّى: «يا مُعلّم. إنّه مرّتْ أيّامٌ طويلةٌ علينا لم نأكل فيها. وإنّه يومُ إفطارنا لا بُدّ أن يكون مكافأة، فهل سألتَ الله لنا مُكافأةً تليقُ بعبادتنا؟!». «إنّه لا يلقُ بعبادتكم أكثر من شكر الله الّذي أعطاكم نِعمةَ عبادته بصومه». «يا مُعلّم اطلبْ من الله أن يُنزِّل علينا مائدةً من

السّماء». فتعالتْ أصواتُ التّلاميذ تقول: «نعم يا مُعلّم. افعلْ ذلك من أجلنا». كانَ صوتُهُم الجماعيّ يشي بأنّ الأمرَ مُدبّر، فهتفتُ بهم حزينًا: «يبدو أنّكم تواطأتم على ذلك دون علمي». رَفعَ يهوذا يده قائلاً: «أنا لم أفعلْ. أنا لا أطلبُ المُعجِزات. لماذا يطلبها مَنْ كانَ قادِرًا عليها!!». تجاهلَ التّلاميذ ما قاله يهوذا، وأقبلَ يوحنّا نحوي: «يا مُعلّم إنّ لنا ثلاثينَ يومًا ونحن صائِمون، ألا نستحقّ إفطارًا مُختلِفًا؟!». قال بطرس: «نريدُ أن نأكلَ منها». قالَ متّى: «وتطمئنّ قلوبُنا». قال توما: «ونعلمَ أنْ قدْ صَدَقْتنا». قال برنابا: «ونكونَ عليها من الشّاهدين». قال أندراوُس: «وتكون لنا عيدًا لأوّلنا وآخِرنا». قال يعقوب: «وآيةً منكَ». وصمتَ يهوذا، فارتعشتُ.

بدا أنّ تلاميذي ألجؤوني إلى ما سأفعل. قمتُ، فانتحيتُ جانِبًا من شجرةٍ وتركتُهم خلفي. كان وقوفي بين يديه مَهولاً لدرجةِ أنّني حِرتُ ما أقول، وهربتِ الكلماتُ منّي. إنّ تلاميذي الّذين عاشوا معي هذه المُدّةَ كُلّها ورأوا ما رأوا من المُعجِزات هُمُ الّذين يُطالِبونني الآن بواحدة. أكانَ اختِبارًا منهم لي؟! أكانوا بالفعل قد صدّقوا ما قيل عنّي من أنّني ساحِرٌ ومجنون. ألم تكفهم مئاتُ الدّلائل الّتي عاينوها بأنفسهم، أم أنّهم سيقولون ما قال الفريسيّون وجوقة المعبد: لقد سحر أعْيُنَنا»؟! ما الّذي يحدثُ لهم؟! لو كانَ (يهوذا) قد رافقهم أغلبَ الوقتِ لقلتُ إنّ هذه الشّكوك فِيّ قد تسرّبتْ إليهم منه، لكنّه يظهر فجأة ويغيبُ فجأة؟! هل تمكّن الشّيطانُ من غَرسِ بذرةِ الكُفر في قلوبهم؟! إنّني أحسُّ بهذا الكُفرِ منهم!! لكنّ الرّجوع عن الاستِجابةِ لهم سيُنمّي هذه البذرة حتّى تُصبِحَ

نبتة، ومن يدري كيفَ سيسقيها الشّيطانُ بعدَ ذلك حتّى تُصبِحَ شجرةً عِملاقةً ضارِبةً جذورَها الخبيثة في أعماقهم؟! لا بُدّ من أسأل الله هذه المُعجِزةَ لهم حتّى لا يكفروا؛ لأنّهم إنْ كفروا كفرَ وراءَهم كُلّ المؤمنين بي!!

جاءني صوتُهم من الخلف: «ها يا مُعلّم، ماذا قلتَ؟! ألا تُريدُ أن تطلبَ مِنَ الله هذا الشّيءَ لأجلنا؟!». فصمتّ. أربكتني كلماتُهم من جديدٍ، كانت تطعنُ ظهري كأنّها سهامٌ ملأى بالسّموم. ثُمّ علا صوتُهم مرّة أخرى قادِمًا من هناك: «لقد طلبتَ لأعدائِكَ أكثرَ من هذا ألا تطلبُ لأصدقائِك؟!». رجفتُ. اختلطَ عليّ أعدائي بأصدقائي. تابعوا نداءاتهم المُلِحَّة القادمة من خلفي: «طلبوا مرّاتٍ كثيرةٍ ونطلبُ مرّةً واحدة ألا تستجيبُ لنا؟!». حينَها كان سُمّ الكلماتِ قد غلا في أعماقي فنظرتُ إليهم مُغضَبًا، وصرختُ في وجوههم: «اصمِتوا. سأسأل الله لكمُ المائدة فاصمِتوا. كفاكمْ ثرثرةً».

وجّهتُ وجهي نحو مَنْ بِيَدِه كُلُّ شيءٍ: «يا قدير. إنّ هؤلاء أوشكوا أن يكفروا لولا رحمتك. وإنّكَ تعلم أنّ القطرة إذا سالت إليها القطرة صارتْ نهرًا متُدفّقًا، والنّهر المُتدفِّقُ إلى أخيه صار بحرًا هائِجًا، والبحر الهائجُ إلى أخيه صارَ طوفانًا، وإذا جاءَ الطُّوفان فمَنْ لنا من الهَلاكِ سِواك. وإنّي أخشى أن تهلك الأمّة كلّها بسببِ مرضٍ في قلوبِ بعضِها، وإنّي أدعوكَ دعوةً إذا قبلتَها فبكرمك، وإنْ لم تقبَلْها فبتقصيري». فهتفَ بي هاتِفٌ من السّماء: «أُدْعُ تُجَبْ، وسَلْ تُعطَ». «فإنّي أسألكَ يا ربّ أن تنزّل علينا من السّماءِ مائِدةً تكونُ علامةً على قَبول

صِيامنا لوجهكَ العظيم، وآيةً لِمَنْ آمنث عينُهُ ولمّا يُؤمِن قلبه». فأجابني الهاتِف: «إنّي قادِرٌ على ذلك، ولكنّ المُعجِزاتِ لمرضى القلوب بابٌ للمُنكَرات». «فاجعلْها حُجّةً عليهم». «إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ». فانشقّث حينئذٍ السّماء، فهُرِعَ التّلاميذ إليّ ينظرون، ووقفوا على أصابع دهشتهم يرقبون ما يحدث. ودنث غمامتان ضخمتان، وراحتا تهبِطانِ الأرض، وشاهدَهما أهلُ فلسطين كُلُّهم، كانتا تنزلان رُوَيْدًا، فلمّا صارتا على عُلوّ يكفي لرؤية ما بينهما، فإذا هِيَ مائدةٌ عِملاقة بحجمِ أختَيها. وتابعها النّاسُ فعلموا أنّها مُعجِزةٌ جرث على يديّ، فمَضَوا خلفَها وهي تهبطُ ببطء، والنّاس من كلّ بلدٍ تتّجه إلى المكان الّذي ستهبِطُ فيه، واجتمع النّاس من كلّ صوبٍ وحدبٍ من أنحاء فلسطين إليها، ودخلوا تحتَ ظلالِها الممتدّة، وظلّث تواصِلُ هُبوطَها والنّاس يواصِلون مُلاحقتها حتّى هبطث في السّهل الّذي نحنُ فيه فإذا هِيَ تمتدّ على طول السّهل أطول من نَخلتَين سامِقَتَين مُمَدّدتَين. والتفّ النّاسُ حولها أكثرَ مِنْ ألفَين، جاؤوا من أقطابٍ متعدّدة، وكانَ فيهم الصّغار والكبار، والرّجال والنّساء والأطفال، والسّادةُ والعبيد، والمرضَى والأصحاء، والعُميان والمُبصِرون، والمشلولون والعُفاة، والبيضُ والسّود... إنّها مائدةُ الله، والله يدعو الجميعَ إليها!!

كانتِ المائدةُ سبعةَ حيتانٍ من حيتانِ الجنّة ليسَ فيها حَسَكةٌ واحِدةٌ يسيلُ دُهنها شَهِيًا من سخونةِ شَيِّها، وسبعةُ أرغفة، عندَ كلّ سمكةٍ رغيفٌ، كُلُّ رغيفٍ فيها بحجمِ جفنةٍ كبيرةٍ، أمّا الرغيفُ الأوّل فكان مملوءًا زيتونًا، والثاني مملوءًا

عسلاً، والثالث مملوءًا سمنًا، والرّابع مملوءًا خَلاًّ، والخامِسُ مملوءًا جُبنًا، والسّادس مملوءًا لحمًا مُقدّدًا، والسّابع مملوءًا رُمّانًا. وجذبتْ رائحةُ الشّواء السّاكنين في أماكنَ بعيدة، وهفتْ حتّى الحَيَوانات إليها من القِطط والكِلاب والطّيور، وكانَ رِزقُ الله يَسَعُ كُلَّ مَنْ خلق. ولم تُصدِّقِ النّاسُ أعيُنها وأصابَها صمتٌ مُطبِق، ونظروا إليّ وعيونهم تتوسّل الهيئة. فوقفتُ في مُنتصفها وعن يميني وشمالي توزّع الحواريّون، فقلتُ للتّلاميذ: «كُلُوا بِاسْمِ الله». فقالوا: «لا نأكلُ حتّى تأكل». ومال (يهوذا) إلى بطرس وهمسَ في أذنه: «دَعْهُ يأكل هو منها أوّلاً فما أدراك لعلّها مسمومة؟!». وهتفتُ: «إنّكم أنتُم الّذين ألْحَحْتُم في الطّلبِ فَكُلوا». «ليسَ قبلَك». فتركتُهم، ودعوتُ الفُقراءَ والمَساكينَ واليتامَى والعُميان والبُرصان ليفتتحوا حفلةَ الطّعامِ هذه فأجابوني بخيرٍ مِمّا أجابني التّلاميذ: «نُجِيبُ دعوتكَ يا روحَ الله». فأكلَ منها كُلُّ أحدٍ، فما بقي من مريضٍ أصابَ منها لقمةً إلاّ شَفِي، ولا سقيمٍ إلا بَرِئ، ولا ذي عاهةٍ إلاّ أذهبَ الله عنه ما ألمّ به. فلمّا رأوا أنّها تشفي المُصابين فحينئذٍ مَدُّوا أيديهم فأكلوا!! ثُمّ لمّا شبعَ النّاس، واجتمعوا وهم يلوكون ما تبقّى في أفواههم من طعام، قلتُ لهم: «إنّ الله الواحد إلهي وإلهَكم يدعوكم إلى شكره وعِبادته، وإنّه قد سَرَى في أجسادكم عهدُ الله حينَ أخذتُم بلقمةٍ مِمّا رزقكم من السّماء فَمَنْ بدّلَهُ بعدما سَمِعه فإنّما إثْمُهُ عَلَى الّذِيْنَ يُبَدِّلُونَهُ». وأخذتُ منهم عن الله العَهد، وانصرفوا.

فلمّا كانَ اليومُ الثّاني، حضرَتْ آلافٌ أخرى لم تتمكّن من اللّحاقِ بالمائدة في اليومِ الأوّل لِبُعدِ المسافة، وكانَ طعامُ

الأمسِ قد نَفِد، فدعوتُ اللهَ لهم من جديد، فنزلتِ السّماءُ عليهم بمائدةٍ أعظمَ من الأولى. وهتفتُ بهم أنْ يُعْلِنوا في البلادِ كُلّها: «إنّ الله يدعوكم إلى مائدته فمَنْ أرادَ أن يأكُلَ من طِعامه ويسري فيه عهدُه من أهل الأرضِ فَلْيأتِ، فإنّ غدًا اليومُ الثّالثُ لنزولِ المائدة، ولنْ يكونَ بعده من نزولٍ. فشاعَ الخبر، فتقاطَر النّاس أفواجًا، فلمْ يبقَ من أهل فلسطينَ أحدٌ إلاّ مُعانِدٌ أو مُتغطرسٌ فأكلَ من مائدةِ الله، فكانتْ تلكَ الأيامُ عيدًا لنا، وأخذ الله علينا فيها ألاّ نعبدَ سِواه ولا ندعو معه أحدًا. ولكنّ البشرَ مع الزّمن ينَسَون، وقد يأكلون طَعامَ الخالق ويشكرون المخلوق، لقد عجن الشّيطان بالجحودِ لحومَهم، وأجرى كلماتِ النُّكران على ألسنتهم!!

ولم آكُلْ من المائدةِ شيئًا في الأيّامِ الثلاثة، فلمّا كان اليومُ الثّالث، جاءني عددٌ من الكَهنَةِ من أورشليم بعثهم (قَيافا) بعدما سَمِعَ الخبر، فاجتمعوا بي، وحولي تلاميذي، فقالوا: «إنّكَ تَفتِنُ النّاس». «بِمَ؟!». «بهذا السّحر الّذي تعمله؟!». «أهذا سِحرٌ أم مُعجِزة؟!». «إنَّ النّاسَ جَهَلة». «وأنتم؟!». «ما لكَ وما لنا؟!». «فِيمَ جئتم؛ ألكي تحتجّوا، أم نَفِستُم أنّ الّذين يأتونكم بالمال جاؤوا إليّ بلا مال؟!». «إنّكَ تعملُ أعمالاً مُحرّمةً في شريعتنا». «حَقًّا؟! وما ذاك؟!». «تَشفي المرضَى يومَ السّبت وهو يومُ عيدٍ وقعود». «شفاهم الله بأكلهم من المائدة؛ لعلّه فاتكم أن تأكلوا منها». «نحنُ لا نأكل من طعامٍ خبيثٍ». «إنّه ما من طعامٍ على الأرض إلاّ ويكونُ فيه شيءٌ من الخبثِ لأنّ يدَ الشّيطان مسّته، أمّا ما نزل من السّماء فهو طيّبٌ ألبتّة؛ لأنّه نزلَ من عند الله تحرسه الملائكة». «إنّنا لا نُجادِلك، ولكنّنا

نُحذّرك». «احتفظوا بتحذيركم لأنفسكم. أنا الّذي أُحذّركم؛ نقضُ الهيكلِ صارَ قريبًا وأنتم عنه غافِلون». «أتهدّدنا يا بن النّجّار؟!». «أتعرفونَ لِمَ بعثكم قَيافا؟!». «لِمَ؟!». «خافَ على تدفّق الذّهبِ إلى خِزانته أنْ يَشِحّ». «ومَنْ قال لكَ ذلك؟!». «تعالوا، اهبِطوا على الأرضِ وانظروا». فهبطوا، وهبطتُ قبلهم، فضربتُ باطنَ كَفَّيّ بالأرض، ثمّ قبضتُ في كلّ كفٍّ حفنةً من التّراب، ثُمّ بسطتُ كفّيّ أمامهم، فإذا بالأولى صارت قطعةً من الذّهب تلمع، وإذا بالثّانية مجموعةٌ من الحصى الصّغيرة تُقرقِع، فنهضوا، فقلتُ لهم: «أيّهما أحلى في قلوبكم أيّها الكهنة؟!». فأجابوا بصوتٍ واحدٍ كأنّه فحيحُ الأفاعي: «هذا الذّهب». فقلتُ لهم: «فإنّهما عندي سواء». وألقيتُ ما في يديّ عند أقدام أحدهم، فاتّجهتْ قلوبُهم وعيونهم كُلّها إلى ذلك الذّهب، فانحنى الّذي سقطتْ بينَ قدمَيه وهو ينظُر في عيونِ رفقائه وقلبُه يرقصُ طربًا أنْ صار الذّهبُ إليه، فلمّا مسّها عادتْ ترابًا كما كانت، فخار وغضب، أمّا هُمْ ففرحوا في البداية لأنّه لم يستأثر بالذّهب دونهم، ثُمّ جارَوه في خُوارهم وغَضِبهم، وقال لي الكسيف بلهجةٍ مُتوعِّدة: «سيأتي يومُك، وسنراك حينَها». وولّوا وهم يَشتُمون، أمّا أنا فهتفتُ وهم يرحلون باتّجاه أورشليم: «بلى؛ لقد صار يومي وشيكًا؛ بهذه صدقتم». وأمّا (يهوذا) الّذي كان يرقبُ المشهدَ ساخِرًا فمال كعادته إلى أذن بطرس وهمسَ فيها وهو يكزّ على أسنانه: «إنّه ساحر، لكنّ سحري سيكونُ أعظمَ من سحره».

٥١

الإيمانُ لا يُشرَى بالمالِ

مكثْنا فترةً من الزّمن بعدَ أيّامِ المائدة ننتظر أن يتجمّع عددٌ آخَر من الحُجّاج إلى أورشليم، لكي نهبطَ الوادي اليتيم الّذي يفصِلنا عن المدينةِ المُقدّسة. لقد صار اسمي منقوشًا في أفئدةِ الآلاف المُؤلّفة من النّاس على امتداد فلسطينَ الحبيبة. لا أُنكِرُ أنّ مِنَ النّاسِ مَنْ لم يُصدّقْني وقال بحقّي كلامًا بَشِعًا، وبحقّ والدتي كلامًا أبشع، ولكنّ قلوبًا كثيرةً أخرى طاهرةً رأتِ الخلاصَ التامّ في التّعاليم الّتي جِئتُ بها. أردتُ هذه المرّة أن يشهدَ أكبرَ عددٍ من النّاسِ زيارتي لأورشليم، لا أدري لِماذا أُحِسُّ أنّها الأخيرة. وأنّني لن أعودَ بعدها إليها، إذْ يكونُ الطّورُ الأوّل من رِسالتي قد بلغَ مُنتَهاه. لا أكتمكم أنّني أحسستُ بالحُزنِ قليلاً على رحيلٍ مُتوقّعٍ لم يُخبرني به الله، لكنْ أخبرني به القلب، وقلوبُ الأنبياء لا تَخونُ أبدًا.

كانت هذه المرّة مُختلفة، لم يبقَ أحدٌ إلاّ سَمِعَ بمعجزة المائدة فجاءَ ليشهدني ويراني، فَرِحَ النّاسُ عندما علموا أنّني ذاهبٌ إلى أورشليم، جاؤوا مع أطفالهم مُهلّلين، كانوا يتوافَدون زرافاتٍ ووحدانا حامِلين في أيديهم أغصانَ النّخل والزّيتون وهم يترنّمون بصوتٍ عالٍ: «تَبَارَكَ الآتي إلينا باسم الرّبّ... تَبَارَكَ الآتي إلينا باسم الله». فلمّا رأى الفريسيّون التفافَ النّاسِ حولي وترحيبهم بي بهذه الهيئة المَهيبة، هُرِعَ إليّ عددٌ من كَهَنتِهم، وصرخوا في وجهي: «ألا تَرَى ما يقول

هؤلاء؛ أتقبلُ أن يُمجّدوكَ دونَ الرّبّ». «إنّهم يحتفلون مع نبيّهم فكيفَ يُمجّدونني دونَ الرّبّ». «إنّهم يهتِفون باسِمك، وإذا ظلّوا كذلك فإنّكَ ستُفسِدُ علينا الحجّ كُلّه». «وسيترك النّاسُ موعظةَ قَيافا، ويأتون ليسمعوا مِنّي... أهذا ما كُنتَ تودّ أن تقولَه.. بلى... سيتركونَ قَيافا لأنّهم مَلُّوا منه ومن حَدِيثِه المكرور ولم يَجِدوا عنده شِفاءَ ما في الصّدور، إنّه لا يبيعهم إلاّ اليّأس، ليته يبيعهم أملاً ولو كانَ كاذِبًا». حينَ ذاك ازدادَ غَضَبُهم، وصرخوا وقد فقدوا السّيطرةَ على أنفسهم: «مُرْهُمْ أن يخرسوا وإلاّ رأيتَ من سُلطةِ المعبدِ ما تكره». «أتعرفُون أيّها المساكين؛ لو سكتُوا لنطقتِ الحجارةُ بدلاً عنهم ولأظهرتْ كُفر الأشرار الأردِياء». هَمّ أحدهم أن يصرُخَ من جديد لولا أنّ الحجارة بدأتْ تُغنّي بالفعل مع المُغنّين: « تَبَارَكَ الآتي إلينا باسم الرّبّ... تَبَارَكَ الآتي إلينا باسم الله». لم يُصدِّقْ الفرّيسيّون ما سَمِعوا، تراجعوا عنّي إلى الوراء قليلاً، وبدؤوا يتلفّتون حولهم كالمسحورين، كانَ صوتُ النّشيد آتِيًا من كلّ مكان، التّيجانُ على رؤوس الأعمدةِ الحجريّة غنّتْ، والأشجار على جوانبِ الطّريقِ أنشدتْ، والأطيار في الجوّ صدحتْ، والجُدران الصّماء تمايلتْ من الطّربِ احتفاءً بي. رأى الفرّيسيّون كُلّ ذلك وسَمِعوه، لكنّهم ازدادوا كُفرًا، ونكصوا على أعقابهم إلى (قَيافا) وهم يهمِسون: «إنّه لا يَقْدِرُ على سِحركَ أحدٌ؛ ما جِنسُ الشّياطين الّتي تتعامل معها حتّى تُطيعَكَ الأحجار والأشجار والأطيار؟!».

ثُمّ تابعْت سيري مع التّلاميذ، والنّاس تحُفُّ بنا من كُلّ جانبٍ، حتّى إذا صرنا في السّاحةِ الفسيحة، برز إليّ من بعيد

(قَيافا) مع دهاقنته، وكانوا مُشمّرين عن ساقِ المشي، يغذّون السّير باتّجاهي وهم يتميّزون من الغيظ، حتّى إذا تقابَلْنا، هتفَ بي (قَيافا):

- تشفي النّاسَ يومَ السّبت ومرّرْناها لك، تغفر للزّانية وغفرناها لك، تعملُ يوم قضى الله بالقُعود وغضضْنا طرْفنا عنك، أمّا أنْ تُحرّضَ النّاس ضِدّي وضِدَّ الهيكل؛ فأقسم بالسّماواتِ السّبع ومَنْ فيهنّ لَئِنْ لم تَكْفُفْ قَيحَكَ عنّا لأقتلنّك قتلةً يتحدّثُ بها التّاريخ إلى أبدِ الآبِدين.

- يا (قَيافا)؛ أتظنّ أنّكَ قادِرٌ على أن تقتل بَعوضة؟! لو كنتَ قادِرًا على قتلِي فمُرِ الذّبابَ ألاّ يأكُلَ من أنفِك. إنّما يسقطُ الذّبابُ على الخراب.

- ها... ها أنتَ يا يسوع... يا بنَ النّجّار.. ظنّنا أنّكَ تحملُ في يدِكَ غُصْنَ زيتونٍ وفي الأخرى حمامةً من أجل السّلام، ها... لقد تحوّلْتَ من رجلٍ مُسالِمٍ بريءٍ إلى رجلٍ يُهدّدِ الآخرين.

- اسمع يا (قَيافا)، أنا أحمل في يدي غُصْنَ زيتونٍ هذا صحيح. ولكنّني أحملُ في الأخرى سيفًا، وسأهوي بالسّيف على رأسِ مَنْ يُعطّلُ شريعةَ الله.

- مَنْ يُعطّلُ شريعةَ الله يا يسوع؟! أنتَ تفعل.

- أنا أضعُ السّيفَ في موضعه، إنْ لزمَ الأمر فما من ثائرٍ أشدَّ ثورةً مِنّي... لقد جِئتُ لأُحِقَّ الحقّ، والحقُّ لا يُحقُّ دائِمًا بالوردة، قد يكونُ الخنجر الّذي يُغرَس في قلبِ الباطلِ أشفَى للحقّ أن يقوم، وللوردةِ أن تفوح.

- أسمِعْتُمْ أيّها الكَهَنَة؟! ها هو أمامكم يسوع؛ لقد كُنتُم مخدوعين فيه طوال الوقت، أمّا أنا فعرفتُهُ من أوّل يومٍ رأيتُهُ فيه هنا، يومَ كانَ عُمُرُه اثني عشر عامًا، كنتم ترونَ فيه الطِّيبة، وكنتُ أرى خلفَ هذا الوجه الطّيّب وحشًا كاسِرًا يستعدّ للانقِضاضِ على فريسته.

- يا (قَيافا). دَعِ النّاس تَحُجّ على شريعةِ موسَى، لا على شريعتك. أما زلتَ موغِلاً في ضَلالك، تُقرّب النّاس مِنَ الله بِزَعمِكَ بِمقدار ما يدفعونَ من جيوبهم، الإيمانُ لا يُشرَى بالمالِ يا أخي.

- الجِدالُ معكَ عقيم. وإنّه السّيفُ - كما قلتَ - بيننا. (وولّى ظهره لنا هو وكهنته).

- يا (قَيافا)؛ كلمةٌ أخيرةٌ أودّ أن تسمعها: موسى بشّر بي، وأنتَ تعرفُ ذلك جيّدًا، والتّوارةُ بينَ يديكَ فيها خبري. وأنا في إنجيلي أبشّر بأحمد. لكنّكَ أيضًا تعلم أنّ موسَى لم يسلم منكم، ولنْ أسلم أنا، ولن يسلم أحمد مِنْ بعدُ؛ فإذا كانت كتب موسَى بينَ أيديكم ولا تُصدّقونها فهل ستُصدِّقون كلامي؟!!

- لقد حانت ساعتُك. (قال ذلك وهو يفرقعُ أصابعه في الهواء من فوقِ رأسه وظهره لنا ماضِيًا في طريقه إلى غرفة اجتماعاته).

- إنّ ساعتي إنْ حانت فبقدرِ الله لا بِقدرِك. (وخررتُ على الأرض، نفذت كلماته الأخيرةُ إلى قلبي مملوءًا غيظًا وسُمّا وحِقدًا).

أنهضني يوحنّا: «يا مُعلّم، لا عليكَ منه، إنّه جَرَى عليه القلم». «ولقد جرى عليّ يا يوحنّا». «أتودّعنا يا مُعلّم؟!». «إنْ فارقتُكم فاحكموا بتعالمي، إنّ تعاليمي هي روحي، فإنْ غابَ الجسد فالرّوح باقِية، فاعصِموا أنفسكم بكلماتِ الرّوح». ووقفتُ فجلستُ معهم على مصطبةٍ في طرفِ السّاحة، فبينا نحن نرتاحُ قليلاً جاءني أحدُ الكهنةِ الصّادقين، يلتفِتُ حوله حتّى لا يراه أحدٌ، وقصدني وحدي من بين تلاميذي، وقرّب شفتيه من أذني، وهمسَ فيها: «إنّهم سيطلبون من بيلاطُس أن يقبضَ عليكَ كما فعل مع باراباس». «وهل ألقَوا القبضَ على باراباس؟!». «نعم، تسألني عن باراباس وتهتمّ به ولا تهتمّ بأمر نفسِك!». «لقد كنتُ أرجو أن يكونَ صالِحًا، لقد كان، لكنّ غضبه وشدّة بأسِهِ أفسَدَتاه». «لقد أصبحَ قاطِعَ طريق، يُحصي الجماجم الّتي يقتل أصحابها، ويرفعها على رؤوس الرّماح، ويركزها على طريقِ القوافلِ ليرعبَ النّاس. إنّه في السّجن ينتظرُ الإعدام، أو المُؤبّد. لكنْ ما شأننا به؛ دَعْنا منه؛ إنّني أقول لكَ: إنّهم سيفعلون ذلك قريبًا، أنا أعرفُ كيفَ يتصرّفون؟!». «ما الّذي سيفعلونه قريبًا يا أخي؟!». «لقد قلتُ لك. ألمْ تسمعْني؟! سأقولها للمرّة الأخيرة، وأذهب: سيسلّمونكَ لِتُذبَح. أرجوك لا تَقُل لأحدٍ إنّني قلتُ لكَ ذلك».

٥٢

اضبِزْ أعطِكَ جسدي

ثُمّ إنّنا أرحْنا ليلَتنا قُربَ عينِ ماءٍ في موضعٍ يُقال له (بيت حِسْدا) على مقربةٍ من البيتِ المُقدَّس. فلمّا جَنّ اللّيلُ رأيتُ حولَه خَلْقًا كثيرًا لا تكادُ تَجِدُ فيهم صحيحًا واحِدًا، كُلّهم أصحابُ عِلاّتٍ. وإذا بي أرى عَجَبًا. كانوا يعتقدون أنّ ملاكًا يهبِطُ من السّماءِ في كلّ ليلةٍ فيُحرّكُ الماءَ، فإذا نزلَ فيه مريضٌ أنّى كانَ مَرَضه، وغمرَ نفسَه في المياه بَرِئَ من عِلّته للتّوّ. والتقيتُ رجُلاً كسيحًا يجلسُ على الحافّة ينتظر تحريكَ الماء، فلمّا رآني، قال لي: «يا سيّد إنّني كلّ ليلةٍ أُحمَلُ إلى هُنا منذُ ثلاثينَ عامًا، ولكنّني لأنني كسيحٌ يأتي مريضٌ آخَر فيسبقني إلى الماء، فإذا رأيتَ الماءَ تحرّك أفلا تُسدي لي معروفًا لن أنساه لكَ مدى الحياة بأن تحملني إلى الماء قبلَ أن يسبقني إليه أحدٌ؟!». فقلتُ له: «لقد كذبوكَ القولَ، ولا يشفيكَ من كُساحِكَ الماءُ ولا المَلاكُ». «فمن يشفيني إذًا؟!». «الله». «فماذا أفعل؟!». «لو عرضتَ عليه قلبَكَ لَما رَدّكَ خائِبًا». فأخذتُ يدي فهبطتُ حيثُ هو في سريره، فمسحتُ بها على قلبِه ودعوتُ الله، ثُمّ قُمتُ، وقلت له: «هاتِ يدك. الآنَ تستطيعُ أن تمشي على قَدَمَيك». فقامَ كأنّه لم يُصبْ في حياتِه بشيءٍ، وملأتْه الدّهشةُ فاعتنقني وهو يَبكي، فهدّأتُ من رَوعه، وقلتُ له: «احملْ سريركَ واتبَعْني، ما كان لأحدٍ غيرِ الله أنْ يفعل لكَ شيئًا».

ثُمّ إنّني حَزِنْتُ لِما أصابَ النّاسَ من جهلٍ، فدعوتُهم بأحسنِ ما تكونُ الدّعوة، وعُدتُ إلى خيمتنا، والتأمَ شملُنا، وكان (يهوذا) حاضِرًا؛ فسألني: «مَتى السّاعة؟!». فحيّرني سُؤاله المُباغِت، ونظرتُ في وجهه لأرى مصدرَ السّؤال، غُصتُ عميقًا في عَينَيه، «هذا الرّجل يملك زمنًا مُختلِفًا عن زمننا» حدّثتُ نفسي؛ «إنّه يعيشُ من آلافِ السّنين، وسيبقَى لآلافِ السّنين!!». كتمتُ على هذه المعرفةِ أنفاسي، وابتسمَ هو عندما رآني أغوصُ في عقله، وأقرأ تاريخه، ثُمّ استغلّ صمتي، فسألني ثانية: «يا عيسى مَتى السّاعة؟!». «فماذا أعددتَ لها؟!». «سيفًا يقسمُ الجبال الشّاهقة بضربةٍ واحدةٍ». «ففيمَ تَسألني إذًا؟!». «لأعرفَ أينَ ألقاك». ونظرتُ في عيونِ تلاميذي فرأيتُهم ينظرون إلينا ببلاهة لا يفهمون ما يدور بيننا من حديثٍ فاطمأننتُ. وصمتُّ فصَمَت. ثُمّ خرجتُ إلى خارج الخيمةِ في الخلاء فتبعني، فوقفَ إلى جانبي، وكانتِ القُبّة الذّهبيّة تتلألأ في الظّلام من بعيدٍ في الهيكلِ أمامنا. فسألني: «أتُنقَضُ حِجارةُ هذا المعبد؟!». نظرتُ حولي فلمْ أجدْ أحدًا من تلاميذي قد تَبِعَنا، فتشجّعتُ لإجابته: «بلى؛ حَجَرًا حَجَرًا». «إنّه لأمرٌ يدعو إلى الأسف». «فيمَ الأسفُ على قومٍ فاسِقين؟!». «فبأيّ حجارتها يُبدأ؟!». «بالّتي فوقهنّ القُبّة». «صدقتَ». «أوَ تعرف؟!». «مِنْ قبلَ أن تجيء». «فَمَنْ أنتَ؟!». «بل قُلْ: ما أنتَ؟ فإنّها أصدقُ تعبيرًا عنّي». «فما أنتَ؟!». «لا تستعجلْ؛ ستراني على حقيقتي يومًا ما قريبًا». «فهل تكونُ حينَها معي أم عليّ؟!». «لن يكونَ معكَ إلاّ قليلٌ، وأمّا الجَلَبَة فستكون لي». وتركني ومضى. شيءٌ ما في أعماقي أخافني

من هذا الرّجل. هل هو بشريّ؟!!

عُدتُ إلى الخيمة. كان التّلاميذُ قد ناموا جميعًا. أمّا هو فغابَ في الظّلام ولم يترك من بعدهِ أثرًا كأنّ الّذي خاطبني خيالُه لا هو. لم أستطعِ النّومَ في تلكَ اللّيلة. ظللتُ أفكّر فيما سيحدثُ في الأيّامِ القريبة. ستتبدّل معالم الحياةِ سريعًا. حينَ يهجمُ القدر على المَقدورين تتغيّر نبضات الحياة، والأرضُ تُسرِعُ في دورتها، والكون يضطرب لِما لا يملكُ لدفعه شيئًا.

ثُمّ كانَ الفجر، فأيقظتُ التّلاميذ، صلّينا مًعا. وغدونا إلى المعبد، فلمّا صِرْنا في أوّل ساحته، انتحينا جانِبًا فجلسنا على مصطبةٍ في أطرافها، وبينما نحنُ جلوسٌ جاءتْني مريم المجدليّة، وخفضتْ بصرَها أمامي، وقالت: «منذُ أوّل يومٍ جِئتَ فيه إلى هُنا وأنا أرقُبُكَ يا سيّدي. لا أحبُّ من هذا الكون غيرَك، ولا أفضّل عليكَ أحدًا حتّى لو كانَ أخي عازر». فسكتُّ، ونظرتُ في وجوه التّلاميذ فرأيْتهم يُنكِرون عليّ وعليها، فابتسمْتُ، أمّا هي فجثَت على رُكبَتَيها، وجاءتْ بطِيْبٍ من أجودِ طيبٍ في الأرض، فعطّرتْ به رأسي، ورشّت منه على شعري، ودهنتْ به قدمَيّ، ثُمّ انحنتْ أكثر فتناولتْ خُصَلاً من شعرها، ومسحتْ بها قَدَميّ، وأجهشتْ بالبُكاءِ وهي تقول: «إنّكَ مُبارَك؛ وإنّ شَعري ليتبارَك بأنْ تطأه بِقَدَمَيكَ الطّاهِرَتين». فغضبَ (يهوذا) الّذي ظَهَر فجأة، وصرخَ في المرأة قائِلاً: «اذهبي أيّتها المرأة وبِيعي هذا الطّيبَ في السّوق وَأْتِيني بالمالِ لكيْ أوزّعه على الفقراء؛ أليسَ هذا

أجدى؟!». فقلتُ له: «أتمنعها يا يهوذا، دَعْها فإنّ الفقراء معكم في كلّ حينٍ، أمّا أنا فها هي منذ ثلاثةِ أيّامٍ تتحيّن أن تراني». فأجابني بغضبٍ: «كانَ يُمكن أنْ يُباعَ هذا العِطرُ بثلاثمئةِ دينار؛ أتعرفُ كم مِسكِينًا يُمكن أن يأكل بهذه الدّنانير الكثيرة؟!». «يا يهوذا؛ إنّي أعلمُ ما في قلبِك؛ فاصْبِرْ أُعطِكَ جسدي». فرجفَ التّلاميذ لِما سَمِعوا إلاّ هو، تشقّقت شفتاه عن غضبةٍ مكتومةٍ وقامَ من بيننا وتركنا، فتبعه بُطرس يصيح به كي يرجع، فما سمع منه، فعادَ بطرس، وقال لي: «يا معلّم كان عليكَ ألاّ تُغضِبَه». فغضبتُ لجَهله، فقمتُ من مكاني، وقلتُ له: «يا بُطرس إنّي دَخَلْتُ بَيْتَكَ، وَمَاءً لأَجْلِ رِجْلَيَّ لَمْ تُعْطِ. وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ غَسَلَتْ رِجْلَيَّ بِالدُّمُوعِ وَمَسَحَتْهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا. قُبْلَةً لَمْ تُقَبِّلْنِي، وَأَمَّا هِيَ فَمُنْذُ دَخَلْتُ لَمْ تَكُفَّ عَنْ تَقْبِيلِ رِجْلَيَّ. بِزَيْتٍ لَمْ تَدْهُنْ رَأْسِي، وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ دَهَنَتْ بِالطِّيبِ رِجْلَيَّ». وتركتُه، ومضيتُ. ثُمّ تَبِعَني التّلاميذ.

فلمّا صِرتُ في المسجد، وقفتُ، فصلّيتُ لله، وسجدتُ سجدةً طويلة حتّى ظنّ التّلاميذ أنّي قد سهوتُ أو نِمتُ، وأراني الله فيها كُلَّ ما سيحدثُ معي، فنزلتُ في نفسي على أمر الله ورضيتُ بِحُكمه، فلمّا أنهيتُ صلاتي، أرسلَ في طلبي (قيافا) ليلتقيني وحدي في الغرفة السّفليّة، فنصحني تلاميذي ألاّ أجيبَه إلى ما طلب إلاّ إذا كانوا معي، إلاّ يهوذا، قال: «اذهبْ فكلّ شيءٍ سيحدثُ هناك يسير وفقَ خطّة الله». فأخذتُ برأي يهوذا، وتركتُهم حتّى إذا صِرتُ إلى الدّرجِ الّذي يُصعَد به إلى محراب أمّي حيثُ كانت تتبتّل إلى الله تَذَكّرْتُها، فخفقَ قلبي بحبّها، وهاجني الشّوقُ لرؤيتها، وعقدتُ العَزم

على أنّه إذا خرجتُ من غرفة قَيافا السّرّيّة سالِمًا لأزورنّها، ولأقبّلنّ الأرضَ من تحتِ أقدامها. قادني أحدُ حرسِه إلى مخبئه. كانتِ الطّاولةُ تضمّ كَهَنته ودهاقنته، جلسَ هُو إلى أوّلها، وجلسوا هم عن يمينه وشِماله. ظللتُ واقِفًا، وهتفتُ:

- ماذا تُريدُ يا قَيافَا؟!

- أريدُ أن ترحل من هنا.

- هل هذا بيتُ الله أم بيتُك؟!

- بل بيتي. ليسَ لله بيتٌ على الأرض. (قالَها بغضبٍ).

- إنّه مكتوبٌ في صُحُفِ موسَى أنّ المساجدَ لله.

- كذّاب. لا تفقه من صحف موسى شيئًا.

- أترى هذه الحجارة الّتي تسترُ خطاياك؛ أخشى أن يكونَ لها قلبٌ فتبكي على ما تفعل؟!

- كفاكَ تجديفًا يا رجل. أتريدُ أن تهدمَ المعبدَ على رؤوسنا؟!

- سينهدمُ قريبًا. وستشهدُ أنتَ انهِدامه. وسأُقيمُه في زمانٍ مقدور.

- لعنةُ الله على ما تقول. ساويتَ نفسَكَ بالله.

- حاشاي.

- فما أنتَ؟!

- عيسى بن مريمَ، أرسلني الله نذيرًا لكم بينَ يدَي عذابٍ شديد.

- أفأنتَ المسيح؟!

- بلى.

- المسيحَ المَسِيًّا؟!

- كلاّ.

- فَمَنْ يكون إذًا؟!

- إنّه من وَلَدِ إسماعيل، وستتبارك به قبائل الأرض، وسيختم به الله الرّسالة، وسيكون بينَ يدي السّاعة.

- أطّلعتَ الغيب؟!

- أطلعني الله، وهو معي.

- سنرى إنْ كان مَعكَ يوم تُرفَع على الصّليب.

- ما أراده الله لن يردّه مخلوق. إنّني أُشفقُ عليك.

وخرجتُ، ظلّ زفيرُ غضبِه مسموعًا حتّى صعدتُ الدّرجات المُفضيات إلى السّطح. اقترب (قَيافا) من الكَهَنة حانِيًا جِذعه إلى الأمام، تصنّع الهُدوءَ وهتفَ بهم: «أيّها السّادة المُبجّلون، الشّوكةُ إذا آذتْ؛ فما يُفعل بها». «تُقلَع» أجابوا بصوتٍ واحدٍ كما لو كانوا متّفقين عليها. «سأقلعها». «كيف؟!». «قتلنا يحيى وزكريّا فلسنا عاجزين على أن نقتله!! أتعرفون: إنّه أشدُّ خَطَرًا من كِلَيهما؛ أمّا زكريّا فكان ضَعِيفًا فدعا ربّه بعيدًا عنّا، وأمّا هذا فجاءَ بأفاعيه إلى جُحرِنا!!».

كانتِ الشّمسُ تضحكُ فوق أورشليم عندما جابهتْني أوّل

خروجي من تحت. دغدغث أشعّتُها الدّافِئةُ قلبي فضحكتُ معها. غامث فجأة، نظرتُ إليها، تبدّلَث من حالٍ إلى حالٍ أخرى بسرعةٍ، شعرتُ أنّها تبكي، عرفتُ أنّ خطايا البشر قد لوّثث حجارتها فصارث قاسِية، وهواءَها فصار خانِقًا، وسماءَها فصارث مُلبّدة.

تلقّفني التّلاميذُ أول ما رأوني: «خفنا عليكَ يا مُعلّم». «أترونَ هذه المدينة القاسِيةَ القلب، المنتكسةِ العقل، لقد بعثني الله إليها لكي أحرّرها من سجن الظُّلم والطّغيان، فأبث، وشاءتْ أن تستجيب للمارقين وسارقي الأرواح، لقد نَسِيَتْ ما نزلَ بجنّاتِ فرعون وعيونه، وما حلّ بعادٍ وعِماده، وإنّها إنْ ظلّث على غَيّها فسيأتيها عَذابٌ غيرُ مَرْدُودِ». وبكيتُ فبكَوا لِبُكائي.

٥٣

لِمَ كُلُّ هذا الحزنُ في عينَيك؟!

وخرجْنا ليلتنا إلى جبلِ الزّيتون. بدا أنّ الطّريقَ تغيّرت. وأنّ الأزمنةَ انقلبتْ. وأنّ الأحداثَ تمضي سِراعًا. وكشفَ الله لي من أنباءِ الغيب ما لمْ يُطلِعْ عليهِ أحدًا سِواي. فجمعتُ التّلاميذ: «إنّها أيّام قليلةٌ وسوفَ ينتهي كُلُّ شيءٍ». «هل ستترُكنا يا مُعلّم؟!». «نعم، وسأعودُ بعدَ انقضاء الدّهر وانقِضاء زمانكم». «فما هي علامةُ مجيئك وانقضاء الدّهر؟!».

إنّه ستمرُّ قرونٌ طويلةٌ، يتسّمَى باسمي كثيرون فلا تُصدّقوهم، وإنّ أتباعي سيُساوَمون على دينهم، وسيكونُ ثمنُ تمسّكهم بذلك رؤوسَهم، فإنْ أدركتم ذلك الزّمان فخيرٌ لكم أن تموتوا ألفَ مرّةٍ من أن تُغيّروا دينكم. إنّ القوّة لا تتغلّب على الفِكرةِ إلاّ حين يكفرُ بها أهلُها. وإنّ دُولاً وجيوشًا ستسودُ وتبيدُ ويأتيها الهَلاك إلاّ كلمةُ الله فإنّها لا تزول، فتمسّكوا بها حتّى ولو حُزّت رِقابُكم دُونَها.

وإنّه ستكونُ حروبٌ طويلةٌ، وأوبئةٌ مُبيدة، وزلازلُ مُفنِية. وإنّ طوفانَ نوحٍ كانَ واحِدًا، ولكنّه سيأتي طُوفانٌ من بعدِ طُوفان. وإنّ الشّيطان لن يتركَ حقًّا ولو كان مثقالَ حبّةٍ من خردلٍ إلاّ ويُحاربه، فأينما تمايزَ الصّفّان فكونوا مع الحقّ ولو كان أهلُه قِلّة. وإنّه لخَيرٌ أن يُنشَر أحدُكم بالمِنشار نِصفَين كما فُعِلَ بزكريّا على أن يتركَ دينه، وعلى أنْ يُبدّل في كَلِمتي. إنّ الله واحِدٌ. وإنّني لم أكنْه، ولستُ ابنَه، ولا إلهًا معه. وإنّني وكلّ

إخوتي الّذين سبقوني من الّذين هبطت عليهم شُعلةُ السّماء لا يدفعون عن أنفسهم الضّرّ، ولا يجلبونَ لها الخير إلاّ بأمره. وسيأتي أنبياءُ كَذَبةٌ كثيرون، كلّهم يلبسُ ردائي، وما هو إلاّ الشّيطان مُخادِعًا.

إذا نَزلَ أمرُ الله فأرضُ الله واسِعة، فإنْ قدرْتم أن تُواجِهوا الباطِلَ فافْعلوا، وإنْ لم تقدروا فاهربوا إلى رؤوس الجِبال، والّذي تقفُ نفسي بحضرته لَأنْ يعيشَ أحدكم في الكُهوفِ والمُغر يَجِدُ من برد الشّتاء وحرّ الصّيف، وشِدّة الجوع، وخشونةِ الملبس خيرٌ له من أنْ يتركَ دينه، وإنّ حياةَ المرء أيّامٌ قليلةٌ وعندَ الله المُلتَقى وفيه المُشتَكى وإليه المصير.

إنّه إنْ أمطرتِ السّماءُ حجارةً في عهد لوطٍ مرّة، فستُمطِرُ بعدَ ذلك على كثيرين من جبابرة الأرض الّتي يملؤونها ظُلمًا وعَسْفًا، وإنّ الشّيطان لا يزال بابن آدمَ حتّى يُؤلّبَ بعضَه على بعضٍ فيقتُلُ الأخُ أخاه، ويسفِكُ الابنُ دمَ أبيه، ولا يأمنُ الجارُ على أهل بيته، وتُؤكَل حقوق النّاس، وتُنتَهَكُ أعراضُهم، وتُغتصب أملاكُهم، وتُيتّم أطفالُهم، وتُرمَى جثَثُ الشّرفاء في الطّرقات للكلاب، وتجتمعُ عليها الطّرائدُ والهوامّ، وتنقبُ من رؤوسها الغربان... إنّه ستكونُ فِتَنٌ لا يعلمُ إلاّ الله شِدّتها. وإذْ ذاكَ يأتي من يتسمّى باسمي فيصنع لهم المُعجِزات فيتبعه خَلقٌ كثير، ويسجدُ تحتَ قدمَيه بشرٌ من كلّ أنحاءِ الأرض، ويُنصّبُ نفسَهُ إلهًا؛ فإنْ عشتم إلى زمنه فاسألوا الله الثّبات أمام بَلواه؛ فإنّه من كلّ ألفٍ لا يكاد ينجو واحدٌ!!

ثُمّ صمتَ، فنزلَت سحائبُ الخوفِ على قلوب التّلاميذ. فلمْ

يُحرّكوا ساكِنًا، وحدها عُيونُهم كانت تتقلّبُ في كُلِّ جهةٍ بحثًا عن مهربٍ نفسيّ.

ثُمّ تركنا (يهوذا) واستأذنني بالذّهاب، قائِلًا: «أنتَ تعرفُ إلى أينَ أذهبُ يا مُعلّم». «لِمَ العَجَلةُ يا يهوذا، ألا تصبرُ ليلةً أخرى؟!». «كُلُّ شيءٍ قدْ تَمّ يا مُعلّم». ثُمّ قُمتُ من مكاني واتّبعْتُه إلى حيثُ هو، فتبعني بعضُ التّلاميذ، فأمرتُهم أنْ يجلِسوا مكانهم، لأنّني أريدُ أن أنفردَ به، فأخذتُه من يده، فشعرَ بحرارةِ الرّوح القدس يسري لهيبُها في جسده، فنفضَ يده من يدي، وانتحينا جانِبًا لا يرانا فيه التّلاميذ، ونظرتُ في عينَيه مُباشرةً: «وُلِدْنا في زمانَين مُتشابِهَين». «وسنعودُ في زمانَين مُتشابِهَين». «لا يغرّنّكَ كثرةُ الباطِل الّذي سينبعُ من تحتِ قدمَيك». «للنّاسِ ما ترى لا ما سترى؛ إنّها تُؤْثِرُ العاجِلة؛ أليسَ هذا مكتوبًا في صُحُفِكم جميعًا؟!». «ولكنْ لماذا اخترتَ أن تظهرَ في زماني؟!». «إنّني موجودٌ من زمن نوحٍ». «ولكنّكَ لم تظهر إلاّ في زماني». «أخطأت، أظهرُ في كلّ زمانٍ، ولكنّكَ عرفْتني وبعضُ إخوتِكَ لم يعرفوني، وبعضُهم عرفني وآثرَ أن يظلّ صامِتًا». «فمتى يكونُ نهايةُ كُلِّ هذا؟!». انفجرَ بالضّحك، فسمعَ التّلاميذُ ضَحِكته وبدلَ أن يطمئنّوا دبّ الرّعبُ في قلوبهم، فلم يستطيعوا مبارحةَ أمكنتهم. فردّ عليّ وضحكته لا تزال تتردّد: «الآنَ تسألني يا يسوع... انظروا مَنْ يسأل مَنْ؟! دَعْنا نؤجّل الحديثَ حولَ هذا إلى زمنٍ آخر». «هل ستأتي بالهيئة نفسِها؟!». «لي في كلّ زمنٍ هيئة، ربّما تتغيّر هيأتي أو اسمي، لا عليك؛ كلّ هذا قِشرة، عليكَ بما في داخي؛ فما في داخِلي لن يتغيّر، إنّ نيرانًا من الحِقد والكراهية

تشتعل في قلبي لا تُطفِئها كُلّ سحابات السّماء ولو هطلت عليه ألفَ سنةٍ». «ففيمَ هذه النّار؟!». «لتأكل كلّ من يقفُ في وجهي». «ألا تستطيع أن تبدّلها إلى نهرٍ من الحبّ؟!». «سبقتْ يدُ الشّيطان إلى قلبي فجرى عليه قدر الله؛ أجِئتَ لِتُغيِّرَ ما كُتِبَ في اللّوحِ منذ بدء الخليقة؟!». سمعتُ من بعيدٍ صوتُ يوحنّا: «يا مُعلّم لِمَ كُلّ هذا الوقتِ مع يهوذا؟! دَعهُ يَمْضِ إلى شأنه أو أشرِكْنا في أمركما». «لا عليكَ يا يُوحنّا، إنّ ما بيننا لا يشتركُ فيه ثالثٌ إلاّ الله». «أهو سِرّ؟!». «بل أسرار يا يوحنّا لا تعلمها أنتَ ولا إخوتك». «إنّكَ تُوغِرُ صدورنا بذلك يا مُعلّم». «لو سمحتُ لكم أن تطّلعوا على ما بيني وبينَ يهوذا لكفرتم بي، فلا تُجاوِزوا حَدّكم، إنّ لكلّ إنسانٍ حَدًّا خطّه الله له؛ فإنْ لم يرضَ به، وتجاوَزَه؛ وقع في أحضانِ الشّيطان». «فأينَ أنتَ الآن؟!». فصرخ يهوذا ليُسكِته: «في أحضانِ الشّيطانِ يا أخي... في أحضانِ الشّيطان؛ هل يُرضيكَ ذلك؟!». فسكتَ ولم ينطقْ بحرفٍ بعدها. فسألته: «لِمَ لمْ يقبضوا عليكَ كما قبضوا على باراباس؟!». «سؤال طُفوليّ يا مُعلّم، لو سأله غيرُكَ لغفرتُ له، أتسألني مثلَ هذا السّؤال وأنتَ تعلم حقيقتي!!». «أريدُ أنْ أسمعَ منك». «ما كانَ باراباسُ إلاّ طُعمًا ليومك؛ مسكين هو الآخَر، لا أدري لماذا اخترتُه هو لِيُنَفِّذَ خُطّتي». صمتُ. فتنهّدَ قائلاً: «أكتفيتَ يا مُعلّم؟!». «ستذهبُ؟!». «نعم». «وماذا ستقول لهم؟!». «الجوابُ ما ترى بعدَ يومٍ أو يومَين». وغابَ في الظّلامِ كأنّه شبحٌ.

ثُمّ عُدتُ إلى التّلاميذ، قامَ إليّ برنابا فاحتضنني: «تبدو مُرهَقًا يا مُعلّم». «هل منْ طعامٍ لديكم. أنا جائعٌ». أكلْنا يومَها

بصمتٍ. قطع الصّمتَ في النّهايةِ (مَتّى): «يا مُعلِّم؛ لِمَ كُلُّ هذا الحزنُ في عينَيك؟!». فأجبتُه وعينايَ تفحصانِ في الأرض: «لَوْ عَرَفَ رَبُّ البَيْتِ في أيِّ هَزِيْعٍ يَأْتِي السّارِقُ، لَسَهِرَ وَلَمْ يَدَعْ بَيْتَه يُنقَب».

وصلَ يهوذا إلى الغرفةِ السّفليّة السّرّيّة بعدَ مُنتصف اللّيل، قال له (قَيافا) الّذي قامَ من كرسيّه مُرَحِّبًا به: «لقد انتظرناكَ طويلاً». «لو انتظرتَ الدّهرَ كُلَّه لكنتَ أنتَ الرّابِح». فقال له أحدُ الكهنةَ الجالِسين بتراخٍ على أحدِ الكراسيّ: «تأدّبْ مع الكاهنِ الأكبر». فردّ عليه يهوذا: «لا تجلس مثلَ النّساء فلربّما تُغري عورتُكَ بعضَ الرّجال هُنا أيّها الأحمق». فاشتعلَ صدرهُ غضبًا وَهَمّ بالوقوف، فلكمه (يهوذا) على وجهه فأعادَه جالِسًا، فأصابته الدّهشة، فنظر في عينَي قَيافا كأنّما يحثّه على أن يقول شيئًا، فقال له قيافا: «كم مرّةً قلتُ لكَ لا تحشر أنفكَ فيما لا يعنيك». فقال يهوذا: «لا أريدُ النِّساءَ أن تشهدَ جلستنا هذه». فطرده. فجلسَ يهوذا مكانه. فقال لقيافا: «سأسلّمكم يسوع». «مقابلَ ماذا؟!». «رفعه على الصّليب». «عجيبٌ، أتلميذٌ من تلاميذه يقول هذا؟!». فزفر يهوذا، وقال ساخِطًا وهو يضربُ بباطن كَفِّه رُكبَتَه: «ماذا أفعل إذا كانَ كُلُّ الّذين أتعامل معهم جهلة؟!». فظنّ قيافا أنّه يحكي عن تلاميذ يسوع، وكانَ في الحقيقةِ يعنيه. فقال له قيافا من جديد: «لا بُدَّ أنْ نُكافِئك». «أنا لا أبحثُ عن مكافأةٍ غيرِ جسده». «ثلاثون دينارًا مِنَ الفِضّة تكفي؟!». فثارتْ نيرانُ يهوذا، وشدّ (قيافا) من جيبِ قميصه، وجذبه إليه جذبةً قويّة، وقال وهو يشدّ على الحروف: «اسمَعْ يا قَيافا؛ المالُ لا يَعنيني؛

لديّ من المالِ ما يفوقُ المالَ الموجود في خِزانتك بعشراتِ الأضعاف». «حَقًّا؟!». «ولو شِئتُ لأخرجتُ ذهبَ الأرضِ بإشارةٍ واحدةٍ». «حقًّا؟!». أرسله يهوذا من جديد نافِضًا يده منه: «يا أحمق اصمِتْ ودعْني أُكملِ كلامي. ستكونُ الثلاثون دينارًا من أجل العامّة والجَهَلةِ وأمام النّاس. سأقبَل بها، وسأرميها أمام قدمَيكَ من جديدٍ بعدَ أنْ آخذها». «لماذا يا يهوذا؟!». «هكذا تسيرُ خُطّتي». «سأرميها، أتعرفُ ماذا تُساوي هذه الثّلاثون إلى ما أملك، إنّها لا تُساوي نُقطةً في بحر، ولا ذرةً من رمل». «فَلِمَ تُسّلم يسوع إذًا؟!». «لم نتّفق؛ أردتُ له القُوّة والعَظَمةَ والجبروت وأرادَ لنفسه الدّعةَ والمحبّة والسّلام». «وماذا في المحبّة يا يهوذا؟!». «أترىَ لها مكانًا في عالَمنا؛ قُلْ لي أينَ تُباع في زمنِ البطشِ والتّنكيل؛ إذا كانتِ البشريّة ابتدأتْ بجريمةِ قتلٍ فَلِمَ لا يستمرّون على ما بدؤوا عليه؟!». «هِه... قلتَ لي اختلفْتَ معه!». «أردتُ له أنْ يحملَ السّيف ويضعه على كلّ رقبةٍ وأرادَ لنفسه أن يحمل الوردة، يظنّ أنّ الوردةَ تتغلّبُ على السّيف!!! في أيّ عصرٍ نعيشُ نحن يا قَيافا؛ في أيّ عصر... هِه... قُلْ لي؟!». «أأنتَ تنتمي إلى هذا العصر يا يهوذا؟!». «أنا أنتمي إلى كُلِّ عصرٍ يا جاهل». «لم أفهمْ». «ولنْ تفهم». «فمتى تُسلّمنا إيّاه؟!». «تسليمه سهلٌ يا مُغفّل. الأهمّ كيفَ سنُقنِع الشّعبَ بأنّه يستحقّ أنْ يُصلَب». «أنا لا أريدُ أن يحدثَ شغبٌ في النّاس. لا أريدُ أن يتمّ في يومِ سبتٍ لِئَلاّ يكون هناكَ عددٌ كبيرٌ من مؤيّديه». «أفعلُ ذلك من أجلك. لا يهمّني ما يحدث بعدَ أنْ يرفَع على الخشبة الّتي ابتدأ بها حياته، يهمّني فقط تلك اللّحظة».

«فما هي خُطّتكَ إذًا؟!». «تذهبَ صباحَ غدٍ إلى (بيلاطُس) وتطلبَ منه أن يُحاكِمه». «وبِمَ سيُحاكمه؛ بأنّه ابنُ الله؟!». لا يا أحمق». «أليسَ هذا تجديفًا يستحق القتل». «يستحقّ القتل عندك أمّا عند الحاكم الرّوماني فلا يهمّه أن يزيدَ عدد الآلهة عِندهم واحِدًا». «فبِمَ نتّهمه أمامه إذًا؟!». «بأنّه يدّعي بأنّه مَلِكٌ على أهل الأرض، وأنّه يُنازِعه في المُلك، وبأنّه يريد أن ينتزع كرسيّه من تحتِ قدمَيه؛ الملوك لو ادّعيتَ أنّكَ الله أو الشّيطان ما اهتزّتْ لهم شعرة، اعبدِ الله أو اكفرْ به بعيدًا عنهم كما تشاء، ولكنْ حينَ تُقاسِمه البِساطَ الأحمرَ الّذي يمتدّ أمام قدمَيه فهو حينئذٍ مُستعدّ أن يدمّر كُلّ شيءٍ من أجل ألاّ يتقاسمَ ذلك البِساطَ معه أحدٌ». «فكيفَ سيصدّقُ المَلِك ما أقول؟!». «ما أكثرَ شهود الزّور يا قَيافا!». «ولكنّكَ حينَ تبحثُ عنهم تتعبُ». «لا تبحثْ كثيرًا؛ ألستَ أحدَهم؟!».

٥٤

الذّكريات طعنةٌ في القلب

البكاءُ خِيانةُ القلبِ لِعَهدِ العقل

هبطتُ جبلَ الزّيتون. استأذنتُ التّلاميذ. كانَ عليّ أن أُودّع أمّي. مضيتُ مُسْرِعًا. مرّ شريطُ الحياةِ أمام ناظِريّ كما مرّتْ أسرابُ القَطا في مساءٍ دافِئ، تذكّرتُ أوّلَ تلقّفها لي حينَ ولدتْني. لم أصرُخْ ولم أبكِ كالأطفال؛ أفأصرخُ اليوم؟! قالتْ أمّي: «مُبارَكٌ أنتَ فلنْ يمسّكَ الشّيطانُ أبدًا». حرّكتُ يديّ سُرورًا؛ لم تكنْ تعرفُ أنّي أعرف. ماذا سأتذكّر من محطّاتٍ مع أمّي؟! القلبُ لا يَقوَى على احتِمال المزيد، الذّكريات طعنةٌ في القلب. بعضُ الجراحات سرعان ما تلتئم، إلاّ جراح الذّكريات فإنّها لا تَشفَى أبدًا.

النّشأة، المعبد، الخوف من هيرودس، رحلة مصر، العودة، العمل، رحلة الحجّ، النبوّة، أكانَ كُلُّ شيءٍ مكتوبًا يا أمّي، ويسير وَفقَ قدرٍ إلهيٍّ غلاّب؟! كانَ اللّيلُ صعبًا وطويلاً. كانت المِحَن قد صبغتْ عهدَنا كُلّه، وعمرنا المشترك جميعه؛ أَكُنّا منذورينَ للمحنةِ يا أمّي!!

أسرعتُ؛ أحتاجُ اللّيلَ كُلَّهُ وبعضَ النّهار لأصلَ إلى النّاصرة، تعثّرتُ في الطّريق، سقطتُ، أُصيبتْ رُكبَتي، جاءتْني أمّي، أنهضَتْني، نظرتُ في وجهها؛ إنّها هِيَ؛ كيفَ حضرتْ في هذه السّاعةِ من اللّيلِ إلى هنا، لا؛ ليستْ هِي، لا يُمكن أنْ تكون،

المسافة من النّاصرة إلى هنا طويلة، ولْتكنْ طويلة، علّها خرجتْ منذ الصّباح والآنَ وافتْكَ في هذا الجبل، وكيفَ تعرفُ أنّني هُنا؟! قلبُ الأمِّ يرشِدُها، وإلى مَنْ؛ إلى حبيبِها، إلى ابنها السّماويّ. لا... لا بُدّ أنّ في الأمر سِرًّا. تراجعتُ إلى الوراء، واجهتُها، قلتُ وأنا ألهثُ:

- هل أنتِ أمّي؟!

- لن تستطيعَ رؤيةَ أُمّك.

- لِماذا؟!

- لأنّه اللّيلةَ تُؤخَذ.

- ومَنْ أنتَ؟! (تغيّرتْ هيئته في الحال بعدَ هذا السّؤال)

- لا تَخَفْ. أنا رسولُ السّماء، لكنّ أمّك تسمعك، وأنا أسمعها، فإذا شِئتَ فخاطِبْها عن طريقي، وتُخاطِبكَ عن طريقي كذلك.

تراءتْ هيئتُها فيه من جديد. هممتُ بأن أحضنها وأبكي على صدرها طويلاً، ثُمّ تراجعتُ لَمّا علمتُ أنّها صورتُها وليستْ هي، سألتُها: «هل تسمعينني يا أمّاه؟!». «نعم؛ يا بُنَيّ، نعم يا حبيبي». «لقد جِئتُ لأودّعك». «كيفَ سأحتملُ غِيابَك؟!». «إنّه غِيابٌ مُؤقّت، ألم تعلمي؟!». «لكنّه عليّ طويلٌ طويلٌ». «ألمْ تُوصيني بالصّبر منذُ كنتُ يافِعًا، أتذكُر؟!». «وكيفَ أنسى؟!». «إنّ قومَنا رفعوا السّيفَ في وجوهنا، وما قدّمْنا لهمْ إلاّ قلوبَنا». «لا تحزني يا أمّي؛ ذلك دأبهم منذُ يعقوب». «فهل أنتَ ناجٍ منهم؟!». «لم ينجُ منهم أحدٌ». «يا بُنيّ أمرٌ قدّره الله علينا؛ فأينَ المهرب؟! إنّما نفرّ منه إليه». «وأنا إليه

اللّيلةَ يا أمّي». «ما أوحشَ العمرَ بعدَكَ يا بُنيّ!!». «لو كانَ عُمري ينتهي كما تنتهي أعمار البشر لجَزِعتُ؛ ولكنّها أحقابٌ مُتطاوِلة؛ أنا أطولُ الأنبياء عمرًا». «إنّها ثلاثةٌ وثلاثونَ عامًا يا بُنيّ فحسب». «هذه على الأرض». «أفهناكَ غيرها؟!». «في السّماء أكثرُ من ذلك بكثير». «أو تهرم؟!». «الفانونَ يَهرمون ويَشيخون وتتغيّر وجوههم». «يا بُنيّ؛ وسيمًا وضعتُك، وازددتَ مع الأيّامِ وسامةً، وجهُكَ هذا الّذي تنهلُّ له الرَّحمات كيفَ سيُغادِرنا؟!». «سترينَه في صلاتِك». «سأصلّي من أجل أنْ أظلّ أراه». «ستقسمين لي نصيبًا من دُعائِك؟!». «سأجعل دُعائي كُلَّه لك». «إذًا لا خوفَ عليّ ولا حَزَن».

ورأيتُها تبكي. كانَ وجهها قد تغضّن. هذه التّجاعيد ليست لنبيّة، ليست لِقدّيسة. أهْرَمني حُزنُها قرنًا من الزّمان. ما أضعفَ الإنسان؛ يهزمه سَهم القدر في أحلكِ الظّروف!! أنا الّذي جِئتُ لكي أزرعَ شتلةَ الصّبر في قلوبِ المؤمنين كُلِّهم أفقده اللّحظة. أنا الّذي درّبْتُ قلبي على الغياب من أجل كلمة الله يغتالني الغيابُ الآن.

اقتربتُ منها، مسحتُ دموعَها بيديّ، غاصتْ يديّ في غَمامةِ الملاك. احتضنتُها فدخلتُ في رحمتها. إنّها لحظةُ الوداعِ يا أمّي. لا أريدُ أن أُطِلَّ من عَليائي فأراكِ باكِيةً. البكاءُ خِيانةُ القلبِ لِعَهدِ العقل. أجّلي هذه الدّموع ليومِ الفَرَحِ العظيم. أنا الّذي بشّرتُ الكونَ كُلّه بهذا الفرحِ لأجلِكِ لا لأجله.

رجعتُ إلى الوراء، رأيتُها تختفي في السّحابِ شيئًا فشيئًا، غابتْ تمامًا لكنّ طيفَها انطبعَ على القمرِ فأضاء، حتّى النّجومُ

رأيْتها تلمعُ إذْ ذاك، هؤلاءُ هُمُ المؤمنون بي، إنّهم يسكنون السّماء؛ لأنّ الأرضَ لم تعدْ صالحةً لهم، إنّهم سيزدادون عددًا، كُلُّ مَنْ آمنَ بي وإنْ ماتَ فَسَيحيا في نجمةٍ، نجمةٍ لا يُنقِصُ من عليائها كُلُّ ما لأهل الأرضِ على الأرضِ من قُصُور. ها هي الكواكب إنّهم إخوتي، ها هم يبتسمون في وجهي، كأنّهم يقولون: إننّا ننتظرك فلا تُبطِئ في سَيرِك، دَعْ ما قدّره الله لكَ يَمْضِ إلى نهايته كما أراد. عَجّلْ إلى رَبِّكَ لِيَرضَى.

عُدتُ فصعدتُ الجبلَ من جديدٍ. كانوا لا يزالون في مواضِعهم. هُرِعوا حِينما رأوني. مُثقلاً بالحنين مشيث، يَحني الحنينُ ظهرَ الأقوياء الّذين قليلاً ما تتحرّك قلوبهم داخلَ صدورهم، فكيفَ بالأنبياء الّذين وُلِدوا من رَحِم الرّحمة! التفّوا حَولِي. قالوا إنّهم سيَبقَون معي حتّى يَروا ما يُمكنهم فِعله كي لا يحدث السّوء. إنّ كُلّ شيءٍ يقع من صغيرٍ أو كبيرٍ، مِنْ خيرٍ أو شَرّ فإنّما يقع في الطّريق الماضِية في سَيرها منذُ أوّل البشر. الطّريق لا تعترف بالمُفاجآت؛ لأنّ المُفاجآت جزءٌ يسيرٌ من تعرّجاتها، إنّها تنحني في كُلّ عصرٍ، وتُلقِي صَرعَى الأقدار من جوفِها إلى الجانِبَين، تطحنهم، تتبتلعهم في جوفها، ثُمّ تعيدُ إنتاجهم من جديد، ولا يُوقِفها أحدٌ إلاّ الّذي خَطّها لنا من البِداية.

- أرى أن نتركَ المكان، إلى جبلٍ آخر، يعصِمنا من شَرّ قَيافا وكهنته (قال أحدنا)

- لا عاصِمَ اليومَ من أمرِ الله إلاّ مَنْ رَحِم.

- أفيرحمنا ويُخلِي رحمته منك؟! أظنّه لن ينجو سِواكَ يا

مُعلّم.

- النّاجون قد كُتِبوا في الصّحائف، وصعدث صحائفُهم إلى السّماء.

- فلْنهربْ من هنا يا مُعلّم.

- لم يفْعلْها نبيٌّ من قبلي؛ أفأفعل؟!

- لكنْ هذا ليسَ من أجلك، بل من أجلنا، وأجلِ مَنْ يُؤمنون بنا.

- لا عليك. امتحنْ قلبَك، ودَعْكَ من قلوبِ الآخَرين.

جلسْنا من جديدٍ في حلقةٍ. أوقدَ أحدُ التّلاميذ نارًا في الوسط، ورُحْنا نستدفِئ ونستضيء، لمعث وجوهنا على ضوء النّار. كانَ قد طافَ بنا طائفٌ، فأوغلْنا في الصّمت. ما الّذي هبطَ على قلوبنا في تلك اللّيلة فملأها بالشّكّ حِينًا، وبالخوفِ حينًا، وبالجزع حينًا؟! تذبذبتِ الأسئلة وهو تُحوّم حول قلوبنا: «لو كانَ مُؤيّدًا من الله فكيفَ يُسلِمه إلى قاتِليه؟!». هتفَ أحدُنا في نفسه، وتابعَ آخرون: «إنّ موتًا يجيءُ من صديقِك لهو أعجبُ العَجَب!!». «لو دعا اللهَ لاستجابَ له فأهلكهم؛ فأيَّ شيءٍ ينتظر؟!». «لعلّه صدقَ الّذين قالوا عنه إنّه ساحِرٌ، وكانَ يصنعُ الأهوال؛ فلمّا زال عنه سِحرُه بَطَلَ ما كانَ يعملُ مِنْ قبلُ». «إنّنا في ورطةٍ». فحينذاكَ لم أصبِرْ على هواجِسهم، لقدْ أحسستُ منهم الكُفر، فصرختُ بهم: «نعم، إنّكم في ورطة، وإنّه لن يُنقِذكم منها أحدٌ».

٥٥

لماذا تُؤخّر مَوعِدَك؟!

عادَ يهوذا من غيبته. كانَ معه (نيقوديموس) أحد أصدقائنا. قال (يهوذا) لي: «سنبيتُ في بيتِه اللّيلة؛ إنّ احتِفالاً هناكَ سيُقام، ووعدَكَ لي هناكَ سيُنجَز». قال التّلاميذ لي وهم خائِفون: «لا تُسلّمْ نفسَكَ لهما؛ إنّهما يُدبّران أمرًا». أجبتهم: «كلاّ. إنّه قد تمّ أمرُ ربّك، وسنذهب معهما». «أنا لن أذهب» قال بطرس. «أنا لا أُجبِر أحدًا على أنْ يذهبَ معي، مَنْ أرادَ أن يشهدَ معي العَشاءَ الأخير فله ذلك، ومَنْ أرادَ أن يُفارِقَنا فله ذلكَ أيضًا». كانت أقدار السّماء تقتضي أن نبيتَ عنده اللّيلةَ الأخيرة، ونأكلَ طَعامَنا الأخيرَ على مائِدته.

قال لي (نيقوديموس): «يا مُعلّم. بِتْ عندي هذه اللّيلة حتّى يسكُنَ غضبُ الكَهنَةِ عليك». نظرتُ في وجه (يهوذا)، كانَ يبتسم ويحرّك حاجبَيه للأعلى ويهزّ رأسه. قلت له: «سأفعل. هل ستأتي معنا يا يهوذا؟!». «بالطّبع يا مُعلّم. سأظلّ معك؛ أتظنّ أنّني سأتخلّى عنك. على الأقلّ ليسَ في اللّحظاتِ الأخيرة؛ انظرْ إلى هؤلاء الكَذَبةِ الّذين يُحيطون بك، إنّهم سيكونون أوّل مَنْ يتخلّى عنك». اقتربْتُ منه، وهمستُ في أذنيه: «لا تقلْ مثلَ هذا الكلام مرّة أخرى أمامهم». «تخشَى على قلوبهم. فَكّرْ بنفسِكَ قبل أن تُفكّر بهم». «لا تُعِدْ ذلك مرّة أخرى، وَحَسْبُ. هَيّا بِنا». «ستتذكّر ما قلتُه لك قريبًا».

وانطلقْنا إلى البيت. كانَ كأنّما أُعِدّ لهذه اللّحظَات يومَ خلقَ

اللهِ السّماواتِ والأرض. قديمٌ كالأبديّة. مُستعدٌّ كالحتف. عميقٌ كالحنين. وقاسٍ وجميلٌ كالوردة. دخلْنا البوّابةَ الّتي تتوسّطُ سورًا حجريًّا مُنخفِضًا، يبدو رومانيًّا في هيئته، والنّاسُ على هيئةِ بيوتِها. كانتِ الحديقةُ الّتي تفصلُ البوّابة عن البيت واسِعة. ومليئة بالأشجار. لكنّها بدتْ صامِتة لا حركةَ فيها تُسمَع، مَنْ فقدتْ هذه الأشجارُ حتّى تلبِسَ كُلَّ ثِيابِ الحِدادِ هذه؟!

وصلْنا إلى بوّابة البيتِ، دخلْنا. كانَ البَهوُ الأرضيّ يبدو خالِيًا إلاّ من بعضِ الأثاثِ المُتناثِرِ هُنا وهُنا. دُرنا نصف دورةٍ عن يميننا لِنواجه درجًا يصعدُ إلى غرفةٍ عُلويّة، في الصّعودِ سقطتِ الكأس فسالَ ما بِها، في الصّعود تخلّتِ الرّوحِ عن الجسد، في الصّعود تبقى الرأسُ مرفوعةً وهي تستشرفُ الخُطوةَ القادِمة. أتممنا صُعودنا إلى غرفةٍ واسعةٍ مُؤثّثةٍ بشكلٍ جيّد، تتوسّطها مائدةٌ تتّسع لاثني عشرَ تلميذًا. لم يحدثْ أنِ اجتمعْنا كُلُّنا في مكانٍ واحدٍ قبلَ هذه المرّة. ها نحن نفعلها اللّيلةَ. في الزّاويةِ القصيّة من هذه الغرفة الّتي يُطلّ شُبّاكها على طريقٍ مرصوفةٍ في الخارج تقبعُ غُرفةٌ أخرى صغيرة أعدّتْ لكي تَفِي بحاجاتِ الضّيوفِ من الطّعامِ والشّراب.

جلسْنا إلى المائدة. قال (يوحنّا): «سأُعِدّ لكم العشاء». أجبْتُه: «قليلٌ من الزّادِ يكفي الرّحلةَ الطّويلة». «لكنّنا جائِعون». «ويلٌ لِمَنْ يشغله بطنُه عمّا له». «يا مُعلّم، إنّنا خائِفون ونريد أن نأكل معك فتسكُنَ صُدورنا». «لا تَخافوا.

ما دمتُ بينكم. فإنْ فارقتُكم فلا أمانَ إلاّ لِمَنْ تمسّكَ بكلمتي؛ السّماءُ والأرضُ تزولان، ولكنّ كَلامي لا يزول». «أنا سأصنعُ لكمْ طعامًا طيّبًا». «لا طَعامَ طيّبًا إلاّ ما طيّبَتْه يداي. اجلسْ يا يُوحنّا. وأنتَ يا أندراوُس ائتِني برغيفِ خُبزٍ واحدٍ، وإبريقٍ مِنْ شرابٍ».

قامَ أندراوُسَ فجاءَ بما طلبْتُه منه، وجلَسَ حَذِرًا مكانه، فقمتُ فابتدأتُ ببطرس، فقسمتُ له لُقمةً فقلتُ له: «كُلْ يا بُطرُس»، وانتهَيتُ بيهوذا: «كُلْ يا يَهوذا» ولم يبقَ من الرّغيفِ شيءٌ. مَضغَ كُلٌّ واحدٍ لُقمتَهُ ببطءٍ وحيرةٍ. ثُمّ وقفتُ بعدَ أنْ أتمّوا، فقلتُ: «قدْ كانَ هذا جسدي، فوزّعتُه عليكم، لأُبارِككم، فمنْ حافظَ على لقمته الّتي أطعمتُها له من أنْ تُلوّثَ فسيكونُ رفيقي في الأبديّة، ومَنْ خانَ فقد خانَ نفسه، ويلٌ لذلك الشّقيّ الّذي يغمسُ لُقمتي بالنّار».

ثُمّ تناولتُ إبريقَ الشّراب، فسكبتُ لهم الكأسَ واحِدًا واحدًا، فشربوا، فلمّا أتممتُ سِقايتهم، قلتُ: «وهذا دمي سَرَى في أجسادِكم، إنّه لا يُمكنُ لدمي أن يُنجّس إلاّ لِمَنْ أرادَ ذلك، فارعَوا حُرمتي فيه؛ فإنّه يأتي يومَ القِيامةِ يفوحُ كأنّه رِيحُ المِسك، فمَنْ من لم يَجِدْه كذلك فقد باعني».

كانوا يسمعونَ بقلوبٍ واجِفة، وعيونٍ دامِعة، ثُمّ قلتُ لهم: «لِمَ يُخيّمُ عليكم الحُزنُ كأنّكم ستموتون من فوركم؟!». «إنّنا حَزِينون لِفراقِك، ولِما سيحدثُ لك». «ما سيحدُثُ لي هو نهايةُ الأحزانِ لا بِدايتُها؛ فأبشروا». فافترّتْ شِفاههم عن بسمةٍ باهِتة، لم تنجح البُشرَى في أن تجعلها تكتملُ

على وجوههم. فناديت: «يا أَندراوُس». «لبَّيْكَ يا مُعلِّم». «ائتِني بإبريقِ ماءٍ وطست». فجاءني بهما، فخلعتُ قميصي، واتّخذتُ مِنشفةً فلفَفْتُها على وسطي، وأمسكتُ الإبريقَ بيُمناي، ثُمّ انكَبَبْتُ، فوضعتُ الطّستَ تحتَ رِجلَي يهوذا، وسكبتُ عليهما الماء، وركنتُ الإبريقَ جانِبًا، ثُمّ فركتُهما بِيَدَيّ، فنظرَ إليّ مُتَبَسِّمًا، فلمّا أنهيتُ، قمتُ فحللتُ المِنشفةَ عن وسطي، ونشّفتُ الماءَ المسكوبَ على قَدَمَيه، فلمّا رآني التّلاميذُ أفعل ذلك دُهِشوا، وأرادوا أن يطلبوا منّي أن أكفّ فمنعتُهم من ذلك، وتابعتُ غسلَ بقيّة أرجل التّلاميذ واحِدًا واحِدًا، حتّى وصلتُ إلى بطرس، وكنتُ أقصدُ أن أنتهي إليه، فلمّا قرفصتُ لأسكبَ على رِجلَيه الماء، قال لي: «يا مُعلِّم، أتغسِلُ رِجليّ؟!». فرفعتُ رأسي إليه وأنا في موضعي، وقلتُ له: «يا بُطرس إنّ ما أفعله أنا لا تفهمه أنت». «ولكنْ يا سيّدي... لن تغسلَ رجليّ أبدًا». فنهضتُ حينئذٍ فقلتُ له: «إنْ لم أفعل فلن ترافقني إلى الأبديّة». فاضطربَ، وتدارَكَ الموقفَ، فقال: «لا تَغسِلْ رِجليَّ فحسب، بل يديّ ورأسي». فأجبتُه: «سأفعل لكَ ما فعلتُه لإخوتك». فغسلتُ رِجلَيه، ونشّفتُهما، وقمت، فوضعتُ الإبريق والطّست، فهبّ (مَتّى)، فقال: «أغسلُ إذًا رِجلَيكَ يا مُعلِّم». «لن تُغسلَ رِجْلاي في الأرض يا مَتّى، فهوّنْ عليك». ثُمّ نظرتُ في وجوه التّلاميذ جميعًا، فقلتُ لهم: «مِثلَ هذا اغسلوا أرجلكم بعضُكم من بعضٍ. أَحِبّوا أنفسكم، لأنّني فعلتُ ذلك لأجلِ حُبّي لكم، لا يتكبّرُ أحدكم على أخيه. أعرفتم لِمَ فعلتُ ذلك الآن؟!».

ثُمّ حللتُ المنشفةَ عن جسدي، وأعطيتُها ليهوذا، وقلتُ له:

«اتبَعني». فلحق بي وهو ينظرُ إلى التّلاميذ مُتشفّيًا، فقلتُ له: «أفعلتَ كُلَّ ما قاله الشّيطان لك؟!». «نعم، وعلى أتمّ وجه». «فمتى يكونُ الموعد؟!». «ما أكثرَ أسئلتكَ يا يسوع! إنّ كثرةَ السّؤال عن الخطر الدّاهم دليلٌ على خوفِ السّائل». «لا، ولكنْ لأصلّي قبلَها». «لن تدفعَ الصّلاةُ عنكَ شيئًا؛ إنّها تُطيّبُ رحيلكَ فقط». «ولكنْ...». «لماذا تُؤخّر موعدَك يا يسوع؟ كُلّ هذا الّذي فعلْتَه اللّيلةَ لا يُؤخّر الموعدَ لحظة، إذا جاءَ الأجل وقفَ الزّمن».

ثُمّ عُدْنا، وظنّ التّلاميذُ أنّني وهبْته أسرارًا لا يحقّ لهم أن يطّلعوا عليها فَنَفِسوه وحَذِروه وخافوه. فلمّا جلستُ إلى المائدةِ من جديد، طلبَ منّي (يوحنّا) أن يُريحَ رأسه في حِضني، فأجبتُه، فأمال جَسَده، وألقى برأسه عندَ صدري فاطمأنّ. فلمّا وجدتُ منهم ترقُّبًا لِما سأقول، هتفتُ بهم: «لقد غسلتُ أرجلكم، ولكنّكم مع ذلك لستُم كُلُّكم طاهِرين؛ لأنّ ماءَ البحر لا يُطهّر مَنْ لا يُؤمن بي». فَحِزنوا. فتابعتُ: «إنّ واحِدًا منكم سيُسلّمني فأُباعَ كخروفٍ». فاسترقَ بعضُهم النّظَرَ إلى بعضٍ، ورجفتْ قلوبهم، فأرسلَ (بطرس) نَظَرَه إلى (يوحنّا) النّائم على صدري، فغمَزَه بعينِه أنْ يسألني، فاتّكأ فسألني: «مَنْ يُسلِمكَ يا مُعلّم؟!». «مَنْ يُقبّلني يا يوحنّا». فلمْ يعرفوا من هُو فازدادتْ قلوبهم ارتِجافًا، فقال لي يهوذا أمامهم: «فألْبِسْني بُردَك أُقبّلْكَ». فخاف التّلاميذُ مِمّا قال خوفًا عظيمًا، وحيّرتْهُم جُرأته. فناديتُ: «أيُّكم يُلقَى عليه شَبَهي؟!». فصمتوا ولم يردّ أحدٌ. فأعدتُ السّؤال: «أيُّكُمْ يُلقى عليه شبهي؟!». فقام (أندارؤس) فقال: « يا مُعلّم أتسأل لتعرف،

أم أنّكَ تطلُبُ أحدًا ليفتديكَ مكانه؟!». «بل أطلبُ أحدًا يفتديني». فقال أندارؤس: «إذًا أنا هو يا مُعلّم». «كلاّ. لستَ أنت هو». فسألتُ من جديد، فأجابَ يهوذا: «فألْبِسْني بُرْدَك». فقلتُ: «هُوَ لك».

فقمتُ من مكاني، فسألني بطرس: «إلى أينَ تذهبُ يا مُعلّم؟!». «إلى حيثُ سيتمّ الأمر». «فسأتبعك، ولن يَصِلَ إليكَ أحدٌ». «إنّكَ لا تستطيع». «إنّني أقدّم عُنُقي فِداءً لك، ما قيمةُ الحياة إنْ لم تكنْ أنتَ فيها؟!». «عُنُقكَ يا بطرس؟!». «وروحي وجسدي وكلّ جارحةٍ فيه». «الحقَّ أقول لكَ يا بُطرس؛ إنّه هو أنتَ الّذي ستُنكِرني، وتُنكِرُ أنّك تعرفني، والسّيفُ لم يُوضَع بعد». «أنا يا مُعلِّم؟!!». «نعم يا بُطرس، وستفعل ذلك اللّيلةَ هذه ثلاثَ مرّاتٍ قبلَ أن يصيحَ الدّيك». فرجفَ ورجفوا، وارتعشَ وارتعَشوا، ولم تمرّ عليهم ليلةٌ مثلَ تلكَ اللّيلة.

ثُمّ إنّني هبطتُ من الغرفة وخرجتُ من البيتِ فتَبِعوني. وركبَ الشّيطانُ ظهور بَعضهم وتَبِعوني. وقصدتُ الحديقةَ الواسِعة الّتي تنتشرُ فيها أشجارُ زيتونٍ هَرِمةٍ وتَبِعوني. وافترشْنا جميعًا تُرابَها البارِدَ إلاّ مَنْ سبقَ عليه القول.

٥٦

لا يعرفُ حقيقتي على الأرضِ الآنَ إلاّ الله!

كانت ليلةً دامِسة، نورٌ خفيفٌ من القمر تسلّل عَبْرَ الأشجارِ الكثيفةِ فوصلَ باهِتًا. وكانَ الليل قد أوغلَ في دُجاه ونشرَ غلالته على كلّ شيء. وكانَ التّعبُ والحُزنُ قد أخذا نصيبَهما من التّلاميذ.

فطلبتُ منهم أنْ يَبقَوا مُستيقظين، وألاّ تنامَ قلوبهم، فإنّ الله لا ينظرُ إلى الغافِلين. وتركتهم، ومضيتُ إلى شجرةٍ عتيقةٍ أخرى، فجثوتُ على رُكبَتَي، ورفعتُ يَدَيّ إلى السّماء: «يا ربّ إنْ قضيتَ على أن أجاورك الليلةَ فلا تجعل مَنْ أحبّني يتيمًا مِنْ بعدي، فإنّ في الأرضِ قلوبًا لم تنطَوِ إلاّ على محبّتي، فاقبَلْها في ملكوتِك. يا ربّ لا تُعذّبْهم بي؛ فإنّي قد غفرتُ لهم، يا ربُّ إنْ كنتُ أنا قد تجاوزتُ عنهم أفلا تتجاوزُ – وأنتَ ربُّ كُلِّ شيءٍ – عنهم؟!». ثُمّ سقطتْ يداي على جَنبَي. فقُمتُ إليهم فوجدتُهم جميعًا نائمين إلاّ (يهوذا) فلم يكنْ موجودًا بينهم. فأيقظتُهم غضبانَ أسِفًا: «أما تصبرون على السّهر ساعة؟! صلّيتُ لأجلكم، وأنتم تغطّون في نومٍ كأنّما خرجتُم في نُزهةٍ، قوموا ارفعوا أيديكم لِئلاّ يَحِلَّ عليكم غضبٌ من الله». فنهضوا فَزِعين، وتلقّت كُلُّ واحدٍ منهم نحو أخيه، فعنّفَه كيف تركه ينام، وبدؤوا يَتلاومون، فتركتُهم. وعدتُ إلى الشّجرةِ إيّاها، فرفعتُ يديّ من جديد، وصلّيتُ لأجل البشر، واهتزّتْ يدايَ في نجواي، وتصبّبتُ عرقًا في ليلٍ

باردٍ، ودَخَلني ما دَخَل الإنسانَ من الخوف والرّجاء، فظهر نورٌ في الأعالي، وظلّ يهبِطُ حتّى صار أمامي، وعموده النّورانيّ مُتّصل بالسّماء، فقال لي: «هذا مِعراجُك؛ اليومَ نَجاتُكَ فلا تحزنْ». فبكيتُ خوفًا على مَنْ بعدي، وسقطتِ القطراتُ على الأرض، وارتجّ جسدي الجاثي على رُكبتَيه، فمسحَ الملاكُ جبهتي بيده. فسكنتُ.

تركتُ الموضعَ الّذي كنتُ أصلي فيه، وعُدتُ إلى التّلاميذ فوجدتُهم قد ناموا ثانيةً، فبدأتُ أوقظهم، هززتُ (مَتّى) من كَتِفَيه: «يا أخي ألا تُصلّي ساعةً من اللّيل؛ ماذا دهاكَ؟!». فاستيقظَ، فتركتُه، وذهبتُ إلى (أَنْدراوُس)، فإذا هُو مُلصِقٌ خَدّه إلى جذع زيتونة، قد نامَ نومًا كأنّه في غيبوبة، فوخزتُه في بطنه، فتحرّك. فاعتدلَ وهو يفركُ عينيه، ويسألني: «ماذا هُناكَ يا مُعلّم؟!». وطُفتُ ببقيّة التّلاميذ، فتناهتْ إلى سمعي إذ ذاك أصواتٌ عالِيةٌ قادمةٌ من جوفِ الجبل، وبدأ الصّوتُ يعلو تدريجيًا، ثُمّ برزتْ رؤوسُ المشاعل أوّلاً قبلَ رؤوسِ حامِليها، ثُمّ بَدَوْا جمعًا غفيرًا يتقدّمهم (يهوذا) وعشراتٌ من الجُندِ الرّومان، وطائفةٌ من الكهنةِ وعددٌ من اللّصوص والنّاس. لقد تَعِبَ اليوم (يهوذا) لكثرةِ ما راحَ وجاء بيننا وبينهم. كانَ (قيافا) قد استصدرَ أمرًا من (بيلاطُس) الملك الرّومانيّ بالقبضِ عليّ.

أرأيتم جيشَ الشّيطان؟! أنّى لكمْ أن تروه!! هذه كانت صورةً مُصغّرةً عنه!! سيجيءُ في آخِرِ الزّمانِ بأعظمَ من هذا وأكثرَ هوَلاً، فلمّا صاروا على مقربةٍ منّي، أوحى الله إليّ أنْ أدخل

البيت الّذي في طرفِ الحديقة، فقصدتُه، فأشارَ (يهوذا) بإصبعه نحوي، فلحقني عددٌ منهم، فصاح بهم (يهوذا): «دَعوه، أنا أكلّمُه» فجمدوا أماكنهم. فتقدّم (يهوذا)، فدخل الباب، فأتاني، فقبّلني، فقلتُ له: «أبقبلةٍ تَبِيعُني يا يَهوذا؟!». «سُبحانَ مَنْ لم يُطلِعْكَ على مَا أطلعني عليه». «فانظرْ ما تقول». «إنّني لا أبيعُك بقبلة، إنّما أنا وأنتَ قُطبا الزّمان. إنّني أهبُكَ رائحتي في هذه القُبلة لتعرفني في آخر الزّمان؛ لأنّني سآتي على غير هذه الهيئة». «لقد جُنِنْتَ يا يهوذا». «إنّكَ تقولُ عنّي ما قالوه هُم عنكَ، ومع أنّكَ أنكرتَ عليهم قولهم ذاك إلاّ أنّني لا أنكر عليكَ قولكَ هذا عنّي. أتعرفُ لماذا يا يسوع؟!». «لماذا يا يهوذا؟!». «لأنّهم حينَ أخرجُ الآنَ من عِندِكَ إليهم سيقولون ذلك في وجهي». وحضرَ المَلاك الّذي قوّاني عند جذع الشّجرة. فقال (يهوذا) له: «إنّه أمرٌ مُؤقّت؛ كِلانا مُبتلىً بصاحِبه». فألقَى الملاكُ شبهي على (يهوذا)، فلم أفرّقْ أنا بيني وبينه، ثُمّ أخذني الملاكُ فحملني بحنوّ بينَ يديه، وصعدَ بي من نافذة تلك الغرفة إلى السّماء.

وخرجَ (يهوذا) إلى الحديقة، فلمّا رآه الجُندُ قالوا إنّه هو الّذي هرب، إنّه يسوع، وهجَموا على (يهوذا) فما حرّك ساكِنًا بل ظلّ سائرًا نحوهم، وصاحَ (أندراوُس): «أتتركهم يأخذونكَ يا مُعلّم؟!». وابتسمَ (يهوذا) في استسلام عندما سَمِعَ كلامَه، وقال له: «الآنَ سيتمّ كُلُّ شيءٍ، إنّ ألمَ الجسد شيءٌ هيّنٌ أمام الانبِعاث، وسينبعثُ جسدي من جديدٍ».

كانَتِ الأعداد قد وصلت مع طبولها ومشاعلها وسيوفها

وجنودها وخيولها وزَعَقاتِها. هتفَ (بطرس) بيهوذا وهو يظنّ أنّه أنا: «يا مُعلّم أنضعُ فيهم السّيف؟!» وضربَ به رأسَ أحدِ الكهنةِ فقطعَ أذنه. فأجابه يهوذا: «ضَعِ السّيف في غِمده». فكفّ بطرس يده، ثُمّ إنّ الجُندَ ضربوا يهوذا، وأوثقوه وهو صامِتٌ لا يتكلّم، وصاحَتِ الغوغاء الّتي تجمّعت في المكان: «إنّه خائن، إنّه كافر، إنّه ساحر، إنّه مجنون، اقتلوه». وراحوا يرمونه بالحجارة، والجنود يحمونه لكي يُسلّموه لِيُحاكَم، وأنا أرى ما يحدثُ في عُروجي إلى السّماء بينَ يدي المَلاك. وكثُر الشّغبَ واللّغط، واختلطَ المتجمهرون هناك، وتداخلت صيحاتهم، وحدثت فوضَى كبيرةٌ في المكان، فرفع الجنود سِهامهم، وصوّبوها باتّجاه الرّعاع، وقتلوا عددًا منهم، فلمّا رأى التّلاميذُ ذلك هربوا جميعا إلاّ يهوذا المُوثَق. فإنّه كان صامِتًا يرقبُ المشهد الّذي يحدث كأنّه يُشاهِدُ مسرحيّةً، ويبتسمُ من حينٍ لآخر.

هربَ التّلاميذ في الشّعاف، ابتعدوا عن جبلِ الزّيتون بأكمله، غابوا في أجمةِ القُرى والأشجار بصمتٍ كأنّهم يهربون من أنفسهم إلاّ اثنان هُما (بُطرُس) و(يُوحَنّا)؛ فقد تَبِعا موكبَ الأسير عن بُعدٍ ليريا ما يُصنَع به، وهم يظنّون أنّي أنا الّذي أُسِرْتُ ولا يدرون أنّه يهوذا. فسلّمه الجنودُ الرّومان إلى (قَيافا)، فأُهبطَ إلى الغرفة السُّفلية، فلمّا رآه (قَيافا) مُكبّلاً بالحديد قدْ رُبِطَتْ يداه إلى رجلَيه بالزّردِ الغليظ، ضَحِكَ حتّى ضجّتِ القاعةُ بقهقهاته، فقال يهوذا في نفسه: «لولا أنّني أسيرُ وفقَ القدر ليتمّ لي سُلطانُ القوّة والشّرّ لنزعتُ لسانَكَ من جوفِكَ أيّها الجاهِل». فدار (قَيافا) حوله وبُخارُ

ضَحِكته ما زال يتصاعدُ في هواء الغرفة الثّقيل: «ها أنتَ إذًا أيّها المسيح؛ هل أنتَ الله؟!» ثُمّ ضَجّ بالضّحِكِ من جديد. قُلْ لي: «أأنْتَ مَلِكٌ أم إله؟!». ثُمّ أمرَ أحدَ حَرَسِه، فضربَ (يهوذا) على رأسه، فقال لنفسِه والدّمُ يسيلُ من أنفِه: «هيّنٌ ما أُلاقي في سبيل اليومِ الموعود». فصرخَ قَيافا: «لماذا لا تتكلّمُ أيّها المجنون؛ إنْ كُنتَ أنتَ المسيحَ فقُلْ لنا». فردّ عليه يهوذا): «إنْ قلتُ لكم لا تُصدّقونني؛ لأنّه لا يعرفُ حقيقتي على الأرضِ الآنَ إلاّ الله. وإنْ أخبرتُكم لن تُطلِقوني لأنّني أعرفُ نِهايتي؛ منذُ الآن يكونُ ابنُ الإنسانِ جالِسًا عن يمينِ قوّة الله». «أفأنتَ ابنُ الله؟!». «أنتم تقولون إنّي أنا هو». فرفع (قَيافا) يديه إلى أعلى، ثُمّ صفّقَ بينَهما، وقال وهو يكادُ يطيرُ من الفرح: «ما حاجتُنا إلى شِراء شُهودٍ ما دامَ قد اعترفَ بلسانه أنّه يجلسُ عن يمين الله وأنّه ابنُ الله. أيُّ شهادةٍ تدينُه أكثر من ذلك؟!». فكدتُ أنفجر بالضّحك من جَهْلِهِ لولا أنّني كتمتُ ضَحِكتي، وقلتُ له: «لقد لبثتُ فيكم عُمُرًا من قبلُ في هذا المعبد، الآنَ تدينونني؛ لم تكونوا من قبلُ تجرؤون أن تنظروا في وجهي، ولكنّ سُلطان الظّلامِ قد جاء ولا بُدّ له أن يعُمّ الأرض، وأنا سيّد مَنْ عليها، ومَلِكُ ملوكِها». فهتفَ أحدُ الكهنة: «ها هو أيّها الحبرُ الأعظمُ يُجدِّفُ من جديد». فأشارَ إلى بعضِ زبانيته فانهالُوا عليه بالضّرب واللّكم، ويهوذا يحتمل ذلك من أجل يومه الآتي. ثُمّ أشارَ (قَيافا) إلى أحدِ حرسِه، فجاءه بِصُندوقٍ أحمَر، قدْ لُفَّ بثوبٍ مِنَ الحرير، فقام (قَيافا) من مكانه واتّجه إلى (يَهوذا)، ووقفَ عن يمينه، والحارسُ - وبينَ راحتَي يدَيه الصّندوق - يقفُ عن شِماله، ثُمّ

وجّه قَيافا قوله إلى يهوذا بسخريةٍ وتَشَفٍّ مفضوحَين تَمامًا: «إنّها هَدِيَّتُك. لقد تعبتُ حتّى وجدتُ ما يُناسِبك. لقد قالوا إنّ الهدايا يجب أن تكونَ على مِقدار مُهديها، أمّا بالنّسبةِ لعظيمٍ مثلِك فيجب أن تكون الهدايا على مِقدار المُهدَى إليه». ثُمّ قهقهَ وهو يُرجِعُ ظهره إلى الوراء ويُديرُ طَرفَه في الكَهَنَةِ الّذين أحنَوا رؤوسهم جهةَ اليَسار قليلاً، ووضعوا أكُفّهم على أفواههم يُدارُون ضَحِكاتٍ مكتومةٍ حتّى لا تُسمَع. ثُمّ واصلَ (قَيافا) طَقسَه الاحتِفالي: «أتعرفُ أيّها المُعلِّم، لقد فكّرتُ فيها منذُ أوّل ظُهورٍ عَلَنِيٍّ لكَ، حينَ قلبْتَ موائِدَ الصّيارفة أيّها الشّيطان، ثُمّ وقفتَ على بابِ المعبد تمنع الحُجّاجَ أن يدخلوا أيّها الخِنزير». ثُمّ اقتربَ منه، فأحاطَ عُنُقَه بِكِلْتا يَدَيه، وشدّ عليها، فابتدأ نَفَسُ يَهوذا يَضِيق، ثُمّ شدَّ أكثر، فكادَ يختنق، فشدّ قيافا على أسنانِهِ حتّى كادَ يُحطّمها، وعضّ ببعضِها على شفته السّفلَى حتّى كادَ يقطعها، وقال له: «لنْ أرتاحَ حتّى تذهبَ إلى العالَم الآخر». فجاهدَ (يهوذا) لكي يردّ عليه قائلاً بحروفٍ مخنوقة: «أنا في العالَم الآخَر أيّها الأحمَق». ثُمّ واصل (قَيافا) قبضته المُحكَمة حتّى ازرقّ وجهُ (يهوذا)، ثُمّ أطلَقَه دُفعةً واحِدةً، فشهقَ شهقةً كُبرَى، ثُمّ تتابعَت شَهَقاته، كأنّما يَسحَبُ هواءَ الغرفةِ كُلّه لِيُعيد إلى رئتيه المُحبوسَتَين ما انكتم عنهما من الحَياة. تراجع (قَيافا) إلى الوراء، ونادَى حارِسًا آخَر: «افتحْ له هَدِيّته، إنّها هَدِيّةٌ تَلِيقُ بعريس!! ألم يقولوا إنّك لم تتركْ عُرسًا في الجليل إلاّ حضرتَه؟! ألمْ يقولوا إنّكَ كُنتَ تنوي الزّواج بمريم الزّانية، لعنَها الله وأبرأتَها أنت؟! أنا اليوم أُقدّمُ لكَ هديّةً تليقُ بعريسٍ

وسيمٍ مثلك. في الحقيقةِ لَمْ أُشاهِدْ في حياتي أكثرَ وسامةً مِنك، لا بُدّ أنَّ الفَتَيات والحسناوات كُنّ يتهافَتْنَ عليكَ!! وأنت؛ ماذا فعلت؟! تركتهنّ جميعًا، تركتَ كُلّ هذا الجَمال البَضّ، وهذا الشّباب الفائر، وفكّرتَ بزانِيةٍ في الأربعين!! الآنَ جديرٌ بي أنْ أُقدّمَ لكَ هذه الهديّة. افْتَحْها أيُّها الحارس». فأزال الحارِسُ غِطاء الحرير، وفضَّ الخاتَم، وفتحَ الصّندوق، وأخرجَ الهديّة، كانتْ ثوبًا، فَرَدَه الحارس أمام ناظِرَيه، إنّه ثوبُ السّحرةِ والمُشعوِذين، فيه مئةُ رُقعة، كُلّ رُقعةٍ بلونٍ. وتعلوه قُلنسوةٌ سوداء. نَدّتْ من الكَهَنة ضَحِكَاتٌ وهَمْهمات، فجّرها قَيافا بقهقةٍ جُنونيّة، والتفتَ إلى كَهَنَتِه: «ألا تليقُ هذه الهديةِ بعريس؟!». فهزّوا رؤوسهم وأيديهم على أفواهم. «ألبِسوها إذًا له». فألبسوه لِباسَ المُشعوِذين، وطافوا به المكان، وهم يجلدونه بالسّياطِ على ظهره، ومن ورائهم عددٌ من الكهنةِ يُصفّقون، ويستهزِئون به، ويَضحكون عليه.

«لا بُدّ أن نشتري بعضَ واسِعي الذّمم ليشهدوا بِكُفره أمام المحكمةِ الرّومانية» قال كاهنٌ آخر بعدَ انتهاء الحفلةِ الّتي زُفّ فيها (يهوذا). فردّ أحدهم: «ولماذا يُحاكَمُ عندَ الرّومان؟! نُحاكِمه نحن». قال (قَيافا): «لا، بل عندَ الرّومان، لأنّني في الواقعِ بدأتُ أشكُّ في أمر هذا الواقِفِ أمامنا، إنّه يُخيفُني أكثرَ مِمّا كان عليه حينَ كانَ حُرًّا». فهتفَ (يهوذا) في داخله: «لأنّنا شخصانِ مُختلفان؛ شيطانُ قلبِك يَصدُقُك». وتابعَ (قَيافا): «إنّنا سنُطالِبُ بصلبِه، ولكنّنا سنجعل الرّومان يُنفّذون فيه الصّلب، لأنّه لو كانَ نبيًّا صادِقًا أو فيه قُدرةُ الله ليُهلكنّ الله بسببه سبعينَ ألفًا من بني إسرائيل، وليهدمنّ معابدهم

المنتشرة في أنحاء فلسطينَ كُلّها، فإذا وقع عليه الصّلب على أيدي الرّومان كُنّا بُرآءَ من دمه أمام النّاس، وأمامَ التّاريخ». «وأمام الله». قال كاهنٌ ثالث. «هذا يُقرّره الله» ردّ قَيافا. ثُمّ تابَعَ: «احْبِسوه في غرفةٍ حتّى نبعثَ به في الصّباح إلى بيلاطُس».

وقفلَ الجنودُ بعدَ أن أسلموا يهوذا راجِعين إلى حامِيتهم، فشاهدَ أحدهمْ (بُطرس) عندَ باب المعبد حيثُ أُودِعَ يهوذا، فناداه قائلاً: «ألستَ من أتباع يسوع؟!» فاضطربَ بُطرُس ونظر حواليه، فسأله الرّومانيّ من جديد: «ألستَ الّذي ضربَ الكاهنَ على أذنه فأطارها؟!». «كلاّ لستُ أنا». فتركه الرّومانيّ ومضى. فقامَ بُطرس هو ويوحنّا من فورهم، وكانتِ الرّعاع الّتي شايعتِ الجنود الرّومان إلى جبل الزّيتون قد عادث، فرأته جاريةٌ من جواري اليهود، فصاحث بمن معها: «هذا كانَ مع يسوع الخائن، أمسكوه». فوضعَ بطرس يده على فمها: «اصمتي يا امرأة، أنا لستُ معه». ثُمّ أطلقها، ووضعَ قُلنسوةَ قميصه على رأسِه واستتر ومضى، فلمع وجهه وهو هاربٌ تحت ضوء المشاعل، فرأتْه امرأةٌ أخرى، فجمعث عليه النّاس: «أمسِكوا هذا اللّص، إنّه كافِرٌ مثل يسوع صاحِبه». فاجتمعَ عليه عددٌ كبيرٌ منهم، فالتمسَ مهربًا فلمْ يَجِدْ، فأحسّ أنّه أنكر مُعلّمه مرّتَين، وأنّ الثّالِثةَ تكادُ تخرجُ منه، فأدنى عُنُقَه، وخفضَ جِذعه، وحاول أن يتسلّلَ من بين أقدامِ المُتجمهرين، فأمسكه رجلٌ قويٌّ من حرسِ المعبد، فأنهضه، فصار وجهه مكشوفًا، فصاحت المرأة مرّة أخرى: «نعم، إنّه هو. اقتلوه. إنّه يستحقّ القتل مثل صاحبه، لقد رأيته على الجبل مع يسوع

النّاصريّ». فنظر في وجوه الغاضبين الّذين أحدقوا به، فلم يجدْ مهربًا من هذا الحِصار، وصارَ الموتُ أقربُ إليه من شَرَكِ نعله، فلم يَهتَدِ إلى ما يُنقِذ به نَفسَه إلاّ الإنكار للمرّة الثّالثة، ولكنّ إنكارًا بسيطًا أمام هذه الحشود لن يُفيدَ بشيءٍ؛ إنّه مُحتاجٌ إلى إنكارٍ شديدِ اللهجة حتّى يُحافِظَ على رقبته من أن تطير، فصرخ: «أُقسِمُ بربّ المعبدِ أنّني لا أعرفُ يسوع، ولا أعرفُ عمّنْ تتكلّمون»، فصاحَ الدّيكُ بعد أن قال ذلك، فأطلقوا سراحَه، فخرّ على قدمَيه لمّا تذكّر ما قاله له يسوع. وبكى بُكاءً شديدًا، فأمسكه يُوحَنّا، فأقامه، وهتفَ به: «هَيّا بِنا من هُنا لنعرفَ ما نفعل». «أنا ملعونٌ يا أخي. لا أريدُ أن أذهبَ معك. لم أصبِرْ على الأذى لحظةً واحدة فكيفَ قلتُ له بأنّني أُقدّمُ عُنُقِي فِداءً له». «لا تقلْ ذلك الآن، ولا تجمع النّاسَ علينا، قُم معي». فقام. «إلى أينَ سنذهب؛ لقد أصبحَ الكونُ خُواءً، والحياةُ أصبحت عديمةَ الجَدوَى؟!» سأله بطرس. «سنُخبِر مريم بما حدثَ مع ابنها».

٥٧

تنبّأ أيّها الأعمى

في صباح اليوم التّالي اقتيدَ يهوذا إلى (بيلاطُس) على أنّه (يسوع) لِيُحاكَم. وشيّعته مجموعةٌ كبيرةٌ من يهود المعبد على رأسهم مجلسُ الكَهَنةِ، و(قيافا) الأكبر. وفُتِحث لهم أبواب القصر العالية، ودخلوا أفواجًا، وأحاطَ الحَرَسُ بهم من كُلِّ جانبٍ حتّى لا يحدُثَ شغبٌ في المكان. وبعثَ (قَيافا) قبلَ أن يَفِدَ إلى ساحة القصر مع موكبه الضّخم أحدَ كَهَنَتهِ برسالةٍ إلى بيلاطُس، يقول فيها: «أيّها المَلِكُ المُعظَّم: سنسوقُ إليكَ مُجرِمًا يستحقّ الصّلب. لكنّنا لا نفعل ذلك في أعيادِنا. وخِفنا أن نُؤخّر صلبه فيكثُرَ أنصارُهُ المُطالِبون بإطلاقِ سراحه، فجِئنا بهِ إليكَ لِتَحكُمَ عليه بما حكمنا نحن، وتُريحَ الأمّة منه، ويستقرّ لكَ الأمر، وينتشر في رُبوعكَ الأمان. فإنّ عدمَ الإسراعِ في صلبه، سيؤدّي إلى مَقتلةٍ عظيمةٍ، وثورةٍ لا تُحمَدُ عُقباها، وإنّنا نخافُ على مُلكِك كما نخافُ على معبدنا، ونُريدُ لسلطانِكَ من الأمن ما نُريدُ لمعبدنا. وقد بعثنا مع هذه الرّسالة هديّةً تليق بعظمتك؛ صندوقًا من الذّهبِ فيه ألفُ دينارٍ ذهبيّ.

خادمكَ المُطيع: قَيافا الأكبر – رئيس كهنةِ المعبد».

فلمّا وصلتِ الرّسالة، فقرأها، قبّل ما وراءها، وأمرَ بإحضار المُجرِمِ إلى ساحةِ القصر. وتوالتِ الأعداد مِمّن أرادَ أن يرى النّهايةَ إلى السّاحة، حتّى إذا أتمّوا دُخولهم، أُغلِقتِ

الأبواب. وجِيءَ بيهوذا إلى وسطِ السّاحةِ عند نُصُبٍ من تِمثالٍ رومانيّ يشمخُ فوقَ قاعدةٍ صخريّةٍ ضخمة. فلمّا صار هناك، ورُبِطَ (يهوذا) إلى الصّخرةِ كأنّه حيوانٌ أجرب. انتظر الجميعُ ظهور (بيلاطُس) من فَوقِ شُرفته المُطلّةِ على السّاحة. كانَ الجَلاّدون قدْ طُلِبَ إليهم أن يقفوا في دائرة مُحدِقةٍ بالصّخرة، وقفوا بعضلاتهم المفتولة، وصدورهم النّافرة، وعيونهم الّتي تنقدحُ شررًا، والسّياطُ المصنوعة من جلدِ الأبقار، أو المَضفورة من الحديد، تتدلّى على أوساطِهم الضّخمة، بدوا في ضَخامةِ أجسادهم، ووقفتهم المَهولة أعلى من التّمثال القائم بقربهم. كانَ منظرهم يبعثُ الرّعبَ في قلبِ أشدِّ النّاسِ شجاعةً. شَبّكَ الجَلاّدونَ ما بينَ سواعدهم ووضعوها على صدورهم في حالةِ استِعدادٍ لتلقّي الأوامر من رئيس السّجّانين. وعلى مبعدةٍ ظاهرةٍ منهم جلس ثلاثةُ قُضاةٍ إلى طاولةٍ يبدو أنّهم الّذين سيبدؤون مُحاكَمَةَ المُجرِم. وبدتْ أمام القاضي الّذي يجلسُ في الوسطِ أوراقٌ يبدو أنّ فيها إثباتَ الإدانة للمُتّهم، كما أنّه بدا كذلك أنّ هذا الجالِسَ في الوسط هو الّذي سيتولّى عمليّة التّحقيق.

مرّتْ ساعاتٌ ثقيلةٌ على كُلّ الموجودين في السّاحة وهم ينتظرون أن يتكرّم عليهم (بيلاطُس) بالظّهور من على شُرفته الملكيّة. كانتِ حرارةُ الشّمس قد بدأتْ بالارتفاع، وبدا التذمّر واضِحًا على وجه (قيافا) الّذي تغضّن لسقوطِ الشّمس عليه مُباشرةً، رُئِيَ يميل على يمينه إلى أذن مُساعِده، ويهمس فيها: «هؤلاء الرّومان المُتعجرِفون يحتلّون بلادَنا، وينهبَون ممتلكاتِنا، ويغتصبون نساءَنا، ثُمّ ها نحن معشرَ المُختارين

من أبناء إسرائيل ننتظرهم في هذه السّاحةِ كالكِلاب». يردّ عليه مُساعِده: «لعلّ النّتيجة الّتي نأمُلها من وراء هذه الوَقفةِ المَهينة تستحقّ أيّها الحبر الأعظم». «ليسَ هذا فحسب؛ بل نُقدّم لهم ثرواتِنا هديّة لكي يُسرِعوا بتخليصنا من هذا الأفّاق، ولا نجد منهم إلاّ الإهمال». «هل دفعتَ له كثيرًا؟!». «كثيرًا جِدًّا، صُندوقًا كامِلاً من الذّهب، بقيتُ أجمعُ به عَقْدًا كامِلاً من الزّمن». «الأمر يستحقّ يا سيّدي... لا تأسَ على ما دَفَعْتَه من أجلِ مصلحةِ شعبِ إسرائيل.. الأمر يستحقّ». قال ذلك وهو يهزّ برأسه إلى الأمام. آنذاكَ علت صيحاتٌ من النّاس المُتجمهِرين، وعلت هُتافاتٌ من آخرين... نعم لقد ظهرَ (بيلاطُس) من فوقِ شرفته، وخلفه ظهرتْ زوجته. فلمّا صار ظاهِرًا لكلّ المُحتشِدين في السّاحة، حيّاهم بكبرياء، وأشارَ للقضاةِ الجالسين إلى الطّاولة بيده ليأذنَ ببدءِ المُحاكَمة.

تقدّمَ اثنانَ من الجلاّدينَ العشرةَ، فَحَلاّ وَثاقَ (قيافا)، وساقاه وهما يَجُرّانِهِ مثلَ خروفٍ صغير لِيَمْثُلَ أمامَ القُضاة. وقفَ قُبالة القاضي الجالس في الوسط، وتنحّى الجَلاّدان. قال القاضي:

- هل أنتَ يسوع؟!

- أنا يهوذا.

- يَهوذا مَنْ؟!!

- لن تُصدّقني ولو خلعتُ جِلدي.

نظرَ رئيسُ القُضاة إلى الجالسِ عن يمينه، وهمسَ في أذنه:

«هلْ نحنُ أمام مجنون؟!». هزّ القاضي كَتِفَيه إلى الأعلى كِنايةً عن حيرته، وسمع (يهوذا) ما قال القاضي، فقال له:

- أسهلُ شيءٍ أن تقولوا عَمّا لا تعرفون ولا تُدركون: مجنون. إذا كانَ ذلك يُريحُكَ، ويُسرِّعُ في إتمام الأمر، فأنا مجنون. هل هذا أفضل بالنّسبة لك؟!

تنحنحَ القاضي، واضطربَ في جِلْسته، ثُمّ استعادَ هُدوءَه. كان (بيلاطُس) الواقِفُ على الشّرفةِ هو وزوجته يرقبان المشهد الّذي يسيرُ ببطءٍ أمامهم، ويُحِدّان النّظر، ليعرفا ما يجري، أو بِمَ يحكُم عليه القاضي. قلّب رئيسُ القُضاة الأوراق أمامه وهو ينظرُ فيها، ثُمّ رفعَ بصره باتّجاه (يهوذا)، وسأله:

- أصحيحٌ أنّكَ تحثُّ المؤمنين بكَ ألاّ يُعطُوا الجِزيةَ لِقَيصر؟!

- ....!!

- هل أنتَ نَبيّ؟!

- .....!!

- هل أنتَ مَلِك؟!

- .....!!

- لماذا لا تُجيب؟!

- أنا أعظم من أنْ أكون نَبِيًا أو مَلِكًا؛ أعظمُ بكثير.

مالَ القاضي من جديد إلى ذلك القابع عن شِماله هذه المرّة: «هو مجنونٌ بلا شكّ». «بلا شكّ». اقتربَ (بيلاطُس) من

طرفِ الشّرفة، وقد ضاقَ بما يرى، وأشارَ بيده إلى القُضاة، فأشارَ القُضاة بدورهم إلى الجَلاّدَين، فاقتربا من (يهوذا)، أوثَقاهُ جيّدًا، وصَعَدا به الدّرجَ حتّى وصلا به إلى (بيلاطُس). وقفا إلى جانِبَيه يحرسانه، وواجهه المَلِكُ بنفسه:

- قُلْ لي مَنْ أنت؟!

- أنا يهوذا الإسخريوطيّ. (قال ذلك بِصَوتٍ عالٍ).

فهتفَ قَيافا هو والكَهَنةُ المُتجمِّعون حوله:

- لا تُصدِّقْه، إنّه كذّاب، نحن أعرفُ النّاسِ به؛ إنّه يسوع النّاصريّ. إنّه يتظاهر بأنّه ليسَ هُوَ حتّى يُفلِتَ من العِقاب.

فاقتربَ منه الملكُ أكثر:

- إنّهم يقولون إنّكَ يسوع، فَلِماذا تُنكِر؟!

- ألمْ يقولوا كذلك إنَّ يسوع ساحر؟! وهذا السّاحر هو الّذي سحرني وألقىَ شَبَهه عَلَيّ.

- وأينَ يسوع إذًا الّذي يتكلّمون عليه؟!

- .....!!

- أَنْتَ مَلِكُ اليَهود؟!

- أنتَ تقول.

نظر (بِيلاطُس) إلى زوجته، فأشارتْ إليه بعينَيها، فرجع إلى الوراء خُطوةً وأمال جذعه نحوها، فهمست: «إيّاكَ أن تُلوّثَ يدَيكَ بِدَمِ القِدّيسين؛ إنَّ لهم لعنةً لا يُفلِتُ منها أحدٌ».

فهزّ بيلاطُس رأسَه بالمُوافَقة. ثُمّ استردّ الخُطوةَ إلى رجعَ بها إليها، وتقدّمَ نحو الشُّرْفة، وصاحَ بقيافا:

- إنّني لم أَجِدْ في هذا الرّجل ما يستدعي العُقوبة. أرى من القاضي أنْ يحكم ببراءته، أو أنْ يُطلِقَ سَرَاحَه.

فَجُنّ جُنون (قَيافا) عندئذٍ، ورأى أنّ صُندوقَ الذّهبِ الّذي أنفقَ عشرَ سنواتٍ في جمعه من حُجّاجِ المعبدِ المساكين يتبخّر أمامه في لَحَظات، فأزاحَ الكهنةَ المُتجمّعين حوله، وتقدّم حتّى صارَ تحتَ الشّرفةِ الّتي يُطلّ منها (بيلاطُس)، وهتفَ بقوّة:

- أتعرفُ أيّها العظيم، أنّ هذا الرّجل المُجرِم يُثيرُ الشّعبَ على كُلّ أمجادِ روما، إنّه يُريدُ أن يَهدِمَ أعمدة القصر على مَنْ فيه، إنّه لم يتركْ فِتنةً إلاّ أشعلها في كلّ اليهوديّة مُبتدِئًا مِنَ الجليل إلى هُنا».

فلمّا سمعَ (بيلاطُس) بذلك، وجدَ لنفسهِ مخرجًا، فهتفَ بقيافا والقُضاة:

- إذًا فليذهب إلى هيرودس (أَنْتِيباس) حاكم الجليل، فهو أولى بُمحاكمته منّي.

تنفّستِ زوجتُه الصُّعَداء؛ فقد كانتْ تخشَى أن يكونَ زوجُها هو مَنْ يُوقِع العقوبة في هذا القِدّيس. أمّا (قيافا) فقد أُسقِطَ في يَدِه، نفخَ نفخةَ مصدور، وزفر زفرةَ مخنوق، ورأى أنْ يفعل شيئًا قريبًا مِمّا فعله مع (بِيلاطُس) فأرسلَ رُسُلَه وهداياه تسبقه قبل أن يَفِدَ عليه مع كَهَنَتِه.

أُنزِلَ (يهوذا) من الشُّرفة، وبَرِمَ الجَلاّدون، لأنّ فرصتهم في أن يُمارِسوا وحشيّتهم على جسدٍ بشريٍّ تبخرّتْ في محاكمة هزليّةٍ أشبه بمسرحيّة، أغلقَ رئيسُ القُضاةِ دفتره، وقامَ من مكانه. أُركِبَ (يهوذا) في عربةِ ترحيلاتٍ رومانيّة، ورافقه في ذهابه إلى (أنتيباس) خمسةُ حُرّاس. في الطّريق بين المكانَين أذاقُوه ألوانًا من العذابِ والسُّخرية. وتسلّى فيه الخمسةُ كأبشعِ ما تكونُ التّسلية. كان واحدٌ منهم يضعُ كيسًا أسودَ على رأسه، ويأتي آخر فليكُمُه لكمةً قويّة، فيكتمُ صيحةً متفجّرة في أعماقه، ويأتي ثالثٌ ليسأله: «تنبّأ أيّها الأعمى؛ مَنْ لكمكَ هذه اللّكمة؟! ها إذا لم يُساعِدْك سِحرُك هذه المرّة، سنُعيد معك اللّعبة؛ ما رأيك؟!». فيأتيه آخر فيصفعه صفعةً أقوى من السّابقة؛ ويُعيدون عليه السّؤال. وهو صامِتٌ لا يقول كلمةً واحدة، وكلّما ازداد صمته غرابةً ازدادتْ قهقهاتهم فَجاجةً. وظلّوا يفعلون ذلك به طَوال الطريق.

٥٨

اضلُبْه وعلينا دَمُه

تسلّم حَرَسُ (أنْتيباس) من عربةِ التّرحيلاتَ أسيرَهم الثّمين. سُرّ المَلِك أن يرى (يسوع) قادِمًا إليه، فهو لم يشعرْ بذنبٍ في حياته لقتلِ امرئٍ كما شعر حينَ قتلَ (يحيى) مع أنّه قتلَ المِئاتِ والآلاف قبله وبعده، ولكنّ يحيى ظلّ وخزةً في الصّدر تُحرّكُ أشجانه، وغُصّةً في الحلقِ لا تكادُ تُبتَلَع. وهو لَمْ ينسَ كذلك ما شاهده من لَعَناتٍ أعقبتْ قتله، وكانَ يعلمُ أنّ (يحيى) قِدّيس. وأنّ قتله كان خطأ حياته القاتل. فأراد بمقابلة قِدّيسٍ آخَرَ أن يُكفّر عن ذنبه، أو أنْ يُجرِيَ له (يسوع) مُعجِزةً من مُعجِزاته الّتي اشتُهِرَ بها، ولا يُريدها مادّيّة ولا طِبّيّة. ألم يقولوا إنّه يشفي المَرضَى؟! إنّه كذلك مريضٌ؛ لكنّ مرضه مُختلِف؛ ولا يمكن لأيّ طبيبٍ أن يُبرِئه منه إلاّ إذا أوتِيَ كراماتٍ إلهيّة، إنّه مُصابٌ بمرض الارتِياب. مرض التّهيّؤات المُزمِن، إنّه يرى ولا يرى. ويسمع ولا يسمع. يرى يحيى قبل أن يقتله يتماثَل له في غرفةِ نومه، وبعدَ أن قتله استمرّ في تعذيبه له بالظّهور في غرفته. لقد كان يظهر مرّة واحدةً في اللّيلِ قبلَ أن يفتكَ به، لكنّه الآنَ يراه في اللّيلة الواحدة أكثرَ من عشر مرّات، بل إنّ هناكَ ليالِيَ لم يُبارِح فيها غُرفته لحظة؛ فعاشَ رُعبًا لا ينقضي ولو لبعضِ الوقت. لقد جلبوا له أطبّاء من كلّ مكان، ونقعوا له في الماء المُقدّس كلّ النّبتات الغامِضة، وأشربوه ذلك المنقوع فما ازداد إلاّ ارتِيابًا ورُعبًا. إنّ مرضه من نوعٍ خاصّ ولا بُدّ له من طبيبٍ خاصّ، ولا يقدر

على هذا النّوع من المرض غير (يسوع) لأنّ أسرار السّماء كُلّها بينَ يديه. قالوا له ذاتَ مرّة غيِّرْ غِطاءَك، فغيّره، ثُمّ قالوا له غيِّرْ فِراشَكَ ففعل، ثُمّ نصحوه أن يُغيّر غرفته، فقال لهم: سأغيّر القصر كُلّه، لكنّ الشّبح الّذي كان يُطارده في تلك الغرفةِ الملعونة في ذلك القصر الآثِم، استمرّ يُطارده في كلّ غرفةٍ يذهبُ إليها، وفي كُلّ قصرٍ يُغيّره؛ إنّ الأمر لا يتوقّف على المكان، ولا حتّى على الزّمان، إنّه يتوقّف عليه هو، لكأنّ هذا الشّبح مغروسٌ في روحه؛ فهو لا يُفارِقه إلاّ إذا فارقتْهُ روحُه بذاتِها. والآنَ صارتِ الفرصةُ مناسِبةً ليتخلّص من رُعبِهِ إلى الأبد بواسطةِ هذا القِدّيس. سيُرحّبُ به كأجمل ما يكونُ التّرحيب. سيُكرِمه. وسيهبه كُلَّ ما يريد مُقابِلَ أن ينزِعَ من صدره تلك السّكّين الّتي لم تُفارِقه منذ ذلك اليوم مهما نَزَعَ عن جِلدِه من ثِياب.

وصلت هدايا (قَيافا) إلى (أنتيباس) مشفوعةً برسالةٍ تقطُرُ ذُلاً وتذللاً، قرأها عليه كاتِبه، أشارَ بيده إليه أنْ يُعطِيَه إيّاها، بصقَ فيها كمن يبصُقُ على حَيَوان، ومَزّقَها بعنفٍ ورماها في وجه كاتبه. أمّا التّمثال المطليّ بالذّهب فأمرَ كاتِبه أن يقذفه في وجه مَنْ أحضره. إنّ روحه لن تهدأ بكلماتِ المُنافِقين، وإنّ رُعبَه لن ينتهي بتماثيل البائِسين!!

أُدخِلَ (يهوذا) إلى قاعةِ العرش الّتي اعتاد (أنتيباس) أن يستقبلَ فيها عِليةَ القوم. قامَ له (أنتيباس) من على كرسيّه. اقتربَ منه. أحدّ النّظر في وجهه. قَطّبَ جبينه مُندهِشًا من أثرَ الكدمات الزّرقاء الّتي تظهرُ على وجه، هَمّ بأنْ يسأله عمّنْ

فعل به ذلك، لكنّه تراجعَ في اللّحظةِ الأخيرةِ. قال له:

- أنتَ يسوع النّاصريّ؟!

- ....!!

- إنْ كُنتَ هُو، فإنّ لي عِندَكَ حاجة.

- ....!!

- هلْ أطلبُها منك؟!

- ....!!

نظر في وجوه حاشِيته، فسأل وزيرًا من وُزرائه: «أليسَ هذا يسوع؟!». «بلى يا سيّدي». «فلماذا لا يُجيبُ عمّا أسأله؟!». «لا نَدري». هَزّ (أنتيباس) رأسه، ثُمّ عادَ إلى (يهوذا): «إنّني أرى في اللّيل...». هَمّ أنْ يُكمِلَ لكنّه توقّف، مِنَ الحماقةِ أنْ يُكمِلَ أمام رجلٍ من المُحتملِ ألاّ يكون يسوع، كيفَ يعترف اعتِرافًا صريحًا بمرضه الخطير أمام رجلٍ يبدو أنّه ليس هو، أو أنّه يتظاهَر بأنّه ليسَ هو. لكنْ على كُلّ الأحوال الأمر لا يستحقّ المُغامِرة إلاّ بعدَ التثبّت. اقتربَ منه أكثر، وقال له بتودّد:

- أنا قادِرٌ أنْ أُعطِيَك ما تشاء، على أنْ تُعطِيَني شيئًا واحِدًا... فهل...

- ....!!

في سكونٍ لحظةٍ جارِحة، سَمِعَ (أنتيباس) أصواتًا تعلو في الخارج: «اصلُبه... إيّاكَ أن يسحركَ، أو يخدعك، أو يُقنِعَك بأنّه ليس المسيح... اصلُبهُ أيّها المَلِك...». سأل مَنْ حوله:

مَنْ هؤلاءِ الغوغاء؟». «إنّه قَيافا وكهنته». «ومَنْ سمح لهم بالدّخول إلى الباحة؟!». تعالتِ الأصواتُ من جديد: «اصلُبْه... اصلُبْه...» فارتجفَ وغَضِب. أرادَ أنْ يُحاوِلَ للمرّة الأخيرة مع قِدّيسه:

- لكَ عهدي أنْ أعبدَ ربّكَ إذا أجبْتَني إلى ما أريد.

- ....!!

وصلتِ الأصواتُ أوضحَ مِمّا كانت عليه من قبلُ: « اصلُبْه... اصلُبْه...» فصرخَ بقائدِ الحرسِ عِنده كُفّ هؤلاءِ الرّعاع عنْ هذا المكان. وأعِدْ هذا الأخرسَ إلى (بيلاطُس). لا أريدُ أن يحدثَ معي ما هو أسوأ، وما عهدُ (يحيى) مِنّي ببعيد.

حُمِلَ (يهوذا) المُقيَّد بينَ أيدي رُجلَين شديدَي الأسر فورًا إلى عَرَبةِ التّرحيلات، مرّتِ العربة من أمام الجمع الهائج، نظر من شُبّاكها إليهم، وابتسَم في وجوههم ابتِسامةَ المُنتصِر، وهتفَ في سِرّه: «القَدَرُ يُواصِلُ خُطّته، وهؤلاء البشر هُمْ أداوتُه». ورَكِبَ (قيافا) في عَرَباته هو وكهنته، وانطلقوا خلفهم.

لم يستغرق الأمرُ كثيرًا، حتّى صارَ (يهوذا) بين يَدَي (بيلاطُس) من جديد، أمرهم أنْ يُودِعوه في السّجن، وأَنْ يجمعوا القُضاة والحُكَماء والشّعب صباحَ غدٍ ليشهدوا ما يقول؛ هتفَ في مُستشاريه: «لا أريدُ أن أُخطِئ». قال لهم أكثرُ المُستشارين غُرورًا وتملُّقًا: «إنّه مُجرّد رجلٍ، أيُّ خطأٍ جسيمٍ يُمكن أن يُرتَكَبَ في حقّ رجلٍ واحد!!». ردّ أكثرهم رصانةً:

«إنّه ليسَ مجرّد رجلٍ. الرّيح واحدةٌ لكنّها كثير».

في اللّيل قالث له زوجته: «القِدّيسون لا يموتون، فلا تُعذِّبْ نفسَكَ؟!». «بِمَ؟!». «بأنْ يظهرَ لكَ في كُلِّ شيءٍ». «ماذا تقصدين يا امرأة؟!». «لا تقتلْ هذا الرّجل». «وماذا لو قتلته؟!». «إنّه لن يموت». أدارَ ظهرَه لها وهو يقول: «البشر يموتون يا حمقاء؛ إلاّ إذا كانَ إلهًا».

في الصّباح، سارَ كُلُّ شيءٍ كما أمرَ المَلِك. جلسَ القُضاةِ إلى طاولتهم. والجَلاّدون في دائرتهم. والشّعبُ في أماكنهم، و(قَيافا) وَكَهَنته في مواضعهم، والمَلِكُ في شُرفتِه. وجيءَ بيهوذا مُقيَّدَ اليَدين إلى القَدَمين بسلاسِلَ ثقيلةٍ من حَدِيدٍ يجُرُّها خلفَه جرًّا. والحَرَسُ يدفعونه من ظهره العاري دفعًا، وهو يعثُرُ في قيوده يكادُ يسقطُ بينَ كلّ دفعةٍ غليظةٍ من الخلفِ وأخرى. فلمّا صارَ عندَ النُّصب، ولم يُذهَب به إلى القُضاة، أُزيلث عنه سلاسلُ رجلَيه، ورُبِطَ من يديه إلى وتدٍ قائمٍ أسفلَ النُّصب، فاضطرّه ذلك إلى أن يجثوَ على رُكبَتَه؛ فجَثا. فأشارَ القاضي الّذي يجلسُ في الوسطِ إلى أوّل الجَلاّدين بِهَزّةٍ من رأسه، فضحك الجَلاّدُ حتّى بدث أنيابُه لِمَا رأى من فرصةٍ سانِحةٍ ليستعيدَ بعضَ حَيَوانيّته الّتي لم يُمكّنْه منها القاضي أمسِ. تقدّمَ نحو (يهوذا) وفي يده سوطٌ من جلدِ البقر مضفورٌ، فوقفَ خلفه مُباشرةً، فأخذَ نَفَسًا عميقًا وملأ به صدره النّافر، ثُمّ شَدَّ بقبضته القويّة على مَقبِض السّوط، ولفّه حول كفّه ليُحكِمَ الإمساكِ به، ثُمّ رَفَعَ يده بالسّوطِ إلى أعلى مِنْ رأسِهِ حتّى بانَ إبطُهُ كامِلاً، كانَ يُريدُ

لبداية التّعذيب أن تكونَ مُختلفة، كان يُريدُ للضّربةِ الأولى أن تسحقَ هذا المُجرِم، وأنْ تجعلَ صُراخه يُدوّي في السّاحة ويهزّ جُدران القصر. هكذا كان يأمُل حتّى يحوز على إعجابِ أسياده، واصلتْ يدُهُ ارتِفاعها القاتِل، حتّى إذا صارتْ في الذّروة هوى بالسّوط بكلّ ما أوتي من قُوّةٍ على ظهر (يهوذا)، كانتِ الضّربةُ بالفِعل قَوِيّةً حتّى إنّها هَزتْ (يهوذا) من تحتِ رُكبتَيه، وزحزحتْه قليلاً في مكانه، لكنّه لم يصرخ، ولم يتأوّه، بل ولم يَئِنّ حتّى؛ واحتملَ في صبرٍ عميق، وامتصّ الصّدمةَ الأولى؛ فغضبَ الجلاّدُ أيّما غَضَب، فانهال بالثّانية مُعطِيًا إيّاها عَزمًا أكبر، فتحرّك الجسدُ تحتَ وطأتها من جديد، لكنّ الجَلاّد لم يحظَ بشيءٍ هذه المرّة أيضًا، فانفجرَ غضبُه، وراحَ يهوي بشكلٍ جنونيّ على الجسدِ العاري، كانتِ السّياطُ تنزلُ على ظهر (يهوذا) بسرعةٍ كشهبٍ ساقِطةٍ من السّماء، ليسَ من زمنٍ بينَ سوطٍ وآخَر، حتّى إذا بلغتِ الضّرباتُ الهاوِيات العَشَرات، أنّ (يهوذا) أنينًا خفيفًا، فتوقّف الجَلاّدُ لمّا سَمِعَ أنينَه يكادُ يطيرُ من الفَرَح، أمّا لُهاثُه لتعبِهِ من إعمال السّوط في الظّهرِ المكشوفَ فقد سُمِعَ أعلى بكثيرٍ من الأنينِ الّذي كان يصدُرُ عن الجسدِ المُعذَّب. سالتِ الدّماء على الظّهر بعدَ السّوطِ الثّالث، بعدَ العاشِر صارتِ الدّماء تتفجّر في خيوطٍ بدأتْ رفيعة ثُمّ اتّسعتْ حتّى غَطّتِ الظّهرَ كُلّه. أشارَ القاضي للجَلاّدِ أن يتوقّف. رقصَ قلبُ (قَيافا) لِما رأى، لكنّه تمنّى ألاّ يموتَ إلاّ على الصّليب. اضطربَ قلبُ المَلِكةِ وهي ترقبُ المشهدَ من خلفِ زوجها الصّامت. لهثَ الجَلاّدُ كثيرًا، عَلا صدره مرّاتٍ كثيرةٍ كصخرةٍ مُتَدحرِجة، حيّاه بعضُ المُتجمهِرين من النّاس

خلف (قيافا)، ابتسمَ وعرقهُ يسيلُ على وجهه، عادَ إلى مكانِهِ. لم يقلْ (يهوذا) كلمةً واحدة. إنْ لم يفعلْ أمامَ الجَلاّدِ الأوّل، فلربّما سيفعل أمام الجَلاّد الثاني. أشارَ له القاضي بأنَّ دورةَ قد حان. تقدّمَ. بدا أنّه أكثرُ وحشيّةً من سابِقه، كانَ السّوطُ الّذي يحمله مضفورًا من أسلاكٍ حديديّة صفراءَ لمَعَث على ضُوءِ الشّمس وهو يتقدّم نحو فريسته. وقفَ خلفَها، ودونَ أن ينتظرَ أيَّ إشارةٍ من أيّ طرفٍ، لوّحَ بسوطهِ في الهواء بشكلٍ دائريّ فسَمِعَ حفيفهُ خافِتًا كأنّه سيفٌ يجرحُ الهواء، ثُمّ أسرع في التّلويحِ به، فتحوّل الحفيفُ الجارح إلى عُواءٍ ذابِحٍ فأرعب قلبَ كلِّ الموجودين بمن فيهمُ المَلِك نفسه فقفزَ قلبُهُ بين أضلاعه. لم يتركِ الجَلاّدَ للملك فرصةً لكي يستعيدَ قلبُه هدوءَه، فرفع السّوطَ إلى أعلى نقطةٍ مُمكِنة بعد أن اتّخذ مكانًا مُناسِبًا لكي يهوي السّوطُ على نُقطةٍ كانَ قد صوّب نحوها هدفه، وهي العنق، هَوَى السّوطُ باتّجاه الكَتِفِ الأعلى من الضّحيّة، استقرّ وسطُه على ذلك الكتف، فأرخث شِدّة الضّربة بقيّته لتنزلَ إلى الصّدر عبرَ العُنُق، فأحكمَ الذّيلُ قبضته على أعلى الصّدر، فنقره نقرةً شديدةً فأحدثَ فيه ثُقبًا نزعَ منه اللّحمَ في ذلك الموضع، فشدّ الجَلاّد بحركةٍ لا إراديّة السّوطَ ليهوي به مرّة أخرى، فحزّ في صُعوده من الصّدر إلى يد الجَلاّد العُنُقَ فجرّحَ مكانه في التفافه فأسالَ دمه، فثعبَ من هُناكَ كينبوعٍ أحمر، وفار. لقد أصابتِ الضّربةُ ثلاثة مقاتلَ في جَسَدِ هذا المِسكين، لا بُدّ أنّ هذا الجَلاّد من أعوانِ الشّياطين، وإلاّ فمن الّذي علّمه أن يهوي على ضحيّته بهذا الشّكلِ المدروس. لم تهزّ هذه الضّربةُ جسدَ يهوذا فحسب، بل

زحزحته عن مكانِه حتى كادتْ رُكبتاه في رجوعها إلى الخلف تفقدان استقرارهما على الأرض. صارَ جِسمُهُ مائِلاً، ويداه المربوطتان إلى النُّصبِ أعلى من رأسِهِ بقليل. صاحَ (يهوذا) صيحةً سُمِعتْ في المُحيط. لقد ظهرَ أثرُ الضّربةِ سريعًا. هاجَ الجمهور. وعلتْ هُتفاتُ التّرحيب بقدرة الجَلاّد على استصراخِ الضّحيّة، فطالبث بالمزيد. فتحمّسَ الجَلاّد. فهوى. فآلَمَ أكثرَ ما يكونُ الألم. وضربَ فعذّب أكثرَ ما يكونُ العذاب. ثُمّ أشارَ له القاضي بعد أنْ تَعِبَ أن يعودَ، فعاد إلى مكانه. ثُمّ أعطَى إشارةً جديدةً إلى جَلاّدٍ جديد. كانتِ البقعة الّتي تُحيطُ بالجَسَدِ قد امتلأتْ دمًا، سال الدّمُ مع العرق. اختلطَ دِماءُ القِدّيسين بعرقِ المُجرمين، وشَكّلا مَزِيجًا مُتناقِضًا، وفاضَا عن الجوانب. كانتِ القيودُ في اليدَين قد أكلتْ من لحمِ الرُّسغَين حينَ كان السّوطُ يهوي، فيُزحزحَ الجسد ويُرجِعه إلى الخلف، فتنجذبُ القُيودُ مع ثقل الجسم المربوط فلا تَجِدُ هذه القيودُ مسافةً تتحرّك بها مع ثباتِ الوتد في النّصب إلاّ لحمَ الرُّسغين فتغوصان هُناك، حتّى إذا لم يبقَ من لحمٍ ليُغاصَ فيه، كانت القُيودُ الحديديّة تعصفُ بعظمِ الرُّسغَين، وبدأَ ذلك العَظمِ مع كلّ ضربةٍ جديدةٍ يتهتّك.

ثُمّ جاء الجَلاّد الرّابع، كانَ كلّ شيءٍ في جسدِ يهوذا مُغطّى بالدّمِ إلاّ عيناه. وصارتْ يداه أعلى من رأسِه، وجذعه الّذي فقدَ كُلَّ قُوّةٍ فيه قد امتدّ إلى الوراء فصارَ عمودًا ملقًى من دم، وقلبتْ إحدى الضّرباتِ جسده جانِبًا فالتقتْ عيناه بِعَينَي (قيافا)، فلمّا رأى (قيافا) عينَين زرقاوَين تنظران إليه من خلال بركةٍ من الدّماء افترسَه الرُّعبُ، فتحرّكَ من مكانه،

هَمَّ بأنْ يُديرَ له ظهره، لكنّه لم يستطع فالجموع كُلُّها وراءه ترقبه، سيبدو طِفلاً جبانًا كريهًا إنْ فعل، فاصطنعَ الهُدوء وهو يتساقَطُ من الدّاخل، ثُمّ داهمتْه العينان المذبوحتان من خلال الدّم من جديد، وسَمِعَ لهما صوتًا يبدو أنّه لغةٌ يُريد لها (يهوذا) أن تصل إليه فحسب: «لا تَخشَ يا أخي، إنّما أنا وأنتَ ننفّذُ أمر المشيئة الإلهيّة. فلا تتردّدْ بأنْ تفعلها. لكنّني أرجوكَ أمرًا واحِدًا أن تُعجّل بذلك حتّى يأتي خَلاصي وخَلاص العالَم أجمع». حينذاك اطمأنّ (قيافا)، وعادَ إليه قلبُه الأسود لِيُواصِلَ استِمتاعه بمشهد العذاب المُروّع الّذي يُعاينه.

عشرةُ جَلاّدين تناوبوا على جسدٍ بشريٍّ مِسكين. كانت البدايةُ مع كلّ جَلاّدٍ جديدٍ تُضيفُ مستوىً من العذاب لا يُطاق. بدا أنّ (يهوذا) يلفِظُ أنفاسه، تباطأتْ ضَرَباتُ قلبه، وارتختْ يداه، والتوى جِذعه أو ما تبقّى منه، وغامتْ عيناه، فلم يَعُدْ بإمكانِ مَنْ يراه أن يتأكّد إنْ كانتا مُغمَضَتين بسبب العذاب والدّمِ الّذي يُغطّيهما، أم بسبب الغيبوبة الّتي تسبقُ الموت!! لكنْ يبدو أنّ الجَلاّدين سيموتون قبلَ أنْ تموتَ هذه الضّحيّة. أشارَ المِلكُ لهم أنْ يرفَعوه إليه. رُفِعَ. قال وهو يواصلُ صعوده إليه مُتهادِيًا بينَ اثنَين يحمِلانه حملاً لإيصاله إلى الشّرفة: «كُلٌّ سيصعدُ إلى مَلِكه. ما أبأسَ القِشرةَ الّتي تُغطّي روحي العظيمة!!».

أُوقِفَ بين يدَي الملك. سأله: «لِماذا لا تختصرُ علينا الطّريق، وتقول لنا مَنْ أنت!!». «لو كنتَ أنتَ تعرفُ من أنتَ لأخبرتُك». «ستُصعّب عليّ الأمر يا هذا وأنا لا أريدُ أن أقتلك». «إنّ في

قتلي نَجاتي!». «ألا تعرفُ أنّ لديّ سُلطةً بإطلاقِ سراحك أو قتلك. أنا المَلِك». «لتكنْ نجاتُكَ لك، أنا نجاتي أمرٌ قرّره عنّي آخَر». حينئذٍ نظرَ إلى زوجته فقالتْ له عيناها: «احذر أنْ يُسوِّغَ هُو لكَ قتلَه». فكَفّ. فنادَى في (قيافا) وكَهَنَته: «هذا الرّجل بريءٌ تمامًا. وإنْ كانَ قد شَغَبَ عليكم فإنّه قد نالَ من التّأديب بسبب شغبه أكثرَ مِمّا يستحقّ. وسأُطلق سَراحه». فهذى (قيافا) محمومًا: «كُلُّ هذه الدلائل على إجرامه وتجديفه وتتركه؛ لا يُمكنُ أبدًا». «هَبْهُ مُجرِمًا كما تقول؛ ألا تطلبون في كلّ عيدٍ أنْ أُطلِقَ لكم مُجرمًا؟! فها أنا أُطلِقه». «نحن لا نريدُ أن تُطلِقَ هذا». «فَمَنْ تُريدُون؟!». «نُريدُ أن تُطلِقَ سَراحَ باراباس». «باراباس؟! غير معقول؛ إنّه قد ثبتت عليه جرائمُ قتلٍ لا تُحصَى». «وهذا قُتِلَ بسببه أضعافُ أضعافِ مَن قُتِلَ بسبب باراباس. أطْلِقْ لنا باراباس». فأمرَ قائدَ جُندهِ بإطلاقِ سراحه ففعل. ثُمّ سأل: «وهذا أُطلِقُ سراحه معه؟». «كلاّ... كلاّ... هذا اصْلُبه مكانَه». «كيفَ أصلبُ بريئًا؟! إنّ دَمه سيُلاحِقني». «اصْلُبْه وعلينا دمه وعلى أبنائِنا. إنّه خيرٌ لنا أنْ يهلكَ رجلٌ واحِدٌ من أن يهلكَ شعبٌ بأكلمه بسببه؛ اصلُبه وفي أعناقنا وِزرُه». فقامَ (بيلاطُس) إلى حارسٍ يحملُ بينَ يديه طُستًا من الماء فغسلَ يديه بالماء، ثُمّ قال لقيافا وكهنته: «ها أنذا أغسلُ يدَيّ من ذَنبِه، أنتم تتحمّلون ذلك؟!». «بلى، نتحمّل كُلّ شيءٍ في سبيلِ أن يُصلَب». ثُمّ هتف المَلِك: «فلْيُصلَبْ». فضجّ النّاسُ والكَهنةُ والقصرُ والسّماء.

٥٩

أيكونُ مَلِكٌ دونَ تاج؟!

هل تبكي السّماء؟! بلى؛ بأشدّ ما يبكي الإنسان. الإنسانُ - غالِبًا - أكذبَ ما يكونُ حينَ يبكي، خاصّةً حينَ يملكُ قلبًا غيرَ طاهر. السّماءُ حينَ تبكي تكونُ أصدقَ باكٍ مُمكنٍ؛ يبكي لبُكائها كُلّ شيءٍ، ويغضبُ على مَنْ أبكاها كُلُّ شيءٍ، وما الطّوفان إلاّ صورةٌ واحِدةٌ من غضبٍ على مَنْ أحوجَ العالية أن تبكي.

أُنزِلَ يهوذا، في هبوطه قالتْ له الدّرجات: «هبوطٌ مُؤقّتٌ وصعودٌ مُؤقّت». فردّ عليها: «لكنّ صعودي المُؤقّت سيسجد أمامه كُلُّ البشر؛ ذلك كُلُّ ما أريد». في السّاحة وهو يعبرها باتّجاه عرَبَةِ التّرحيلات الّتي ستقوده إلى السّجن ليبيتَ فيه ليلته الأخيرة، تلقّاه مجموعةٌ من النّاس الغاضِبين، وهم يمدّون إليه أيديهم يطلبون منه: «ألستَ المَلِكَ الجديد؛ فأعطنا نحن الفقراء هَدِيّة». وحينَ لا يظفرون بشيءٍ يبصُقون في وجهه: «لماذا كُلُّ هذا البُخل؛ أمَلِكٌ وبخيلٌ؟!». ثُمّ تعالت صيحاتٌ من هنا وهناك وهو يُساق جَرًّا: «أعْطِنا.. أعطِنا». فلمّا مرّ بجانبِ أحدهم وقال له: «أَعْطِنا مالاً أيّها الملك المُتوَّجُ بالدّم» استوقفتْه العبارةُ الأخيرة، فوقف. تخلّى ضعفه الجسديّ الشّديد في تلك اللّحظة لتتدفّق فيه قُوّة مُفاجِئة فلا يقدر الحرس أن يُزحزِحوه عن مكانه شِبرًا واحِدًا. نظر في وجه الّذي قال هذه العبارة: «نعم أنا مَلِكُ الدّم. لأملأنّ وجهَ الأرضِ دمًا. أنتَ الّذي قُلتَ إمّا أن تكونَ من جُنودي،

أو تسقطَ اللّحظة». ذُهِلَ الرّجل الّذي خاطبه (يهوذا) بهذه العبارات، أرادَ أن يقول له شيئًا، لكنّه سقطَ قبلَ أن ينبسَ بحرفٍ واحدٍ، فهاجَ صوتٌ ولَغَطٌ، واجتمعَ عليه النّاس، وَدَفَعه الحارِسان، فمضى معهما، وابتسم: «لم يُحالِفْكَ الحظّ أيّها البائس».

في العَرَبة. اقتربَ منه أحدُ الحُرّاس. قال له: «ألستَ مَلِكَ اليهود؟!» ثُمّ نظرَ إلى حارسٍ آخر وقال له: «أيكونُ مَلِكٌ دونَ تاج يا صديقي؟!». أجابه الحارِس: «كَلاّ». «فأينَ التّاجُ إذًا؟!». صمتَ قليلاً، ثُمّ تابعوا سُخريتهم منه واستِهزاءهم به. نطق حارسٌ ثالث: «ولكنّني ما كنتُ أتوقّع أن يصعد إلينا الملك دونَ تاج، هل مِنَ المعقول أن نكونَ في حضرةِ ملكِ اليهودِ أجمعين ولا يعلو مفرِقَ رأسِهِ المُبجّل تاج؟!». تقدّم حارسٌ رابع: «لا تحزنْ يا صديقي. بقيتُ ليلةَ أمس كلّها وأنا أُعِدّ له تاجًا يليقُ بمنزلته العالية». تقدّم نحو (يهوذا) الجالِس بصمت، وراح يُدني من زميله صندوقًا مفتوحًا فيه تاجٌ من حديدٍ مُشوّك، تبرز إبَرُه الحادّة على طرفه الدّائريّ: «التّاج أيّها العزيز. وأنتَ أيّها المُقرّب من جلالته ألبِسْه التّاجَ حتّى نحتفل». أخذه الحارس ووضعه على رأسِ (يهوذا) وبدأ يشدّ على أطرافه من الأعلى لتنغرز الإبر الحديديّة في رأسه، راح (يهوذا) يكزّ على أسنانه من الألم، وهو يهتفُ في نفسه: «سأُتوّج عن الرّبّ، وستكون مملكتي مُرعبةً لكم أيّتها الشّياطين الصّغيرة». علتْ قهقهات الحُرّاس، وارتجّتْ عربةُ التّرحيلات على إيقاع تلك القهقهات.

فُتِحَ باب العَرَبة، نزلَ مدير السّجن من غرفته ليرى السّجين الّذي يتحدّثُ العالَم كُلّه عنه. أرادَ أنْ ينحني كعادته حينَ يستقبلُ مَلِكًا، بدا أنّه نَسِيَ نفسه في غمرة أحاديث النّاس عن مَلِكٍ يُساقُ إلى الذّبح. استوقفه بعد أن أتمّ هبوطَ درجاتِ العربةِ ومشى قليلاً في الطّريق المُؤدّية إلى سجنه: «أيّها العارِف؛ أَلَكَ حاجةٌ؟!». «لي؟! لا؛ سوفَ يسألني من أمثالِكَ الكثيرون حاجاتِهم فأمنعهم إيّاها». «فمن تكون حتّى تمنعهم؟!». «هل يعرفُ الفاني سِرّ الباقِي؟!». «أدَأبْتَ على أن تتحدّث بالألغاز؟!». «لا. أنا أقولُ أمورًا بدهيّة، ولكنّكم لا تفهمون!!». «ولماذا لا نفهم؟!». «لأنّني من عالَمٍ لا ينتمي إلى عالَمكم». هَزَّ مديرُ السّجن رأسَه بأسى، كانَ يأمُلُ أن يجدَ عنده بعض الإجابات، فلم يظفر بعد مُخاطبتهِ إلاّ بمزيدٍ من الأسئلة.

أُلقِيَ (يهوذا) في قَعر زنزانةٍ مع عددٍ من المجرمين. كان لا يزال مُقيّدًا. صاحَ أحدُهم مُتصنّعًا الابتِهاج: «أخيرًا اجتمعنا مع المَلِك في زنزانةٍ واحدة». «اشفَعْ لنا عندَ رَبِّك». قال ثانٍ. «لماذا عذّبوكَ بهذا الشّكلِ المُرعِب؟! إنّهم لا يستحقّونَك!!». هتفَ ثالث. اقتربَ منه رابعٌ ببطءٍ فركنَ رأسَه على صدره: «خُذْني معك أينما ذهبت. لقد يَئِسْتُ من صُحبةِ هؤلاء الملاعين». لم يكد يُنهي كلماته حتّى أحسّ أنّه يسمع أصواتًا قادِمةً من غَورٍ بعيد. صمتَ صمتًا مُفاجِئًا. وأرخَى سَمعه. وأشارَ بإصبعه إلى بقيّة زُملائه ليسكتوا، وظلّ مُلصِقًا أذنه على صدر (يهوذا). فتندّر به أحدُ المساجين: «لعلّكَ تسمعُ صوتَ البحر». صمتَ قليلاً ليُتابِع: «أو صوتَ السّماءِ مثلاً...

أو لِتَقُلْ صوتَ الله...» رفعَ السّجين رأسه عن صدر يهوذا، طفحَ وجهه بالرّعب، ازرقّ وجهه من الخوف، قال يهوذا بصوتٍ غاضبٍ: «أنا البَحرُ والسّماء... والله». استدار السّجينُ المرعوب ببطءٍ لِيواجه بوجهه المَفزوعِ السّجينَ الضّاحِك، فلمّا شاهده، انفجر بالضّحِك وهو يقول: «أنتَ مُمثّلٌ بارع... أقسِمُ بالآلهةِ أنّكَ ممثّل بارعٌ». أمّا هو فالتَجأ إلى زاويةٍ مثلَ فأرٍ خائفٍ، وعقدَ ما بينَ ساقَيه ويديه، ودفنَ رأسَه فيهما، واعتزلَ الباقِين.

في اللّيل رأى الشّياطين تجتمع في وادٍ سحيق، جاؤوا إلى الوادي من كُلِّ فجٍّ عميق. كان اجتماعًا لم يُشاهِدْ مثله في حياته، جَلَسَ على رأسهم (بَعْلَزَبُولُ)، ووجدَ نفسه في وسطهم، وقد خَنَستِ الشّياطينُ كُلُّها لرؤيته، ورأى بعلزبول يتقدّم إليه خاضِعًا، ويسجد عندَ قدَمَيه؛ فلم يستغرب، ثُمّ نهضَ، وتقدّمَ شيطانٌ آخر، فأعطى لبعلَزبول ثوبًا أسودَ، فنفضَه، ثُمّ ألبسه له، وجمعَ بين يديه في انحناءةٍ بالغةِ الطّاعة، ورجعَ إلى مكانه ليقول له: «اللّيلةَ تَمّ الأمر، وسنفرحُ حينَ تعتلي عرشَكَ». ثُمّ ذابوا جميعًا كأنْ لم يكونوا.

في الصّباح، فتحَ مدير السّجنِ باب الزّنزانةِ مع عددٍ كبيرٍ من الحُرّاس، وأمرهم أن يأخذوا ثياب (يهوذا) وينظّفوها جيّدًا، ودفعَ إليه بطستٍ فيه ماء ليتطهّر من بعضِ الدّماءِ الّتي جفّتْ على جِسمه، وألبسه ثوبًا من الزّعفران، وأوقفه في السّاحةِ وأمرَ كُلَّ مَنْ وُجِدَ هناك من المساجين أو الحُرّاس أن يُؤتَى بهم ليُشاهِدوه ويُلقُوا عليه نظرةَ الوداعِ الأخيرة.

فوقفَ في أوّل السّاحةِ، ووجدَ الحرسُ يُؤدّون له التّحيّة استِهزاءً، وكذلك فعل بقيّةُ المساجين، كانوا ينحنون أمامه بشكلٍ مسرحيّ، وهو يقول في نفسه: «تنحنون لمدفوعٍ إلى الموتِ... ستنحنون غدًا لمن يدفعكم إلى هذا الموت». ثُمّ أعيدتْ إليهِ ثُيابه، أو ما صَلُحَ منها، فخلعَ الزّعفران ولَبِسها.

ثُمّ جاءه المدير بصليبٍ خشبيٍّ كبير، وكانتْ عقوبةُ مَنْ يُسارُ به إلى الصّلبِ أن يحملَ الّذي سيُصلَب صليبَه فوقَ ظهره حتّى يبلغَ به المكان الموعود. فلمّا عُهِدَ إليه بحمله، حدّثَ نفسه: «ويلَ أبي». فسمعه أحدهم: «وأينَ أبوكَ؟!». «في السّماء». «أبوكَ وحدكَ، أم أبونا كُلّنا!؟». «أبي وحدي، وأنا أبوكم كُلّكم». فلمْ يَشُكّوا للحظةٍ أنّه مجنون. ثُمّ تابعَ مُحدّثًا نفسه: «صُلِبَ أبي دون أن يحمل صليبَه، لو كانَ حمله لعُهِدَ بالسُّلطان إليه، إنّما حُمِلَ عليه، فحملتُ أنا الشّرفَ عنه، لقد كانَ ينتظرُ أن أكون». سَمِعَ صوتَ أبيه آتِيًا من الغيب: «لم أكنْ أنتظرُ يا بُنيّ، بل صنعتُكَ لتكون، وأعددتُكَ لهذه اللّحظةِ منذُ أنْ عرفتُ سِرَّ الموتِ والحياة». فهزّ رأسَهُ معتذرًا. ورآه آخرون يتكلّمُ كلامًا غير مفهوم، ويهزّ رأسه كمن يُخاطِبُ شخصًا غيرَ مرئيّ؛ فازدادوا اقتِناعًا بأنّ جنونَ هذا الرّجل لا يُمكن أنْ يُشفَى إلاّ بهذه الطّريقة، وآمنوا لأوّل مرّة بأنّ الصّلبَ قد يكونُ عِلاجًا.

ثُمّ طُلِبَ مِنَ اثنَين آخَرين أن يحملَ كُلٌّ واحدٍ منهما صَلِيبه أيضًا، وابتدأتْ رِحلةُ الصّعودِ إلى جبلِ الجُمجمة، حيثُ هُناكَ على القِمّة، سيرتقي هؤلاء الثّلاثةُ أعلى منها، ليصلوا القِمّة

بعدَ ذلك!!

٦٠

ليسَ لدينا النّهار بِطُولِه!

ثقيلاً كَقَدَر، عالِيًا كسماء، وحزينًا كَلَيلٍ بلا نَهار كانَ الصّليب. اليومَ يرفعني عليهُ مَنْ صنَعه، لقد قلتُ له من قبلُ مِرارًا: «سَتَخونُني بِما كسبث يداك». فكان يقول لي: «إنّه ليسَ أنا، إنّه آخَر». اليومَ تتكشّفُ كُلُّ الحقائق لِمَنْ كانَ له قلبٌ. اليوم سيبتدِئُ عهدُ الظّلام.

كانَ صاحِباه اللّذان يصعدانِ الجبلَ معه شابّان في عهدهما الأوّل بالشّباب، فصعدا نَشِيطَين وبلا مبالاة كأنّما يُساقان إلى حفلةٍ ليتسلّما فيها جائزةً. ووصلا القِمّة مُبكِّرًا. أمّا (يهوذا) فكانت الجِراحُ قد أثخنَته، وكانت السّياطُ قد أكلث من جسده كُلِّه، وكانَ الجوعُ والتّعبُ والإرهاقُ قد بلغَ به كُلَّ مبلَغ. فمشى بطيئًا، يجرّ صليبه جرًّا ثقيلاً. كانَ الصّليبُ يعلو فوق جسده المطعونِ ألفَ طعنةٍ كأنّه موتٌ رابِضٌ يتهيأ لاستِلال الرّوح. سقطَ في بعضِ المُنعَطَفات فتلقّاه الجَلاّد الرّومانيّ بسوطٍ خرّ له مرّةً أخرى، صاح به: «هيّا.. انَهضْ أيّها المُجرِم... هيّا انهضْ». تَحامَلَ على نفسه، ركزَ باطِنَ يدَيه في البداية على الأرض، ودفعَ بما تبقّى فيهما من قوّة فتقوّس ظَهرُه، لكنّ الصّليبَ الّذي يعلو ذلك الظّهر المُتقوّس كان أثقلَ من أن تقدِرَ يدانِ مُجرّحتان على أن تدفعه كامِلاً. فجذبَ بصعوبةٍ رِجلَه اليُمنَى فقدّمها حتى صارتْ رُكبته في منتصف بطنه، فركزها هناك لتكونَ دِعامةً لظهره المُقوّس حينَ يشدّ الصليبُ الجاثِمُ

فوقه جسدَهُ إلى الأسفَل، دَفَعَ بقوّة ساعِدَيه، وبدِعامة ركبةِ ساقِه اليُمنَى، تزحزحَ الصّليب، شدّ أكثر فعَلا قليلاً، رفعَ رأسَه وضغطَ على أسنانِهِ وهو يُواصِلُ الدّفعَ إلى الأعلى، بانث عروقُ عُنُقِه وهو يكتمُ نَفَسَه في محاولةٍ ليُساعِده الهواء المكتوم في صدره في الحصولِ على قُوّةٍ إضافيّة، نجحَ أخيرًا، كادَ نَفَسُهُ ينقطع، أنقذَ روحه من أن تُفلِتَ منه، ونهضَ ببطء، سارَ كأنّ جبلاً يتّكِئ على كَتِفَيه. سَمِعَ صوتَ الحارِس يُلِهبُ ظهره بسياط الكلمات: «هَيّا أيّها الخاطِئ... هيّا... ليسَ لدينا النّهار بِطوله». ومضى.

كانَ الوزنُ يزداد كُلّما ارتقَى باتّجاه القِمّة، وقُوّته تضعُف. صارَ الصّليبُ الّذي يحمله بوزنِ صليبَين، ووجدَ عنتًا في جرّه لم يُجرّبه في يومِ الجَلْدِ في السّاحةِ المشهورةِ أمام مِئاتٍ من النّاس. لم يرحمه الحارِسُ الرّومانيّ هَوَى بالسّوطِ من جديدٍ على ظهره، فارتفعث عنقه ورجعث تَلقائِيًّا إلى الخلف بصورةٍ سريعة، لمعث في عَيَنيه الشّمسُ فكانث سوطًا جديدًا ألهبَهما، فَعَشِيَتا، أعادَ عنقه إلى مكانها وخفضها قليلاً، تبدّتِ الطّريقُ سوداءَ ليسَ فيها أيّ مَعْلمٍ؛ لم يَعُدْ يرى شيئًا؛ ظَنّ أنّه عَمِي، لكنّه استعادَ بعضَ الرّؤية بعدَ قليلٍ. لم تكدْ تتوضّح له معالم الطّريق من جديدٍ حتّى هَوى عليه سوطٌ آخر، وصاحَ صاحِبه: «الشّمسُ حارقةٌ يا بن الزّانية، وأنا لستُ مُجبرًا أن أحرسكَ كلّ هذا الوقت، أتريدُ لعَينَيّ أن تنفَقِئا تحتَ هذا الوَهَج... هيّا أيّها الخِنزير». خرجث أنفاسه من صدرهِ كشوكٍ يُنزَع من جِلدِه، لقد بدأ تنفّسُهُ يضيق. وقفَ. لم يَعُدْ يَقوى على أنْ يَمشِيَ خُطوةً أخرى، غَضِبَ الحارِسُ فهوى مرّة أخرى على ظهرِهِ

بقوّةٍ هذه المرّة أكثر فَخَرَّ للتّو على وجهه، وسقطت حافّةُ الصّليبِ على جِذعه فكادتْ تَكسِر عِظامَ ظهره، لولا أنه انزلقَ في اللحظةِ الفارِقة وقدْ جَرَّ معه مزيدًا من دمٍ ولحمٍ أخذهما من أسفلِ ظهره، وأحدثَ سُقوطُ الصّليبِ صوتًا مُدويًّا، وثارَ حوله بعضُ الغُبار. تقدّمَ حارِسٌ آخَر من زميله، وصرخَ بوجهه: «أتريدُه أن يموتَ أيّها الغبيّ؟! لو ماتَ في الطّريقِ فستُصلَبُ مكانه أيّها الأحمق!!». «وماذا تُريدني أن أفعل؟! انتصفَ النّهار ونحن لا نزال نصعدُ ببطء، سوفَ ينتهي قبل أن نصلَ القِمّة». «ألا ترى هؤلاءِ الحمقى الآخَرِين الّذين يتجمّعون كُلّ مرّة عند كُلّ مُنعطَف ليُشاهِدوا هذا السّجين الّذي نسوقُه إلى الموتِ سوقًا؟». «بلى». «اختَرْ واحِدًا ذا قُوّة وجسدٍ صحيحٍ ليحمل الصّليبَ عنه».

لَقِيَا قَرَوِيًّا، بَدَا أنّه كان مُشفِقًا على (يهوذا) ومنظره الّذي يملأ القلبَ عطفًا ورحمةً وبُكاءً، فطلبَ منه الحارِسُ أن يحمل معه الصّليب. فتظاهَرَ بأنّه لم يَسمَعه، فلوّحَ بالسّوطِ فوقَ رأسِه وهتفَ به: «هيه... أنتَ أيّها الفَلاّح... توقّف». كانَ قد أسرعَ الخُطَا ليتجنّبَ مثلَ هذا الطّلب، لكنّ الصّوتَ صارَ قريبًا منه وحفيفُ السّوط لم يزلْ في ذاكرته يومَ أصابتْه لَسْعته من أحدِ هؤلاء الملاعين، فتوقّف دون أن يُدير ظهره، فقط عيناه حاولتا أنْ تَدُورا إلى الخلف فَتَرَيا ما يريدُ أن يصنع هذا الرّومانيّ البغيض. تجاوزه الرّوماني حتّى صار قبالته، وصرخَ به: «احمل الصّليبَ عن هذا اليهوديّ». أزاحَ الفلاّح عنه نظره ليتحاشَى أن تلتقي عيناهما، فأكمل الرّومانيّ: «أليسَ يهوديًّا مثلكَ؛ فلماذا لا تُساعِدُ أخاكَ؟!». صمت. فتابعَ الرّوماني: «ألكَ

جِسمُ بغلٍ ولا تقفُ إلى جانب أخيكَ بضعَ خُطُوات؟!». فامتلأ الفَلاّح غضبًا. زَفَر. لكنّه لم يَفُهْ بكلمةٍ، توجّه نحو (يهوذا)، تلقّى عنه الصّليب، حمله فوقه ظهره، نظَرَ في وجهه، كانَ وجهه يعُجّ بمئاتِ الأسئلة المُتأرجِحة على تلك الصّفحة؛ لكنْ لم يَسقُط منها سؤالٌ واحد؛ وأيُّ سؤال يُجدِي في حَضرةِ الموت!! تقدّمَ الفلاّحُ أمام (يهوذا)، وتابعه الأخير، وفصلَ بينهما حتفٌ ماضٍ على هيئةِ صليبٍ خشبيّ.

تَجمّع عددٌ من النّاسِ ليشهدوا عمليّة الصّلب. صُدَّ بعضُهم عن السّبيل، وضُرِبوا على وجوههم بسياطِ الجنودِ الرّومانِ فرجعوا. ظلّ الفلاّح ينظرُ في عَينَي (يهوذا) غيرَ مُصدِّقٍ أنّ المسيحَ يُساقُ بهذه الهيئة المَهِينة الرزيّة إلى الموت. لكنّ لُهاثَه نابَ عن سُؤاله فمضى صامِتًا. قُبيلَ القمّة بدتِ السّماءُ صافِية. شيءٌ يبعثُ على البهجةِ والسّرور، فضاءٌ مُطلَق، ونَسَماتٌ مُنعشة، وحرارةٌ مُعتدِلة؛ أيُمكن لكلّ هذه الأشياء الباعثة على الأمل أن ترسُمَ الموتَ لشخصٍ ظلّ حتّى اللّحظةِ الأخيرة يهبُ الحياةَ لكلّ مَنْ يَلتقيه!!

قُبيلَ القِمّة وصلتِ المَرْيَمان؛ أُمّه والمَجدليّة، كانتَا شَهِيدَتَين على قيدِ الحياةِ، وقِدّيستَين بينَ أيادٍ من الجَلاّدين دُنِّسَت حتّى لم يَعُدْ في قلوبِ أصحابِها رحمةٌ أبدًا. كانَ وجههما يحملُ أحزانَ الدّهورِ كُلّها، ويكشفُ عن نورٍ يدفعه من الأعماق أسىً شفيف خبّأتَاه منذ عَلِمَتا أنّ هذا النّبيّ لا ينتمي لهذا العالَم.

وصلَ الفلاّح و(يهوذا) وجُنودُهما وقد انقضَى أكثرُ من

نصفِ النّهار. عددٌ من الكَهَنةِ لم يشأْ أنْ يَفُتْه المَشهَد. آخَرون كثيرون مِمّن جمعتْهُمُ الطّريق أو محبّة المسيح جاؤوا كذلك. كانَ اللّصّان قَدْ رُفِعَا قبله؛ كُلٌّ على صليبٍ يبعُدُ عن الآخَر بما يكفي لثالِثٍ يُنصَب في الوسط. بدا الفضاء الفاصِل بينَ الصّليبَين غائِبًا عن الوجود، شاسِعًا كمدى غير مُتناهٍ، بارِدًا كنزيفٍ لا يُرى، وعميقًا كأسىً لا يدري به أحد. تقدّم الجنود المسؤولونَ عن الصّلب، ألْقَوا الخشبةَ على الأرض، وطرحوا (يهوذا) عليها، طاوَعَهم فيما هُمْ مُقدِمون عليه كأنّه يستعجِلهم الأمر. فَكّوا قُيودَ يدَيه، وفردوهما على الخشبة الأفقيّة العُلويّة المُتعامِدة مع الخشبة القائمة، ثُمّ جاؤوا بمساميرَ يزيدُ طولُ الواحدِ منها عن شِبر، وأتى ذو الغِلظةِ البائنة منهم بالإزميل، أمسكَ أحدهم بعضُدِ (يهوذا) فنظر الأخيرُ في عَينَيه مُبتَسِمًا كأنّه يريدُ أن يقول له: «لماذا تُتعِب نفسك؛ لن أُقاوِم، دَعِ المساميرَ لتغوصَ في باطنِ كَفّي إلى النّهاية»، فأشاحَ بوجهه عنه. غاصَ الحديدُ في اللّحم، فنزّ الدّم، طرقَ الجُنديّ بالإزميل على رأسِ المسمار فتأوّه المسمارُ نفسه، أمّا (يهوذا) فاهتزّ جسده وَتَقوّسَ صَدرُه مع كلّ ضربةٍ، في باطنِ اليُمنَى دَقُّوا مِسمارَين، وكذلك فَعَلُوا باليُسرَى. ثُمّ تعاوَن ثلاثةٌ منهم على رَفْعِ الصّليبِ الخشبيّ. فاعتدل قائِمًا، لكنّ جسد (يهوذا) انسحبَ إلى الأسفلِ بفِعلِ انجِذابِ جسده، بَزّ الدّمُ أكثر، كادَ ساعِدُه يُكسَر بسبب الثّقَل، كَزَّ على أسنانه، صرخت مريم صرخةً. تذكّرَ أباه الّذي لم يصرخ أبدًا. غطّت وجهها بباطنِ كفّها، انجذبَ جسدهُ أكثر. فارَ دمٌ على الخشبِ البنّيّ فاسودّ. دفنتْ وجهها في صدرِ مريم المجدليّة. تذكّر

أباه من جديد، فشدّ بأسنانِه على شفته السُّفلَى ولم يصرخ. سَمِعَ أباه يهتفُ به: «لهذا اليومِ أعددتُك». أجابه: «وأنا رضيث يا أبي». سارعَ جُنديٌّ رابِعٌ إلى الإمساكِ بقدَمَيه ورَفْعِهما إلى الأعلى حتّى لا يسقطَ الجسد، وجاءَ اثنان آخَران، فوضَعا اليُمنَى فوقَ اليُسرَى، تناولَ ذو الغِلظة البائنة مِسمارًا، قلّبه أمام وجهه، رآه قصيرًا لا يغوصُ في القدمَين المركومتَين ويدخل في الخَشَبةِ العموديّة، فرماه، انحنَى ليلتقطَ مِسمارًا أطول، قال لنفسِه: لعلّ هذا يَفي بالغَرَض، رفعه من جديدٍ ليُبصِره بشكلٍ واضِح فوجده مثلَ سابقه ليسَ طويلاً بما يكفِي، أدارَ كفّه في صندوقِ المسامير، لم يجد، قَلَبَه على بطنه، وبحثَ فلم يجد، نَظَر (يهوذا) في كومةِ المسامير فانجذبث حتّى تكوّمث تحتَ قدَمَيه، شعرَ الرّومانيّ بالرّهبة، أمسكَ الكومةَ بيدٍ مُرتعشة وذهنٍ يُحاوِلُ أن يُقنعَ نفسه أنّ ما رآه وهمًا تشكّل جرّاءَ تعبه. جذبَ الصّندوق إلى كومة المسامير، جمَعها بسرعة ثُمّ ورماها في قلبه، تناولَ أحدها من جديد، رفعه، حدّثَ نفسه بفرح: إنّه مُناسِب. رَكَزَه على ظاهِر القدم في مُنتصَفِها. كانَ يعرفُ لخبرته السّابقة الموضع المناسِبَ ليتلافَى العَظم من أجلِ مزيدٍ من الفعاليّة. هَوَى بالإزميل، فغاصَ المِسمار. شهقث مريم. وهوَى الجنديّ مرّة أخرى فكادث مريم تَهوي، احتضنَتْها المَجدليّة وهي تبكي بُكاءً صامِتًا: «لا تنظري يا أمّي». تنفّسَ ذو الغِلظةِ البائنة الصُّعَداء بعد أنْ أتمّ عمله، صارَ المَشهدُ مُكتَمِلاً. هاهو يَعلُو شامِخًا فوق صليبه الّذي سيعودُ عليه، ومنه ينطلقُ إلى قَدَرِه وقُدْرته. بدا (يهوذا) هذا الجسدُ المُتعَب الممزوجِ بالدّم

سيّدًا يعتلي قِمّةَ القِمّة ويفتحُ ذِراعَيه على امتداهما يُرحّب بالقادِمين من القاعِ إليه.

تحلّقَ الجنودُ الرّومان حولَ الصُّلبانِ الثّلاثةِ لِحِراستها من أيّ شخصٍ تُسوِّلُ له نفسُه بالاقتِرابِ منها. صارتِ الفُرصةُ مناسِبةً بعدَ هذا الطّوقِ الأمنيّ للحِوار بين الفُرسان الثّلاثة الّذين يمتطون صَهَواتِ الصُّلبان، قال اللّصّ الأوّل مُستهزِئًا: «كُنتَ ستنقض الهيكلَ في ثلاثةِ أيّام وتُعِيد بِناءَه، فانقُضْ هذه المسامير اللّعينةَ الّتي تهدِمُك وأَعِدْ بِناءَ نفسِك». نَهَرَه اللّصّ الآخَر: «أتشمتُ به، ونحنُ مِثله مَنذورون للموت؟!». ثُمّ توجّه ليهوذا: «قالوا إنّكَ الرّبّ». فأجابه (يهوذا): «بلى». «فَخَلِّصْنا» هتفَ الأوّل. فصمت. اقتربتْ مريم وعيناها جَمْرتا حُزنٍ تُريدَ أن تتمسّحَ بِقَدَمَيه، فوجدتِ الرّماحَ تُشرَعُ في وجهِها، فتراجعتْ، فتلقّفتْها المجدليّة لتخفّف من لوعتِها: «إنّ الله يحميه. وهو شفيعُنا. اليومَ يكون إلى جوارِه في المَلَكوت». دفنتْ وجهها في صدرِ أختها، وراحَ جسدُها يرتجّ وهي تُحاوِلُ أن تكتمَ صوتَها الفَجائعيّ في بُكائِها السّماويّ.

قال له الكَهَنةُ الّذين رقصتْ قلوبهم طربًا لِما يَرَون: «كنتَ تُريدُ أن تُخلّصَ العالَم، وتمنحَه السّلامَ الأبديّ، فخلّصْ نفسكَ أيّها الدّعيّ وامنحْها ولو شيئًا من هذا السّلام المَزعوم». نَظَرَ (يهوذا) إليهم وهو يُضيّقُ عينَيه: «جَهَلة، صُلِبَ أبي من أجلكم، وأنا أُصلَبُ من أجلِ أنْ أهبكم مُلكًا لا يزول». تابَعوا: «اليومَ ينكشِفُ سَحرُكَ أيّها المأخوذ». «اليومَ يبتدِئُ سِحري أيّها البُلْه».

قال اللّصّ الأوّل: «ما الّذي سرقتَه وأحوجَهم إلى أنْ يصلِبوكَ بينَنا؟!». «وُهِبتُ أعمارَ النّاسِ فصارتْ مِلكَ يميني؛ أهذه سَرِقة؟!». «إنّكَ تقولُ أقوالاً غيرَ مفهومة». «اللّصوص أوّل مَنْ يدخلون مَملكتي؛ فلماذا لا تفهم؟!». «رُبّما جُنونُكَ... لا أدري... ربّما كلماتُكَ هي ما أوصلَكَ إلى هنا». «نَعم كَلِماتي... لكلماتي قُدرةُ الخالِق». انتهَزَ اللّصّ الثّاني هذه اللّحظة: «إذا كانت لكلماتِكَ هذه القُدرة فأدخِلْني في مَلَكوتِكَ أيّها الرّبّ». «اليومَ تكونُ معي في فِرْدَوسي».

زَحَفَ الظّلام. الظّلامُ قلبُ الكَهَنةِ البغيض. نشرَ الغُرابُ أجنحته في السّماءِ كُلّها، فَعَمّ الأرضَ ليلٌ أربد. زعقتِ الرّيح. على ما تبقّى في شعلةِ الشّمسِ من ذُبالةٍ تقدّمت المجدليّة إلى أحدِ الجنودِ الرّومان، رجَتْه بأنْ يسمح لأمّه أنْ تُلقِي عليهِ نظرةَ الوداعِ الأخيرة، وتمسَّ بيدَيها رِجلِيه أو صدره. أبى. مدّتْ يدَها إلى جُيوبها. سمحَ لها فقط بالاقترابِ لمُعاينَته. اقتربتْ أمّه مِنه، تقدّمت من الجسدِ الّذي صارَ على شفيرِ الموت. مرّتْ ولادته وطُفولته ببالِها سَرِيعًا، في لَحَظاتٍ خاطِفة تذكّرتْ رِحلةَ مصر، ارتجفتْ. تقدّمتْ خُطوةً أخرى. تذكرتْ صِباه، ارتجفتْ من جديد. توقّفتْ عندَ النّبع يومَ سقطَ في الماء، فارتَعَشتْ؛ صرختْ في أعماقِها: «إنّ ذا الجُرحِ ما زالَ ذا الجُرح». رفعتْ رأسَها إلى صدره. أحدّتِ النّظر إلى الجُزءِ المكشوفِ منه حيثُ الجُرح القديم. لم تَرَ شيئًا. كانَ صدرُه سليمًا من تلكَ النُّدبة. قالت: «ذلكَ مِنَ الشّيطان. لا يُريدُ أن يُرِيَني إيّاها». استعاذتْ بالله مِنه. ووقفتْ بشموخٍ هذه المرّة مُتعالِيةً على أحزانِها، ونظرتْ من جديدٍ إلى موضعِ

جُرحِهِ القديم، ومن جديدٍ لم تَرَ شيئًا. سألت نفسَها: «أينَ ذهبتَ؟!». صمتتْ قليلاً، ثُمّ تابعتْ: «إنّها إشارةٌ من الله». نَظَرتْ نظرةً أخيرة فلمَ ترَ لها أثرًا. وبقدر رُعبِها مِمّا اكتشفتْه، بِقَدْرِ فَرَحِها باحتماليّة ألاّ يكون هذا المصلوبُ ابنَها. «لكنْ هل سُحِرتُ؟!». سَمِعتْ صوتًا ملائكيًا أَلِفَتْه من زمنٍ بعيدٍ يُجيبُها: «لا». فتشجّعتْ لِتَسْأل: «فأينَ ابني إذًا؟!». فجاءَها الجوابُ: «رَفَعَهُ اللهُ إليه». اطمأنّتْ شيئًا ما؛ لكنّها أرادتْ أنْ تطمئنّ أكثر، فسألتْ (يهوذا) وهي تنظرُ في عينَيه بِقوّة: «فَما أنت؟!». «شيطانٌ وَشَى بابنِك». «وَلِمَ فعلتَ ما فعلتَ؟!». «إنّما وشيتُ به لأتبعَه». «تَتبعُه؟!!». «لمْ يكنْ بإمكاني أنْ أتبعَه إلاّ بهذه الطّريقة؛ يُرفَعُ هو أوّلاً ويموتُ جسدي أنا ثانِيًا، وينزل هو من جديد... وأُبعَث أنا من موتي ونتقابَل في معركتنا الكُبرَى». استقرّ وجيبُ قلبِها، لفّتْ ما فَضُلَ مِنْ ثوبها على وجهها، وأدارتْ ظهرها للّصوص الثّلاثة، ومضت. أمسكتْ بيدِ المجدليّة: «هَيّا بِنا يا مريم؛ إنّه ليسَ هو». «وأينَ هُوَ إذًا؟!». «في السّماء!!».

٦١

ليسَ ابني إلهًا

غَطّى ظَلامٌ كثيفٌ السّماء. برزتْ غُيُومٌ سوداءُ فجأةً، جرتْ في المدى كأنّها تهربُ من عذابٍ مُحِيق. زمجرتْ ريحٌ في الجوّ فبعثتِ الرّهبَةَ في النّفوس. كادت السّماءُ تبكي لولا أنّها تماسكتْ في اللّحظةِ الأخيرة لتكتفي بالبرق الّذي يخطَفُ الأبصار. كان غضبُ الرّبّ يبدو جَلِيًّا. شيءٌ ما حبسَ البراكين المُتفجّرة في السّحب من أن تقذفها على البشر فيهلكوا. هربَ الجُنُودُ المُتبقّون على الجبل. تلقّاهم قادةُ المئةِ على السّفوح، فَلَطَمُوهم على وجوههم: «عُودُوا أيّها الجُبناء». «إنّ غضبَ الرّبّ لا يقفُ أمامه شيءٌ» ردّوا وهم يرتعدون من الهلع. أجابهم أحدُ القادة: «الآنَ آمنتُم بالرّبّ أيّها الحمقى؟! عُودوا».

انتفضَ الجَسَدُ المَصلوبُ في الظُّلمة الكثيفة. سحاباتٌ من دُخانِ اللّيل كانت تتراكمُ في مَدَى الرّؤية، لم يَعُدْ أحدٌ يَرَى شيئًا في السّواد المُمتدّ. غَطّى غَبَشٌ لَعينٌ على عُيُونِ قليلٍ من الأوفياء ليسوع الّذين ظلّوا يرقبون المشهدَ من بعيدٍ خوفًا من رماح الرّومان. ابتسمَ (يهوذا) رغم الجراح الغائرة في كفّيه ورجلَيه وبطنه. نظرَ إلى الأعلى. ضيّقَ عينَيه فانكشفتْ له الحُجُب، فرأى ما أرادَ له الرّبّ أن يرى، هتف مُنتصِرًا: «لتكنْ مشيئتُكَ يا ربّ. حرِّرْ روحي، أمّا جسدي فما أسهل أن يتخلّى عنهُ إلهٌ مِثلي!!». ردّتِ السّماءُ بعاصفةٍ جديدةٍ. في المعبد سُمِعتْ أصواتُ وحوشٍ أسطوريّة لم يعهدْها الكَهَنةُ

منذُ زمنٍ سحيق تركضُ فوقَ أسطُحِ المعبدِ العتيقة دون أن يراها أحدٌ، كان وقعُ أقدامها يُشبِه تَدحرُجَ صخورٍ ضخمة من أعلى جبلٍ لتستقرّ في بحيراتٍ راكدة. رجفتْ قلوبٌ كثيرة. حتّى أعمدةُ المعبد كادتْ تتقوّض لهول ما تسمَع، وحده قلبُ (يهوذا) ظلّ مُحافِظًا على رباطةِ جأشه. اتّسعتِ ابتسامتُه في التّاسِعة بعدَ أن غَطّى الظّلامُ كُلَّ شيءٍ، عادتْ إلى يدَيه ورِجلَيه قُوّتُهما، سقطتْ مساميرُهما على الأرض وتدحرجتْ نزولاً حتّى انغرزتْ في وادي جبل الزّيتون فازدادَتْ جِرداؤه. بَرِئتْ جروح الجسد، نزلَ يهوذا عن الصّليب كملكٍ يهبِطُ عن عرشِه. انبعثتْ فيه قُوّةٌ جبّارةٌ. غَطّى الشَّعرُ صدرَه ويدَيه ورجلَيه ووجهَه، وكُلَّ ما ظهر من جسده، لم يَسلمْ من ذلك غيرُ عينَيه، وباطنُ يدَيه وقدَمَيه. بدا كما لو كان وَحشًا. سارَ في القِمّة يبحثُ عن ضحيّة. وجدَ جُنديًا رومانيًا غائبًا عن الوعي؛ قد أفرغَ ما كانَ في جُعبته من خمرٍ لكي يتّقي المشهد المُرعِب الّذي ملأ المكانَ منذُ السّادسة. بصقَ في وجهه فاستيقظ مرعوبًا، كانتْ حدقتَا عَينَيه تنطِقان بالمشهد كلّه. حمله بطرفِ خِنصره، ألقى عليه جسدَه الّذي كانَ مصلوبًا، ثُمّ قذفَهُ بدروهِ على الصّليب مكانه. نظرَ إليهِ (يهوذا) طويلاً قبل أن يُميلَ رأسَه يمينًا ويهتف: «مِسكين. لم يكنْ لك خَيارٌ ولا لي في وَضعِكَ هُنا. بعضُ المصائب هي التّي تختارُ ضحاياها؛ إنّها أذكى مِمّا نعتقد». ظلّ الجنديّ يصرخُ وهو يُبحلِقُ في هذا الكائن المَسخ الّذي أمامه مرعوبًا دون أن يفهمَ شيئًا.

قهقهَ يهوذا حتّى ارتجّ باطنُ الأرضِ لضَحِكته. قال بعضُهم: الرّعد. وقال آخرون: الله غاضِب. وقال عددٌ غيرُ قليل: إنّه

لجأتْ مريم إلى الله. نادتْ جبريل: «هل أنتَ هُنا يا رَسول الله؟!». هتفتْ غيرَ مرّة. لكنّ صوتَها عادَ بلا صَدى. قالتْ لها المجدليّة الّتي رافقَتْها في المِحنة: «جبريلُ مِثل عيسى مَخلوق لا يملِكُ لنفسه ولا لنا شيئًا. نادي الله». فنادتْ في الظّلُمات فجاءَها صوتُ الله جَلِيًّا: «يا مريم. إنّه عِندي في عِلّيّين. يأكُلُ ويشربُ والأنهار تجري من تَحتِه. ألا يَكفِي هذا؟!». «ولكنّني أريدُ أن أراه». «لقدْ رفعتُهُ إليّ. وسَيعودُ في آخِرِ الزّمان». «وقلبي يا ربّ، وأنتَ الّذي خلقتَ قلوبَ الأمّهات؟! أتتركني في وَحشة البِعاد ولوعةِ الغياب وَحدي». «تذكّري قلبَ أمّ مُوسَى». «لقد عادَ إليها يا ربّ». «لكنّها قذفتْه في النّهر دون أن تُجادِل، وكان يُمكن أن يغرقَ ويموت لولا رحمتي وتظلّ هي من بعده في ندمٍ أنْ رمتِ ابنَها بِيَدَيها إلى نهر الموت». «إنّ قلبي يتقطّع عليه فهل إلى رؤيته من سبيل؟!». «ما من نبيّ إلاّ غاصَ جسدهُ في التّراب سِواه؛ لقد رفعتُهُ إليّ لأرفعَ منزلته؟! أليسَ في هذا عزَاءٌ؟!!». «ولكنّه لم يعش إلاّ ثلاثةً وثلاثين عامًا يا ربّ أفلا متّعتَني به أكثرَ من ذلك؟!». «إنّه أطولُ الأنبياء عُمرًا يا مريم. إنّه حيٌّ عندي بجسده وروحه. وإنّه سيعيشُ أطولَ من أيّ بشريٍّ آخَر، وسترَينه». «فهل لي إليكَ طلب؟!». «اطلبي يا مريم، فأنا بيدي مقاليدُ السّماوات والأرض». «إنْ قضيتَ عليّ العيشَ بعده في عِلمك، فهل تُدنيه منّي روحًا فأخاطبه في صَلَواتي ويُخاطِبُني». «بلى يا مريم... لَكِ ذلك». «فأطِلْ عُمري حتّى أشهدَ عودتَه». «إنّما الأعمارُ قد قُدِرتْ في اللّوحِ المَحفُوظ

يومَ أن خلقتُ السّماواتِ والأرضَ فلا أُغيّر فيها شيئًا يا مريم، ولكلّ أجلٍ كتابٌ».

خَرّتْ على الأرضِ ساجِدةً. حينَ قامتْ احتضنتِ المجدليّة. قالتِ الأخيرةُ لها: «لا تأسَيْ يا أُمّاه؛ روحُه بيننا، وتعاليمه ما زالتْ في قلوبِنا. وستُبشّر به العالَمين». أجابَتْها: «الكَهَنةُ لم يتركوه هو، فهل سيتركونكِ؟!». «لَنْ يتركوا أحدًا. ولكنّ كلمته أقوى من الظّلامِ لأنّها النّور، وعلى كلّ الحواريّين والتّلاميذ أنْ يُبشّروا بدعوته». «أينَ هُمُ الآن؟!». «لقد تفرّقوا يا أمّي. بعضُهم هربَ، وبعضُهم اختفَى، وبعضُهم آثرَ الصّمت، وبعضُهم أصابَتْه الكآبةُ لِما ظَنّوا أنّه فُعِلَ بسيّدهم، وبعضُهم كفرا». «كفرَ؟!». «بلى. فإنّه لمَا تراءى له جسدُ يسوع مصلوبًا قال كيفَ تركهم يفعلون به ذلك، بل كيفَ تركهم الله يؤذون حبيبه بهذه الطّريقة البَشِعة، فغلبَهُ الشّيطانُ على قلبِه فأنكرَ كُلَّ ما آمنَ به». «أولئك آمنتْ شِفاهُهم ولم تُؤمنْ قلوبُهم يا مريم».

قامتْ مريم من موضعها، مشتْ في بيتِ المجدليّة. كانَ حُزنُ الدّهور كلّها يُغطّي مِسحةَ وجهها. ظلّ أملُها في أن ترى ابنَها غالِبًا على قلبِها؛ إنّه قلبُ الأمّهات؛ فكيفَ إذا كانَ قلبَ الأمّهاتِ النّبيّات!!

هتفتْ بالمجدليّة: «يجب أن نبحثَ عن الّذين ظَلّوا على العَهدِ معه، لكَي نبدأ رحلةَ الإيمان». أجابتْها المَجدليّة: «اتركي ذلكَ عَلَيّ. أنا سأقومُ بالمهمّة خيرَ قِيام. سأبدأ بيوحنّا؛ إنّه أوفاهم وأحبّهم إلى قلبِ يسوع». «ولا تَنسَي بُطرس». «وبطرُس كذلك، وإنْ كانَ قد أخطأ في غير موضع». «ومَنْ

مِنّا لا يُخطِئ يا ابنتي. نتجاوزُ أخطاءَنا الصّغيرة في سبيلِ أهدافِنا العَظيمة». «لقد كادَ أنْ يُؤلّه عيسى ذاتَ مرّةٍ يا أمّاه». «ليسَ ابني إلهًا؛ ولدتُهُ كما يُولَد البشر، وعِشْتُ معه في الخوفِ والرّجاء مثلَ البشر، وأكلْنا مَعا وشربْنا مثلَ البشر، وعَمِلَ وعملتُ معه لنَكسِبَ قوتَنا مثلَ البشر، أفكانَ الله يجعلنا آلهةً من دونه - سُبحانه - ثُمّ يقضي علينا أن نسلكَ سُلُوكَ البشر في كلّ شيء... أينَ عُقُول النّاسِ يا ابنتي...؟! إنّ ما ميّزَ حبيبي أنّه كلمةُ الله وروحٌ منه، وهذا يُرقّيه ويُدنيه من جَلال الله، ولكنّه لا يُخرجه من دائرة البشر بأيّ حالٍ من الأحوال... أسمِعتِ يا مريم؛ أريدُ أن يعرفَ أتباعُه هذا جيّدًا». «سَمعًا وطاعةً يا أُمّاه». «إنّي أُحِسُّ أنّهم في أُخريات وجوده بيننا قد خرجوا عن منهجه؛ فما الّذي يدعوهم إلى ذلك؟!». «رُبمّا حَمَلَهم على ذلك ما رأوا من مُعجِزاته يا أمّي!!». «أفكانَ أوّل نبيٍّ يُؤيّد بالمُعجِزات يا ابنتي!! إنّ الله لا يبعثُ نبيًّا بمُعجِزةٍ إلاّ لقسوةٍ في قلوبِ البشر، ونُكرانٍ في نُفوسهم وجحود، واستكبارًا وعَمَلَ السّيِّئ؛ أفكانَ ابني مُحتاجًا إلى مُعجِزةٍ واحدةٍ لو أنّ بني إسرائيل آمَنوا به، وسَمِعُوا منه؛ إنّما قلوبهم كالحجارةِ بل هي أشدُّ قسوةً». «فما الخُطوةُ الأولى يا أمّي؟!». «اجمعي لي ما استطعتِ من الحواريين. أريدُ أن أتحدّثَ إليهم. الإيمان يحتاجُ إلى أركان. وإنْ لَمْ أُرسِها في نفوسهم فسيتهدّمُ البنيان من أوّله. أعرفُ أنّ المهمّةَ صعبةٌ، ولكنّ أداءَها سيكونُ رسالتي بعدَ ارتِقاء ابني؛ أنا أوّل الأُمناء على عهده». «سأفعلُ يا أمّي. سأفعل». «لا أريدُ لأحدٍ أن يعرفَ بالأمر؛ أريدُهُ أن يظلَّ سِرًّا». «سمعًا وطاعةً يا أمّاه.

سمعًا وطاعةً».

٦٢

مَنْ شَرِبَ مِن مائي فلا يعطشُ أبدًا!!

وقفتْ خارجَ بيتِها. في الحديقة الّتي تنبسطُ مثلَ راحةِ اليد، مُزيّنةً بالزّهور على الأطراف، في أحواضٍ طينيّة، تخلّلها بعضُ الحجارةِ البُنّيّة لِتَمتينها. كانَ إيمانُها يُحاوِلُ أن يتغلّب على حُزنِها. أوتْ إلى نخلةٍ عتيقةٍ في فناء الدّار. تذكّرتْ أمّها يومَ أنْ ولدتِ المُعجِزةَ تحت نخلةٍ مثلِ هذه. تشابهتْ عليها الأمّهات. «قلبُ النّخلةِ أحنّ من قلوبِ كثيرٍ من البشر» قالتْ ذلك وهي تُسنِد جِذعها إلى جِذع النّخلة. كانَ لديها كلامٌ كثير، لكنّها لم تجدْ أحدًا لِتَقوله له! نظرتْ إلى السّماء، كانتْ صافِية، مُرصّعةً بالنّجوم، تلألأتْ إحداهُنّ في مدى الرّؤية، رأتْ أنّها تغوصُ بعيدًا في طبقات السّماء، وترتقي عالِيًا، تخيّلتْ في لحظةٍ خاطِفة أنّها تحملُ سيّدَها المسيح، ولهذا كانتْ تتألّق أكثرَ من أخواتها. سرحتْ بعيدًا في تخيُّلاتِها؛ هتفتْ في أعماقِها: «امنَحْنِي سِرّكَ أيّها الحكيم». شعرتْ براحةٍ في قلبِها، كأنّما السّرّ تسلّل إليها واستقرّ هناك، سرعان ما تبدّلَ وجهُها؛ لقد أُلقِيَ حجرُ الحقيقة في بُحيرة الطّمأنينة. الحقيقة دائِمًا مُرّة وصعبة، وقاسِية، لكنّ عاقبتها الحُسنَى.

لفّتْ شالَها على جسدها النّحيل والطّويل. عيناها المُتّسِعتان لم تشفعا لها بأنْ ترى في الظّلامِ الحالك إلاّ صفحةَ السّماء المُزيَّنة. همّتْ بالدّخول إلى البيت لولا أنّ صوتًا ناداها: «أيّتها المَجدليّة». التفتتْ ناحية الصّوتِ فلم تَرَ أحدًا، كان الظّلامُ

موغِلاً في الرّهبة. نفضت رأسَها حين شعرتْ بأنّها تحلم. خطتْ خُطوةً أخرى باتّجاه باب البيت، سمعتِ الصّوتَ من جديد: «أيّتها المَجدليّة». هذه المرّة كانَ الصّوتُ واضِحًا، ورقيقًا، وعَذْبًا، ومألوفًا. شيءٌ ما في أعماقِها قال لها: «إنّه صوتُه؛ لا يُمكنني أن أخطِئَه». عَبَرَ الصّوتُ من جديدٍ حُجُراتِ قلبِها: «إلى أينَ تذهبين يا أُختاه؟!». ابتعلت رِيقَها لتجرّب الحروف الّتي تردّ بها على السّؤال الّذي سمعتْه للتّو، لكنّ شِفاهها كانتْ قد تيبّستْ من الحُزن والفرح معًا. ناداها من جديد: «هذا الباب لا يُوصِلُ إلى بيتِك؛ بيتُكِ عندي في الجَنّة». ازدادَ خوفُها ورجاؤُها معًا. تحسّستْ جسدها لتتأكّد من أنّها لا تحلم. لم يُمهلها الصّوتُ كثيرًا ليهتفَ من جديد: «أنا هنا، أنا يسوع!!» أغمضتْ عينَيها لتراه، فلم يعدْ من عُيونٍ في الظّلامِ لكي تُبصِرَ غيرُ عيونِ القلب. كانَ هُناكَ بالفعل؛ هالةً من النّور في ظلامٍ كثيف، وشُعلةً من الضّياء في ليلٍ داجٍ. هتفتْ: «هل عُدتَ؟!». أجابها: «لا». «وما أنتَ؟!». «أنا هو. لكنّني أعودُ في آخر الزّمان». «ولِمَ تظهرُ لي؟!». «أريدُ أنْ أوصِيَكِ». «كلّي آذانٌ صاغيةٌ أيّها المعلّم». «سيكذبُ باسمي كثيرون، وسيكذبُ عليّ كثيرون كذلك، فكوني رسولي إليهم، وأَعِيني أمّي على قول الحقيقة». «فما الحقيقةُ أيّها المُعلّم؟!». «أتَعْمَينَ عنها!!». «أفواهٌ كثيرةٌ تمضغها ولم أعُدْ أُميّز». «أنا عبدُ الله ورسولُه. جئتُ بمعجزة. وارتقيتُ بمعجزة. وسأعودُ بمعجزة». أخذتْ نَفَسًا طويلاً، أخرجتْ زفرةً حرّى من صميمِ قلبِها: «لقدْ تركْتَنا وحدَنا في الصّحراء دون ماء». «مَنْ شَرِبَ من مائي فلا يعطشُ أبدًا». «وهذا اللّيلُ الّذي يُحيطُ بنا

وبالصّدّيقين من كلّ جهة!!». «أنا هو النّور مَنْ رآني فقد رآني حَقًّا». «لو أنّكَ أخبرْتنا برحيلك قبلَ أن تفجَعنا به». «أنا لم أرحلْ. جسدي في السّماء وروحي في كلّ مكان. انظري إليّ بقلبِك فلَنْ يخدعكِ القلبُ أبدًا». «والحُزنُ الّذي يثقُبُ قلوبَنا على فَقْدِك؟!». «ألم تُدركي بعدُ؛ لقد بشرّتُكُمْ بفرحٍ عظيمٍ فما معنى الحُزنِ إذًا. وأنا معكم في دَعَواتِكم وكلماتكم فما معنى الفَقْدِ إذًا؟!». «أجسادُنا لا تَقوَى على الحنين أيّها المُعلّم، وأرواحنا الّتي ملأتَها بالحبّ ثَكلَى من بعدِك!!». «أنا كلمةُ الله، وكلمةُ الله معكم في كلّ حينٍ». «أنموتُ لهفًا وتغادرنا كأنْ لم تكنْ بيننا يومًا!!». «كوني لأمّي صَديقةً وصِدِّيقةً».

سَكَنَ الصّوت. عبرتْ نسمةٌ دافِئةُ القلبِ. تحرّكَتِ الأعذاقُ في الأعلى. أدارتْ ظهرها للنّخلة. وخطتْ نحو باب البيت. أحسّتْ أنّ عُمرَها اخضرّ وروحَها تُحلّق. دخلتِ البيتَ على قَدَمَين من هُيام، وجسدٍ من سكينةٍ. أوتْ إلى الفراش. لم يزرْها النّوم بُرهةً. كيفَ للنّومِ أنْ يزورَ العاشِقين؟!

أحصَت أسماءَهم في ذِهْنها. كانَ عليها أن تُنفّذ الوصيّة. طلعَ الصُّبح وعيناها مشدودتان إلى السّماء. نهضتْ بروحٍ جديدةٍ. سابقتِ الشّمسَ في سَعيها المجهول إلى النّور. قضتِ النّهارَ بأكمله وهي تبحثُ عن التّلاميذ. كانوا قد تَفَرَّقُوا في الأكْوار. حينَ وجدتْ بُطرُس، قالت له: «مِمّ تهرب؟!». أجابها: «مِنْ نفسي». «كُلُّنا فعلْنا ما فعلْتَ، المُعلّم يدعوكَ إلى بيتِه». «أورأيتِهِ مِثلي؟!». «أَوَرأيتَه أنتَ أيضًا؟!». «نعم، ولكنّني لم أستطعْ أن أنظرَ في وجهه». «لقد سامَحَ أعداءَه يا بُطرُس

وقَبِلَهم فكيفَ لا يقبلُكَ؛ هيّا ليسَ لدينا وقتٌ كثيرٌ... تعرفُ بيتي. توجّهْ نحوه، سأبحثُ عن بقيّة التّلاميذ». «أنا أعرفُ مكانَ أخي أندراوُس، وبرنابا». «خُذهما معك إلى هُناك، ولا تدخلوا إلاّ بعدَ أن يسقطَ قُرصُ الشّمس، واحرصوا على ألاّ يراكم أحدٌ». «وأُمُّنا؟!». «أوّل الواصِلين، ستجدها تنتظركَ هُناك». غادرَها. مضتْ هي في اتّجاهٍ آخر.

كانَ حرّ الشّمسِ قد بدأ يشكّل حالةً من العطش. جُوعُ الحيّ إلى الماء. والمخلوق إلى أصله. تعرفُ مكان (يوحنّا) فقد لازَمَهما على الجبل. قالتْ له وهي تتلفّتُ حولَها: «ألمْ يتحرّك قلبُكَ يا أخي؟!». «لقد كانتِ الخسارةُ فادحة». «الأفدحُ منها أن تتركَ العالَمَ للأشرار؛ تلكَ هي الخسارةُ الحقيقيّة». طأطأ رأسه خَجِلاً: «لم يعد للحياةِ معنى يا مريم». «المعنى في الرّسالة. ونحنُ مُؤتَمنونَ عليها؛ هل تتوقّع أن يقومَ بذلكَ أحدٌ نِيابةً عَنّا؟! هَيّا أيّها القِدّيس!». «وهل سيقبلني في خِدمته من جديد؟!». «بالطّبع أيُّها المُكابر؛ كيفَ لا وقد كُنتَ أحبَّ التّلاميذ إلى قلبه. هَيّا لا تُضيّع وقتنا في الجِدال العقيم».

«هَيّا إذًا».

هبطَا معًا إلى وادٍ غيرِ ذي زَرعٍ، يعرفُ بحكم السّنوات الجميلة الّتي قَضاها بصحبةِ يسوع أينَ يُمكن أن يختبئ بقيّة التّلاميذ. قالتْ له: «نريدُ أنْ نرى قبلَ هُروب الشّمس فيلُبّس ومَتّى ويعقوب». أجابَها: «قد لا نظفر بمَتّى». «لِمَ؟!». «أوى إلى العُزلة. لن يُخرجه من عزلته أحدٌ؛ أشكّ أنّ المسيحَ نفسَه قادرٌ على ذلك». «الهروبُ هو الوجهُ الأبشعُ للهزيمة». «هربَ

ليجده!». «كيف؟!». «في الكتابة». «في الكِتابة؟!». «تعرفين أنّه كانَ عشّارًا وكانَ يكتبُ ديون العُشور». «وماذا يكتب؟!». «إنجيلَه». «ويهوذا؟!». «شنَقَ نفسَه». «لا تقلْ ذلك. إنّهى حَيٌّ يُرزَق». «أَتَهْذِين؟!». «أنتَ الّذي تَهذي. الشّبَهُ ليسَ دليلاً». «وما دليلُكِ أنتِ؟!». «يسوعُ نفسه؛ ألمْ يخصّه بالتّضحيةِ بدلاً عنه!!». «كيفَ تقولين هذا الكلام وأنتِ لم تكوني حاضرةً بيننا؟!». «دَعْنا مِنْ جِدالٍ ليسَ له نهاية، ولا يأتي بفائدة. هلْ يُمكنكَ أن تأتي بفيلُبّس ويعقوب إلى بيتي قبل أن تودّع الشّمسُ بيتَها؟!». «سأفعل». «أنتظرُكَ هُناك».

كانت قاعةً فسيحةً، مشت أمامهم المجدليّة فغطّتِ النّافذة الوحيدةَ المُطلّةَ على بوّابة البيت، وعادتْ لتُرحّبَ بهم مُشيرةً إلى مقاعدِ الطّاولة ليجلسوا عليها. كانوا شُعثًا. كثيرون لم يُبدّلوا ثِيابَهم ولمْ يَغسِلوا وجوههم من يومِ أنْ رأوا الرّومان يقتحمون المكان. أعادتْ المجدليّة التّرحيبَ بهم من جديدٍ؛ لكنّ جدرانَ القاعة بهرتْهم عن أن يسمعوا لها، كانت جُدْرانُها مزيّنةٌ بلوحاتٍ كُتِبَ عليها كثيرٌ من تعاليم يسوع. بدا أنّها كانت تُسجّل من خلفه كُلَّ ما سَمِعته. امتلأتِ الجُدرانُ الأربعةُ عن بكرةِ أبيها بتلكَ اللوحات الّتي خُطّ فوقَها بِرَسْمٍ جميل تلك التّعاليم. وقفوا مشدوهين أمام ما يرون. بطرس لم يكنْ يعرفُ الكتابة، نابَ عنه برنابا الّذي كان ماهِرًا في ذلك. قرأ عليهم بعضَ ما تحويه تلك اللّوحات. أطربهُ الكَلامُ وكأنّه يستعيدُ فيه روحَ مُعلّمه، فراح يترنّم بها عاليًا. اقتربَ منه (فيلُبّس) وطلب إليه وهو يُقرّبُ يده من فمه: اخفضْ صوتَكَ يا أخي؛ لم نأتِ إلى هُنا كي نكون صيدًا سهلاً لكهنةِ المعبد».

«أعتذر؛ ولكنّ أقوال المعلّم أفقدتْني السّيطرةَ على نفسي».

كانَ المطبخ يقع بعد الغرفةِ الوسطيّة الّتي تفصل بين أجزاء البيتِ كلّه. ولجث إليه المجدليّة لِتُعِدّ لهم طعامَ العشاء. وضعتِ السّمكَ الّذي أعدّته من الفجر في التّنّور. انتظمَ عِقدُهم على المائدة الّتي أشبهت مائدةَ العشاء الأخير. قالث مريم: «نحنُ الرّسل؛ العالَم كُلّه يَنتظرُنا».

كانوا ثَكلَى، وقد أطرقُوا رُؤوسهم، لا ينظرون في وجهِ أُمّهم. كانوا لا يزالون يُعانُونَ مرارةَ الفقد. مَنْ جَرّبَ الحُزنَ أشْجَتْهُ بوادِرهُ، وَمَنْ رأى الموتَ راعَتْهُ عَساكِرُهُ. صُورتُه ما زالت مُنطبِعةً في ذاكرتهم. بعضُ الصُّور لا يُمكن أن تُغادِرَك إلاّ إذا غادرتَ أنتَ الحياة. الوجهُ مرآةُ القلب. والأسَى الّذي يَخُطّ آياتِهِ على وجوههم كانَ بالضّرورة انعكاسًا للرّماحِ النّاشبة في قلوبهم. لكنّ القلبَ الأكثرَ وجعًا كان قلبَ ابنةَ عمران، إلاّ أنّ ما خلفَ الوجع هو الغاية، هو أن تزرعَ الأمل، وأن تسقيَه حتّى يُزهِر. وأعذبُ الماءِ ماءُ القلب!!

هتفث بهم مريم من جديد: «إنّه ابني. وأعرفُ حُزنكم على رحيله. لكنّه لم يرحلْ دونَ أنْ يقول وصاياه؛ لا أريدُ لهذا الحُزنِ أنْ يَحطِمَ أرواحكم؛ فإمّا أن تكونوا أهلاً لحمل رِسالتِه من بعده، وإلاّ فارحَلوا من هنا؛ فالرّسالةُ لا يُؤدّيها إلاّ قلبٌ صَبورٌ وشُجاع». تدخّلتِ المجدليّة وهي تسكبُ لهم شرابًا في آنيتهم: «لقد دعاني أنْ أجمعكم، وحبيبُكم لا يُخذَل حاشاه وحاشاكم».

سرتْ حرارةُ الحبّ في جوارحهم فتَملْملوا في أماكنهم،

وتوقّدت شُعلةُ الإيمانِ في قلوبهم فَشَمَخُوا برؤوسهم، وارتفعت رايةُ الحقّ في أرواحهم فانتبهوا. كانَ شرابًا ساخِنًا، فشعروا بدفءٍ لم يشعروا به منذ زمن. عادت إليهم أمّهم لتُخاطِبَهم: «ابني لم يُصلَب». تركوا ما في أيديهم من الشّراب، وعلّقوا أبصارهم بها، كانتِ الجُملةُ الأخيرةُ كفيلةً بإيقاظِ الحجارةِ القارّة في الوادي من سُكُونِها. نظرث في عيونهم وهتفت مرّة أخرى: «أقول لكم الحقّ. يسوع لم يُصلَب». منعهم الحياءُ أمامها من أنْ يُعارِضوها، لكنّ بعضَ الهمهمات المكتومة سُمِعث حينئذٍ، فتدخّلتِ المجدليّة لتسمحَ لهم بذلك: «إنْ كانَ لديكم ما تقولونه بهذا الشّأن فتفضّلوا، وأمُّنا ستوضّح لكم كُلَّ شيء». وقف برنابا: «وجَسَدُه الّذي كانَ على الصّليب». «أعطاهُ لِسواه». «تقصدين يهوذا؟!». «أنا لا أقولُ ذلك؛ فلم أكنْ معكم في العشاء الأخير، أنتم تقولون». «وكيفَ سيقتنع النّاس بأنّه لم يُصلَب؟!». «ليسَ المُهمّ النّاس، المهمّ أنتم، هل أنتم مُقتنِعون؟! لأنّ هذا ينبني عليه الإيمانُ المسيحيّ بأكمله». ابتلعَ برنابا ريقَه قبل أن يقول وهو يرفَعُ يده: «أنا مُقتنِعٌ». وقفَ أندراوُس: «فأينَ ذهبَ يهوذا؟!». «لا أحدَ يعلم، لقد اختفَى منذ أن دخل الغرفة خلفَ يسوع حينَ أرادَ الجنودُ الرّومان إلقاءَ القبضِ على المُعلِّم». اعترضَ (فيلُبُّس): «أنا أعرف». توجّهَتْ إليه القُلوب مُستطلِعةً. تابَعَ بيقينٍ: «كلاهما مُنتَظر». «أوضِحْ لنا يا أخي» سأل بطرس. «هل أنتم مُقتنِعون بعودةِ المُعلّم؟!». سألهم. أجابوه بصوتٍ واحدٍ: «نعم». فردّ مُباشرةً: «وأنا مُقتنِعٌ بعودةِ يَهوذا». علا لَغَطُهم، رماهُ أحدهم بتهمة التّجديف: «إنّه ليسَ إلهًا لكي

يعود». أشارتْ مريم بيدها إليهم لتسترعي انتِباهم: «ما يشغلنا في الأمر هو يَسوع. لقد أخبرني الوحي أنّ اللهَ رفعه إليه». «إلى السّماء؟!». «بلى، وهو في جِوار الله جسدًا وروحًا لم يُنقِصه عُبورُ السّماوات شيئًا منه». سأل بطرس من جديد: «إذا كانَ جلسَ عن يمينِ الله، وليسَ ذلك لأحدٍ سِواه؛ أفلا يجعله ذلك إلهًا؟!». «توقّفْ يا بُطرس» هتفتْ مريم. تابعَ لكنْ بصوتٍ أخفض: «أو ابنَ الله»؟!. صرختْ به: «تعالى الله عمّا تقول يا بُطرُس. إنْ لم تتبْ عن قولتِكَ فلن يقبلكَ مُعلّمُكَ في ملكوته. أتقول إنّني وَلدتُ إلهًا، وما أنا إلاّ من لحمٍ ودمٍ؟!». أنّبهُ بقيّة التّلاميذ، وراحُوا يلومونه على جُرأته.

فاحتْ رائحة الشّواء في البيت. عبرتْ آنافَهم. تحرّكَ الهواء السّاكن. همدتْ بعضُ الأصواتِ لشعورها بكائنٍ آخَر يُشارِكهم هواءَ الغُرفة. وفيما كان بُطرس يُحاول أن يُدافِعَ عن رأيِه. ظهرتُ لهم. فانخطفتْ أبصارُهم. مشيتُ في القاعة بلا عِلّة فانخلعتْ قلُوبهم. قلتُ لهم: «تتجادَلون فِيّ. وقد حذّرتُكمْ. تعالَ أنتَ يا بُطرُس». أُلجِمَ بُطرُس. انعقدَ لِسانُه. شجّعتْهُ أمّي. «قُمْ يا بطرس كما قال لكَ المعلّم». وقفَ على قدمَين مُرتعِشَتَين. مشى ببطءٍ غير مُصدِّق. ابتسمتُ في وجهه، فاطمأنّ، عبرَ ما تبقّى من خُطُواته نحوي، حتّى إذا صار بجانبي، أمسكتُ يده، رفعتُها ووضعتها على صَدْري: «تَحَسَّسْهُ يا بُطرُس؛ أليسَ جسدًا بشريًّا؟! أليسَ مِنْ لحمٍ ودم؟! لِماذا تُصِرّ على أن تجعلني إلهًا وها أنتَ تجدُ لحمي بينَ يدَيك، أتريدُ أن تبيعه كالآخرين يا بُطرس؟!». أطرقَ بُطرُس برأسِه خَجِلاً والذّهول يلبَسُه. تراجَعَ إلى الخلفِ خُطوةً. قلتُ لهم:

«إنّني أشمّ رائحةَ شِواء السّمك. أهذا من صيدِكَ يا بطرُس ويا أندراوُس؟! رائحته شهيّة وأنا جائعٌ؛ هل تسمحون لي أن أشارككم عشاءَكم الطّيّب؟!». هتفت المجدليّة: «بالطّبع أيّها المُعلّم، بالطّبع». وهُرِعَتْ إلى المطبخ لتأتي بالسّمك. أمّا أُمّي فهوتْ عليّ تُقبّلني وتتحسّسُ رأسي وصدري بيدَيها المُطهّرَتَين. جلستُ معهم. أكلتُ كما يأكلون، قلتُ لهم وهم يختلِسون النّظرَ إليّ بينَ لُقمةٍ وأخرى غيرِ مُصدّقين: «إنّها فُرصتُكم الوحيدةَ لتروني جسدًا وروحًا، وجِئتُ لأعلّمكم الرّكيزةَ الأهمّ في الإيمان. ها أنا أمامكم، آكُلُ كما تأكلون، وأُخاطبكم كما تُخاطِبونني، وجسدي كجسدكم، فوصيّتي الأولى ألاّ تسمَحوا لأحدٍ بأنْ يؤلّهني... دَعوني أَسَمِّ هذا العشاء بأنّه الأخير... لن تروني مرّةً أخرى... لكنّني سأراكم وأسمعكم وأرى أبنائي وأسمعهم إلى يومِ الدّين، فإنْ سمعتُ أنّ أحدًا ألّهني أو ألّهَ أُمّي فلنْ أَعُدّه مِنّي، ولا منكم، إنّه دخيلٌ عليّ وعليكم... ومنذ اليوم انطلِقوا في الأرضِ وبشّروا باسمي وباسم النّبيّ الخاتَم الّذي سيأتي من بعدي، وسيكونُ مبعثه أوّل العلامات على عودتي مرّة أخرى... قد تشهدون ذلك الزّمان أو لا تشهدونه، لكنّ إيمانكم سيحميكم في أيّ عصرٍ وُجِدتم، لا تتركوا أرضًا دَنِيّةً أو قَصِيّة دون أنْ تَكْرِزوا فيها باسمي».

وبينما هم مُنجذِبون إلى ما أقول، سُمِعَ صوتٌ صارخٌ في الخارج: «افتحْ يا أندراوُس... افتحِ الباب». فأصابهم الفَزَع. نظروا جميعَهم في وجه (أندراوُس) لائمين: «هل تَبِعَكَ أحدٌ إلى هُنا؟! لقد دَلّتْ الكَهَنَة علينا، ما أجملَ أن يجدنا

الفِرّيسيّون مُجتمعين هُنا فيقبضون علينا دُفعةً واحِدة!!».
طمأَنْتُهم قبلَ أن أغادر: «لا تَخافُوا إنّه أمينٌ على كلمةِ الله».
ثُمّ غِبتُ في الفضاء، وانمحَى أثري بينهم. قامَ أندراوُس،
فتحَ سِتارَ النّافذةِ بحذرٍ شديد، لم يستطع أنْ يُميّزَ الواقفَ
أمامَ الباب، لكنّ ثائِرته هدأتْ بعد أنْ هتفَ الصّوتُ من جديد:
«افتحْ لي يا أندارُوس؛ فأنا إستِفانوس». ابتسمَ أندراوُس
ابتِسامةَ المُطمئنّ، وهتف: إنّه أحدَ الإخوة، لا خوفَ منه، بل
سيكون عونًا لنا. وسيُبشّر بكلمة الله معنا.

ساحر الكتب

٦٣

كونوا كامِلين لأنّي أنا كامِلٌ

عادَ اللّغطُ يَعلو من جديد. دخل (إستِفانوس) إلى القاعة. سَلّمَ على الجميع، وهتفَ: «لقدْ بِعتُ كُلَّ ما أملك، وجِئتُ لأتبَعَ كلمةَ الله». لم يُعِرْهُ أحدٌ اهتِمامًا باستثناء ابنة عمران الّتي رحّبَت به قائلةً: «إنْ غابَ يَهوذا، فستحلُّ أنتَ مكانه». سَمِعَها بُطرُس فاحتجّ قائِلاً: «لن يحلّ مكان يَهوذا أحدٌ. الخائن لا يُقايَضُ مكانُه بآخَر». نَهَرَتْه المجدليّة قائِلةً: «احفظْ لِسانَكَ من أنْ يلدَغَك، لا تتفوّه عن يهوذا بما لا تعلم، على الأقلّ كانَ أصدَقَ منكَ وأشجَع». مَنطقَ بُطرُس يديه حول خصره، هزّ كتفَيه وهو يَزفُر، قبل أن يُشيرَ بيده إلى المجدليّة قائِلاً: «تُهينِينَا في بيتِك؟! وما أنتِ يا امرأة؛ تذكّري تاريخكِ؛ الّذين ينسَون تاريخهم يظنّون أنفُسَهم آلهة. بناتُ الشّارِع للشّارع». ابتسَمَتْ في وجهه وقالت بهدوءٍ لم يتوقّعه أحدٌ من الحواريّين: «المهمّ ما أنا وما أنتَ عليه الآن. لو أردتُ أن أنبشَ ماضيك فأظنّ أنّ رائحتَه ستزكُم أنوفنا». نفخهُ الغضبُ حتّى صارَ كفُقاعةٍ على وشكِ أن تنفجر. تدخّلت مريم لتفضّ النّزاع: «اهدَؤوا أيّها الإخوة... اهدَؤوا... لقد كانَ قبلَ قليلٍ بينَكم، ماذا ستفعلون إذا طال بكم الزّمن دونه، هه... ماذا ستفعلون؟! هل سيضرِبُ بعضُكم رِقابَ بعض؟! اهدَؤوا... تركَ لكم وصيّته الأخيرةَ وأنتم تُمزّقونها وما زال حبرها لم يجفّ بعدُ؟!».

سكنَ الجوّ قليلاً بعد كلمات الأمّ. ظلّ (إستِفانوس) على

دهشته منذُ أن سمع الحِوار الغاضبَ من أوّله. عادوا إلى الطّاولة، جلسَ كُلُّ واحدٍ إلى مقعده، وبقي مِقعد المسيح شاغِرًا، فجلس فيه (إستِفانوس). سرث فيه بقاياي الّتي كانت هُنا. عبرث فُؤادَه فشعرَ براحةٍ غريبة. ازدادث بسمتُه اتّساعًا. كانَ الصّمتُ سيّدَ الموقفَ، كسرَ إستِفانوس حِدّته قائِلاً: لم أرَ المسيح. أنتم رأيتموه. ليسَ من رأى كمن سَمِع. هل الإيمانُ يُعوّض الرّؤية؟!». «وقد يزيدُها» ردّتِ الأمّ. «أنا سأتبَعُ خُطاه لأفوز برضاه». «أوّل الإيمان الوحدانيّة». «لقد جِئتكم من عندِ الكَهَنَةِ الّذين يعقِدون اجتِماعًا للإيقاعِ بكلّ أتباعه». «علينا أنْ نَكُونَ حَذِرينَ إذًا». «سأجهرُ بالحقِّ أمامَهم». «قد يقتلونَك». «الحقُّ أخلدُ من الموت».

عادت مريم لِتحدّثهم من جديد: «لقد كانَث طائفة الفرّيسيّين أشدَّ اليهودِ عداوةً للمسيح، وما زالوا، هؤلاء الّذينَ يرونَ أنّ الآخرةَ حِكرًا عليهم، وأنّهم المختارون الّذين وعدهم الله مع الملائكة بالنّعيم الأبديّ وبخلودِ أرواحهم فيها، وبوحدانيّة الله». «فماذا يختلفون عنّا؟!» سأل فيلُبُّس. «إنّهم ينتظرون مسيحهم الخاصّ بهم يا فيلُبُّس». ردّتِ الأمّ. «وما يَكونُ الصّدوقيّون إذًا؟!». «إنّهم على العكس منهم لا يُؤمنون بالآخرة، ولا بالملائكة، ولا بقيام الأجسادِ يومَ البعث». «فَمَنْ يكونُ الّذين أصرّوا على قَتْلِ يسوعَ منهم؟!». «كِلاهُما». «فَلِمَ وهُما يَبدُوان مُختلفَينِ في عقيدتهما؟! أم لأنَّ عدوّهما مُشترك؟!». «أمّا الفريسيّون فلأنّهم قالوا إنّ يسوعَ خرجَ عن ناموسِ موسَى. وأمّا الصّدوقيّون فلأنّهم حَرّموا على يسوع تفسير التّوارة؛ إذ إنّهم لا يُؤمنون بمن يفسّرها مِن غيرهم،

ولأنّ يسوع قال إنّ الله يُعبَدُ في كلّ مكانٍ، وهم لا يرونَ العِبادةَ إلاّ في الهيكل». «فإنْ تَقوّضَ الهيكل؟!». «تقوّضوا معه».

خيّمَ الصّمتُ على الحاضِرين بُرهةً. كانتْ أطباقُ السّمكِ ما تزال تحتفظُ بأماكنها. رفعتْها المَجدليّة. غابتْ في طريقِ المطبخ. عادتْ لهم بشرابٍ باردٍ هذه المرّة. قالتْ وهي تسكُبُ لهم في كؤوسهم واحِدًا واحِدًا: «هل أنتم مُستعِدُّون للطّريق؟!». لم يُحرِّكْ أحدٌ منهم شفتَيه، وحده استِفتانوس الّذي صمتَ احتِرامًا للتّلاميذ، تحرّك في مقعده لتتحرّك كلماته، وهتف: «أنا». نظرتْ إليه وهي تسكبُ الشّراب في كأسِ برنابا الّذي جلسَ ثالِثًا عن يساره: «الطّريقُ شاقّة». «أعرف». «لم تكنْ طريقُ الأنبياءِ إلاّ طريقَ الآلام». «أعرف». «إنّهم يختارون ما عِندَ الله على ما عندَ البشر». «وهذا ما أريده». «وهل تعرفُ تعاليمه لكي تُبلّغها؟!». «أعرف، وبرنابا سيعرّفني أكثر». «سأفعل» هتفَ برنابا. ثُمّ أردف مُمازِحًا وهو يرفَع كأسه عالِيًا: «إذا لم تتوقّفِ السُّقيا عندَك». انتبهتِ المجدليّة الّتي أوقفَها الحِوار عن أن تُتمّ سَكْبَ الشّراب، ضحكتْ، وضَحِكَ الآخرون. سقتْ فأروتْ يومَها. ضَحِكوا كما لم يضحَكُوا من قبلُ؛ هل كانوا يُودّعونَ أحدًا ما؟! هل كانوا يغرفون من السّعادةِ ما يُعينهم على ما سيتلقّونه في مُستقبَلِهم من شقاء؟! هل كانوا هالاتٍ من النّور يتحولون سريعًا إلى هدفٍ للطّغاة السّاعين في كلّ مكانٍ إلى إطفائها؟!

خرجُوا من ليلتهم وقد امتلؤوا بالعزيمة على ألاّ يسمحوا

لكلمة الله أن تضيعَ أو تُهان. وقسّموا أنفسهم على أكوار فلسطين، وتاقَ بعضُهم على أن يكرز بالدّعوةَ إلى ما وراءَ البحار. وضعَ إستِفانوس يده في يد برنابا، ثُمّ التفّ نحوه لِيُعانِقه: «من اليوم سأكونُ تلميذك، وسآخذُ الرّسالةَ عنك». سرتْ حرارةُ الإيمان في الجَسَدَين. أجابه برنابا: «إذًا ستظلّ في بيتي حتّى تتلقّى كُلَّ شيءٍ».

كانَ برنابا يسكُنُ في ضاحيةٍ مُشرفةٍ على جبلِ الهيكلِ، بيتُه المُتواضع جعله مُذ آمنَ بالمسيح مزارًا للمؤمنين الذي يتسلّلون إليه خُفية، فقد تعلّم أنّ الكِتمان خيرُ وسيلةٍ للوصولِ إلى الغاية. غُرفتان من طين في العراء، لا يحوطهما سورٌ من خشبٍ أو حجارة. ونوافذ خشبيّة عتيقة لم تُهذَّبْ تمامًا كأنّما قُطِعتْ من الأشجار القريبة وأُتِيَ بها إلى هُنا على عجلٍ. وعتبةٌ غير مُرتفعةٍ قد انمحى وسطُها. وبابٌ من حديدٍ يفضحُ الدّاخل والخارجَ بصريره. دَلَفا إلى الدّاخل في العتمة الطّاغِية. عَرَجا إلى الغرفة الّتي تقع عن يمين القادم، يعرفُ برنابا موضع المصباح المركوز في المشكاة؛ مشى إليه دونَ أن يعثَرَ بشيء - إذْ لم يكنْ من شيءٍ لِيُعثَر به - فأشعله، بدتِ الغرفةُ كئيبةً على ضوء المصباح الشّاحب، ومع كآبتها إلاّ أنّ شيئًا من الهدوء الشّفيف كان يُغلّفها، أشارَ لإستِفانوس أن يجلسَ على فراشٍ من الحصيرِ مُلقًى بكثيرٍ من الإهمال في حرفِ الغرفة، قال له وهو يرحّب به: «لا تُقارنْ بيتي ببيتِ المجدليّة؛ المجدليّة ثريّة وأنا على باب الله». «كُلُّنا على باب الله» ردّ عليه إستِفانوس. «المهمّ أن يقبلَنا ويُدخِلنا لملكوته» أردفَ برنابا.

اتّخذ برنابا هو الآخر موقعه على حصيرةٍ أخرى، قال له: «هنا في هذه الغرفة سننام، أمّا الغرفةُ الأخرى...» صمتَ قليلاً، فشخصَ إستفانوس نحوه ببصره يستكمله الحديث، فأردف: «أمّا الغرفةُ الأخرَى، فسأريكَ في الصّباح ما فيها. فلنَأوِ الآنَ إلى النّوم، لقد كانَ ليلاً طويلاً». وقامَ إلى المصباح فأطفأه.

في الحصير تقلّبَ برنابا، لم يكنْ ذلك لخشونته، فهو ينامُ عليه منذُ زمنٍ طويل؛ لقد أرّقتْهُ الذّكرَى، وهاجَتْه المشاهد. غالبَ صُورَها وهي تقفزُ إلى خيالِه مثلَ غُزلانٍ شاردة تعبثُ بقلبِه، حاول النّوم مرّاتٍ لكنّ محاولاته ضاعتْ سُدًى. عَزَمَ على أنْ ينهضَ لكنّه أرادَ ألاّ يُلاحِظَه إستِفانوس، فأرخَى سَمْعَه لكي يتأكّد من أنّ رفيقَه قد غطّ في النّوم. حينَ خُيّلَ إليه أنّ أنفاسَه قد انتظمتْ وأنّ حركته قد انقطعتْ، رفعَ الغِطاءَ عن نفسِهِ رويدًا، وقامَ بهدوء من فراشه، ومَشَى على أطرافِ أصابِعِه إلى الغرفةِ الأخرى. ألقَى نظرةً أخيرةً على إستِفانوس ليتأكّد من أنّه نائم، ثُمّ عبرَ الممرّ الضّيّق الفاصل بين الغرفتَين، ليجدَ نفسه في غرفته الّتي اعتادَ أن يختليَ بنفسه داخِلَها. تَحسّسَ الجدران الّتي صارتْ تعرفُ نَقَراتِ أصابعه فتُبادِله الحُبّ، وتشعر بأنفاسِه الطّيّبة فتحاول أنْ تُذهِلَه عن موضع المِصباح؛ لكي تتبرّكَ به أطولَ زَمَنٍ مُمكن... توقّفَ برهةً... تنهّدَ حينَ عرفَ ما يجولُ بخاطر الطّين... مِنَ الطّينَ بدأ الخلقَ وإليه يُعيده... لم يكنْ مُتأكّدًا من أنه قال هذه العبارة أم قالَها سيّدُه... سيّدُه الّذي غادرهم وتركَ ثُقبًا في القلبِ ليسَ

من السّهلِ أنْ يُشفَى... ابتَسم على حُزنه ابتِسامةً وادِعة... هتفَ في نفسه: «عَلَيّ أنْ أكونَ مُتّقدَ الذّهن حتّى لا أنسَى، وأكتبَ كُلَّ شيءٍ حتّى لا يَضيع؛ فالنّور ومضة لا تتوقّف ولا يستعيدُها مثلُ الكتابة». عانقت أصابعُه المِصباح، لولا أنّه لا يُريد له أن يظلّ في الظّلمة لما طاوعته ذُبالته فاستنكفت عن التوقّد، لكنّها تعرفُ حاجةَ المُدلِج إلى النّور، وتُحبّ صاحبَها الحزين فانقادتْ له. شَعَرَ بصوتِ خُطُواتٍ خلفه، فتوقّفَ. سَمِعَ أصواتَ أنفاسٍ بشريّة تتدحرجُ وراءه، همّ بأنْ يلتَفِت لكنّه لم يفعل، هتفَ بصوتٍ خفيض وهو يُولّي له ظَهره: «أهذا أنتَ يا إستِفانوس؟!». أجابهُ الصّوتُ بحياء: «نعم يا سيّدي». «ألم تكنْ نائِمًا منذُ قليلٍ؟!». «مَنْ نامتْ عينُه لا ينامُ قلبُه». «فَلِمَ تَبِعْتَني؟!». «لأنّه لا سبيلَ إلى مُغالبةِ الطّوفان يا سيّدي». «أيّ طوفانٍ يا إستِفانوس؟!». «طوفان التّوق». «التّوق إلى ماذا؟!». «إلى الحقيقة». «ومَنْ يعرفُ الحقيقة يا إستِفانوس!! عُدْ إلى فِراشِك، وأَرِحْ جسدَك». «وهذا الّذي بينَ ضُلُوعي كيفَ له أنْ يرتاح؟!». «ماذا تُريدُ يا إستِفانوس؟! لا تَدَعْني أَضِقْ بكَ ذرعًا ونحن لم نبدأ يومَنا الأوّل». «مَنْ يكونُ يَسُوع؟!». «أتريدُ أن أجيبكَ وقد قطَع اللّيلُ جادّته؛ الفجر على وَشْكِ أن ينبَلِج». «وَمَنْ يكونُ يهوذا يا مُعلّمي؟!». «أنا لا أعرفُ ما أنا حتّى أُجيبَك يا إستِفانوس عنهما، دَعْنا من كُلِّ هذا، لم يبقَ في العمر ما يسمح بالدّخول في حِوارات لا طائلَ مِنْ ورائها؛ أعرفُ شيئًا واحِدًا...» توقّفَ، أشعلَ المصباح، التفتَ خلفَه. صارتْ عَيْناه في عَيْنَي إستِفانوس، تطلّع الأخير فيهما يحثّه على أن يُكمل، شعر الأوّل برغبته الجامحة في إتمام

الجملة النّاقصة، فهتفَ به: «أتراني؟!». «نعم يا سيّدي؛ لِمَ هذا السّؤال؟!». «مثلما تقولُ إنّكَ تراني الآن أستطيعُ أنْ أقولَ لكَ إنَّ المسيحَ لم يُصلَبْ!!».

فَغَر إستِفانوس فمه من الدّهشة. لم يَرَ مثلَ هذا المنظر إلاّ في غرفة الكُتُب الّتي يتدارسُها كَهَنةُ المعبد: «أهذه لك؟!». كانتِ الغرفة تمتلئ برائحةِ الحِبر. في قلبِها طاوِلةٌ استقرّتْ فوقها رُزَمٌ مُكَدَّسةٌ من الأوراق، وعلى يمينها دواةٌ تنغمسُ فيها ريشةٌ سالَ حِبرُها الأسودُ على الطّاولةَ فعانقَ اللّونَ البُنّيَّ الفاتِحَ الّذي تتمتّع به، ومن خلفِ الطّاولةِ خِزانةٌ تصطفُّ على رفوفها كتبٌ مخطوطة. استدار برنابا ليقفَ خلفَ الطّاولة، ويُرسِلَ بصره إلى إستِفانوس: «كنُت أكتبُ خلفَ المسيح ما يَقوله». «كُلَّ هذا؟!» ردّ إستِفانوس وهو يُشيرُ إلى الرّزم المُكدّسة. «لا» أجابه برنابا، وأردف: «أكثرُ ما في الرّزم حكايتي مع المسيح؛ أغلبُها يوميّات. هُنا...» واستدار إلى الخلف، وأشار إلى كِتابٍ بكعبٍ جلديّ أرجوانيّ: «هُنا في هذا القِرطاسِ ما قالَه المسيح... في الحقيقةِ ليسَ كُلَّ شيءٍ... كثيرٌ من رحلاتنا معه كانت تستمرّ لأيّامٍ وليالِيَ طويلة، وحينَ أعودُ كنتُ أكتبُ عنه ما قال، وفي بعضِ الأيّامُ أعود وقد نهشَ التّعب قُوّتي فأنام...». «كنتَ تترُكُ هذا القِرطاسَ هُنا؟!». «نعم». «لِمَ لمْ تكنْ تأخذُه معك وأنتم في صُحبةِ المسيح؟!». «لمْ يُفكّرْ أحدٌ مِنّا في أن يكتب في حضرته... كانت فِكرتي... أنا أوّل مَنْ فَكّر بذلك... وخَشِيتُ ألاّ تروقَ الفِكرةُ للمسيح نفسه فجعلتُها سِرًّا بيني وبينَ نفسي». «ألمْ تقلْ لي في الطّريق إنّ مَتى يكتبُ إنجيلَه؟!». «بلى. الآنَ يكتُبُه. أنا أكتبه

منذ أكثرَ من عامَين». «ما فائدةُ العِلم إنْ بَقِيَ في السّطور؟!». «هو وَبالٌ إنْ لمْ يُجاوز الأوراق». «فهل ستُقرِئني إنجيلَك؟!». «نعم، وستتعلّمه منّي». «هل نبدأ من الآن؟!». «لماذا هذه العَجَلة؟!». «أخشَى أنْ أموتَ دون أنْ أقرأه... لقد كانتْ أمنيتي أنْ أرى المسيح، فإنْ فاتني ذلك، فلعلّه لا يفوتني أنْ أهتدي بأثره». «اِجلسْ». وأشار له إلى كرسيّ خشبيّ رَثّ فجلس، فتابع: «سأقرأ عليك».

جلس إستِفانوس يُصغِي باهتمام. تناول برنابا القرطاسَ الأرجوانيّ، فتحه بعناية، قلّب أوراقه بلطفٍ شديد، ونظر إلى السّطور هائِمًا، وراحَ يقرأ: «أُنظروا اللهَ الّذي جَعَلَ شمسَه تَطلُعُ على الصّالِحين والطّالِحين، وكذلك المطر، فكذلك يجبُ عليكم أنْ تفعَلوا خيرًا مع الجميع». صمت، أتعرفُ يا إستِفانوس: «لو عامَلَنا الله كما نُعامِله لخسفَ بنا». «الإله يُعامِلُ كإله، والبشر يُعامِلون كبشر». «فتخيّل لو أنّ البشر عامَلوا إخوانهم البشر بما عاملهم الله به». «أعتقد لانتفَى وجودُنا». «كيفَ يا إستِفانوس؟!». «وجودُنا قائمٌ على أخطائِنا؛ لو كنّا آلهةً لا نُخطِئ لما كانَ هناكَ سببٌ لهُبوطِنا من السّماء». «صدقتَ». «فهل قرأتَ لي أكثر؟!». اسمع: «كُونوا قِدّيسين لأنّي أنا إلهكم قُدّوس؛ كونوا أنقِياء لأنّي أنا نقيّ، وكونوا كامِلين لأنّي أنا كامِلٌ». «مَنْ يتحدّث هُنا أيّها المُعلّم؟!». «إنّه الله ينقلُ عنه يسوع». «فَزِدْني». قلّب برنابا عددًا من الصّفحات، ثُمّ توقّف عندَ إحداهنّ؛ هذه تَهُمُّك، فاسمع: «لستُمْ أنتُمْ الّذين اخترتُموني بل أنا اخترتُكم لِتكونوا تلاميذي؛ فإذا أبغَضَكُمُ العالَم تَكونون حَقًّا تلاميذي؛ لأنَّ العالَم

كانَ دائِمًا عدُوّ خَدَمَةِ الله». وضعَ برنابا القِرطاسَ جانِبًا، ثُمّ قال: «اعلَمْ يا إستِفانوس أنّ الطّريقَ شائِكة، وأنّ مَنْ حملَ الأمانةَ وهو مؤمن فلا يَضيره أن يلاقي الحتفَ في سبيلها دون أنْ يَخُونها؛ فهل أنتَ مُستعدٌّ لذلك؟!».

٦٤

ثمرةُ العِلم لا تُنالُ إلاّ بطولِ الأناة

كانَ (قَيافا) قد أصابتْهُ بعضُ الرّاحةِ بعدَ أنْ سلّم المسيح – كما ظنّ – إلى الرّومان لِيُصلَب؛ قَلبُ الظّلمةُ لا يرتاحُ لِقبَسِ النّور إلاّ أنْ يُطفَأ!

لو أنّ هذا الرّجل دَعا إلى رِسالته خارجَ أسوارِ المعبدِ واكتَفَى بذلك لاحتملتْه السّلطةُ الدّينيّة المُهيمنة على الهيكل، لكنّه دخل إلى عُقر دار الكَهانة؛ تدخّل في الشّريعة، وفي الطّقوس التّعبّديّة، وأراد أنْ يُغيّرَ كثيرًا من المُعتَقَدَات الّتي دأبَ عليها الحُجّاج المؤمنون إلى هُنا؛ أولئك الّذين كانوا يُطأطِئون رُؤوسهم لتعاليم كَهَنَةِ المعبد تمامًا كما تُطأطِئ دوابّهم الّتي يَسوقونها إلى المذبح كقرابين!! إنّ دعوته كانتْ تُشكّل خطرًا اقتِصاديًا عَظِيمًا، صحيحٌ أنّه لم يقلبْ إلاّ موائدَ الصّيارفة، ولم يمنعْ إلاّ رؤوسَ المواشي من أن تدخل المعبدَ في ذلك اليوم المشهود من عيد الفِصْح، لكنّ ذلك له دلالةٌ رمزيّةٌ عميقة، إنّ قلبَ موائد الصّيارفة يعني قلبَ الكُنوزِ كلّها الّتي تمتلكها السّلطةُ هنا من تماثيل ذهبيّة ومسكوكاتٍ ودراهمَ ودنانير، إنّ ذلك الفعل اليَسُوعيّ لم يكنْ لتلك الطّاوِلاتِ البائسة الّتي تتناثَر فوقَها مجموعةٌ من العُملاتِ الحديديّة الّتي لا قِيمةَ لها، ولكنّه كانَ لكلّ الخزائن والمُخبّآت الذّهبيّة الّتي كانت في يدِ قيافا وكَهَنَتِه، وكانت العَصَبَ الاقتِصاديّ لوجوده ووجود سُلطته بالأكمل.

«لقد تخلّصنا من أحدِ الأنبياء الكَذبَة». قال ذلك لأحدِ مُساعِديه. ردّ عليه: «أشكُّ أنّنا فعلْنا». «ماذا تقصد؟!». «إنّ أتباعَه سيُقلِقون راحَتنا كما فعلَ مُعلّمهم». «أتباعُه أجبنُ من أنْ يخرجوا من جُحُورهم!! ألمْ تَرَ كيفَ هَرَبُوا كالفِئران يومَ أُلقِيَ القبضُ عليه. مِسكينٌ أنتَ يا يَسوع، كانَ يظن أنّه يعتمدُ على رِجال، فإذا هُم ليسوا أكثر من فُقاعاتِ هواء». «الحذرُ واجبٌ على كُلِّ حالٍ يا قَيافا». «لقدْ قطعْنا رأسَ الأفعَى فما يَضيرُنا أذنابُها؟!». «لا يا قَيافا». ردّ عليه أحدُ الكهنةِ الآخَرين. «وماذا لديكَ أنتَ أيضًا؟!». «أفعى يَسوع ليست برأسٍ واحدةٍ أيّها الحبر الأعظم. إنّها بمئةِ رأسٍ، إنْ لم تعملْ من اليومِ على اجتِثاث الرّؤوسِ كُلّها فسيسري سُمّها في جَسَدِكَ عاجِلاً غير آجِل». «وماذا تَقْتَرِحُون أيّها السّادة؟!». «هذه تحتاجُ إلى اجتِماعٍ يلتئمُ فيه عِقدُ المجلسِ في الغرفة السّريّة».

لم يبتسمْ في الأفق شيءٌ. كانتِ الشّمسُ تترجّل عن سُلطانِها بأشعّة خفيفةٍ باهتةٍ لمساءٍ باردٍ، ملأتْ برودته بعضَ الجُدران الصّخريّة للمعبدِ الّتي تماهتْ مع الشّمسِ في لَونها. راحَ قَيافا يملأ الجوّ بقهقهته وهو يُراجِع مع الكهنةِ أصولَ الأموال الّتي اكتظّتْ بها الخزائن، قال له أحدهم: «ألمْ يُنقِصْها ما دفعتَه منها للمَلِكَين الأحمقَين أنتيباس وبيلاطُس؟!». «كلا» ردّ قيافا، وتابع: «إنّ ما دفعتُه لهم ليسَ أكثرَ من ورقةٍ انتُزِعَتْ من شجرة فَرعاءَ مُلتفّة... لا تنسَ أنّ الشّعبَ اليهوديّ هُوَ الذّهبُ الّذي ملأ خزائِننا وسيظلّ يملؤها على الدّوام... ثُمّ ماذا؟! جاءَ هذا الأفّاك لِيُفسِدَ علينا هذا الشّعب». «أترى أنّه صُلِبَ؟!». «لِمَ هذا السؤال السَّمِج الآنَ أيّها المعتوه؟! ألمْ نَرَهُ

جميعًا على جبل الجُمجمة؟!». «اعذرني أيّها الكاهن الأعظم، لقد رأيتُهُ غيرَه». «كيفَ رأيتَه غيرَه؟! هل دَخَلكَ الشّيطانُ أيّها الخبيث؟!». «لقد كانَ يبدُو مرّةً أنّه المسيح، فإذا أدمتُ النّظرَ فيه تبدّل، كنتُ أعرفُ أنّني مأخوذٌ بالمشهد وربّما أثّر ذلك على عقلي، لكنّه كانَ يتبدّل كثيرًا، كان كمن يغيّر وجهه بآخر بينَ لحظةٍ وأخرَى». «لقد جُنِنتَ أيّها المِسكين... يبدو أنّني سأُعطِي مقعدَ كهانتكَ لِسواك، يجب على مجلسي ألا يضمّ المُهلوِسين».

غطسَ ثلثُ الشّمسِ الأسفل خلفَ تلال أورشليم، ظلّ ما تبقّى من قُرصها يبعثُ شيئًا من الوهجَ على صَفَحَاتِ الوجوه، كان إستِفانوس قد قطع المسافةَ بعدَ العصر من بيت برنابا حتّى وصل إلى ساحة المعبد الفسيحة، تراءَى له من بعيدٍ على ما تبقّى من ضوء الشّمس قَيافا وحِراؤه يلتفّون حوله، حثَّ الخُطا نحوهم، حينَ وقفَ على رؤوسهم هتفَ بهم: «لو كنتم تعبدونه فلا تبيعوه». نَظَرَ قيافا إليه من زاويةِ عينِه اليُسرى مُزدَرِيًا، ثُمّ أدار رأسَهُ باتّجاه الكَهَنَةَ ليسألهم بتأفُّف: «مَنْ هذا القِرد الواقِفِ على رؤوسِنا؟!». لم يُمهلهم إستِفانوس لِيُجِيبوه: «أنا دعوةُ المسيحِ الذي تآمرتم عليه». قهقهَ قَيافا بصوتٍ عالٍ جدًّا حتّى إنّ كَهَنَته استغربوا من فَجاجة ضَحِكته، فقال إستِفانوس: «الضَّحِكُ العاجِل نذيرُ البكاءِ الآجِل». خفتتْ ضَحِكته قليلاً، قالَ في نهايتها باستِحقار وهو يُمدّ يده إليه في حركةٍ مسرحيّة: «بَرَكاتُكَ أيّها القِدّيس». قطّبَ إستِفانوس جبينه، وأعادَ على مسامعه: «لا تذهبْ إلى حيثُ الضَّحِك، بل اجْلِسْ حيث ينوحون؛

لأنّ هذه الحياة تتقضّى في الشّقاء». «اغربْ عن وجهنا أيّها الأخرق». صرخَ به قَيافا، ثُمّ أردف: «لم يجدْ ربُّكَ أحمقَ منكَ ليُسمِعَنا هذا الهُراء؟!». «لقد حذّركم خرابَ الهَيكلِ بسبب شنائِعكم، واستهزأتُم بِما قال». «إنْ لم تُغادِر المعبدَ خلال لَحَظات سأهدِمُه عليكَ رأسَك». «بل سينهَدِمُ الهيكلُ على رأسِك إنْ بقيتَ على فسادِك». تأهّبَ حرسُ قَيافا حينَ سَمِعُوا صُراخه، وإنِ اعتادُوا أن يسمعوا هذا الصُّراخِ مرّاتٍ عديدةً دون أن تكونَ هُناكَ حاجةٌ لتدخُّلِهم، لكنّهم هذه المرّة عرفوا غضبَه الشّديد مِن عَينَيه اللّتَين شابَهتا قُرصَ الشّمسِ التّصفيّ المُحْمرّ. تدخّل أحدُ الكَهَنَة ليُنهِي الموقف. أشارَ إلى الحُرّاس إشارةً فَهِموا منها المُراد. تقدّمَ إليه حارِسٌ عِملاقٌ طُوال، حَمَلَه كما يُحمَلُ الجَدْي الصّغير، رفعه بذراعَيه عالِيًا، وراحَ يطوّحُ به فوقَ رأسِه، شعرَ إستِفانوس بأنّ جسده صارَ قَشّةً في تَيّار هَواء، بدتِ الأقواسُ الّتي تتكئ على الأعمدة كأنّها قِبابٌ تمتدّ من تحته، هتفَ بكلمة المسيح من عَليائِه: «أيُّهَا الْحَيَّاتُ أوْلاَدَ الأَفَاعِي! كَيْفَ تَهْرُبُونَ مِنْ دَيْنُونَةِ جَهَنَّمَ؟ لِذلِكَ هَا أَنَا أرْسِلُ إِلَيْكُمْ أَنْبِيَاءَ وَحُكَمَاءَ وَكَتَبَةً، فَمِنْهُمْ تَقْتُلُونَ وَتَصْلِبُونَ، وَمِنْهُمْ تَجْلِدُونَ فِي مَجَامِعِكُمْ، وَتَطْرُدُونَ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ». اتّحدتِ الكلمةُ الأخيرة بالأرض، حينَ قذفه الحارسُ إلى أبعدِ مدى، ارتطمَ بالحجارة المرصوفةِ في السّاحة فتأوّه بصوتٍ عالٍ، وتدحرجَ ثقيلاً مرّة أو مرّتين قبل أن تخمد حركته، ويندّ عنه أنينٌ خافتٌ، كانتْ آهتُه تكشفُ قسوةَ الأذى الّذي لحقَ به. حاولَ أن يقوم لكنّه لم يستطعْ، رأى الحارسَ العِملاقَ يتقدّمُ نحوه من جديد، بدتْ ساقاه اللّتان تحملان

البغل المركوز عليهما كأنّهما جِذعا شجرةِ سروٍ عتيقة، صارتِ السّاقان الغليظتان عندَ رأسه، لم يستطعْ أن يرفعَ رأسه لينظرَ في وجه جلاّده، هذه المرّة انحنى الجَلاّد بجثّته الضّخمة، وحملَه كطفلٍ صغير، ومشى به حتّى رماهُ خارجَ المعبد، قال له قبل أن يقذفه على الدّرجات فيتدحرج عليها ككرة: «الحبر الأعظمُ يُحذّرُ مرّةً واحدة؛ إنْ كانت هناكَ مرّةٌ ثانية، فستكونُ الأخيرة». سَمِعَ صوتَ عِظامِه يُطقطِق وجسده النّحيل يتداعَى إلى قعر الدّرجات الحجريّة الّتي تُفضِي إلى خارج المعبد. كانتِ الشّمسُ قد غربت، فقط ما تبقّى منها منعكسًا على الظّلال والأشجار هو ما أتاح له أن يعرفَ أينَ هُو. حاول النّهوضَ من جديدٍ، لكنّه فَشِل. استسلمَ لضعفه على أمل أن يبعثَ الله إليه مَنْ يُنقِذه. رأى خيالاتٍ تتراقص في مدى الرّؤية أمام رأسه المُتدلّي عن يمين جسده المُمدّد أسفلَ الدّرجات. أقدامٌ كثيرةٌ عبرت من هُناك دون أن تُلقِي له بالاً. ألقى غَبشُ الظّلامِ على عَينَيه حِجابًا، بدأتِ الأقدامُ تختفي، وبدأتِ الصّور تذوب، وصار الظّلامُ حالِكًا، غامت عيناه، أطبقَ جَفنَيه، فاستسلمَ للنّوم أو للغيبوبة دونَ أن يدري.

فتحَ عينَيه، ببطء. كانَ الظّلامُ حالِكًا، أنّ أنّةً خفيفةً، ظنّ أنّه ما زال أسفلَ درجات المعبد الخارجيّة، تحسّسَ الألم الفظيع في إحدَى ساقَيه، حاول أن يقوم ليعود إلى بيتِ مُعلّمه، ويُفلِتَ من هذا الموتِ والإهمال، سمع صوتًا حنونًا دون أن يرى صاحبه: «لا تخفْ لقد نجوت». شكّ أنّه سمع صوتَ برنابا، هتفَ خائِفًا: «برنابا». فردّ عليه: «نعم». «كيفَ وصلتُ إلى هُنا؟!». «حينَ تأخّرتَ عن موعدك عرفتُ أنّ شيئًا ما حدث

لك، نزلتُ المعبدَ خُفيةً، وعثرتُ عليكَ هناكَ مُلقىً، فحملتُكَ على ظهري خارجَ المعبد، ثُمّ على الحِمار حتّى أتيتُ بكَ إلى هنا». «شكرًا يا مُعلّمي». «لقد قسوتَ على نفسِك». «لقد علّمْتَني أنّ الطّريقَ شاقّة». «ولكنّكَ استعجلت». «ليسَ في الحقّ استِعجال». «كُنْ أكثرَ حِكمةً وحذرًا في المرّة القادمة». «تركتُ كلّ شيءٍ لأجله، فلن يكون صعبًا عليّ أن أبذل روحي له مِنْ بعدُ». «نحنُ مُحتاجُون إلى رُسُلٍ لا إلى شُهداء». «أنا لا أريدُ أنْ أكونَ إلاّ شهيدًا».

أنهضه ببطءٍ، حتّى أجلسه إلى جِدار الغرفة، مَدّ يدَيه بشرابٍ ساخنٍ، وقرّبه من فَمِه: «اشربْ يا إستِفانوس». «أتخدمني أيّها المُعلّم وأنا الأولى بِخِدمتك فأنتَ أرفعُ مقامًا وأجلّ مكانةً؟!». «لا تقلْ ذلك يا أخي، تذكّر ما قاله المُعلّم الأوّل: مَنْ يرفعْ نَفْسَه يَتّضعْ، وَمَنْ يَضَعْ نفْسَه يرتَفِعْ». «أريدُ أنْ أتعلّم درسًا جديدًا من الإنجيل». «لا تكنْ عَجولاً؛ عليكَ أنْ تستعيدَ عافِيتَك أوّلاً، ثُمّ بعدَ ذلك لن تُغادِرني إلاّ إذا قرأتَ عليّ الإنجيل كُلّه». تابعَ وهو يُضجِعه في الفِراش، ويُغطّيه بلحافٍ بالٍ من الصّوف: «نَمْ، لدينا ليلٌ طويلٌ إنْ لم تُشرِقْ علينا حِكمةُ الرّبّ». لم ينتظرْ إستِفانوس كثيرًا قبلَ أن يذهبَ في نومٍ عميقٍ شديدٍ من تعبٍ أعمق وألمٍ أشدّ.

في الصّباح تعافتْ أكثرُ جروحه، وبَرِئتْ أكثرُ أسقامه. ظلّ نائِمًا في الفراش حتّى جاءه برنابا بصحفةٍ بسيطةٍ من الطّعام، خبزٌ وماءٌ وزيتٌ وجُبنٌ وحشائش. كسَرَ برنابا الخُبز قِطَعًا، غمسَ إحداهُنّ بالزّيت ثُمّ وضعَ فيها قِطعةً صغيرةً من الجُبن،

وقرّبها بحُنوّ إلى فمِ إستِفانوس الّذي نظَرَ بِعَينَين دامِعَتين بالحُبّ إلى مُعلّمه، أكَلَها، فاستطاب كُلَّ مَضغةٍ فيها. «ليسَ لديّ سمكٌ مَشويّ كالّذي أكلْناهُ في بيت المجدليّة، ستعتاد الحشائش والخبزَ هُنا». قال برنابا. ردّ عليه إستِفانوس: «لُقمةُ الخُبز على المودّة أشهَى من اللّحم على السَّفُّود». «وقد يُصيبُ مَعِدَتَك ما يُصيبُ الّذين يدأبونَ على طَعامٍ واحدٍ؛ فهل ستصبرُ؟!». «طَعامي ما أتعلّمه. أسعى إلى أنْ أُشبَعَ روحي على أنْ أُشبِعَ جسدي». «ليسَ لكَ إلاّ ما يُعيئُكَ على أن تقرأ عليّ تعاليمَ المسيح». «وما حاجتي إلى ما زادَ عن ذلك!!». «ثمرةُ العِلم لا تُنالُ إلاّ بطولِ الأناة، وإدامةِ النّظر، والغَلَبة على شَهوةِ الجسد». «وهل أعطاها الله لأنبيائه بغيرِ ذلك!!». «وقِلّة السّؤال على المِراء». «وكثرتُه إلى الاستِبصار؟!». «سأقبلها منكَ حينَ تبلغُ مرحلةَ الاستِبصار هذه؛ فهل ستبلُغها!!». «أنا لكَ ومَعَك حتّى أراني في حَومتها». «فأعِدَّ نفسَكَ لنَصَبٍ طويل». «ما أعذبه في سبيلِ غايةٍ كهذه!!». «مِنَ اليوم سنبدأ». «وأنا جاهِزٌ تمامًا».

٦٥

سأسمّيه شاؤول

أطلقتْ صرخةَ الهربِ من الموتِ لتهبَ الحياةَ لوليدها الّذي عذّبها قبل أن يَفِدَ إلى الكون. أحسّتْ أنّ روحَها فارقَتْها للحظاتٍ قبلَ أن تستعيدَها معَ شهقةٍ أبقث على رَمَقِها الأخير. حُمِلَ من تحتها إليها مُغطّىً بالدّمِ في كلّ جزءٍ من جسمه الّذي تكوّرث فيها قدماه إلى ساقيه. ضمّتْه إلى صدرها لكي تُهدّئَ من صُراخِه الّذي بدا أعلى من صُراخِ طفلٍ ينزلقُ من رحم أمّه للتّو. لكنّه استمرّ في الصّراخ بلا انِقطاع. ظلّ يتحرّكُ مُبرطِعًا بيديه حينَ راحتِ القابِلةُ تغسله من آثار الدّمِ الكثير الّذي حوّله إلى جسدٍ مذبوح. لفّته بخرقةٍ بيضاءَ بعد أن نشّفته من الماء والدّم، ثُمّ دفعته من جديدٍ إلى أمّه، حاولتِ الأخيرةُ تهدِئته لكنّه لم يكفّ عن صراخه العجيب. ألقمتْهُ ثَدْيَها فأبى، صارَ صُراخُه يثقبُ أُذُنَ أمّه، ناولته للقابِلةِ من جديد: «لعلّه يرضَعُ منِك». لكنّ محاولة القابِلة المِسكينة الّتي فرحتْ بهذا العَرْضِ للحظاتٍ لم تُجدِ نفعًا!! احتارتَا في أمره، فطلبتِ الأمّ من القابِلةِ أن تُنادِي أباه، هُرِعَ الأب مُغتبِطًا ليحتضنَ ابنَه بينَ يديه، كان صراخُه لا زال يرتجّ في أنحاء الغرفة، تناوله، ضمّه، حاولَ أنْ يُغنّي له، فلم يهدأ، قرأ عليهِ بعضًا من سِفر الإنشادِ لتسليته فازداد صُراخه، بدا وجهه المُحمرّ مع طول الصّراخ يَزْرقّ شيئًا فشيئًا، كادتْ أنفاسُ الرّضيع تتقطّع، لم يدرِ ما يفعل، أعادَهُ إلى أمّه كمنْ يُريدُ أن ينجو من الورطةِ الّتي وقعَ فيها، وخرج.

بكتِ الأمّ عندما لم تنجح في مُحاولاتِها. قالت لها القابِلة: «أنا أعرفُ مَنْ يُرضِعه». اختلجَ قلبُ الأمّ، رمقتِ القابِلة من بينِ دموعها بنظرةٍ ذاتِ معنى: «لا أريدُ أنْ يرضع من امرأةٍ وثنيّة». «لا تخافِي، سيرضعُ من يهوديّة من نسلِ يوسف». وخرجت. على الباب سألت أمّه: «ماذا ستُسمّونه؟!». أجابتْها بامتِعاض وهي تتلوّى من الألم: «اسألي أباه». قال أبوه بفخر: «سأُسمّيه شاؤول».

كانت طرسوس يومَها تستقبلُ السُّفُنَ العائدة من وراء البحار مُنهكةً بالحربِ والجوع. عشراتُ السّفُن مُزّقت صوارِيها في ليالي الوحوشِ الأسطوريّة بسبب تضخّم وُلوغ الإنسان في دمِ أخيه الإنسان. لم يعرفِ التّاريخ أكثرَ نُزوعًا إلى الشّرّ وافتِعال المآسي من هذا البشريّ المُستعر بالشّهوةِ إلى الذّبح؛ كأنّما وُلِدَ ليقتُل!!

كانت مهنةُ الأبُ لا تكادُ تُطعِمُ الجِياع الّذين تَنفغِرُ أفواهُهم للّقم في عهدِ المسغبة الطّامّ. كانتِ اللّقمة الواحدة تقتسمهُا على الأقلّ خمسةُ أفواه: أوّلها فُو الدّولة، ثُمّ الضّرائب، ثُمّ المُرتشين الّذين يضعونَ شيئًا من الضّريبةِ مُقابلَ شيءٍ من اللّقمة، ثُمّ المعبد، وأخيرًا الأولاد الّذين لا يَحظَون – في الغالبِ – بأكثرَ من خُمسِ اللّقمة. كُلّ هذا الشّقاءِ عاشه الأبُ على شاطِئٍ جميلٍ مُمتعٍ ساحرٍ لولا تَبِعات الحياة القاسِية الّتي يَطغَى سوادُها على كلّ بهجةٍ.

طارتِ القابِلةُ بشاؤول الصّارخ إلى الشّمال بعيدًا عن البحر ورائحته، كانت على قناعةٍ أنّ بعضَ آلهةِ البحر هي الّتي

تغرسُ روح الشّياطين في بعضِ المواليد الجُدُد، فيشبّون قَتَلَةً ومَصّاصي دِماء. «ملعونةٌ هي طرسوس» هتفت في سِرّها وهي تبصُقُ على الأرض. ثُمّ تابعت: «لو أنّ ماءَكِ يأكُلُ يابِسَتَكِ لاسترحنا من الشّياطين الّتي تغدو إليكِ وتروح في هيئات البشر».

ركبت حمارَها الذي تطوف به – عادةً – على بيوتِ الأمّهات الحوامِل، لتشقّ بطونهنّ وتُخرِجَ الكائنَ البشريّ الجديد مقابل بضعة دُريهمات تعتاشُ منها ريثما تُنادِيها حُبلَى أخرى. لم تكنْ تلكَ الدّراهم القليلة لتكفيها لولا أنّ الآباءَ عادةً ما يفرحون بأبنائهم فينفحونها بدراهم أخرى وخاصّة إذا كانوا ذكورًا أو أبكارًا. قالت لأمّه قبلَ أن تأخذ موافقتَها على ما هي مُقدِمةٌ عليه: «قد يحتاجُ الأمر إلى سنتَين أو ثلاثٍ». كادتْ أن ترفض لولا أنّ صُراخه الّذي لم ينقطع حسمَ تردّدُها، فهزّتْ بحزنٍ رأسَها مُوافِقةً: «فَلْيكُنْ». «ويحتاجُ الأمر كذلك إلى نَفَقة». «سأتولّى الأمر». «سيكونُ مُبارَكًا باسم الأنبياء والرّسل». «ولكنْ إلى مَنْ سَتبعثين به؟!». «إلى مُرضعةٍ ما ألقمتْ ثديَها أحدًا إلاّ صارَ سيّدًا أو نَبِيًّا!!».

ضربتِ الحِمارَ بعصاها وهي تُردِفُ (شاؤول) خلفَ ظهرها. سار الحِمارُ سريعًا على وقع صَرَخاتِ الطّفل. كانتِ الطّريق المحفوفةِ بالأشجار العالية على جانِبَيها تمتدّ طويلاً. صباحَ هذا اليوم ودّعت البحر مُولّيةً له ظهرها قائلةً: «سيكونُ رائِعًا لو وجدتُ رزقي هُناك ولم أعدْ إلى رائحتكَ القذرة، وحروبِكَ ومجاعاتِك». حثّتِ الحِمار على الإسراع أكثر؛ كانتْ تريدُ أن

تصلَ إلى أوّل استراحةٍ على الطّريق قبل الغروب.

في واحةٍ تغفو على كتفِ جبلٍ يبعدُ عن الطّريق المسلوكةِ فرسخًا واحِدًا حطّتْ رِحالَها. نامتْ في نُزُلٍ دفعتْ لصاحبه مقابل غرفةٍ لليلةٍ واحدة. كفّ الصّغيرُ عنِ الصُّراخ. قرّبتْه من ثديها مُستغلّة هذه اللّحظات لِتُرضعه فأبى من جديد. دفعتْ رأسه بقوّة فعاندها. تعبتْ من المحاولة لكنّه لم يتعبْ من الصُّراخ، وإنْ كان يقطعه أحيانًا بهدوء مُؤقّت. لم تنتظر أكثرَ من شروقِ الشّمس لتغادِرَ النُّزُل على عَجَلٍ باتّجاه الشّمال إلى الغابة السّوداء حيثُ القابِلة الّتي تعلّمتْ على يَدَيها المِهنة. كانَ شاؤول يحتضنُ ظهرَ قابِلته مربوطًا في خرقةٍ وملفوفًا بحِزامٍ من القِماشِ. ألهبَ حَرُّ أنفاسِه وبُكائِه ظَهرها حتّى إنّها توقّفتْ غيرَ مرّة لتخفّف من حِدّة ذلك اللّهيب. كان صُراخُه وجوعه يزدادان مع الوقت، لاكتْ في فمه بعضَ التّمر، وقَطَرَتْ بعضَ الماء لكي تُبقي على خيطِ الحياةِ الرّفيع ألاّ ينقطع قبلَ أن تصلَ إلى غايتها.

الغابةُ مُوحِشَة مُؤنِسة، ورائِعةٌ قاتِلة، وذابِحةٌ مذبوحة!! كُلّ ما فيها ينطقُ بالرّوعة وبالرّهبةِ؛ أشجارُ السّنديان العملاقة، وسيقان الحُور، وقامات السَّرو؛ أشجارٌ ترتفع عالِيًا عالِيًا، مُتعانقةً في السّماء تكادُ لا تسمح إلاّ بأشعّةٍ قليلةٍ من الشّمسِ لتعبرها إلى الأرض؛ الأرض المليئة بالحشائش دائمة الخُضرة والمَوت، الموتِ الّذي يستتر في الهوامّ، الهوامّ الّتي تأخذُ أشكالاً عديدةً من العناكب والحشراتِ والعقاربِ والأفاعي؛ الأفاعي الّتي غالِبًا ما تكونُ متحولّة عن بشرٍ سَخِطَت عليهم

السّماء؛ السّماء الّتي لا تعرف في هذه الغابة الرّحمة، الرّحمة الّتي تختبئُ في أكواخٍ مُتناثرةٍ على جانبي الطّريق؛ الطّريق الّتي لو لم يكن المُدلِجُ إليها عارِفًا بها فسيقتله التّيه؛ التّيه الّذي هو عنوانُ كُلِّ شيءٍ هنا.

مع غروبِ شمسِ اليومِ الثاني كانت (سارة) تستقبلُ صديقَتها في كوخِها النّائم داخلَ أيكةٍ وادعةٍ تكادُ تخلو من البشر إلاّ على مسافاتٍ بعيدة. «ها هو كما تريْنَه لا زال يبكي». «سيهدأ عمّا قريبٍ... فلا تقلقي». قالث ذلك وهي تأخذه منها وتُرحّب بها بحفاوة. «إنّه طفلٌ غريبٌ لم يكفّ عن الصّراخ منذُ ما يقرب من يومَين». «كثيرون مثل هؤلاء مرّوا عليّ، وَلَديّ العِلاج فاطمئنّي». دَخَلَتا إلى غرفتها الواسِعة، أربعةُ أسرّة استقرّت على الجانب الّذي يلي الدّاخل من اليمين، وأربعةٌ أخرى استقرّتْ في وجه الدّاخل، وعلى اليسار كان السّرير الكبير الّذي تنامُ عليه المُرضِعة، وقد أُسدِلَت فوقَه غِلالةٌ شَفّافةٌ، وخلفه بدتِ النّافذة المشقوقة فوقَ السّرير إلى سقفِ الغرفة، كانت نافِذةً مُطلّة على حوش الكوخ وعلى الجزء الشّماليّ من الغابة السّوداء. في الجانب الّذي ينفتحُ منه الباب كانت هناكَ مرآةٌ عِملاقة تكشفُ الأسرّة التّسعة كامِلةً لمنْ يجلسُ أمامها، وقد استقرّتْ تحتها تسريحةٌ كامِلة من الزّينة، هتفتْ في نفسها: «لِمَنْ تتزيّنُ هذه العَجوز؟!». خَطَتا خُطواتٍ بطيئةً إلى قلبِ الغرفة الفسيحة، بدتْ فضاءً رَحْبًا في امتدادها وارتفاع سَقفِها، زكمتْ رائحةٌ نفّاثةٌ الأنوف، لم تكنْ رائحةَ البحر، كانت رائحةً سوداءَ عميقةً تُشبِه رائحة الدّماء في مشهدِ تهارُشِ الذّئاب، كانَ مشهدًا عاينته مع أبيها

في هذه الغابةِ نفسها قبلَ عقدَين من الزّمان حينما كانتْ طِفلة؛ مشهدٌ لا يُمكنُ أنْ يُنسَى، تغلّب ذئبٌ منتصرٌ على آخَرَين، مزّقَ – كما لو كان ذئبًا بشريًّا – صدرَيهما، ونقبَ قلبَيهما بأنيابِه، وانتزعهما بأظفاره فتدحرجا عندَ قدمَيه، راحَ يلعقُ الدّمَ المسفوحَ منهما حتّى سَكَنَ ارتِجافُهما، ثُمّ ازدردَ كُلَّ قلبٍ بلقمةٍ واحدة، ظلّتْ رائحة الدّمِ المنبعثة يومذاك مُختزنةً في ذاكرتها، تُعاوِدها بينَ فترةٍ وأخرى. اليوم في هذه اللّحظة استعادتِ الرّائحةَ نفسَها، في الهدوء المُخيِّم على كلّ ذرةٍ في الغرفة نهضَ ذلك المشهد المُرعب أمامها، بدا أنّها صورةُ الغابة ذاتها الّتي تجمع المُتناقِضات: مشهدٌ صارخٌ في هدوءٍ سائد!!

نفضتْ رأسَها من ذكرياتها، وألقتْ نظرةً على الأسرّة المُرتّبة النّظيفة، حدّثتْ نفسَها: «إنّها تعتني بهم جيّدًا، لا بُدّ أنّها تُحبّهم إلى هذا الحدّ الكبير». كان كُلّ شيءٍ ينطقُ بالدّعَةِ والرّاحة. أحدَّتِ النّظرَ في وجوه الرُّضّع الّذين ينامُون نومًا عميقًا؛ بدتْ وجوههم – على طفولتها – منزوعةَ الرُّواء؛ كأنّها شمعٌ صافٍ، اقتربتِ القابلةُ من الأسرّة، طافتْ بعيونها عليهم جميعًا، شعرتْ أنّهم موتى لا أحياء؛ أنفاسُهم مخطوفة، سُكُونهم القاتِل يَشِي بأنّهم مُستغرِقون في هَجعةِ الموتِ الأخيرة؛ عرفتْ (سارة) ما يدور بذهنها، فعاجلتْها: «إنّهم يتمتّعون بصحّة جيّدة، الحليب الّذي يشربونه يجعلهم يبدون كذلك».

«وأيّ حليبٍ يشربون؟!» قالتْ ذلك وهي تُديم النّظر في وجوههم والفُضول يأكلها. مرّتْ لحظاتٌ دونَ أن تسمعَ جوابًا من سارة، التفتتْ إليها مُنتظرةً أن تُجيبها، هالَها ما غَزا وجهَها من غُضونٍ وتجعيدات كانتْ تبدُو كأنّما قد تجاوزت

السّتين من عُمرها، ابتسمتْ في وجهها ابتِسامةً جعلتْ من عينَيها تَضِيقان، وقالتْ: «ستعرفينَ قريبًا». قالتْ ذلك وهي تضعُ (شاؤول) في السّرير الّذي يلي سريرها مُباشَرة. ثُمّ أردفتْ مُشيرةً إلى خِزانةٍ زرقاء فاتحة بِطُولِها، تستقرّ إلى جانب المرآةِ الضّخمة: «عليكِ أنْ تُساعِدِيني؛ في هذه الخِزانة البيّاضات الّتي يلبسُها أحبابُ الله بعدَ أن نقومَ بتنظيفهم».
كان (شاؤول) قد كفَّ عن الصُّراخِ أوّل ما دخَلَتا الغرفة، وحينَ وضعتْه سارة على السّرير كانَ قدْ شَرَعَ في النّوم. لفّتِ القابِلةُ ظهرها، كان شاؤول بالفعل نائمٌ وإلى جواره رضيعٌ آخر، قلّبتْ نَظَرَها بينَ وَجهَيهما فشهقتْ، تراجعتْ إلى الوراء وهي تهزّ سارة من كتفها دون أن تقول كلمةً واحدة، نظرتْ سارة إلى الطّفلَين وابتَسَمت: «حَقًّا إنّهما يبدُوان توأمَين مُتطابِقَين». استعادتِ القابِلةُ أنفاسَها، فسألتْ: «هل هُو أخوه؟!». «بالطّبع لا؛ فهذا جاءني قبلَ شهرٍ تقريبًا». «لعلّ أباهما واحدٌ يا سارة». «لا أظنّ ذلك؛ لقد جاءَ به أبوه منَ الشّمال من ضواحي أنطاكية». «وما اسمه؟!». «شِيمون».

٦٦

لا تحلمْ أيّها الذّئب

حملَ قوسَه وكِنانته على ظَهره يطوفُ في الجزء الشّماليّ من الغابة، توقّف على قِمّة الجبل الّذي تبدو من تحته الغابةُ بأشجارها العالِية بِساطًا يَمُوجُ بالخُضرة. هتف: «الغابةُ ولدَتْني، وسأموتُ فوقَ شجرةٍ أو بينَ أحضانِ ذِئب!!» جلسَ على صخرته الّتي اتّخذها مكانًا لاستِراحته من نهاره الطّويل المُتعِب. قَطَع بالقَدّوم جذوعَ شجرةٍ يابِسة، أعدّ الحطب، رماه في حفرةِ النّار، ثُمّ أشعلها.

كان الغَزالُ لا يَزال مُعلّقا على جذع الشّجرة المُعَدّ لهذا الغرض، تناول سِكّينه الحادّة عن يمينه، ثُمّ شَرَعَ يسلخُ جِلدَه، حينَ أتمّ ذلك بسرعة ومهارة، دسَّ رأسَه تحت الغزال المسلوخ، وبيمينه قطَعَ عُرقُوبَيه فهوى الغزال المِسكينُ على كتِفَيه، حَمَلَه إلى الصّخرة، وبالقدّوم نفسَه قَسَمَه إلى نِصفَين، هتفَ في نفسه: «هذا لي». وأزاحه جانِبًا، ثُمّ تابع: «وهذا لأصدِقائي، ثقبَ نِصفَه الّذي يستحقّه من وسطه، وراحَ يشويه فوقَ النّار. شمّتِ الذّئابُ رائحةَ الشّواء، فتأهّبت، لكنّه لم تعدُ خُطوةً واحدةً باتّجاه مصدرها، انتظرتْ نِداءَ سيّدِها، مرّتْ لحظاتٌ بطيئةٌ قبلَ أن يعوي (أنيبال) كما لو كانَ ذِئبًا حقيقيًا فيتداعَى إليه أصدِقاؤه من الجهاتِ الأربَع، ثلاثةُ ذُكورٍ وأُنثيَان. تحلّقتِ الذّئابُ حولَ طَعامِها التهمته بامتِنان، لكنّها لم تشبع، عرفَ أنيبال ذلك من عيونِها، رمَى لها نِصفَ نصيبِه

المشويّ وهو ينظرُ بعيدًا.

كانَ وجهه الأربعينيّ مشروخًا إلى أخاديد طوليّة، بدا لو كانت آثارُ مخالب سباعٍ خاضَ معها معركةً مصيريّة، وعيناه حادّتان مفتوحتان دائِمًا كأنّما وقفتا عند دهشةٍ مُباغتَة وحافَظَتا على ذلك، كانت عيناه تُبصِران في اللّيل كما في النّهار!! ولحيةٍ شهباءَ طويلة تصلُ في طولها إلى أوّل صدره المشدود الّذي كان يبدو لمن يراه مثلما يبدو جذعُ سنديانةٍ عتيقةٍ. نهضَ من مكانه إلى أوّل الصّخرة، قرفَصَ، وضعَ أمامَه إناءً نُحاسِيًّا طوليًّا. اضطجعتِ الذّئبةُ الأولى عن يمينه فيما راحت تنتظرُ الثانيةُ عن يساره واقِفةً والذّئبُ الذّكر يرقبُ المشهدَ من خلفِ دُخانِ النّار المُتصاعِدِ أمامه، حلبَ أثداءَ الأولى في الوعاء، ثُمّ أفرغه في قِربةٍ من جِلدِ ذئبٍ سلخَ فروته قبلَ زمنٍ طويل؛ كانَ صيّاد ذِئابٍ في البداية، ولكنّه الآن محتاجٌ إليها: «الظّروفُ تغيّرتْ يا أصدقائي، أرجو ألاّ تتغيّر كثيرًا فالحاجةُ قاسِيةٌ أحيانا». قال ذلك وهو يمسحَ بيدَيه المُزفّرَتَين على لِحيته، وينتظرُ اضطجاع الثّانية، استسلمتْ له بهدوء وهو يحلبُ أثداءَها في الوعاء النّحاسيّ ثُمّ يُفرِغه من جديدٍ في القِربة. أطلقَ عُواءً خاصًّا، كانَ يعني أمرَين بالنّسبة لأصدقائه: الشّكر والرّحيل.

على الباب شهقتِ القابِلة، وضربتْ بيمناها صدرَها وتراجعتْ إلى الوراء خُطوةً حينَ رأته، سمعتِ العجوزُ شهقتَها، فصاحت من غرفتها: «مَنْ هُناك؟!». اكتَفَى الرّجل بأنْ يزفُر لتعرفه، صاحت وهي تُهروِلُ لتأخذَ منه القِربة مُرحّبةً: «أهلاً يا

أنيبال». قال لها وهو يُناوِلها الحليب: «مَنْ هذه الحسناء؟!». «لا تُفكّر بعيدًا يا أنيبَال إنّها عابِرةُ سبيل». «أعبرُ معها السّبيل إذًا». «لا تحلمْ أيّها الذّئب». غابث في المطبخ لحظاتٍ أفرغتِ الحليبَ من القربةِ في وعاءٍ خاصّ، وعادتْ لتدفع بها إليه من جديد، وتمدّ يدها إلى جَيبِها وتخرج بعضَ النّقود وتعطيها له، قبضَ عليها كمن يقبضُ على عنقِ سَبُعٍ، قال وهو يُقهقه كالرّعد: «في المرّة القادِمة يُمكنكِ أن تُعطيني هذه الحسناءَ ولو لوقتٍ قليلٍ بدل هذه النّقود الصَّدِئة، فالقوافل لم تعدّ تمرّ كلّ شهرٍ، وإذا مرّتْ فهي لا تحملُ ما يُمكن أن يُشتَرَى كما كان الأمرُ سابِقًا». أجابته وقد صار ظهرها له بالكامل: «لا تتأخّر بالحليبِ مرّة ثانية لديّ رضيعٌ جديد».

ظلّتِ القابِلة مشدوهة من هذا القَذِر البذيء، وإنْ أعجبتْها جُرأته، قالث لها سارة: «لا تُفكّري فيه كثيرًا؛ له وجهُ وحشٍ وقلبُ طفلٍ». دخلَتَا. سألتْها وهما تُفرِغان وعاء الحليبِ في رضّاعاتٍ على عددِ الرُّضّع: «مِنْ أينَ يأتِيكِ بالحليب؟!». عبرتِ الرّائحةُ أنفَها من جديدٍ، نهضَ مشهدُ تهارُش الذّئابِ مرّة أخرى أمام ناظِرَيها، مالت عن جنبها، شعرتْ أنّها داختْ، سَمِعتْ سارةَ تُجيبُها: «مِنَ الجِبال». فصحتْ قليلاً، سألتْها ثانِيةً مُستغرِبة: «وهل في الجِبال مُرضِع؟!». «لمْ أسأله مرّة عن مصدره». «لِمَ؟!». «ولِماذا أسأله ما دامَ الرُّضّع يكبرون بصحّةٍ جيّدة وينعمون بهدوءٍ أخّاذ!!». «لقد لاحظتُ ذلك على شاؤول». قالث وهي تُتِمّ إعداد الحليب في رضّاعاته: «ساعِديني في إرضاعهم».

كانا يملِكانِ وجهًا واحِدًا، وجبهةً مُتشابِهة، وأحداقًا مُتماثِلة، ونظراتٍ مُتطابقة. ولَدَهما الشرُّ أم الخير؟! وصنَعَتْها يدُ القدرة السّماوية نعمةً أم نِقمةً؟! هدوءٌ لا يقطعه إلاّ وجيبُ قلبَيهما، وهما ينتقِلان من رضيعٍ لآخَر. بدتِ الأَسِرّة توابيتَ موتَى ينتظرون قبرًا ما في بقعةٍ غَيبيّة!! حتّى حركاتُ الأيدي وقتَ الاستيقاظ والأرجل لم تصدرْ عنهما، كانت نَظَراتهما ثابِتةً في وجهِ المُرضِعَتَين وتبرقُان بريقًا غامِضًا. شَرِبَا ما أُعِدّ لهما بنَهَمٍ. نهضت القابِلة، ملأتْ رضّاعة شاؤول من جديدٍ، وعادتْ إليه، فشَرِبَها كأنّها رشفةٌ واحِدة، فعلتِ الثّالثة كذلك، في الرّابِعة أوقفتْها سارة: «لا يُمكنكِ أن تفعلي ذلك أكثر؛ الوعاء يجب أنْ يبقَى يومَين على الأقلّ». «ولكنّه جائعٌ». «كُلُّهم أوّلَ ما جاؤوا إلى هُنا فَعَلُوا ذلك؛ ثُمّ سيعتادون على رضعةٍ واحدةٍ في اليوم».

في طريقِ العودة ظلّتْ صورة أنيبال مُنطبعةً في ذِهنها، قطعتْ طريقَ العودةِ مُسرِعةً، كانَ الخوفُ ينشبُ أظافرَه في ظهرها فتحثُّ السيرّ هِيَ وحِمارُها. بدتِ الطّريقُ طويلةً ومُضلّلَة؛ «لم يتغيّر فيها شيءٌ بالطّبع؛ نحن الّذين نتغيّر؛ قلوبنا». قالت ذلك لنفسِها مُشجّعةً، سيهبِطُ عليها اللّيل في منتصفِ المسافةِ تقريبًا، وعليها أنْ تَجِدَ نُزُلاً لكي تأوي إليه من وحشةِ اللّيل المُخيف؛ صباحَ هذا اليوم قالت لها سارة: «ستعودين إلى هنا كلّ شهرَين مرّة ليدفَعَ أبواه تكاليفَ رعايته، طمئنيهم عنه، إنّه ولدٌ هادِئٌ ووديع!!».

نظرتْ من نافِذة النّزل الرّابض على القمّة، كانَ صفيرُ الهواء

في الخارجِ ينفذ عبر شقوق النّافِذة فيحرّك السّتارة، تخيّلت أنيبال واقِفًا خلفَها فارتجفَ قلبُها، عادتْ لتطردَ هذه الهواجسَ بعيدًا بالنّشيد، لكنّ وجيبَ قلبِها مع إيقاع كلمات النّشيد ازداد، اقتربت من النّافِذة، أزاحت السّتارَة دفعةً واحدةً لتقضي على شكوكها وتهربَ من مخاوفها، فاصطادَها الخوفُ بشكلٍ أوثق، كانَ اللّيلُ في الخارجِ سيّدَ الأفق، ظهرتْ وسطَ هذا الظّلام القاتِم نُقطةُ ضوءٍ تقتربُ رويدًا رويدًا، فجأةً خُيِّلَ إليها أنّ بشريًّا يتحرّك، تجمّدتْ عيناها على هيئته، حينَ بدا أنّه اقتربَ إلى التُّزُلِ ماشِيًا على الهَواء وأمامه قُطعانٌ من الذّئاب بأعينٍ متوهّجة تعدو باتّجاهها مشدودةً أعناقُها إلى سلاسل حديديّة تنتهي كلّها إلى يَدِ الرّاعي البشريّ، صار صدرُها يعلو ويهبِط، وأنفاسُها تتلاحقُ بسرعةٍ كسرعةِ تلكَ الذّئابِ العادِية، أرادتْ أن تصرخْ فلم تجدْ هواءً يُساعِدُها على ذلك، همّت بأنْ تبكي فتحجرّت الدّموع في عينَيها، صارَ الرّاعي قريبًا وملامحه صارتْ واضِحَة؛ إنّه هو، إنّه هو... أنيبال، خرجتِ الكلمات مهتزّة كخفقِ فؤادِها، استجْمَعتْ قُواها، قفزتْ كأرنبٍ مذعورٍ باتّجاه السّتارة، أسدلتْها على النّافِذة بقوّة، ودفنتْ نفسَها تحتَ غطاء السّرير، وهتفتْ في نفسها وهي لا تزال ترتجف: «لا بُدّ أنّني أحلُم... تعبُ الطّريق هو الّذي صنعَ تلك الصّورة أمامي».

مرّ اللّيلُ بطيئًا وقاتِلاً. في الصّباح الباكر، ولّت هاربةً باتّجاه الجنوب، وصلتْ إلى طرسوس. دخلتْ على أمّه: «إنّه بخير، وهو بينَ يَدَي مُرضِعةٍ تُدعَى سارة، ويحظَى برعايةٍ فائقة». قبّلتْها الأمّ على جبينِها وأعطتْها خَلاًّ وتينًا وجُبنًا يكفيها لشهر،

ونفحتْها ببعضِ الدّراهم. «ولكنّني لن أعودَ إليه مرّة أخرى». «لِماذا؟!». «ابعثي إليه بواحدةٍ غيري، أو اذهبي أنتِ؟!». «إذا كان الأمرُ يتعلّق بالنّقود فلا تقلقي؛ سأعطيكِ ما يُرضيك؛ ما يهمّني أن يكبُرَ ابني سليمًا ويتمتّع بصحّة جيّدة». «كما ترينَ يا سيّدتي».

بعدَ ثلاث سنين، أُعيدَ شاؤول وشيمون إلى أهلهما، ذهبَ شيمون شمالاً، وشاؤول جنوبًا. مرَّ شهرٌ واحِدٌ على شاؤول بينَ يدَي أبيه، قال لأمّه وهو ينظرُ في وجهه: «إنّ مخايل النّجابة يظهر في بريق عينَيه». ««سيكونُ سيّدًا». «سيتعلّم التّوراةَ كما نزلت على موسَى». «أينَ هذه التّوارة الّتي نزلتْ على موسَى؟!». «إنّها في الهيكل في أورشليم». «إنَّ أكثرَ كَهَنتِها أشدُّ خلقِ الله خطيئةً». «لا تقولي ذلك إنّهم فريسيّون، وأنا فريسيّ، ولي الشّرفُ أن يكونَ ابني فريسيًّا». «الفريسيّون ليسوا أنبياء». «لكنّهم أكثر مَنْ حافَظوا على شريعةِ موسَى، ولولاهم لضاعَ الدّينُ كُلُّه». «إنْ بعثتَ به إلى هُناك فانتقِ له مُعلّمًا صادِقًا». «سأفعل، حينَ يبلغ السّادسة أو السّابِعة سأبعثه ولو كلّفني ذلكَ كلّ مالي».

بعدَ عامَين حينَ صار في الخامِسَة، ثقبَ سَهْمٌ في معركةٍ لم يدخلْها أحدٌ طواغِيةً قلبَ أبيه، فماتِ من فوره. ناحتْ عليه الأمّ، لم يكنْ لها من مُعيلٍ سِواه. استعرضتْ دفاتِرَها القديمة، ونبّشتْ في ذِكرياتها، فنادتِ القابِلة لتقول لها بقلبِ الموجوعة الثّكلَى: «ماتَ أبوه ولا أقدرُ على رعايته دونَ عملٍ، وأريدُ منكِ خِدمةً لن أنساها لكِ ما حييتِ إنْ فعلتِ». «من أجلِ العهدِ

القديم الّذي بينَنا، ومن أجلِ كرمكِ، وحُبًّا؛ أفعل». «عودي به إلى سارة». «لا أدري إنْ كانتْ ستقبَل». «سأعمل وسأبعث لها كلّ شهرٍ بالمال». «لا أدري إنْ كانتْ ما تزال في كوخها، ربّما رحلتْ منه، ربّما ماتت». «حاوِلي من أجلي، ليسَ لنا أقاربُ هنا ولا أستطيع أن أنفقَ عليه وأنا جالِسةٌ في البيت، سأعمل في قوارب الصّيّادين، وأبعثُ لكِ ولها بما يكفي العنايةَ به». «وماذا ستعملين في قوارب الصّيّادين؟!». «هذا ليسَ من شأنِك، أنا طلبتُ مساعدتكِ في هذا الأمر، فإمّا أن تقبلي أو أبحثَ عن سِواكِ».

لم يهرمِ الكوخُ كثيرًا، ولا الحشائش الّتي تُغطّي جوانبه إلى مُنتصفها، ربّما فقط بعضُ الأشجار الفضوليّة ذاتِ العفنِ الأخضر تمدّدتْ بشكلٍ باذخٍ على أسطُحِه. أمّا هي فقد تغيّرتْ كثيرًا في هاتَين السّنتَين، لقد كبرتْ فيهما عشرينَ عامًا، قالت لها سارة: «أنتِ ترَين، لم يبقَ عندي من الرُّضّع إلاّ اثنَين، وهما آخر عهدي بذلك، حينَ يكبُران قليلاً سأبعثُ بهما إلى أهلهم، وأرتاح من هذه المِهنة، وشاؤول صارَ كبيرًا ولا أستطيعُ العنايةَ به، وها أنتِ تُحسّين روحي الواهِنة». «لقد قطعتُ كُلّ تلكَ المسافةِ من أجل أمّه ولن أعودَ خائِبة». «إنْ مكثتِ هنا وقمتِ بالاهتِمام به فلا بأس». «أنا لا أستطيع؛ أكسبُ رِزقي من شقّ بطون الحوامل، وهنا لا توجَد واحِدةٌ منهنّ». قالتْ ذلك، ثُمّ تركت شاؤول، وركبتْ حِمارَها، وغابتْ خلفَ شقّ الباب.

لم يَكُنْ طِفلاً في الخامِسة، كانَ شقيًا، لم يتركْ شيئًا في

البيتِ إلاّ كسّره، ولا شيئًا في مكانه إلاّ قَلَبه أو غيَّرَ مكانه. لم تحتملْه إلاّ على أمل أنْ تأتيها القابِلة في نهايةِ الشّهر، فتدفَع به إليها مُتخلِّصةً من شَرّه، وستقول لها: «لا أريدُ نقودَك، أريدُ فقط أنْ تُخلّصيني من هذا الولد الشّقيّ». ترقّبتْ آخرَ الشّهر بفارغ الصّبر، لكنّ القابِلة لم تأتِ، انتظرتْ شهرًا آخَر على مَضَض وجَزَع، لكنّها لم تأتِ أيضًا، همّتْ بأنْ تُلقي الصّبيّ في الخارج، خطّطَتْ لذلك، ستنتظر حتّى ينام، ثُمّ تحمله بين ذراعَيها، وتغيبُ به في طرقٍ مُعمّاة تعرفها هي جيّدة، وتلقِي به تحت شجرةٍ، وحينَ يستيقظُ لا يَجِدُ أحدًا ولا يعرفُ العودة، وسيكتبُ الله له قَدَره اللاّئق به. أعدّتْ شجاعةً كافِيةً لتلكَ اللّحظة وانتظرتْ حتّى أيقنتْ أنّه قد ركنَ إلى نومٍ عميق، اقتربتْ من سريره على رؤوسِ أصابِعها، حينَ صارتْ فوقَ رأسِهِ ومدّتْ يدَيْها من تحته لتحمله فتَحَ إحدَى عينَيه، وابتسم نصفَ ابتِسامةٍ: «ماذا تريدين يا أُمّاه؟!». «أريدُ أن أطمئنّ عليك». «لا تكذبي». صدمتْها كلمةٌ كهذه تخرجُ من صبيّ، شعرتْ بدقّاتِ قلبِها تتسارع، تابع هو: «أعرفُ كُلّ شبرٍ في الغابة، لن يُفيدَكِ أنْ تضعيني تحتَ شجرةٍ فيها، سأعود في وسط اللّيل». تراجعتْ إلى الوراء من صدمتها، ثُمّ ولّتْ هارِبةً إلى غرفتها، زلقتْ جسدها السّتّينيّ تحت الغِطاء، وهتفتْ وهي تدفنُ رأسها بينَ رجليها: «إنّه شيطان، هذا الولدُ شيطان». سَمِعَتْه يقول لها: «ولماذا لا أكونُ مَلاكًا»؟. أوقفتْ سيلَ خواطِرها لكي لا يفضحها، وحاولتْ أنْ تتذرّع بالنّوم.

مرّتْ شُهورٌ طويلةٌ بعدَ تلكَ الحادِثة، لم يأتِ خبرٌ أو أحدٌ من جِهَةِ أهله، لا أحدَ يعرفُ ما حدثَ لهم. ذاتَ يومٍ طرقَ أنيبال

بابَها، كانَ يبدو أنّها آخر قِربةٍ من الحليب تتلقّاها منه، قالتْ له مُتوسّلةً: «أنا هَرِمْت، وشاؤول ليس ابني حتّى أموتَ وهو في بيتي ويظلّ وحيدًا، أرجوكَ أن تأخذه إلى غابتك». سألَها: «ابنُ مَنْ هو إذًا؟!». «لا أدري، لقد جاءتْ به القابِلة منذ زمنٍ بعيدٍ إلى هُنا رضيعًا». «تقصدينَ تلكَ الحسناء؟!». «بلى». «سأقبلُ بعَرضِكِ إذا وهبتْني جسدها مرّة واحدةً... مرّةً واحِدةً أليسَ هذا مُنصِفًا؟!». «لكنّها لم تعد إلى هنا منذ سنة». «مرّةً واحِدةً قلتُ لك، لقد سَئِمتُ من معاشرة الذّئاب والسّباع». «أنتَ تُعاشِرُ الذّئاب يا أنيبال؟!». «وأقتلُها أيضًا إذا خانت». «خُذه معك يتعلّم من طريقةِ عيشِك. الكوخُ يخلو من كلّ شيء». كان شاؤول قد وافاهما عندَ الباب، نظَرَ أنيبال في عَيْنَيْه طويلاً حين صارَ في مواجهته، قال لسارةَ دونَ تردّد: «سآخذه بلا مقابِل. لقد أحببتُه!!».

٦٧

كُلُّ شيءٍ يُعطيكَ بِقَدْرِ ما تُعطيه

«ستكونُ ابني إلى أنْ تقول لي إنّني أريدُ أن أتحرّر من أُبوَّتِك». «وسأقبلَ أيّها العِملاق». صَحِبَه، يتبعه في رؤوس الجِبال، وينامُ معه في الكُهُوف، ويأكلانِ معًا مِمّا يصيده من الغُزلانِ والأرانبِ البرّيّة والوحوش، ويخافُ وحده. قال له: «الحياةُ مثلُ هذه الغابة، يبقَى فيها ذو النّابِ الأقوى». هزّ شاؤول رأسَه مُوافِقًا: «وأنا سأبقَى لأنّ نابي أقوى». «هل أنتَ ذئب؟!». «أنا سيّدها الّذي يقودُها أمامه». «السّيّد يكونُ في المُقدّمة». «لا، الّذين في المُقدّمة وُجِدوا من أجلِ أنْ يُضحّى بهم». «مَنْ قال لكَ ذلك؟!». «لم يقلْه لي أحدٌ؛ أنا رأيتُه».

أَلِفَ الحياةَ في الغابة، كانتْ كُلَّ عالَمِه، قرأَ الحياةَ هُناك؛ خيرُ حِكمةٍ تتعلّمها تلك الّتي تُعلّمها لكَ التّجربة، وهُنا تُجرَّب الحياةُ كثيرًا وتُختَبَر بأعلى درجات التّجربة والاختِبار. صنعَ له بعدَ عامٍ قوسًا ونُشّابًا، وعلّمه بَرْيَ السِّهام. وعوّده على الجُوعِ. قال له: سنصومُ في كلّ شهرٍ ثلاثةَ أيّامٍ لا نأكُلُ فيها لُقمةً واحدةً، فقط سنشربُ مِمّا تَهَبُه الطّبيعةُ لنا، دَعِ الماءَ جانِبًا؛ فأثداءُ الحيوانات كفيلةٌ بإروائِك. في اليومِ الثّاني رَجاهُ أنْ تدخُلَ في جوفِهِ لُقمةٌ عابِرة، أو نُغبةُ ماءٍ ولو كانتْ آسِنة. نَهَره بغِلظة: «الرّجال لا ينقُضُون مواثيقهم». «لكنّني لا زلتُ طِفلاً». «إذًا عُدْ من حيثُ أتيت، أنا لا أصحبُ إلاّ الرّجال والذّئاب». أوَيَا إلى كهفٍ مَشقوقٍ في صخرةٍ ضَخمةٍ تستقرّ مُنزويةً أمام

أَجَمةٍ مُلتفّة من شجرٍ تشابكت جذوعه حتّى أخفاها، في وسطِ اللّيل زحفَ إلى زاوية الكهف، يعرفُ أينَ يُخبِّئ سيّدُه بقايا الفريسة الّتي اصطاداها قبلَ ليلَتين، ودَفنَها تحتَ حجرٍ باردٍ لتبقَى صالحةً يومَين آخَرين للأكل. أزاحَ الحجر الثّقيل، لم يكدْ يمدُّ يده إلى اللّحم النّيِّئ ويُقرّبه من فَمِه حتّى شعرَ بيدٍ مثل الفأسِ تقبض على ذراعه الأخرى، جَمُدَ مكانه، كانت عينا أنيبال تتوهّجان في الظّلامِ كَعَينَي وَحشٍ ظَفِرَ بفريسةٍ شهيّة، قال له وهو يكزّ على أسنانه من الغضب: «لقد خُنتَ الميثاق؟!». «إنّه الجوع». «لكنّه ليسَ أقوَى من العهد». «إنّ أنيابه أشدُّ قسوةً من كُلّ العهود في الدُّنيا». «الذّئابُ لا تقول ذلك». «فهل أستحقّ العقوبة؟!». «بلى». «فافْعَلْ؛ أنا أتحمّل جريرةَ خطاياي!!».

شَدَّهُ مِنْ شَعرِ رأسِه، وساقَه كضحيّة باتّجاه شجرةٍ راسِية، رَبَطَه من قَدَمَيه بحبلٍ غليظٍ، وعلّقة كشاةٍ مذبوحة منهما، عقد يديَه معًا خلفَ ظهره، دَلّى رأسه وطوّحه في الهواء، قال له: «لن تنزلَ من هنا قبلَ أن تصرخ». «لن أفعل». «ستستغيث عاجِلاً أم آجِلاً». «لنْ أفعل». «سنرى!»

هبطَ دِماغُه إلى فمه، انسابَ الدّمُ إلى عَينَيه، مرّت السّاعةُ الأولى ببطء، حزّ الحبلُ الغليظُ ساقَيه، أشعل أنيبال نارًا ليستدفِئ من بردِ الجبل في هذه السّاعةِ المتأخّرة من اللّيل، وجلسَ يراقبُه بِتَشَفٍّ، ثقبَ البردُ أنفاسَ شاؤول، نظرَ إلى النّار وبدلَ أن يشعر بدفئها مع ألسنتها المُتراقِصَة على وجه مُعلّمه، شعرَ بالبرد يحُزُّ رُسغَيه أكثر، كانتِ النّارُ بعيدةً على قرب،

مُمكنةً على استِحالَة. مرّتِ السّاعة الثّانية ببطءٍ شديد، دَمِعَتْ عيناه من شدّة الصّقيع، نظَرَ إلى كَفَّيْ أنيبال اللّتَين تنعمان بالدّفءِ فتحسّر. أزبدَ فمُه، سالَ الزّبدُ ببطءٍ بارِدًا على شِدقيه، لكنّه أحسّ أنّه تجمّد عند زاوية فمه اليُمنى. طوّح بجسده لِيُبعِدَ الصّقيع الّذي يُغلّفه من كلّ جهة، فحزّ الحبلُ في كاحِلَيه فآلَمه، كادَ أن يصرخَ لولا أنّه كتمَ صرخته قبلَ أن تنفجرَ بلَحظَاتٍ، كانَ مُصمِّمًا على أن يكسبَ رِهانَه مع نفسه.

مرّت السّاعة الثّالثة ببطءٍ أشدّ كسُلحُفاةٍ في وادٍ سحيقٍ تصعدُ جبلاً شاهِقًا يُعانِقُ السّماء! بدأ وجهه يَزْرق. ضَيَّقَ حاجِبَيه، ليتمكّن من النّظر إلى أنيبال من جديد، رآه يجلسُ مُستمتِعًا بالدّفء مُتجاهِلاً له، غاظَه تجاهُلَه له أكثرَ من عذاباته الحائقة به. تمنّى أن ينتهي العذاب، لكنّ العذاب يطول عندما تتمنّى أن يقصُر. أرادَ أن يلعبَ مع الأمنيات تلك اللّعبة فيعكس ما يتمنّى علّه يحظَى بمُراده، فتمنّى أن يطول عذابُه؛ فطال، هتفَ في نفسه: «يا لي من أحمق!».

في السّاعة الرّابعة كان وجهه قد ازرقّ بالكامل، وتحوّل بسبب الدّم المحبوس إلى قِطعةٍ كُحليّة تُشبِهُ اللّيل الغامِضَ الآنِيّ.

- كيفَ يُمكن للإنسانَ أن يهربَ من العذاب؟! فَكّر.

- بإنهائه.

- فإنْ لم تكنْ تملِكُ إنهاءَه؟!

- تخيّلْ ذلك.

خانَه الخَيال فكادَ يهوي في بِئر الاستسلام؛ لكنّه صابَرَ وهو يُبعثِرُ أنفاسَه كي لا تنحبس فيُضطرّ للصّراخ. على وَهَجَ النّار رأى شبحَ أستاذِه يقتربُ منه، تراقَصَ خيالُه مُتهادِيًا نحوه حتّى صارَ عندَ رأسَه، لوّح أنيبال بسكّينه، فالتمع حَدُّها على ألسنة اللّهب. انخلعَ قلبُ الصّبيّ، رأى أنيبال ذلك في عَيْنَيه فابتسم. قرّبَ السّكّين من رِجلَيه، فرأى نفسَه يسقطُ على رأسه فيتهشّم، فارتجفَ من جديد، وضعَ أنيبال حدّ السّكين الحادّة على الحبل، ودونَ أنْ يُمسكَ بقدَمَي الضّحيّة قَطَعَ الحبلَ بحركةٍ خاطِفة، أدركَ شاؤول أنّ عُنُقَه ستندقّ، فصرخ، في اللّحظةِ الّتي هوَى جسدُه فيها على الأرض كان أنيبال يُقرفِصُ تحته ليتلقّاه في حضنه قبل أن يمسّ جسدُه الأرض، قال له بلهجةِ الجلاّد المُنتصر على الضّحيّة: «لقد صرختَ». فأجابه شاؤول: «لقد خَدَعْتَني». «المهمّ أنّكَ صرختَ». «أوقَعْتَني في الوَهم». «أنتَ خائنٌ وجَبان». «لكنّني لستُ مُخادِعًا». «ستتعلّم قريبًا منّي كُلَّ شيءٍ قبل أنْ أبعثَ بكَ إلى أهلِك». «ليسَ لي أهل». «سأبعثُ بكَ إلى الشّيطان فهو أولى بك». «ألسْتَ الشّيطان!!».

عادا إلى الكهف، استسلَما للنّوم بعدَ هذه المغامرة، قبل أن تغمُضَ عينا شاؤول فكّر ألفَ مرّة أنْ يطعنَ أنيبال في قلبِه بسِكّينه!! قال له الأخير كأنّما سَمِعَ صوتَ تفكيره: «لا تَجعلِ الوساوس حاجِزًا بينكَ وبينَ نومك. نَمْ أيّها الصّعلوك. النّوم يُساعِدنا على ألاّ يجعلَ الأيّام مُتشابِهة».

قال له المُعلّمُ ذاتَ مرّةً وهو ينظرُ إلى البعيد: «مِنَ الظُّلمِ

أن يكونُ الإنسانُ إنسانًا في الغابة». «فماذا يكون؟!». «تخيّلَ لو أنّه تعامَلَ مع الوحوشِ بإنسانيّة؛ فما النّتيجة؟!». «سيفقدُ حياتَه». «بل سيفقدُ كرامتَه قبل ذلك؛ الكرامةُ تأتي قبلَ الحياة، فإنْ فُقِدَت فلا حلّ إلاّ في الموت». «نموتُ بأيدينا، أم نموتُ بأيدي سِوانا؟!». «بل بأيدينا». «تقصد أنّنا ننتحر!!». «ألمْ تُدرِكْ ذلك أيّها الصّبيّ بعدُ؛ الذّئابُ أدركتْه قبلَنا». «لم أعدْ صَبِيًّا». «فلماذا تسألُ أسئلتهم إذًا؟!».

هبَطَا إلى ساحةِ الرّماية، قال له أنيبال: «كُلُّ شيءٍ يُعطيكَ بِقَدْرِ ما تُعطيه». ردّ عليه: «لم أفهم». أجابَه مُمتعِضًا لبُطءِ إدراكِه: «أعطِ القوسَ قلبكَ تُعطِكَ قلبَها، تحَنَّنْ عليها تَرِنُّ إذا رميتَ بها، إذا غمزتَها بعينِك أصابتْ قلبَ مَنْ ترمي، لا شيءَ يوهبُ دونَ مُقابِل؛ حتّى السّماء لا تفعل ذلك». ألقمَها سَهمًا من السّهامِ الّتي مكثَ شهرًا يَبريها، شَدَّ الوترَ إلى أبعدِ مدًى مُمكن، صوّبَ نحوَ هدفِه ورَمَى. سَقَطَ عُقابٌ كان يُحلِّقُ على انخِفاض، فَرِحَ الصّبيّ بِصَيده. شَتَمه أنيبال بقسوة: «لَمْ تجلِسْ شهرًا تبري السّهام لكي تصيدَ بها فَرخةً!!». «وماذا تُريدُني أن أفعل؟!». «الرّامي الماهر لا يصيدُ أقلَّ من ذِئب». «ولكنّنا أصبحنا أصدقاءَ للذّئاب». «فاصطَدْ بشريًّا». «لكنّ الغابةَ لا يكادُ يمرّ بها في الشّهر إنسانٌ واحدٌ». «فَتَحَيَّنْهُ إذًا». «أنتَ تُغريني». «إذا صَحِبْتني فعليكَ أن تكون أحسنَ منّي». «لنْ أغادِركَ قبلَ أن أفعلَ ذلك. هذا وعدٌ».

حَلَّ الشّتاء القارسُ في الغابة، كانَ عليهما أن يصيدا لأسبوع ويُخبِّئا ما يصطادان. وكان عليهما أن يجمعا أكوامًا من

الحطب داخل الكهفِ قبل أن تَبُلّه الأمطار لكي يستخدماه في إيقاد النّار عندَ الحاجة.

منذ أيّام والثّلجُ يتساقطُ على الغابة. كانتْ عاصِفةً قويّة، تراكمَ الزّائرُ الأبيضُ على كلّ شيءٍ، بدتْ قمم الجبال البعيدة من كُوّة الكهف عرائس تختال بفساتينها في أرضِ الطّبيعةِ البِكر، غَيّرتِ الأشجار خُضرتَها لتكتَسي بالبياض النّاصع. زمجرتِ الرّياح في الخارج، واستمرّتِ النّدَفات تتماوجُ وسطَ العاصِفة الّتي بدا أنّها ستطول. استمرّ هُطولُ الثّلج هذه المرّة أسبوعًا كامِلاً، كانَ يراقِبه وهو يرتجفُ من البرد من خلال كُوّة في باب الكهف، في المدى البعيد بدث شجرةٌ هَرِمةٌ من السّنديان تقفُ قائِمة على سفحِ جبلٍ؛ كانَ اعتِدالاً في مَيْلٍ، كانتِ النّدفاتُ تسقُط بغزارةٍ فوقَها مُحاوِلةً أنْ تُغطّيَ أكبَرَ جزءٍ منها؛ ابيضّتِ الغصون والأوراق، واستمرّ هطول الثّلج على السّفح مثلَ مطرٍ يسيرُ ببطءٍ على زُجاجٍ سميك. على الأرض كانتِ الرّيح تتحرّكُ وهي تُداعِبُ سطح الثّلج فتثيرُه في موجاتٍ أشبه بتدفّق موجات الماء في البحر، أو انبعاثِ الغيوم البيضاء المتفجّرةِ في السّماء. بياضٌ ناصِعٌ يفتحُ مساحةً في القلبِ للرّاحة، ويجعل من كلّ شيءٍ جميلاً حتّى ولو كانَ قاسِيًا!

نعم؛ قد يكونُ الجَمالُ قاسِيًا أحيانًا. ارتجفَ بدنُ شاؤول من البرد، نظرَ في عَينَي معلّمه متوسّلاً شيئًا من الدّفء، عرفَ أنيبال ما يُريد، قال له: «سنُوقِدُ النّارَ خارجَ الكهفِ بعد أنْ تهدأ العاصِفة». «وإذا استمرّتِ العاصفةُ أسبوعًا آخَر فهل سنبقَى

محبوسين في البرد؟!». «الذّئاب تكفيها فِراؤُها». «فِرائي رقيقة». «لنْ أوقِدَ النّارَ في الكهفِ ولو استمرّتِ العاصِفةُ سنةً كامِلة». هَزّ شاؤول مثلَ كلبٍ صغير، وأوى إلى زاويةٍ في الكَهفِ، جَمَع ساقَيه بَين ذِراعَيه باحِثًا عن دفءٍ هاربٍ، دفنَ رأسه في صدره، وحاولَ أن ينام. نظَرَ بعينَين ذابِلَتَين إلى معلّمه، لعنه في سِرّه ألفَ مرّة، وتمنّى أن تكونَ له القدرة على غَرزِ السّكين في قلبِه يومًا ما.

في اليومِ التّاسع هدأتِ العاصِفة، وسكنتِ الرّيح، وأشرقتِ الشّمسُ في سَماءٍ صافِية. أزاح أنيبال اللّوحَ الخشبيّ الّذي كان يصّد شيئًا من نَهَم الرّياح على باب الكهف فانهارتْ كُتَلٍ من الثّلجِ المتراكِمِ عليه إلى الدّاخل، نادَى على شاؤول: «هاتِ الرّفش وساعِدْني في إيجادِ معبرٍ لنا». نهضَ شاؤول فَرِحًا، لم يمرّ وقتٌ طويلٌ حتى كان الطّريقُ مُمهدًا. جلَسَا في الخارج، كانَ المشهدُ شادِهًا، ظلّت عُيون الذّئب الصّغير مُعلّقةً بأمواجِ الثّلوج الّتي شكّلَتْها العاصِفة في المساحات الممتدّة أمامهم، بدا المنظر كما لو كانتْ كُثبانًا من الرّمل الأبيض، هتفَ أنيبال مزهوًّا: «الآنَ يُمكننا أن نوقِدَ النّار». هرول شاؤول ليأتي بالحطب، حَجَرانِ يرفعان بالاحتِكاك الحرارة فتنطلقُ الشّرارة، هبّتِ النّار، ورقصتْ لرَقْصِ شُواظِها القلوب؛ هل عُبِدَتِ النّارُ لهذا؟!!

جَلَسَا يَشْوِيان ما ادّخَرا من لَحمٍ. أكَلا حَدَّ الامتِلاء. ألقمَ شاؤول مزيدًا من الحطب في فم النّار فشبّتْ، هبّت رِيْحٌ على النّار فلسعتْ بِشُواظِها جسدَ الصّبي، لمْ يأبَه، نظرَ إليه

أنيبال وابتسم: «النّار لا تُؤذي إلاّ مَنْ يَلعنها». ركضتْ إليه النّار فاستحوذتْ على وجهه من جديدٍ، ثُمّ غمرتْه بكلّ لهيبها حتّى صارَ في عيْنِها فأحرقتْ ثِيابه، فَزَّ من مكانه مذعورًا وراحَ يقفزُ ويصرُخ. قَهْقَهَ أنيبال فبانتْ أسنانه، كانَ له أسنانُ كلبٍ ضارٍ، زَعَقَ وهو يقهقه: «لا بُدّ أنّكَ لعنتَ النّارَ في سِرِّكَ حتّى تفعلَ بِكَ هذا». ازدادَ صُراخُ الصّبيّ، حاولَ أنْ يُطفِئَ النّار، صارَ يضربُ بشكلٍ هستيريٍّ ما اشتعل من ثيابه بيدَيه، نجح في النّهايةِ لكنّ النّارَ كانتْ قد أحرقتْ أجزاءً من جِسْمِه، وآذتْ عَيْنَيه، جلسَ يصيح، هبّتِ رِياحٌ عاصِفةٌ قويّة دُفعةً واحدةً فأطفأتِ النّارَ، لكنّها حملت رمادَها وبقايا جمرها فسفتْهُ في وجه شاؤول، دخل الرّمادُ في عينَيْه فكادَ يَعمَى، صرخَ مُستغيثًا وهو يمدّ يديه باتّجاه أنيبال مُتحسّسًا الفراغ: «أنقذني يا أنيبال لقد فقدتُ بصري». قال له وهو يحمله: «لا تصرخْ. لم تفقدْ بصرك. بعضُ الرّمادِ دخلَ في عينَيك. قلتُ لكَ لا تجلس في موضع هبوبِ الرّيح. لم تُطِعني. لكنْ لا بأس ستُشفَى قريبًا».

مكثَ الصّبيّ أسبوعًا وهو يئنّ، كلّ الرّعاية لم تُفلِح في شِفائه الرّوحي. لعنَ الغابة. ولعنَ أنيبال. ولعنَ النّار. ولعنَ السّماء. تذكّر أمّه (راشيل) الّتي تخلّتْ عنه فلعنها، أرادَ أن يلعنَ أباه لكنّه لا يعرفُ اسمَه. تمنّى لو أنّه لم يُخلَق. ولم يعرفْ كلّ هذا العذاب.

بعدَ شهرٍ حمله أنيبال على كَتِفَيه، وعادَ به إلى سارة، طرقَ بابها فلم تُجِبْ، ناداها فلم يسمعْ لها صوتًا، ظنّ أنّها ماتَت، أدارَ

ظَهرَه مع الصّبيّ، خطا حتّى وصلَ البابَ الخارجّي، حينَها أتاه صوتُ صريرِ البابِ أوّلاً ثُمّ صوتُها واهِنًا خافِتًا: «ماذا تريدُ يا أنيبال؟!». عادَ ليُكلّمها، بدتْ هِيَ الأخرَى كأنّ أسقامَ الدَّهرِ قد حلّتْ بها، قال آسِفًا: «لا يُمكنني أن أحتفظَ بهذا الصّبيّ أكثرَ من ذلك، إنّه مريضٌ ونِصفُ أعمى». ردّتْ عليه: «وأنا ماذا أفعل به؟! ها أنتَ تراني، أمشي إلى القبر برِجْلَيّ». «أعيديه إلى أهله إذًا». «أنا لا أعرفُ عن أهله شيئًا». «ألمْ تقولي أنّه قَدِمَ من طرسوس؟!». «بلى». «فأعيديه إلى طرسوس إذًا». «ولكنْ كيف؟!». «تمرّ بعضُ القوافل الماضِيَة إلى هناك للتّجارةِ من الطّريق في أوّل الغابة كُلّ ثلاثةِ أشهر، اعرفي موعدهم بالضّبط، وأعطِه للقافلة». «هل تظنّ أنّ الأمر سينجح؟!». «ينجح أو لا ينجح، سأرميه على عَتَبَتِكِ وأمضي». تكوّم الصّغيرُ مثلَ كلبٍ مريضٍ قِطعةً من اللّحم راجِفة.

عاشَ شاؤول في بيتِ أمّه الثّانية شهرَين، عادتْ إليه رائحة الغرفة القديمة، تحسّنتْ صحّته هنا قليلاً. شَفِيتْ عيناه، لكنّ احمِرارًا خفيفًا ظلّ يُلازمه، وسيُلازِمه طِيلةَ حياته، كانَ هذا الاحمِرار يزداد في حالتَي البرد الشّديد والحرارة الشّديدة، يتوهّج فتنتفخُ عيناه، وتضيقُ حَدَقَتاهُما، فلا يعودُ يرى بشكلٍ جيّد، وتُؤلِماه ألمًا فَظيعًا حتّى إنّه إذا ما زادَ الألم عن طاقةِ احتِماله فإنّه يصرخ صرخاتٍ ملعونةً ثُمّ يسقُطُ مغشيًّا عليه!!

مرّتْ أيّامُ المرض الخبيث القاسِية، ما إن استعادَ بعضَ قُوّته حتّى بدأتِ العجوز تشكُو من تصرّفاته، وبدل من أن تلعنه

وتلعنَ اليومَ الّذي جاءتْ به القابِلةُ إلى هُنا قبل حوالي عشر سنين، راحث تتحيّنِ الوقت المُناسِب لبَعثِه مع القافِلة. ذلّلت كُلّ العقَبات لتنجح في مَسعاها؛ لأنّها لم تكنْ تريد أن تموتَ طعنًا على يَدَي صبيٍّ غريبِ الأطوار مثله.

قالت لرئيس القافِلة: «هذا الصّبيّ من طرسوس، هذا كُلّ ما أعرفه، أوصِلْه إلى هُناك، وضَعه على شاطِئها وسيقول له البحرُ مَنْ أهله». «أعرفُ كيفَ أتدبّر أمري أيّتها العَجوز». ردّ شاؤول، ثُمّ أردف: «لا تموتي وحيدةً أيّتها العجوز وأنتِ تدنّسينَ السّريرَ بأوساخِك. فكرةُ الانتحار قد تكونُ حَلاًّ مَنطقيًا في مثلِ حالتِك».

٦٨

زَمَنُ الحرب والجوع

قالَ وهو يترجّل من العربةِ الّتي أقلّته إلى ميناء طرسوس لرئيس القافِلة: «لِتَلعنْكَ الآلهةُ الّتي تؤمن بها». اندفَعَ يعدو على الشّاطئ كما لو كانَ يهربُ من شيءٍ ما، ظلَّ يعدو بلا غايةٍ حتّى قطَع الشّاطئَ من أوّله إلى آخره، في النّهاية هرولَ قبلَ أن يتوقّف، انحنَى واضِعًا كفّيْه على رُكبَتيه، التقطَ بعضَ الأنفاس، رفعَ رأسَه إلى السّماء، أعشتِ الشمسُ عينَيه فزادتْ بوهَجِها من أذاهما، احتمل الألم والرّمد، قال للسّماء: «إنْ كانتْ هُناكَ آلهةٌ تسكُنُكِ فَلْتُعطِني قلبَ أسدٍ، وعَينَيْ صقرٍ، وساقَيْ فَهدٍ، وأنيابَ ذئبٍ أغبر». هل تسمعُ السّماء أصواتَ الغُرباء؟!

صَعِدَ قاربَ صيدٍ كبيرٍ، فتّشَ فيه عن رُبّانِه، لَقِيَه في القُمرة، كانَ يُعطِيه ظَهرَه، هجَمَ عليه من الخلف، لفّ ذِراعَيه على عُنُقِه، وراحَ يَشُدّ عليها، فُوجِئ الرُّبّان بهذه الحركة المُباغِتة، تخلّصَ منه سريعًا، التفتَ ليرى وجه مُهاجِمه، بُهِتَ حينَ رأى غُلامًا في العاشرة من عمره، تعجّبَ كيفَ تكونُ له هذه القُوّة. انفجر الصّبيّ في وجهه بالضّحِك: «كنتُ أمازِحك». هَمّ بأنْ يضربه، تراجعَ لكي لا يُقال رُبّان يمدّ يده على طفل، ردّ بحنق: «وهل أعرفكَ أيّها الصّغير؟!». «ستعرفني جيّدًا. أنا شاؤول. ويُمكنكَ أنْ تعتمدَ عليّ». نادَى الرُّبّان بصوتٍ عالٍ، فهُرِعَ على صوته ثلاثةُ رجالٍ أشدّاء، انهالوا على شاؤول بالضّرب، حمله

أحدهم إلى خارجَ القارب، في الشّاطِئ قال لأحدهم: «أبحثُ عن عملٍ وأنا فتًى غريب». ردّ عليه: «فما الّذي دفعَكَ إلى أن تُهاجِمَ الزُّبّان؟!». «كانت مزحة». «أنا أعرفُ لكَ عملاً جيّدًا». «أُجيدُ أيَّ شيءٍ يُطلَبُ منّي». «أخي في السّوق يعمل في صُنع الخِيام؛ هل بإمكانِكَ أن تعملَ في متجره؟!». «بالطّبع».

قال لأخيه: «إنّه قادِمٌ من أنطاكية، وهو فتًى قويّ كما ترى، ويستطيعُ أنْ يكونَ خيرَ مُعينٍ لك». ردّ (صافي) وهو يتفحّص الصبيّ ذا الطّول المعتدل، والجسدِ القويّ المتين، والجبهةِ العريضة، والحاجِبَين الكثَّين، والشّعر المنسدل فوقَ كَتِفَيه، والأنفِ الأفطس، والعَينَين نصفَ المُغمَضَتَين: «حسنًا». تركهما وغادر.

كانت طبقاتُ القِماش الّتي تملأ غرفةَ المخزنِ تنبسطُ على الأرضيّة بأكملها مُتراكِمًا بعضُها فوقَ بعضٍ، قال له صافي: «إنّه زَمَنُ الحرب والجوع، وعملنا يحتاجُ إلى الجِدّيّة والصّرامة، وخِياطةِ خيمةٍ واحِدة تكلّفنا وقتًا». صمتَ قليلاً ثُمّ تابع: «قلتَ لي ما اسمُك؟!». «شاؤول يا سيّدي». «هل أنتَ جادٌّ في تحصيل لقمةِ عيشِك؟!». «نعم يا سيّدي». أخذَه من يده إلى غرفةِ الخِياطة، كانت أقرب إلى البَهو الواسِع، كانت تتوزّعُ في أطرافها آلاتُ الخِياطَة والنّول والنّساجة، وعددٌ من العامِلينَ مُنهمِكين في أعمالهم. «ستأخذ مكانَكَ في قَصّ القِماش على الخُطوط المرسومة» قال صافي، هَزَّ شاؤول رأسه مُوافِقًا. «هل ستبدأ من اليوم؟!». «أنا مُستعدّ».

ناولَه المِقصّ الكبير، كانت هناكَ أكثرُ من عشرِ قِطَعٍ من

القِماش العمِلاقة تنتظرُ القَصّ. نادَى صافي أحدِ عُمّاله المُتمرّسين: «كُنْ مع شاؤول بقيّة هذا اليوم، وعلّمْه كيفَ يقومُ بعمله على أكمل وجه».

أتقنَ شاؤول قَصّ أقمشة الخيام، عرفَ أنَّ صناعةَ الخِيام تزدهرُ في الحرب، لم تكنْ كُلُّ الخِيامِ واحِدة؛ كانت هُناكَ خِيامٌ للأسرَى تُصنَعُ من قِماشٍ رديء، لا تحتوي على فتحاتٍ للتهوية باستثناء فتحةٍ واحدةٍ في جانِبها العُلويّ الأيسر هدفُها إدخال الهواء على الأسرى حتّى لا يموتوا اختِناقًا، وكانتْ هُناكَ خِيامٌ للجُند، وأُخرَى لقادة المئة وهي أرقَى وأوسَع وأعلى، وتُصمَّم من أجل أن تحوي في داخلها أسرّة وأرائك ومكانًا للطّعام، أمّا أرقَى الخِيام فكانت الّتي تُصنَع لقائد المعركة الأكبر، وهي النّوع الّذي لا يُطلَب خِياطته في كلّ أربعةِ أشهرٍ أو خمسةٍ إلاّ مرّة واحدةً. تنوّعتْ درجاتُ الخِيام على درجاتِ قاطِنيها، وكانَ هُناكَ عددٌ في المتجر مُختصٌّ بشراء الأعمدة الخشبيّة على أطوال واحِدة، ونَشْرها لتتناسَب مع درجة الخَيمة، فبعضُ سواري الخِيام عالية تضربُ في عُلُوّها السّامق، وكانت هذه لكِبار القادة، وبعضُ الأعمدة الأخرى تساوتْ في طولها، لكي تسمح لفضاءٍ جيّدٍ فوقَ الخيمة، وبعضُها الثّالث لا يكادُ يزيدُ في طُوله عن طُولِ قامةِ الإنسان، وكانتْ هذه مُخصّصةً لخِيامِ الأسرَى والمَنفِيّين والمُرَحّلين!!

تعلّمَ شاؤول في المتجر بسرعة، وأدركَ أنّه حتّى الخِيام وسواريها تعترفُ بالطّبقيّة، ورَضِيَ عنه صافي رِضًى تامًّا.

ساعدتِ الحياةُ المُتوحّشة الّتي عاشَها شاؤول على جَلَدِهِ في عَمَلِه وعلى سُرعةِ إنجازِه، ودفعتْهُ إلى شيءٍ من التّهذيب بعدَ حياةٍ بَريّةٍ قاسِية. عيناهُ فقطْ كانتا مُشكلته. كانَ يتقاضَى سبعينَ دينارًا عن عمله في الشّهر، ويحظَى ببعضِ الزّيادات غير المُنتظَمة الّتي غالِبًا ما يكونُ سببُها رِضَى سيّده عنهُ في العمل.

عاشَ شاؤول في المتجر حياةً عاديّة، يأكلُ مع زملائه العامِلينَ معه، وينامُ في المتجر، ويُمنَح يومًا واحِدًا للرّاحةِ من العمل هُوَ يومَ السّبْت. بعدَ عامٍ من الرّتابةِ والهُدوء بدأ شيءٌ من الملل ينتابُ قلبَه، راحتْ تُعاوِده ذكريات الغابة فَيَحِنُّ إلى عالَمه الأكثر إثارةً وحيويّة، كادَ يطعنُ أحدَ زُملائه بِمِقصّه الحادّ لولا أنّ عامِلاً جديدًا وفدَ إلى المَتجر فأعادَ إليه بعضَ الأمل.

حينَ جاءَ به أخو صافي إليه، قال وعيناه تفرّان من مَحجَرَيهما دهشة: «إنّه شاؤولٌ آخَر». قلّبَ صافي نَظَرَه بينهما وصاحَ صيحةً عالية: «ياااه... هل هو أخوكَ التّوأم؟!» سأل شاؤولَ. أجابه الأخير ببرود: «كلاّ، إنّني أراه أوّل مرّةٍ في حياتي». «إنّه يُشبِهك إلى حَدّ التّطابُق». «لا يكون أخي إلاّ إذا أشبهتْ روحُه روحي». سأل صافي الصّبيَّ الجديد: «ما اسمُك؟!». أجابه: «شيمون».

صارَا معروفَين بالتّوأمَين في المتجر. عَمِلا بتناغُمٍ عجيبٍ، وأنَجزا لصاحبِ المتجر كما لو كانا فريقًا بأكلمه لا صَبِيّين في أوّل الشّباب. فحَرَص على رِضاهُما؛ كانا يُمثّلانِ له

كَنزًا حقيقيًّا. سواعِدهما القويّة، وعَمَلَهما لساعاتٍ طويلة، وانهِماكهما في الإنجاز؛ كُلُّ ذلك زادَ من توطّد علاقتهما بربّ العمل. شيءٌ واحِدٌ كان يُعيقُ العمل في بعضِ الأحيان: عَينا شاؤول في الأيّام الباردة، تَنْتَفِخان فلا يعودُ يَرَى. كانَ صافي يمنحه راحةً في ذلك اليوم دون أنْ يحسم من راتبه!

حينَ انسابَت بينَ الغُلامَين مياهٌ دافِئةٌ من المودّة، سأله شاؤول: «ابنُ مَنْ أنتَ؟!». «لا أعرفُ لي أبًا». «مثلي». «هذا المتجر لا يُمثّل لي طموحًا». «وأنا كذلك». «ولماذا نعملُ فيه إذًا؟!». «ستأتي اللّحظةُ المُناسِبة لنغادرَه».

كان ينامُ معهما في المتجر في غرفةِ العامِلين رجلٌ خمسينيّ يُدعَى (أرئيل). خالطَ الشّيبُ رأسَه. شاهدَه شاؤول غيرَ مرّة يقومُ في اللّيل على ضوء السّراجِ الخافِت حينَ يأوون إلى الفُرُش، يُمسِكُ بين يدَيه بِقِرطاس، ويُهمهِمُ بعباراتٍ غيرَ مفهومةٍ ويهزّ رأسَه بانتِظام. قفزَ شاؤول في وجهه مثلَ قِردٍ ذاتَ مرّةً وخطفَ القِرطاسَ من بين يَدَيه، وسأله بجفاء: «بِمَ تهذي أيُّها الأحمق؟!». لم يُفاجأ الخمسينيّ بما فعله شاؤول، طلبَ منه بهدوءٍ أن يُعيدَ القِرطاسَ إليه. ردّ عليه: «لن أُعيدَه إليكَ حتّى تقول لي ما هذه الطّلاسمُ الّتي تَهذي بِها؟!». «إنّكَ لن تفهمَ منها شيئًا». انتزعَ شاؤول الصّفحة الأولى من القرطاس، كوّمها في يده ثُمّ ألقَمَها فمَه، وازدرَدَها بلقمةٍ واحِدة: «سآكلُ قِرطاسَكَ ورقةً ورقةً إنْ لم تُجِبْني عن سؤالي». أيقنَ الرّجلُ أنّه أمام فتًى عنيدٍ لا يُمكن أن يصمدَ أمامَ جنونه، أجابه: «إنّه كتابُ موسَى». «وَمَنْ مُوسَى؟!». «هل

تريدُ حقًّا أن تعرف؟!». «نعم».

عَهِدَ إليهما ربُّ العمل بعدَ عامَين أنْ يقوما بتوصيل الخِيام عبرَ عرباتٍ خاصّةٍ إلى قادةِ المِئة وقادةِ الألف أحيانًا، مرَّ الزّمَنُ مثلَ شهابٍ خاطِفٍ، قال شاؤول ذاتَ صباحٍ نيسانيّ لربّ العمل: «سأغادِرُ إلى أورشليم». «تُغادِر!! لِماذا؟! وإلى أورشليم؟!». «نعم». «ولِماذا؟! هل ساعات العمل طويلةٌ عليك؟! تريدُ زِيادةً في الأجر؟!». «كلاّ». «إنْ كانَ الأمرُ كذلك، فسنقلّل ساعاتِ العمل، وسأزيدُ أجرتَك». «قلتُ لكَ كَلاّ». «لِمَ إذًا؟!». «وسيُغادِر معي شِيمون». خرجَ الاثنانِ كأنّما كانا وهمًا وتَرَكا صافيًا غارِقًا في بحرٍ من الحيرةِ والذّهول والحسرة!

٦٩

الشّرّ فِتنة؛ أجملُ فِتنة!

رَكِبَا البحر في سفينةٍ تحملُ أبناءَ الرّبّ إلى أرضِ المِيعاد. «يا شيمون نحنُ تائِهون». «في البحر». «لا أيّها الرّديء... تائهون عن الرّبّ». «ومنِ الرّبّ؟!». «اقتربْ.... تعالَ سأقول لك». لفَحتْهما نسماتٌ أصيل دافِئة من رياح البحر، خفقتْ طُيُورٌ بيضاءُ فوقَ أمواجِ المتوسّط، ابتسمَ شيمون، بدا رأسهُ كرةً من النّحاس تلمعُ على أشعّة الشّمسِ الغارِبة، كانَت له عينانِ واسِعتان، وجبهةٌ عريضة، وحاجِبان كثّان، لكنّهما يتهدّلان فوقَ عينَينِ عسليّتَين فتبدوان شارِدَتَين أكثرَ الوقت. كانَ وجههُ صفيقًا والطّمر الّذي يلبسه يلتصقُ على جسده ليكشفَ عن قَدٍّ مَسبوك ومتين، وحدهما العينان اللّتان بَدَتا سليمَتَين من الهالةِ الحمراء المستعدّة للتّهيّج هما الفارقُ في مَظهرَيهما، كانا إذا وقفا مُتجاورَين شكّلا نُسختَينِ مُتناظرَتَين مع فارقٍ بسيطٍ لِمَنْ أرادَ أن يُدقِّقَ في العينَين. قال له شاؤول وهو ينظرُ إلى عَظمَتَي تُرقُوتِهِ البارِزَتَين من فوقِ جيبِ ثوبه: «لا بُدَّ أنّ مَنْ أرضَعَكَ أرضَعَني... مَنْ أهلُكَ يا شيمون؟!». «ليسَ لي أهلٌ يا شاؤول، قلتُ لك ذلك سابِقًا». «وأينَ تربّيتَ إذًا؟!». «في بيتِ مَعَّازٍ يسكنُ في الغابةِ السّوداء عند مفترقها الغربيّ». صاحَ شاؤول بغبطة: «نحنُ نشتركُ في أمورٍ كثيرةٍ يا أخي؛ لكنّني أريدُ أن أتأكّد مِنْ أنّ ما يصطرعُ في رأسي من وساوس يُشبه ما يصطرع في رأسِك». قال شيمون وهو يُبدي كثيرًا من التّحفّز والاهتِمام: «قُلْ يا شاؤول... قُلْ

لي... ما الوساوس الّتي تتلاطم داخل جمجمتكَ يا أخي؟!».
«تأتيني نوباتُ صَرَعٍ يا شيمون... نعم نوباتُ صَرَعٍ، فأشعُرُ أنّني أريدُ أنْ أتناولَ خنجرًا فأغرسهُ في قلبِ كلّ واحدٍ أمامي، وأنتزَع به لِسانه». صاحَ شيمون: «يااااه... إنّ ذلك تمامًا ما يُصيبني أيضًا... أتعرفُ بالرّغمِ من أنّني شعرتُ أنّكَ أخي من أوّل يومٍ إلاّ أنّني وَدِدْتُ غيرَ مرّةٍ أنْ أحزَّ بالسّكينِ عُنُقَك». قال له وهو يُربِّتُ على ظهره بفخر: «قلتُ لكَ إنّنا نتشابه في أمورٍ كثيرةٍ».

على شاطِئ عَكّا رستِ السّفينةُ الّتي تُقِلُّهما. خيّرهما رُبّان السّفينة أن ينزلا هُنا، أو ينتظرا أسبوعًا ريثما تُبحر السّفينة جنوبًا باتّجاه (أشدود) وحينئذٍ ستكونُ أورشليم أقربُ إلى ميناء أشدود ولا تحتاج إلى أكثرَ من نهارٍ على عربةٍ لتصلا إليها. سألاه: «وإذا ركبنا العربة أو الجواد من هنا إلى أورشليم فكم نحتاجُ لنصل إليها؟!». أجابهما: «ثلاثةُ أيّام أو أربعة». فاختارا أن ينزلا في عَكّا. قَفَزا جَذْلانَين، قال له شاؤول: «ها هي مملكةُ الرّبّ الّتي حَدّثني عنها الخيّاط يا شيمون... هَيّا... إنّها إلى الجنوب على بُعدِ فراسِخَ قليلةٍ.. هَيّا يا أخي... سنشتري بالمال الّذي ادّخرْناه من عملنا عندَ صافي جَوادَين، وسنركبهما إلى أورشليم... هل أنتَ مُستعدٌّ لمغامرةٍ جديدة؟!». «لقد قَطَعْنا ذلك البحرِ الكبير من أجلِ هذا... الرّبّ ينتظرنا هناك في أورشليم وسُنريه أنّنا جديران بقبوله لنا في فِردَوسه».

طافا بسوقِ عَكّا، عثرا على حانوتيّ في أطرافِ السّوق،

ساوَماه على ثمنهما، نقدَاه نصفَ ما يملِكان، واشتريا ببعضِ ما تبقّى طعامًا وشرابًا، وانطلَقَا في رحلتهما الحالِمة، بدا كُلٌّ من ابنَي الثانية عشرة فارِسًا يمتطي صهوةَ جوادٍ يقوده إلى معركته محسومة النّتيجة سلفًا: إمّا أن ننتصر أو ننتحر!!

اتّجها في البداية جنوبًا مُحاذِين للبحر، ظلَّ الماء يُرافِقهما يومَين، قَطَعَتْهما استراحةُ النّومِ ليلةَ اليومِ الثّاني. في الثّالث كانوا قد وصلوا إلى (أشدود). اتّجها شَرقًا، فأدركتْهما الشّمسُ بغروبها على الهضاب المُحيطةِ بالمدينة المُقدَّسَة. حَطّا رِحالَهما في خانٍ على طريقِ المُسافِرين. قال لهما صاحبُ الخان: «دينارَين عن مبيتكما في النّزل، وسِتّةُ دراهم لقاءَ الشّعير والمبيت في الإسطبلات عن جوادَيكما». نَظَرَ كُلٌّ منهما في وجهِ صاحِبه، ابتسما ابتِسامةً ذاتَ معنى، ودخلا إلى غُرفتِهما بعدَ أنْ سلّما لِجامَي الجوادَين لأحدَ الخدم العامِلين في الخان.

شَرِبَا حليبًا ساخِنًا في الصّباح، قبلَ أنْ ينطلقا يعدُوانِ بجوادَيهما. تضخَّمَ السّرجُ المركوزُ على ظَهرَي الجوادَين، قال الخادمُ لصاحب الخان: «لقد سَرَقا ملاءات الأسِرّة، وبعضَ المُثَمنمات!!».

قال شاؤول لأحدِ الكَهَنةِ في المعبد: «أنا مبعوثُ أرئيل من طرسوس. معي رِسالةٌ منه إلى قَيافا؛ هَلاَّ أخذْتَنا إليه أيّها العزيز». سَحَبَهما من يدَيهما دون أن ينبِسَ بكلمةٍ واحدة، كانَ يريدُ أن يقول أشياءَ كثيرة، افتراقهما في صورتَين لأصلٍ واحِدٍ ألجمه عن الكلام، قال في نفسه: «هو وصورته،

كأنّ أحدهما يقفُ أمام مرآة». قال له شاؤول: «لو نظرتَ في العَينَين لبانَ لك الفرق». تعجّبَ من أنّه يعرفُ ما يدور بخاطره، فسمح للكلام المحبوس بأنْ يتحرّر: «كيفَ عرفتَ أنّي أُفكّر في ذلك الأمر ولم أقلْ شيئًا؟!». أجابه: «لأنّكَ لم تقلْ شيئًا عرفتُ؛ صمتُكَ فَضَحَكَ». خاطَ فمه من جديد بإبرةِ الدّهشة، وأبقاه منغلقًا، واجتهدَ في أنْ يَحُثَّ خُطاه إلى غرفةِ قَيافا قبلَ أنْ يتطوّر الحِوار أكثرَ من ذلك.

وقفَا مُلقيَيِ الرّأسَين أمامه، بدا خُشوعهما خُشوع ذئبٍ يلبدُ في انتظار فريسته، تناول قَيافا الرّسالة، كانت من صديقه القديم الّذي درسَ معه شريعةَ موسى قبلَ سنواتٍ طويلة، وفرّقتِ الدّروبُ بينهما، قبّلَ الرّسالة، انحنى بشقّه الأيمن ووضعها في أحدِ أدراجِ مكتبه، قال وهو يرفع رأسه للكاهن: «مَنْ على رأسِ التّعاليم هذا السّبت؟!». «إنّه غامالائيل يا سيّدي». «دَعْهما اليومَ يحضران الصّلوات مع العامّة ليندَمِجا في الكهنوت، وفي الغد ابعث بهما إليه».

أكلا زُبدًا، ومنقوع الخلّ مع خبزٍ، وبعضَ الفطير على العشاء. ارتاحا في مساكنِ ضيوف الحبر الأعظم، كانت ليلةً مُريحةً، فَرَشَا فوقَ الأسرّة ما سَرَقاه من صاحبِ الخان، ووضَعا المنمنمات قريبًا من رأسَيهما، كانَ أحدها تمثالاً لدانيال الرّسول. قال له شيمون: «لعلّنا أخطأنا». «ولماذا جِئنا إلى هنا؟! ألم يقولوا إنّها مدينةُ الرّبّ، والرّبّ يغفرُ فيها الخطايا». «لكنّه يغفر ما ليسَ مقصودًا منها، نحنُ تعمّدْنا ما فعلْنا». «لا تُشغلْ نفسَكَ بما يفعله الرّبّ، أمامنا مِشوارٌ طويلٌ لنعرفَ ذلك.

نَمْ فالطّريقُ ما زالث في بِدايتها». «أريدُ أنْ أعرفَ الآن». لم يكدْ يُكمِلُ عبارتَه الأخيرةَ حتّى انفجرَ غضبُ شاؤول دُفعةً واحِدةً، قفزَ من سريره، وجذبَ إليه شيمُون من عُنُقِه، وأنشبَ أنيابه في رقبَتَه، فاستسلَمَ له شيمون كأنّه كانَ ينتظرُ هذه اللّحظة، انبجسَ الدّمُ من عروقِ عنقه الّتي كان شاؤول يشدّ عليها بقوّة حتّى بَزَّ تلك العروق إلى الخارج، أبعده وهو يلهث: «قلتُ لكَ نَمْ، كانَ عليكَ أنْ تتخلّصَ من هذا الجُزءِ الصّالِحِ فيك، وتلقيه إلى البحر ونحن على السّفينة». «الآنَ تخلّصْتُ منه يا أخي». مسحَ الدّمَ السّائلَ بظاهرِ يده، ثُمّ قرّبه من فمه ولعقه، رفعَ يده بما تبقّى فيها من دم إلى أنفه، شَمّها، ثُمّ هتف جَذِلاً: «إنّها الرّائحة الحليبيّة الّتي تجمعنا يا أخي، الآنَ صِرتُ مثلك. الذّئابُ لا تُصاحِبُ إلاّ ذئابًا مثلها، الآنَ صِرتُ كامِلاً يا أخي. الشّرّ فِتنة؛ أجملُ فِتنة!».

في الصّباحَ طَرَقَ بابَهما الكاهِن، لَبِسَا على عَجَل، مَشَى أمامهما وثوبُ كَهَنوته يخفقُ خلفَه، حافظَ على مسافةٍ بينهما حتّى لا يسمعاه، بدا كما لو كان يريدُ أن يلحقَ بشيءٍ أو يهربَ من خَطَر. قادَهما عبرَ ممرّاتٍ تحتيّة بعيدةٍ عن أعيُنِ المُتعبِّدين إلى دربٍ مرصوفةٍ بحجارةٍ عريضةٍ. كانث عربةُ الضّيافةِ بانتِظارهما، رَكِباها، وقادَها الحانوتيّ حتّى وصلَ إلى بيتٍ لا يبعُدُ كثيرًا عن الهيكل، جلسَ الكاهن في الصّفّ الأمامي للعربة، وأشارَ لهما أن يحتلّا المقعد الخلفيّ، بَدَا من هيأته أنّه لا يريدُ أن يفتَحَ معهما نِقاشًا من أيّ نوعٍ، سألاه عن بيتٍ متواضِعٍ أثارَ فُضُولهما رأيا شيخًا يقفُ أمامه مُتّكِئًا على عَصا، وقد غَزَا الشّيبُ كُلّ لحيته: «مَنْ هذا الّذي يبدو

كاهِنًا؟!» ظلّ ساكِتًا كأنّه لم يسمَعْ سؤالهما. أعاد عليه شاؤول السّؤال ثانية بِحِدّة، فأجابَ باقتِضاب: «إنّه زكريّا». عادَا إلى الصّمت. بدتِ البيوتُ الطّينيّة المُتواضِعة وورودًا زهريّة تنتشرُ غَرْسًا مُثمِرًا على الجانِبَين. وقفا أخيرًا عندَ بيتٍ كبيرٍ يمتدّ على طولٍ واسِع، مُشيَّدٍ من حجارةٍ رماديّةٍ مَقصوصةٍ بِعنايةٍ يبدو أنّها رومانيّة، كانَ جدار السّور الّذي يحجزُ خلفَه البيت يرتفعُ عاليًا، وفي منتصفه بوّابةٌ خشبيّة بَدَا أنّها صُنِعَت للتّوّ مع التِماع أشعّة الشّمسِ فوقَها. أشارَ لهما الكاهِن إلى البوّابة دونَ أنْ يبرَحَ مكانه، على الباب استقبلَهما أحدُ الخَدَم العاملين في البيت، قادَهما عبرَ حديقةٍ تمتلئُ بالزّهور ذاتِ الألوانِ الفاتِحة على الجوانِب، وبأحواضٍ تنتشرُ فيها بعضُ المباقل والأعشاب الّتي تُستَخدم في بعضِ الاستِشفاءات. دارَ بهما الخادِمُ عبرَ تلك الحديقةِ إلى الجهةِ الأخرَى من البيت لِيَدْخُلا على المبعوثِ إليه.

صَعِدَا سُلَّمًا يُوصِلُ إلى طابقٍ ثانٍ، يحتلّ نصفَ مساحةِ الطّابقِ الأوّل، كانَ (غالامائيل) يجلسُ في غرفة أشبهَ بشُرفةٍ حيثُ كانَ جِدارُها الرّابع مفتوحًا جهةَ المعبَد، من هُناك بدتْ قُبّةُ المعبدِ تلمعُ على بُعدٍ كأنّها تُناجِي الجالِسَ هُنا وتُحاكِيه. أشار الخادِمُ إلى حَبْرٍ يجلسُ في وسطِ الغرفةِ مُعطِيًا لهم ظهره: «إنّه القابِعُ هناك». غادرَ الخادمُ مباشرةً بعدَ ذلك. تقدّما خُطوةً باتّجاهه وتنحنَحا لِيُشعِراه بوجودهما، ظلّ جالِسًا على ما يبدو في هيئة صَلاةٍ دون أنْ يتزحزَحَ من مكانه. صَمَتا لحظاتٍ بدتْ أنّها ثقيلة، قال شاؤول: «بَعَثَنا إليكَ قَيافا» في محاولةٍ منه لتحريكِ الماءِ الرّاكِد. لكنّ العابِدَ ظلّ مُحتفِظًا

بهيئته الثّابتة، «إنّه الرّبُّ يا سيّدي مَنْ بَعَثَنا إليك». حينئذٍ تحرّكتِ الكُتلةُ الهامِدة بهدوء، لفّ الكاهنُ جسدهُ ببطْء مقصودٍ تُجاههما كأنه مُمثّل، بدَا سمينًا من خِلالِ حركته، رأسه يلتصقُ بكاهِلَيه كأنّه بلا عُنُق! حينَ صارَ وجهه مُقابِلاً لهما دَقّقا النّظرَ فيه، بدا وجهَ خنزير، هكذا رآه شاؤول على الأقلّ، أمّا شيمون فرأى فيه وجهَ نعجةٍ. كانَ ذا وجهٍ مُربّعٍ، وذقنٍ بارزةٍ عريضة قليلة الشَّعر، وعينَين صغيرَتَين، نهضَ من مكانه فجأةً، فبان لهما قِصَرُ قامته، عَرَفا من نهوضه أنّه سمينٌ لكنّه سريعُ الحَركة، ثوبُه الكَهَنوتيّ الرّماديّ رغم أنّه فَضفاض إلاّ أنّه لم يُخفِ جُثّته الممتلئة، مرّتْ لحظاتُ صمتٍ أخرى، قبل أن يضعَ يده البيضاءَ الّتي دبّ فيها نَمَشٌ كثير على ذقنه الأمرد إلاّ مِنْ شعيراتٍ نافِرةٍ دونَ حياء، ليقول: «ما أخبارُ أرئيل أيّها الصّبيّان؟!». «إنّه بخير يعمل في صناعةِ الخِيم في طرسوس». «سوفَ يصنعُ لنا خيمةً يومَ الدّينونة ويقبله الله فيها ويقبلنا معه؛ إنّه رجلٌ صالحٌ، لا بُدّ أنّكما تعلّمْتما منه ما جعلكما تتشجّعان لكي تأتِيا إلى مدينة الرّبّ وتتركا عملكما هناك مع أنّكما ما زِلتُما صَبِيّين». «لي قلبٌ يتوقُ إلى الحِكمة، عَلّمَنا أنّ الحِكمةَ تتجلّى لأبناءِ الله في مدينته، ونصحنا أن نُجاورَه هُنا؛ هل للذّئب أن يمتلكَ حِكمةَ الكاهن؟!». «إنْ لم يمتلكِ الكاهِنُ قلبَ ذئبٍ فلنْ يكونَ حَكِيمًا». تبادَلا نَظرةَ رِضًى بينَهما، ثُمّ سأله شاؤول: «وماذا ينبغي علينا أن نفعلَ من أجل أنْ نُصبِحَ حَكيمَين؟!». «ستُلازِمانِ هذا المُصلّى أيّها الطّيّبان، وسأعلّمكما الكتابَ والحِكمةَ والتّوراة». عبَرَ المسافةَ الفاصِلة بينهما، ومَشَى أمامَهما ففاحتْ منه رائِحةٌ حليبيّة، استقرّتْ

في أنفِ شاؤول فَعَوى في داخِله، دبَّ النّشاطُ في قلبِه، استعادَ صُورًا غائِمة، بدأتْ تتّضح تدريجيًّا، كادَ يراها واضِحةً تمامًا، لولا أنّ صوتَه جاءَهما من أسفلِ الدّرجِ: «هَيّا اتبَعانِي أيّها الصّبيّان، لماذا جمدتُما في مَكانَيكُما ككلبَين أجرَبَين؟!».

٧٠

أراكَ بكلِّ غامِضَةٍ... وكلّ دُجُنّةٍ تَخْفَى

هَبَطَا الدّرج، هنا ستُقام صلاة الثّانية والثّالثة وأشارَ إلى غرفةٍ مُصمتة الجُدران، باردة لاحتجابِها الكامل عن نور الشّمس، وفارغة إلاّ مِنْ رَفٍّ خشبيّ في صدرها يحملُ بعضَ الأسفار إلى جانبِ محرابٍ فُرِشَت أمامه سِجّادةٌ عُشبيّة داكِنة. وعلى جانِبَيها وُضِعت مساندُ ومُتكآت يجلسُ عليها المُتعبّدُ أرضًا، كانَ كُلُّ مسندٍ منفصلٍ عن الآخر بمسافةٍ قليلةٍ لكنّها تسمحُ لعابدٍ أن يجلسَ بينهما لو أراد في حالةِ امتلاء الغرفةِ بالمُصلّين. وفوقَ كلّ مِسندٍ ارتكزَ فانوسٌ على الجدار لِيُضاءَ حينَ تبدأ التّلاوات. سأله شاؤول: «كم عددُ المساند يا سيّدي؟». «أربعةٌ وعشرون؛ عشرةٌ عن اليمين ومِثلُها عن الشّمال، وأربعة في جهة المدخل، أمّا عند المحراب فلا يجلسُ فيه سِواي». سكتَ قليلاً وهمس: «الرّبّ لا يقبلُ شريكًا، وكذلك ظِلُّه». توهّما أنّهما لم يسمعا ما قال. تابعَ غالامائيل: «أمّا صلاةُ الأولى فستُقام في الشّرفة حيثُ لقيثُماني أوّل مرّة». مَشَى أمامهما مُنعطِفًا إلى ممرّ طويلٍ مُعتِم، كان الممرّ يحوي ستَّ غرف على جانِبَيه، فتحَ الرّابعة والخامِسة منها، وقال: «الرّابعة لكَ يا شاؤول والخامِسة لك يا شيمون، الغُرَف الثلاث الأولى ينامُ فيها تلاميذٌ أُخَرون». «والسّادِسة؟!» سأله شاؤول، «ينامُ فيها الشّيطان». أجابه، ثُمّ ابتسمَ فبانَت ابتِسامته عن أسنانٍ صفراء مُدبّبة صغيرة. سَمِعَا أصواتًا مُتداخلة تَئِزُّ أزًّا كأنّها أصواتُ طنينٍ مكتومةٌ

قادِمةٌ من نهايةِ الممرّ، التقتْ نَظراتُهما، تشجّع شاؤول للسّؤال: «ما هذه الأصوات يا سيّدي؟!» أردفَ: «عندنا عُبّادٌ في غرفٍ سُفليّة». «لماذا لا يصعدون إلى مثلِ هذه الغُرَف؟!». «لأنّهم يُحبّون ألاّ يَظهروا، يُفضّلون الانعِزال عن هذا العالَم وَدَنسِه». «وكم عددهُم؟!». «عَشَرَةٌ». «ماذا لو أردْنا أن ننضمّ إليهم؟!». «ليسَ سهلاً أن تفعلا». «ولماذا؟!». «عليكم أن تجتازا بعضَ الطّقوس لفعل ذلك». قال كلمته الأخيرة، ثُمّ اجتازَ الممرّ الطّويل ماشِيًا أمامهما حتّى لا يسمعَ منهما سؤالاً آخر، دلفَ إلى الجانبِ الثّاني من البيت حيثُ المطبَخ، كانَ المطبَخُ يقعُ في الجهة الشّرقيّة من الحديقة الواسِعة، ومُلحقًا بالبيتِ إلحاقًا، واسِعًا، وفي زاويته (داخونٌ) لِشَيّ اللّحم، استقبلَهما على الباب رئيسُ الخدم، خطا بهما إلى بَهو المطبَخ، رأيا فيه خمسةً يعملونَ في إعداد طعامِ الغداء، قال غالامائيل: «نأكل بعد الصّلاةِ الثّانية من قرابين الرّبّ الّتي تُقدَّمُ له في المذبح». في وسط المطبخ امتدّتْ طاولة طويلة ترتفع إلى وسط القائم أمامها ملأتْ نصفَ المساحة، وفوقَها ارتكزتْ ستّ قُدور. أشارَ غالامائيل لرئيس الخدم لكي يتولّى الحديث عنه، قال لهما: «القِدر الأولى للحومِ القرابين، في العادة يُسكَب عليها بعدَ اليوم الثّاني من وصولها إلى هنا ماءٌ بارِدٌ طَوال الوَقت من أجلِ ألاّ تتفسّخ». «مِنْ أينَ تأتونَ بماءٍ بارِدٍ طَوال الوقت؟!!». «هُناكَ عينٌ مُقدّسةٌ تحتَ الهيكلِ يصلُ ماؤها عبرَ قنواتٍ مطمورةٍ في باطنِ الأرضِ إلى هُنا... القِدرُ الثّانية للخبز، والثّالثة للبقوليّات، والرّابعة للخُضَر، والخامسة للفاكهة، والسّادسة للدّم». سأله شيمون مُستغرِبًا: «للدّم؟!». «نعم».

«وماذا تفعلون بالدّم؟!». «ليسَ من شأني أن أجيبَ عن هذا السّؤال». التفتَ ناحية غالامائيل وتابع بعدَ أن حوّل بصره إليهما مُشيرًا إليه: «الجوابُ عنده». تقدّمَ إليهما غالامائيل بعدَ أنْ حلّ عُقدةَ يدَيه الّتي كان يجمعهما بها إلى صدره: «الدّمُ للشّرب». تهلّلَ وجهُ الصّبيّان، سأل شاؤول: «للشّرب؟! فدمُ مَنْ هُو؟!». «القرابين الّتي تُذبح في جانب الهيكل يُصفّى دَمُها ويُؤتَى بها إلى هنا في أوعيةٍ نُحاسية ويُحتفظ بها في القِدر لكي تُغمَسَ مع الخبز وتُؤكَل في الأعياد وخاصّة عيدَ الفصح». «ومتى يكونُ عيدُ الفصح؟!». «السبتُ القادم؛ ثلاثةُ أيّامٍ ونوافيه».

في المساء، صعدتِ الأصواتُ من القَبو، كانوا عشرةً من البشر الّذين يلبَسون أرديةً أرجوانيّة من تلك الّتي يلبسُها فُرسانُ المَعبد، كان الرّداء عبارةً عن قطعةٍ واحدةٍ من الكِتّان الثّقيل تنسدلُ على جسدِ العابِد بشكلٍ وافٍ واسعةً من الأسفل، وتنتهي بقلنسوةٍ ذاتِ طرفٍ مُدبّبٍ مدفوعٍ إلى الخلفِ أكبرَ من حجم الرّأس في الأعلى، ظهرَت القلنسوةُ ذاتُ المنظر المَهيب لأوّل عابدٍ صاعدٍ من الدّرج السفليّ وعلى إيقاع خُطُواته الواثِقة مَشى خلفهُ تسعةٌ آخرون كاملو الهيبةِ والصّمت، لم تبدُ وجوههم المختبئة خلفَ قلنسواتهم حتّى لشاؤول الّذي حاولَ أن يسترقَ النّظر وهو ينتظرهم عندَ بابِ المُصلّى، دخلوا إلى أماكنهم اتّخذوا المساند الخمسة الأولى ذات اليمين، والخمسةَ الأولى ذاتَ الشّمال، ثُمّ وفدَ تلاميذُ الغُرف، فاحتلّوا المساند الأبعد عن غالامائيل الّذي قَبَعَ في مكانه الأثير عند المِحراب، وجلسَ شاؤول في المسندَين

الأبعدَ من التّلاميذ هو وشيمون؛ تذكّر طبقيّة الخِيام، وهو يَرى درجات الّذين يجلسون هنا، «حتّى الرّبّ يعترفُ بالطّبقيّة» همسَ لنفسه. قامَ غالامائيل من موضعه فتناول الرّقوق والقراطيس الموضوعة بعنايةٍ على الرّفّ، مشى بينَ الجالِسين بحركةٍ طقوسيّةٍ هادِئة وسلّمَ كُلَّ عابدٍ رَقّه، حتّى إذا وصل إلى شاؤول، ارتقى هذا الأخير على رُكبته ليهمسَ في أذن سيّده: «ولكنّنا لا نعرفُ القراءةَ أنا وشيمون». حدجه غالامائيل بنظرةٍ غاضِبة، عنّ بباله أن يسأله: «ألمْ يُعلّمكما أرئيل لغةَ الرّبّ في طرسوس؟! يا له من غافلٍ». ثُمّ تراجع في اللّحظةِ الأخيرة، قال لهما: رَدِّدَا خلفي مع العُبّاد ما أقول دونَ أن ترفَعا بَصَرَيكما، وتَظاهَرا بأنّكما مُنهمِكان في تلاوة النّصّ من الرّقّ». عادَ إلى مكانه، اختفَى جسدُه خلفَ حِجابه، وغابَ وجهه وراءَ قلنسوُته، اهتزّ جسده كالبندول خفيفًا إلى الأمام والوراء، عُلُوًّا وهُبُوطًا مرّتَين، قبلَ أنْ يأتيَ صَوتُه عابِرًا حجراتِ القلوبِ المُنكّسة:

أراكَ بكلِّ غامِضَةٍ

وكلّ دُجُنّةٍ تَخفَى

وَعَدْتَ فَكَيْفَ تُخْلِفُنِي

وَجِئْتَ بِمِثْلِها أَوْفَى

وسِرُّكَ حينَ أسألُه

وأطلبُ عنكَ لي كَشْفَا

إلامَ يظلّ مُستَتِرًا

الأبعدَ من التّلاميذ هو وشيمون؛ تذكّر طبقيّة الخِيام، وهو يَرى درجات الّذين يجلسون هنا، «حتّى الرّبّ يعترفُ بالطّبقيّة» همسَ لنفسه. قامَ غالامائيل من موضعه فتناول الرّقوق والقراطيس الموضوعة بعنايةٍ على الرّفّ، مشى بينَ الجالِسين بحركةٍ طقوسيّةٍ هادِئة وسلّمَ كُلَّ عابدٍ رَقَّه، حتّى إذا وصل إلى شاؤول، ارتقى هذا الأخير على رُكبته ليهمسَ في أذن سيّده: «ولكنّنا لا نعرفُ القراءةَ أنا وشيمون». حدجه غالامائيل بنظرةٍ غاضِبة، عنّ بباله أن يسأله: «ألمْ يُعلّمكما أرئيل لغةَ الرّبّ في طرسوس؟! يا له من غافلٍ». ثُمّ تراجع في اللّحظةِ الأخيرة، قال لهما: رَدِّدَا خلفي مع العُبّاد ما أقول دونَ أن ترفَعا بَصَرَيكما، وتَظاهَرا بأنّكما مُنهمِكان في تلاوة النّصّ من الرّقّ». عادَ إلى مكانه، اختفَى جسدُه خلفَ حِجابه، وغابَ وجهه وراءَ قلنسوّته، اهتزّ جسده كالبندول خفيفًا إلى الأمام والوراء، عُلُوًّا وهُبُوطًا مرّتَين، قبلَ أنْ يأتيَ صَوتُه عابِرًا حجراتِ القلوبِ المُنكّسة:

أراكَ بكلِّ غامِضَةٍ

وكلّ دُجُنّةٍ تَخفَى

وَعَدْتَ فَكَيْفَ تُخلِفُنِي

وَجِئْتَ بِمِثْلِها أَوْفَى

وسِرُّكَ حينَ أسألُه

وأطلبُ عنكَ لي كَشْفَا

إلامَ يظلّ مُستَتِرًا

أموتُ ليومِه لَهْفا!!

مَرِضْتُ، وقلتُ لا أَشْكُو

لأنّي منكَ لا أُشفَى

مَتَى تَحْنُو فَتَقْبَلَنِي

فَإِنَّكَ كُنْتَ لِي كَهْفَا

كانَ صوتُه شَجِيًا. غالامائيل أعطِيَ المزامير. قامَ العُبّاد، هبطَ العشرةُ أوّلاً إلى منازلهم السُّفليّة، كانَ الخدمُ والطّبّاخون ينتظرونهم أوّل الدّرج، حملوا على رؤوسهم بخشوعٍ طعامهم، ونَضّدوه في قاعةِ الأكل الّتي لا يدخلها سِواهم. وأكلوا. ثمّ فرغَ كُلُّ واحدٍ منهم إلى غرفته، كانَ عليهم أن يبدؤوا طُقوسَ التّأمّل استِعدادًا لعيد الفِصح الّذي يتطلّب المثولُ فيه بينَ يدَي الرّبّ طاقةً روحيّةً عاليةً.

في اليومَين اللّذَينِ سَبَقا عيدَ الفِصح، اجتهدَ غالامائيل أنْ يُعلِّمَ شاؤول وشيمون الحروفَ العبريّة الّتي كُتِبَت بها التّوراة. بدأ يُطبّق ذلك على الإصحاحات المبثوثة في الرّقوق، اندهشَ من سُرعةِ تعلّمهما، كان يبدُو أنّهما أذكى مِمّا توقّعهما، طَلَبا منه ألاّ يَدَعَهما خلالَ اليومَين لأنفسهما لحظةً ولا للرّاحة قبلَ أن يُتِمّوا قراءةَ سِفرِ الإنشاد، وجدا فيه هَفَواتِهما كصبِيَّين يتوقان إلى شيءٍ من الشّاعريّة المفقودة في حياةِ الغابة، فآنَسهما الحديثُ بمثلِ هذه الشّاعِريَّة وإنْ كانا لا يَزالان وسيبقيان يمتلِكانِ قلبَي ذئبٍ أقرب إلى الشّيطان في عينَيه وأنيابه!!

قادَ غالامائيل مجوعته إلى المعبد، كانَ عليهما أن يسلكا الطّريق إليه مَشيًا أُسوةً ببقيّة الحُجّاج الوافِدين من أماكن أبعدَ بكثيرٍ من المكانِ الّذي يفدونَ منه. مَشَى أمامهم، تذكّر شاؤول قطيع الذّئاب، همس لنفسِه برضًى فائقٍ: «قريبًا سيُضَحَّى بالمُعلّم، هذه ضريبةُ مَنْ يمشي في المُقدّمة». حرصَ هو وشيمون أن يَمشِيَا في مؤخّرة الرّكب، حلّ العشرةُ الّذي لا وجوه لهم ثانِيًا، وحلّ التّلاميذُ المُبتدِئون ثالِثًا، وجاءا هُما رابِعًا.

تناهث إليهما أصواتُ المُصلّين، قبلَ أن يغيبا في النّهر المُتدفّق من النّاس عبر شِعاب المدينة المُقدَّسة، وإنْ ظلّوا مُحافِظين على هيئتهم الّتي اعتمدث شكلَ قطيعٍ برأسٍ وجسدٍ وذيل!! في السّاحةِ الفسيحة تراءى عندَ المدخل الحُرّاس والخدم الّذي يقومون على إسقاء الحجيج العِطاش، وإرشاد الضّائعين، توجّه غالامائيل إلى حيثُ يجلسُ قَيافا، قال له الأخير: «خُطبتي تبدأُ بعدَ الصّلاةِ الأولى. ابقَ تحتَ ناظِرَيّ أنتَ وبقيّة الأحبار». هَزّ رأسه دون أن يقول شيئًا واتّخذ مكانَه بينهم.

تجوّل شاؤول في المعبَد. توقّف عندَ تماثيل ترتكز على قمّة الأعمدة الّتي تُشكّل المدخل؛ كانث رؤوسًا لوحوشٍ أسطوريّة مثلَ تلكَ الّتي رآها فيها في الغابة. رقصَ القلبُ التّائقُ؛ همسَ: «المعبد طريقي إلى الخُلود؛ سأصنعُ فيه مَجدي». قَضى السّاعات الأولى وهو يتفحّصُ أرجاءَ المعبد حتّى إنّه نسيَ وقتَ الطّعام الّذي حدّدهُ له غالامائيل مع الكهنةِ ليُقبَل في

الكَهَنوت. جاءه شيمون لينتزعه من ذهوله وطَوَفانه، ويذهب به إلى الطّابق الثّاني من المعبد حيثُ الغرفة الّتي تسبقُ شرفةَ الخُطبة، وفيها يُقام الاحتِفال بقبولهما كتلميذَين يدخُلان سِلْك الكَهانةِ المُقدَّس. رحّبَ (قَيافا) بهما، قال له غالامائيل: «سيتعلّمان صُحُفَ موسَى على يَدَيّ، وستفخَر بهما في وقتٍ قصير؛ إنّهما قادِران على حِفظِ الرّق الواحد في ليلةٍ واحِدة». ردّ قَيافا: «المهمّ أن تهبَ قلبَكَ لخدمةِ السّرّ المُقدَّس». التمعتْ عَينَا شاؤول، أدركَ أنّ حياةَ الغابة ستتكرّر هُنا لكنْ بمستوى عَظَمةٍ جديد، قال له قلبُه الأبديّ: «لِهذا خُلِقت!!».

كانَتْ أصواتُ الحُجّاج تتعالَى خارجَ الغرفة في السّاحة الّتي تموجُ بهم. نهضوا بعدَ أن تناولوا طَعامهم. كانَ على الجميع أن يتركَ قَيافا مع غالامائيل وحدهما ليُملِيَ الأخير على الأوّل بنودَ خُطبته لعيد الفِصح.

انتظمَ كَهنَةُ المعبد خلف قَيافا دون أنْ يراهم أحدٌ من الحُجّاج، جلسوا في هيئةِ جذوع أشجار عتيقة، وأسدلوا قلنسواتهم على رؤوسهم، وأسقطوها على صدورهم. من تحت بدا قيافا للنّاظرين مَلِكًا ينتظرون تسابيحه الّتي ستهبهم سعادَة الاستمرار في حياةٍ قاسِية تنضح بالكدّ والشّقاء الّذي كُتِبَ على أبناءِ إسرائيل من أجل المجدِ المُنتَظَر، والفارسِ الأسطوريّ المُخلِّص.

بعدَ الخُطبةِ الّتي تخلّلتْها هتافات صاخِبة من الحجيج تصدح بخلاص الشّعب، وبالجنّة الموعودة، نزلَ قيافا وبعضُ الكهنة يسيرون بينَ النّاس، لَزِمه شاؤول كظلّه، حتّى إذا

انتهَوا إلى طرفِ السّاحةِ اللّصيق بجدار المعبد العالي وجدوا فتًى وسيمًا في الثّانية عشرةَ من عمره على وجه التّقريب يُجادِلُ النّاس، والنّاس تتجمهر حولَه، قال أحدُ الخدم الّذي بدا يُوسّع خُطواته من أجل أنْ يصلَ إلى قَيافا: «هذا الفتى يُناقِشُ الكَهَنةَ بشريعةِ موسَى، إنّه يكادُ يتغلّبُ عليهم». سأله قَيافا باهتِمام: «ومَنْ يكون؟!». «لا أدري يا سيّدي؛ لأوّل مرّةٍ أراه في المعبد، لم يظهر لي خلال العشرين عامًا الماضِية لخدمتي هنا إلاّ هذه المرّة!!». بدا الاهتِمام جليًّا على وجه قَيافا، الّذي غذَّ السّير إليه، حينَ رآه الكهنةُ الآخرون أفسَحوا له المجال، ولمّا رآه الفتى ابتسمَ ابتِسامةً وادِعة، فبادره قيافا: «سَمِعتُ أنّكَ تقرأ التّوارة!». «أقرؤها على طريقتي لا على طريقتكم». ضايقته جرأة الفَتى، وأحسَّ بالغضبِ على أن تُقال في وجهه كلمةٌ كهذه أمام كهنته، لكنّه كتمَ غضبه وحِقده، وسأله: «وكيفَ تقرؤها؟!». «موسَى جاءَ بالنور لله وللنّاس، وأنتم جعلتموه لأنفسكم». فاهتاجَ الكهنةُ، فأشار لهم قَيافا أنْ يسكتوا، ثُمّ وجّه كلامه للفتى: «لعلّكَ يا بُنيّ لا تدري ما تقول». «بدلَ أن تُفسِدوا الشّريعةَ كانَ عليكم أنْ تكونوا أمناءَ على كلمةِ موسى». «وهل نحنُ خُنّا تلكَ الأمانة؟!». «لقد أكلْتُم أموالَ النّاسِ بالباطِل». هَمّ قَيافا أن يأمرَ حُرّاسه بإلقاءِ القبضِ عليه وقتله، لكنّه خافَ أن يفعل مثلَ ذلك أمام النّاس فيبدُو وهو الشّيخ الكبير مُستَقوِيًا على صبيّ!! حاولَ أنْ يُغيّرَ مجرى الحديث: «وَمَنْ تكون أيّها الفَتى؟!». «ستعرفني كما عرفني الربّ». «أسَمِعْتُم؟! لعلّ خَبَلاً في عقل هذا الفتى». تقدّمَ شاؤول من بينِ الكهنةِ وهمسَ في أذن قَيافا: «هل

تريدُني أن أنتزَعَ لك قلبَه من بينِ أحشائِه؟!». ارتعبَ قَيافا لِما سَمِع لكنّه تظاهر بالوَقار، تركَ الفَتى وأرادَ أن يُديرَ له ظهره، لكنّه ألقَى سؤاله الأخير على مسامعه: «ما اسمُكَ يا بُنيّ؟!».

«أنا يسوع... اسمي يسوع». أجابه!!

٧١

لكلّ شيءٍ أوانٌ

«الضّعيفُ مثلُ التُّفايةِ المُلقاةِ في الطّريق؛ كلّ الأرجل تركُلها، الحياةُ ليستْ لأولئكَ الّذين يكتفون بِرَفْعِ أيديهم إلى الرّبّ لِيُنقِذهم من الموت وهم جالِسون تحتَ مِقصلة الّذبح!!». قال ذلك لهما غالامائيل. «بعدَ سنةٍ عليكما أنْ تكونَا قد حفظْتُما الصُّحُف؛ سنحتفلُ بذلك في عيدِ المظالّ».

مرّتْ شهورها الاثني عشر سريعةً بالنّسبة للمُعلّم، وبطيئةً بالنّسبةٍ للتّلميذَين، كانا يُريدان أن يُصبِحا عُضوَين في جماعة الفُرسان الّتي تُمارِسُ طُقُوسَها في العالَمِ القارّ تحتَ الأرض. منعتْهما السّريّة أنْ يعرفَا تلكَ الطّقوس إلاّ في موعدها.

إنّه العامُ الثالثُ عشر من عُمرَيهما، سيذهبان ليتعلّما الفروسيّة في صحراءِ الأردنّ. كانَ ذلك سَهلاً عليهما، لقدْ وُلِدَا فارِسَين، والغابة علّمتْهما كُلّ فنون القِتال. قالَ لهما القائدُ بعدَ سلسلةٍ من التّدريبات القاسية والشّاقّة: «يشهدُ الرّبّ أنّه لم يَمُرَّ عليّ مَنْ تعلّم وأتقنَ مثلكما؛ لو كانَ مُوسَى حيًّا لكنتما مصدرَ فخرٍ عظيمٍ له» وأعطاهما رَقًّا فيه خَتمه بشهادته على إنجازهما سنةَ الفروسيّة، ابتسم لِيُظهرَ الرّضى عنهما، لكنّهما لم يُبادِلا ابتسامته بأيّ نوعٍ من الوُدّ، قال له شاؤول: «لولا أنّكَ أحدُ الدّروب الّتي يجبُ عليّ أنْ أمرّ بها في طريق أخويّتي، لانتزعتُ لِسانَكَ من أوّل يومٍ، فإنّني لم أركَ تُتقِنُ أكثرَ من الكِلام، وَاضَيْعةَ الّذين ستُدرّبهم من بعدنا!!». أخذا الرّقّ

وتركاه غارِقًا في ذهوله، فاغرًا فاه، وجامِدًا كأبله.

إنّه العامُ الرّابع عشر، عامُ الدّخول في الأخويّة، وإنّها مُنتصفُ ليلةِ السّبت، حُمِلَت القِدر السّادسة إلى الحديقةِ الخلفيّة، ووُضِعتْ في مُنتَصَفِها، وبدأتْ تتعالَى أصواتُ طُبولٍ ضَخمةٍ قادمةٍ من الطّابِقِ السُّفليّ، صعدَ الفرسان العشرة وهم يخبِطون الأرضَ بأقدامهم ويُنشِدون بصوتٍ خفيضٍ بعضَ التّمائم، ظلّوا يصعدون الدّرجات الخمسين بانتظام حتّى صاروا في الممرّ الطّويل البارد، كانت عشرُ شُعَلٍ ترتكزُ في أيديهم، ويتراقصُ ضوؤُها على وجوههم المَخفيّة فيكشفَ جُزءًا منها فيزيدُها غُموضًا، واصَلوا مسيرهم الجنائزيّ حتّى دلفَ أوّلهم من باب الحديقة، وتَبِعَهُ الآخَرون، يعرفُ كُلُّ واحدٍ مكانه في السّاحة، اتّخذَ كُلُّ فارسٍ موقعه، ومدّ شُعلته إلى عمودٍ إسطوانيّ ينتهي بموقدةٍ لشعلةٍ مُطفأة مُغطّسةٍ بالزّيت، حينَ لامستِ النّارُ الشّعلةَ أضاءتْ مع دُخانٍ أسودٍ سرعان ما تبدّد لتعودَ الشّعلةُ صافيةً، عشرُ شُعَلٍ جعلتِ المكانَ كأنّه ساحةُ حربٍ. كانَ اللّيلةُ صافِيةً وبارِدة، بعثَتِ النّيرانُ بعضَ الدّفءِ في الأوصال الّتي يبدو أنّها لم تتأثّر بالبرد فظلّت مُتماسِكةً شامِخةً في مكانها. دَلَفَ بعدها غالامائيل، كان يمشي ببدنه البدين متهادِيًا كأنّ أحزانَ الدُّهور فوقَ كاهِلَيه، بدَا أوّل الأمر يحملُ في يدَيه شيئًا لم يدرِ أحدٌ ما هو بسبب الظّلمةِ المُنتشرة في طرفِ السّاحةِ من جهةِ الباب، لكنّه ما إنِ اقتربَ من الشُّعل العشر حتّى تبيّن أنّه يحملُ رَقًّا ضَخمًا ارتسمتْ على غِلافه الخارجيّ صورةُ حَيَوانٍ بجسدِ حِصانٍ ورأسِ خنزير وأرجلِ فَهْدٍ!! كانتِ الصّورةُ توقِعُ الرّائي لها

في مشاعِرَ مُتناقِضة؛ غامِضةٌ إلى درجةِ الوضوح، مُرعِبةٌ حدّ الألفة، وقاسِيةٌ في طَيِّ رِقّة، وخاصّة مَنْ نَظَرَ في عَينَي الخِنزير الوادِعَتَين في الصورة، هل كانتا مع ذلكَ خَبيثَتَين، هل صُمِّمَتا لتُظهِرا عكسَ ما تُبطِنان!!

أخذَ غالامائيل مكانه في رأسِ الصّفَّين المُتقابِلَين من الفُرسان، كانتِ القِدر الضّخمة تقع في مواجهته متعامِدةً مع الفارسِ الثّالث من كلّ جِهة. ثُمّ ظَهَر شاؤول وشيمون، ظلاّ يمشِيان مرفوعَي الصّدر والرّأس حتّى وصَلا إلى القِدْرِ جثا شاؤول عن يمينها، وجثا شيمون عن يسارِها، ظَلاّ على هذه الحال صامِتِين زمنًا ليسَ بالقصير، لم يكنْ يُسمَعُ حينَها غيرُ حفيفِ سعَفاتِ النّخل العالِية عندَ هُبوبِ ريحٍ خفيفةٍ، كانتِ اللّيلة باردةً حقًّا لكنّها لم تكنْ عاصِفةً.

ظهَرَ من جِهةِ بابِ المطبخ أربعةُ خدمٍ يجرّونَ خِنزيرَين، ظلّوا يسوقونهما حتّى أوثَقوا واحِدًا عندَ قدَمَي شاؤول وآخر عندَ قدَمَي شيمون، وتراجَعوا تارِكين المكان، وغابوا في باب المطبخ كأنّما كانوا أطيافًا ظهرتْ فجأةً وسرعانَ ما ذابَتْ. لم يبدُ أيّ صوتٍ للخنزيرَين، بدا أنّهما يستعجِلان قَدَرَهما، وكما لو أنّهما سُقِيا شرابًا نزعَ صوتَيهما، كانَ كُلّ شيءٍ فيهما مُستسلِمًا باستِثناءِ تلكم العُيون الّتي بدث تمثيلاً منسجِمًا مع عَينَي الصّورة المرسومة على غِلافِ الرَّقِّ. مَدّ كُلٌّ مِنْ شاؤول وشيمون يده إلى جَنبِه، واستلّ من تحتِ طِمره سِكّينًا كبيرةً، قلّباها أمام وجَهَيهما فلمعث على أضواء الشُّعَلِ العشر، وقالَتا كلامًا كثيرًا بصمت، وخلفَهما اختبأث شياطين عديدة. ألجأ

كُلُّ واحدٍ منهما الخِنزيرَ إلى الذّبْحِ، قَطَرَتْ شهوةُ الدّمِ منهما وهُما تَهوِيان نَحوَ الذِّبْحَين، هلْ هُما فِداء؟! وفِدَاءُ مَنْ؟! مرّر سِكّينه على عنقه وهو جاثٍ تحتَ ركبته، غاصتِ السّكّين الحادّةُ في الرَّقبَتَين الغليظَتَين كأنّهما تغوصان في قِطعتَين من الزُّبد الحارّ!! خارَ كُلُّ خنزيرٍ لتتدفّق روحُه من جسدهِ المَذبوح، حَملَ كُلٌّ منهما خِنزيرَه كأنّه يحملُ دجاجةً، تعجّبَ الفرسانُ العشرةُ من قُوّتهما مع صِغرِ سِنّهما، وحده غالامائيل الّذي لم يتعجّب من الموقف، فقد أدركَ منذُ أوّلِ يومٍ قابلَهما، أنّهما ليسا طبيعِيَّين، وأنّ أقدارًا غيرَ مفهومةٍ ساقتْهما إلى هُنا، وأنّه لا يستطيعُ أن يوقفَ تلك الأقدار، وكُلُّ ما عليهِ أن يساعدَ في إنفاذِ مشيئتها. لكنّه تساءَل وعيناه تلمَعان دَهشةً تحتَ بريقَ الشُّعَل المُتراقِصة: هل هُما مبعوثا الشّيطان أم الرّبّ؟! والرّوح التي تنسربُ تحتَ جسدَيهما: هل هي روحٌ طيّبةٌ أم خبيثةٌ؟!

وضعَ كُلٌّ منهما عنق الخنزير على فُوّهة القِدْر وانتظَرا حتّى سال دمهما بالكامل، وصُفِّيَ داخلها، استقرّ الأمر بعضَ الوقت، في أثنائها كانَ غالامائيل لا يكفّ عن تلاوةِ بعضِ التّمائم الواردة في الرَّقّ الّذي يحمله بينَ يدَيه، كان يتلو ذلك جالِسًا على قفاه العريضة، ومادًّا الكِتاب أمام وجهه، متمايِلاً أمامًا وخلفًا مع كلّ مقطع. كانت تمتماته مسموعةً لكنّها لم تكنْ مفهومة!!

حينَ أنهى الاثنان عملهما، ركنا جُثّتَي الخنزيرَين على الأرض، وانتظرا، أطلّ الخدم الأربعة من طرفِ الباب من

جديد، وضعوا ثلاثَ عَشْرةَ كأسًا بلّوريّة على طاولةٍ رُكِنتَ ما بين غالامائيل والقِدر، ثُمّ حملوا جُثّتَي الخنزرَين، وغابوا من جديد، نهضَ غالامائيل من مكانه وأعطى الرّقّ للفارس الّذي يقفُ عن يمينه، وحملَ كأسَه وتقدّمَ من القِدر، ملأ الكأس وتراجَع إلى الوراء، تلا التّميمة: «أُقسِمُ بالرّبّ أن أعمل من أجل ظهور المسيحِ المُخلِّص في كلّ حينٍ وبسرّيّةٍ تامّة، وأنْ أموتَ على ذلك». ثمّ أفرغَ الكأسَ الكامِلةَ في جوفه، تراشقَ بعضُ الدّم على ثوبه جهةَ صدره المُكتنِز، وسال بعضُه على شِدْقَيه، مسحه بكمّه الأيمن، ثُمّ عادَ إلى مكانه وأخذ الرّقّ من جديدٍ من الفارسِ الأوّل. تقدّمَ هذا الفارس وملأ كأسه كما فعل المُعلّم، تناوبوا واحِدًا واحِدًا على ذلك، حتّى إذا حانَ دورُ شاؤول وشيمون لم يبرَحا مكانَهما، نهضَ غالامائيل من جديد، وحمل الكأس الثانية عشرة، ملأها، وطلبَ من شاؤول أن يُردّد وراءه القَسَم. ثُمّ فعلَ الشّيءَ ذاته مع شيمون.

قال لهما غالامائيل في وقتٍ متأخّر: «لقد صرتم من فُرسانِ المعبد الّذين يعملون لظهور المسيح». «وما المسيح؟!». سأله شاؤول. فأجابه: «مَلِكٌ يهوديّ ذو قُدُراتٍ خارِقة يُعيدُ إلى شعبِ إسرائيل مجدَهم، ويقتل كُلّ مَنْ يقفُ في طريقهم». هتفَ شاؤول: «عظيم، مثلُ هذا يُفدَى بكلّ شيءٍ. ولكنْ مَتى سيظهر؟!». كُلّما مهّدْنا لظهوره وعملنا لذلك بكلّ ما نملك ظهرَ بوجهٍ أسرع». «أتمنّى أن يظهرَ في زماننا لأنّني أريدُ أنْ أكونَ معه». «وسيُقاتِل كُلَّ أممِ الأرض». «ما أجمله؛ سأكونُ في جيشه». «لقد اقتربَ زمانه، سيتحقّق لكَ ذلك بمشيئةِ الرّبّ». «لم أعرفْ أسماءَ الفرسان العشرة الّذين صرتُ أنا

وشيمون منهم». «ولن تعرفهم». «لماذا؟!». «لأنّ كُلَ واحدٍ مُعَدٌّ لهدفٍ مُحَدَّد، ولن يُكشَفَ عن اسمه حتّى يُبعَث به من جديدٍ ليقومَ بهذه المهمّة». «وأنا؟!». «ماذا بشأنك؟». «هل ستُخفونَ اسمي». «بالطّبع؛ منذ اليوم، ولن تظهرَ إلاّ حينَ نحتاجُك». «ومتى تحتاجونني؟!». «أنتَ تملكَ قُوّةً جبّارةً وذكاءً مُفرِطًا سنحتاجُكَ في المهمّات الكبيرة الّتي لا يقدرُ عليها أحدٌ سِواك». «أنا لا يُعجبني هذا الكلام». «أيُّ كلامٍ؟». «الانتِظار حتّى يحينَ وقتي». «لكلّ شيءٍ أوانٌ أيّها الفارِس؛ خَبّئ حِكمتكَ وشجاعتكَ ليومٍ عظيمٍ ليس بالبعيد». «والآن؟!». «ستذهب أنتَ وشيمون إلى المعبد، وستذوبان في سلك الكَهَنةِ، دونَ أن تُعرَفا أنّكما منهم، بل ستظهران بمظهر الخادِمَين أو الحارِسَين لقَيافا، كُلُّ ذلك من أجلِ السّرّية في أمورٍ عظيمةٍ تحتاجُكما في حِينه». «وهل قَيافا يعرفُ بذلك؟!». «بالطّبع هُوَ مَنْ خَطّط له، هؤلاء الفرسان العشرة فِكرته، بعضُهم ذهبَ لمهمّات من أجلِ شعبِ الرّبّ، وتركَ مقعده خالِيًا، ثُمّ أُعِدَّ فارِسٌ آخرُ ليشغلَ مكانه، وهكذا، العشرةُ لا تنقص». «ونحن؛ لماذا لم نأخذ أماكننا في العشرة، وتبعثونَ باثنَين من السّابِقين بدلاً منّا إلى مهّماتهما». «أنتما مُمَيّزان، هكذا قالت كُلُّ الخُطواتِ الّتي سبقت هذه الخُطوة. وتعلّم أيّها الفتى ألاّ تُكثِرَ الأسئلة الواضِحة في حضرةِ أستاذك، عليكَ أن تحترمَ حِرفيّتك. أمّا الآن فإلى أورشليم إلى المعبد، ولتباركُكما يَدُ مُوسَى كما باركتِ العِجل».

قالَ قَيافا لشاؤول وشيمون: الخُرافةُ من صُنعِ الإنسان لا الشّيطان، لكنّها لا تُصبِح حقيقةً واقِعةً إلاّ إذا بارَكَها الشّيطان،

بعضُ الخرافات الّتي ستتعلّمانها مِنّي هنا في المعبَد ستكونَ الطّعامَ الّذي سنُقدّمه للأُمم؛ الأمم الّتي ستجثُو على رُكَبِها أمام ما نُريد. لَسْنا أكثرَ الأمم عددًا ولن نكون، بل ولا نسعى إلى ذلك؛ ولكنَّ كُلّ هؤلاء الرّعاع سيركعون لإرادتنا، وسيقبَلون بتعاليمنا، وسيُنفّذون مشيئتنا. تعرفان أيّها الحَكِيمان أنّ ذِئبًا واحِدًا يُمكنه أن يُلقِيَ الرُّعبَ في قَطِيعٍ كاملٍ من الغنم، عليكم أنْ تُدرِكوا من اليوم أنّ البشر أغنامٌ سائِبة ونحن ذؤبانُها؛ سنزرع من أجل السّيطرةِ عليها الرّعب والخوفَ والحسد والقَتل، وسنغرس في كلّ بيتٍ شجرةً للشّيطان تجعل الأخَ يكره أخاه، والأمّ تلفظُ أبناءَها، والأب يتخلّى عنهم، والأبناء يتمرّدون على مجتمعاتهم وينغرسون في لذائذهم باسم الحُرّيّة، وسترون اليومَ أو غدًا أنّنا نحنُ مَن سيُنتِج للبشريّة طوفانًا من الفلاسفة والعلماء والمُفكّرين الّذين سيُنظّرون لهذا الشّذوذ، ويجعلونه قِبلة التّائقين، إنّنا الآلةُ العِملاقةُ الّتي ستفرّخ كلّ الأفكار القادرة على هدم كلّ ما هو مُقدّسٌ في النّفوس حتّى تخرّ البشريّة بأكملها أمام قَدَمَي مسيحنا المُخلِّص. فيكنْ ذلكَ إيذانًا بظهوره، وانقِيادِ العالَم له ولنا.

إنّها السّنة الخامسة عشرة.. لَزِما فيها قَيافا في كُلّ المناسبات والصّلوات والاجتِماعات والمؤامَرات، كانا يَقِفَان بعيدًا كحارِسَين، ولم يكنْ أحدٌ من الكَهَنةِ - حتّى كِبارهم - ليدري أنّهما أرفعُ في الدّرجةِ من أيّ كاهنٍ، وأرقى في المنزلةِ منهم جميعًا. في حالةٍ واحدةٍ فريدةٍ لا يراها الآخَرون كانَا يتركان مِهنةَ الحراسة ويتخلّيا عن موقِعهما المُخادِع والمستور، كان ذلكَ حينَ يخلُوان وحدهما مع قَيافا، لكي

يُخطِّطا لوقيعةٍ أو مُصيبةٍ.

وَظّلاً يبدُوان حارِسَين وخادِمَين لا يحملانِ اسمًا، ولا يعرفُ لهما أحدٌ أصلاً عشرينَ عامًا، لكنّ عقدَين من الزّمان كفيلةٌ بأنْ ترفعهما إلى السّطح في لحظةٍ واحدةٍ خاطِفة!!!

٧٢

المَسِيحُ ليسَ جسدًا

«إلامَ يظلُّ يُفسِدُ علينا كينونَتنا، أليسَ كاذِبًا بما يكفي ليُقتَل؟!». قال ذلك شاؤول لقَيافا، بعد أنْ سارَ الخبزُ بي في كُلِّ مكان. «إنّني أريدُ ذلك، ولكنَّ الأمر ليسَ بهذه السّهولة». «بل هُوَ أسهلُ مِمّا تظنّ؛ إنّني مُدرّبٌ على انتزاع الأرواحِ الخبيثة من الأجسادِ الآثِمة، دَعْنِي أفعلْها». «ولكنّكَ تحتاجُ إلى حمايةَ المجلسِ الكَهَنُوتيّ، تخيّلْ أنّ الشّعبَ طالبَ بدمه فكيفَ يُمكن أنْ نخلُصَ بِكَ منهم». «دَمِي بدمه؛ فداءً للسّرّ الكهنوتيّ المُقدَّس». «لا يا شاؤول؛ لا.. لنْ أُضحّيَ بكَ مقابلَه، هُوَ سيأتي يومُ التّضحيةِ به، أنا أُعِدُّكَ لشأنٍ أكبر». ردّ عليه شاؤول وقد ضَيّقَ عينَيه الرّمْداوَين، ونظرَ نحوه باهتِمام: «وهل هُناكَ أمرٌ أكبرُ من قَتْلِ المسيح؟!». «نعم. إنّ المسيح ليسَ جسدًا فحسبُ، لو كانَ كذلك؛ فما أسهلَ أن نتخلّصَ من الجسد، ولدينا سبعونَ ذريعةً لذلك!». «فما هُو إذًا؟!». «إنّه فِكرة، الفِكرةُ أعظمُ من الجسدُ وأطولُ عمرًا». «فما تريدُني أن أفعل؟!». «دَعِ الجسدَ لي فأنا كفيلٌ بالتّخلُّصِ منه، وسأتركُ لكَ الفِكرةَ لتقتُلَها؛ إنّ قَتْلَ الأفعَى بعدَ سَرَيانِ سُمّها في جسدِ الملسوعُ يبدو فِعلاً أحمق. انزعْ أنيابَها لتعودَ غيرَ قادرةٍ على أن تزرعَ سُمَّها في أيِّ جسدٍ، وحينئذٍ يكون قتلُها أو تركُها سواء... أرأيتَ لأيِّ أمرٍ أُعِدُّكَ يا شاؤول... إنّ أتباعه هُمُ السُّم، وإنّ فِكرتَه وتعاليمه هِيَ الأنياب، فإذا أفسدتَ تلك الفكرة وتلكَ التّعاليم فقد نزعتَ تلكَ الأنياب وقتلتَ تلكَ الأفعَى!!».

«أهو مِنّا يا قَيافا أم من الأغيار؟! لأنّني أُريدُ أنْ أفعلَ ما أفكّر فيه وأنا مُطمئنّ غيرَ مُتردّد». «ليتَه من الأغيار، إنّه من الأمّيّين، إنّ شخصًا مثله ينقُضُ ميثاقَ مُوسَى ويعملُ في السّبت لهو حري أنْ يكون في الأمّيّين الّذينَ ليس علينا فيهم سبيلٌ، بل إنّ قتلهم وسَبْيهم واستحلال أعراضهم وأموالهم ليسَ فيه حَرَجٌ». «ولكنّه قال: «ما جِئتُ لأنقُضَ بل أُكمِل». «قال... نعم قال، ولكنْ ماذا فعل، كُلُّ شيءٍ فَعَله كان عكسَ قولِه؛ إنّه مُنافِقٌ ومُخاتِلٌ». «فما هذه المُعجِزاتُ الّتي يأتي بها؟!». «يُساعِده في ذلك الشّيطانُ ليمتحنَ إيمانَنا، أليسَ مكتوبًا عندنا: مَنْ قال إنّ الله أرسله ليُضيفَ فريضةً أو يُنقِصَ فريضةً، أو يقول إنّ الشّرائع الّتي كُتِبَتْ على إسرائيل ليست دائِمة، وإنّما هي مؤقّتة مُتغيّرة فهو نَبِيٌّ كذّاب ولو جاءَ بكلّ مُعجِزاتِ الأرضِ وخوارقها، هو من وجهٍ آخَر يُنكِرُ نُبُوّةَ موسَى، وعليه فإنّ أقلَّ عقابٍ له أنْ يموتَ خَنْقًا». «أتريدُني أنّ أُطبِّقَ فيه هذا الحُكم، إنّ لدَيَّ ساعِدَين يخنُقان وحشًا كاسِرًا، فكيفَ بهذا الّذي تبدو عُنُقه عودًا من الحليب!!». «قلتُ لكَ لا يا شاؤول؛ لديكَ مهمّةٌ أخرَى فأعِدّ نفسَكَ لها، دَعْ لي فِكرةَ التّخلُّصِ منه». «لنْ أدعَ لك ذلك حتّى لو أمرْتَني، لديّ أفكارٌ لا تعرفُ أنتَ ولا قومُكَ ولا سَحَرتُكَ أنْ يأتوا بِمثلها أو بمثلِ مِثلها».

كُلُّ شَرٍّ أريدَ بي في الأرض كانَ من الشّيطانِ الأوّل شاؤول. كانَ يعملُ في الخَفاءِ دونَ أن يدري به أحدٌ غيرَ قَيافا، حتّى غالامائيل تركه منذُ أن جعله وديعةً في المعبدِ بينَ يدَي سيّده الأكبر. كُلُّ خُطّةٍ وُضِعتْ لإفسادِ تعاليمي كانَ على رأسِها

شاؤول، كُلُّ خيانةٍ للأمانة، ومُحاربةٍ للصّدق، ونَكثٍ بالعُهود، وتسفيهٍ للعقائد كانَ هذا المُدّعي الخَطِير يقفُ خلفها، لكنّه كانَ أكثرَ من حرباء تُلوّن جِلدَها، لم يكُنْ أحدٌ يدري بوجوده لأنّه أخفَى من الشّيطانِ نفسه، كانَ يُعرَف أنّه كان هنا من المُصيبةِ الّتي خَلّفَها وراءَه، ومن البَلوى الّتي ظلّ يتجرّع عذابَها البُسطاءُ والمساكين وبِيضُ القلوب!!

في عيدِ المظالّ اعتادَ شاؤول على الطّقوس الّتي عاشَها أوّل مرّة، لكنه كانَ يمتنعُ عن الطّعام قبلَها ثلاثةَ أيّام، ويجلسُ في محراب قَيافا في اللّيالي الثّلاث الّتي تسبقُ العيد، ويقرأ في سفر التّثنية، يَستظهرُه له غالامائيل في العامِ مرّة واحدةً. كانَ في كلّ مرّة يتلو على مسامعه الإصحاحات غيبًا وغالامائيل يُنصِتُ مُتبّعًا في الرّقوق الّتي يحملها، ولا ينتهي شاؤول إلاّ وجسدهُ يرتجف، ورأسه تهتزّ، ويغزو التّعرّقُ جسدَه كُلَّه، وعيناه تزوغان، ثُمّ يرافقهما التّهيُّج فتحمرّان حتّى لا يعودَ يرى إلاّ خيال مُعلّمه المُنصِت إلى تِلاوته. ولا ينتهي إلاّ وروحه تكادُ تُغادِرُ جسدهُ، حينَ ذلك يقول له غالامائيل: «أنتَ نبيٌّ يا شاؤول، ما أحدٌ يُصيبُه ما أصابَكَ وأنت تتلو إلاّ رَسولٌ هبطَ على فؤادِهِ الوحيُ فلم تتحمّل بشريّته ذلك الوهج الإلهيّ فَعَراهُ ما عراك، كُلُّ شيءٍ فيكَ يدلّ على النّبوّة، إلاّ أنّ الله ما أرسلَ معكَ خوارق، ولا بعثَ معكَ مُعجِزات». فيُجيبُه شاؤول: «بل أرسلَ خوارقَ لا تستطيعُها عقولكم ولا أجسادكم، انظُر إلى ما أشيرُ به؛ أنّى لأيّ كاهنٍ في هذا المعبد ولو قضى في علم الكَهَنوتِ خمسينَ عامًا يأتي بمثلِ ما آتي به، وانظر إلى ما تصنعُ يداي؛ إنّني قادِرٌ على أنْ أُحَرِّكَ عمودًا من أعمدةِ هذا

المعبدِ الّتي عاشت خمسةَ قرون لا يستطيعُ عشرةٌ من الرّجال الأشدّاء أنْ يُزَحزِحوه عن مكانهِ قيدَ أنملة». فيهزّ حينذاكَ غالامائيل رأسه، ويصمتُ مُؤثِرًا عدم الاستمرار في الحِوار مع تلميذه المُتمرّد على كلّ شيءٍ.

****

التقاه في الشّرفةِ المُطلّة على جبلِ الجُمجمة، كانتِ السّادسة، كانَ شيمون يلهث، سأله شاؤول الّذي لمْ يَرَ وجهه مُتَهَلّلاً قبلَ هذا بمثلِ هذا التَّهَلُّل: «ما بالُكَ تلهث أيّها الأبله؟!». «لقد صُلِبَ المسيح؟!». «وهل أنتَ أحمقُ أيّها الضّرّاط... هه... ماذا تعني بنقلِكَ هذا الخبر لي؟!». «أقولُ لكَ صُلِبَ المسيح يا سيّدي، وتقول ماذا تعني؟!». «أعرفُ أنّه صُلِبَ يا أحمق، إنّها نتيجةٌ طبيعيّةٌ لكلّ نبيّ مُرتزِق وكذّاب، هَوَ جَنَى على نفسِه هذه الجناية، لقد حذّر أتباعه من أنّه سيأتي أنبياءُ كذبةٌ كثيرون من بعده، وهو كانَ أوّلهم، لقد باءَ بما نطقتْ شَفَتاه». «ماذا سنفعلُ بعدَ صلبِه؟!». «تقصدُ الخُطوةَ التّالية؟!». «بلى، يا سيّدي». «سنصلبُ أتباعَه، سنجتثّ الفِكرةَ أو ما تبقّى منها في رؤوسِ أتباعه لكي لا يمتدّ ضَلالُهم إلى الآخَرين، اليومَ أتممْنا جُزءًا مُهِمّا من الطّريقِ الطّويلة». زمجرتِ الرّيح. دمدمتْ بعضُ العواصِف. سادَ صمتٌ رهيبٌ يَعِدُ بالانفِجار. اهتزّ قلبُ شيمون رَهَبًا. قال شاؤول ليُنقِذَه من الرّعب: «إنّ هذا يحدثُ في كلّ عامٍ، لا بُدّ من أن تجيءَ أيّامٌ في السّنة هي بناتُ حَرام، ليستْ بناتِ وَقتِها، تفعل عكسَ ما تتوقّع أو تشتهي. اجلِسْ أيُّها الجبان، واشربْ معي كأسًا تُنسِكَ

عناءَ المشهد، مسكينٌ أنتَ، حَكَمَ عليكَ الكاهن بأن تُعايِنَ صلبَ مِسكينٍ آخر، يا لَلمساكين في بلدِ الرّبّ ما أكثرهم! إنّهم محتاجُونَ إلى قلوبٍ دافِئة في هذا البردِ الإلهيّ، تعالَ يا شِيمون، اقتربْ منّي، اجلسْ في بَرَكتي، وفي قلبي، لقد شربْنا حليبَ الذّئابِ معًا فيما مَضى يا أخي، لقد جعلَ ذلكَ دمَنا واحِدًا ومصيرَنا مُشتَرَكًا... اقتربْ يا أخي، سأسكبُ لكَ شرابًا يُنسيكَ هُمومَ الدُّنيا... إنّني مُحتاجٌ إلى عقلكَ صاحِيًا، اشرب حتّى تُنقّي أفكارَك، لدينا مهمّات كثيرة قادِمة، ما أبأسَنا إنِ اكتفَينا بصلبِ المسيح!!». هَبَطَ اللّيلُ فجأة. خيّمَتْ ظُلمتُه على الشّرفةِ الكَهَنُوتيّة أوّلاً. شَقَّ البرقُ الظُّلمة. ارتعدَ جسدُ شيمون من جديد. هتفَ شاؤول مرّة أخرى: «ألم أقلْ لكَ إنّها أيّامُ حرام، وبناتُ زِنا؟! أمعقولٌ أنّ برقًا يُضيءَ مدينةَ الرّبّ في السّابِعة؟! هذه ليستْ أيّامنا... لماذا لم تزلْ واقِفًا يا شيمون؟! ألمْ أقُلْ لك اجلسْ أيّها الضّرّاط... اجلسْ حتّى لا تَبولَ على نفسِك... اجلسْ وسأباركك بيدَي نبيّ، وعَينَي إله... اجلسْ وإلاّ انتزعتُ قلبكَ من أحشائِك كما كنتُ أفعلُ مع الذّئابِ في الغابة». جلسَ شيمون. أُضيئتْ أسرجةُ المعبدِ المركوزةُ على السّور. هاجَمَها الظّلامُ كجيشٍ من الجراد فغطّى أكثرها. نادَى شاؤول أحدَ الخدم. أمره أن يُضيءَ خمسينَ سراجًا إضافِيًا. نظرَ شيمون إلى عَيَنَي شاؤول، كانَتَا مُطفَأتَين تمامًا، لم يعدْ يظهرُ منهما إلاّ طبقةٌ بيضاء تُخبِران أنّ صاحِبَهما أعمى بالكامل... ارتجفَ جسدُ شيمون لعينَي صديقه، لوهلةٍ تخيّله المسيّا الّذي ينتظرونه، قرأ شاؤول أفكاره فهتفَ به بعدَ أن ابتسمَ ابتسامةً كشفتْ عن أسنانه

الكلبيّة الصّغيرة: «هل تظنّ أنّني الأعور الدّجّال؟! ربّما... إنّ الدّجّال ليسَ شخصًا واحِدًا، وليسَ من ذلك النّوع الذي يعيشُ في زمنٍ واحدٍ، إنّه روحٌ تحلّ في أشخاصٍ مُتجدّدين، وفي عصورٍ مُتعاقبة... أتمنّى أنْ أكونَه في هذا العصر... ياااه لو يحدُثُ ذلك... أيُّ شرفٍ سيكون لي آنئذٍ...». وضَحِكَ... تزامنت ضِحكته مع ضحكة يهوذا... ارتجَّ باطنُ الأرضِ لضَحِكتهما. قال بعضُ الخدم في المعبد: الرّعد. وقال آخرون: الله غاضِب. وقال عددٌ غيرُ قليل: كأنّه يومُ القِيامة!!

٧٣

أوّاهُ مِنْ يومٍ لا تُجدِي فيه أوّاه!

«رَغَدُ العَيْشِ الجَسَديّ يَبعثُ على هُجرانِ كلمةِ الله. هذا ما قاله المسيح يا إستِفانوس، فهل تقبلُ بشظفِ العيش من أجلِ كلمةِ الله؟». «نعم يا مُعلّم». «فَأَعِدَّ لذلك روحَكَ؛ فإنّ السّفرَ طويل، والزّادَ قليلٌ، والرّاحلةُ ظالِعة، والطّريقُ موحِشة، والنّهايةُ أليمةٌ». «أليمةٌ من جهةِ الجسد يا مُعلّمي؟!». «نعم يا إستِفانوس». «والرّوح؟!». «خالِدةٌ عندَ مَنْ برأها، تعودُ إليه في حواصلِ طيرٍ خُضرٍ». «إذًا لا أسفَ على القِشرة إنْ سَلِمَ اللُّبّ».

تحتَ شجرةِ صنوبرٍ عتيقة، يشمخُ ساقُها عالِيًا، وعلى حَجَرَين مُسَطّحين يرتفعان قليلاً فوقَ الأرضِ اتّخذا لهما مكانًا ليتعلّم إستِفانوس من برنابا كُلَّ شريعتي، كانَ ذلك غُدُوًّا بعدَ الفجر، يُصلّيان، ثُمّ يتلُوان بعضَ التّطويبات، ثُمّ يجلِسان، كانَ برنابا حريصًا على أنْ يحفظَ إستِفانوس كلّ كلمةٍ من الإنجيل، ويفهمها، يتلو عليهِ الآياتِ ثُمّ يُلجِئه إلى إعادتِها خلفه، ثُمّ يفسّر له الموقفَ الّذي قلتُها فيه، والمغزَى من المَثَل الّذي ضُرِبَ في ذلك الموقف. عدّدَ له أسماء المواضع الّتي تنقّلْنا فيها، وأسماءَ النّاس، وأمراضَهم، وأحوالَهم، وما أصابَنا من الأذى أحيانًا في سبيل الحياةِ الأبديّة.

أخذَ برنابا بيد إستِفانوس في مساءِ ذلك اليومِ إلى مقبرةٍ لشعبِ إسرائيل تقع على الحدود الشّرقيّة لأسوارِ المدينة،

مَشى أمامه دون أن يقولَ كلمةً واحدةً، ظلّ ينقلُ خُطُواتِه بخشوعٍ في الدّروبِ الضّيّقةِ الواصِلَةِ بين القُبور، ثُمّ وقفَ عندَ إحداها يقعُ في منتصفِ المقبرةِ الكبيرة، كانَ الشّاهِدُ الحجريّ الّذي يُوضَع عندَ الرّأسِ قد نُقِشَتْ عليه حروفٌ بهتتْ مع الزّمن، فكّرا: «إذا كانَ النّقشُ على الحجر قد مُحِيَ ودَرَس، أفلا يُمحَى جسدُ الإنسانِ الّذي هو من لحمٍ لَيِّنٍ ومِنْ عَظْمٍ واهن؟!». هبطَ برنابا على الأرض، استدار بجسده، ثُمّ ألصَقَ ظهره إلى الشّاهِد، وأشارَ إلى إستِفانُوس أنْ يجلِسَ إلى جواره، نَظَرَ في عينَيه، ثُمّ حوّلها سريعًا حتّى لا يَرَى دمعةً شقّتْ طريقَها إلى خَدّه في تلك اللّحظة، مَسَحها بطرفِ أصابعه، تنهّد، استعادَ قُدرته على الكلام، قال لإستِفانوس: «إذا نظرتُمْ إلى القُبُور تَعلمون ما هو الجسد. هذا ما قاله المسيح يا إستِفانوس، القبرُ كتابٌ؛ مَنْ قرأه على وجهٍ صحيح عرفَ قِيمةَ الحياةِ واتِّضاعَها، وأنّ نَعِيمَها لا يعدلُ في رحمةِ الله شيئًا، وأنّ عذابَها لا يبلغُ من غضبِ الله شيئًا؛ يا إستِفانوس: مَنْ أرادَ أنْ يُبَرِّزَ في الحِكمةِ على مَنْ سِواه في خَوفِ الله؛ فَلْيُطالِعْ كِتابَ القَبرِ؛ لأنّه هُناكَ يَجِدُ التّعليمَ الحقيقيّ لِخَلاصه. أوّاهُ مِنْ يومٍ لا تُجدِي فيه أوّاه». ثُمّ أجهشَ في البُكاءِ، ودفنَ رأسَه في صَدره، وغطّى وجهه بِيَدَيه، وراحَ جسدُه يهتزّ، وبَكَى إستِفانوس لبكاءِ مُعلّمه، ثُمّ ضمّه لِيُهَدِّئَ مِنْ رَوعه: «لا تَبْكِ فإنّني لا أحتمل أن أراكَ على هذه الحال ولا أجهش بالبُكاء». «إنّما أبكي لِهَولِ الأمانةِ الّتي حُمِّلْناها إلى الأمم يا إستِفانوس، لقد قال لنا المسيح إنّه سيأتي كذّابون يتكلّمون باسمي وأنا منهم بَراء، ويُقوِّلونني كُفرًا وأنا نبيّ،

ويفترونَ عليّ وعلى أُمّي وما نحنُ إلاّ بَشَرانِ مُطَهّران، يا إستِفانوس أتعلمُ ما قال لي في آخِرِ عَهْدِي به؟! قال بغضبٍ وحُزن وهو يرفعُ رأسهُ ويديه إلى الله: يا رَبّ اِلْعَنْ إلى الأبد كُلَّ مَنْ يُفسِدُ إنجيلي الّذي أعطَيْتَني عندما يكتُبُون أنّي ابنُك. إنّه يا إستِفانُوس إنْ عِشتَ فَستَرَى مثل هؤلاء، نَصَّبُوا أنفسهم أوصياءَ على إنجيلِ المسيح وما رأوه وما سَمِعُوا منه كَلِمةً واحِدة، فأيّ بَلاءِ سيُحِيقُ بالعالَم جرّاء ما يُضِلُّون به النّاس؟! والشّيطان يا إستِفانوس؛ الشّيطان سينفُخُ في كلماتهم عند آذانِ الجَهَلَةِ والمُغَفّلِين فيُصدّقونهم. إنّ الأمانةَ الّتي يجبُ علينا حَمْلُها لَثقيلةٌ يا إستِفانوس، وإنّنا نحن الحواريّين مُستعدّون أن نموتَ في سبيلَ ألاّ تُنقَضَ كلمةُ الله». ثُمّ بَكى من جديد، فقام، وأعطَى وجهه إلى السّماء، ودعا: «يا ربّ لا تُعِشْني إلى زَمَنٍ يُشرَكُ معكَ فيه أحدٌ باسمِ المسيح». وارتجّ جسدُه ارتِجاجًا عظيمًا، فلم تحتملْ ساقاه ذلك؛ فَخَرّ على رُكبَتَيه. وخَرَّ إلى جانِبه أخوه، وبَكَتْ لِبُكائِهما شواهِدُ القُبور، وذهبَ اللّيلُ في ظَلامِهِ بعيدًا!!!

استمرّ تعليم برنابا لإستِفانوس شهورًا طويلة، قامَا على خِدمةِ الكلمة، وذابَ بينهما فارِقُ الأستاذ إلى التّلميذ. ثُمّ لَمّا كانَ عِشاءُ يومٍ قبلَ صَلاةِ اللّيل، وتِلاوةِ ما حُفِظَ في سَحابةِ النّهار، قامَ برنابا فَأحضرَ طشتًا، فملأه ماءً، ثُمّ جَثا عندَ قَدَمَي إستِفانُوس، فأجفلَ إستِفانوس، فَهَمَّ أنْ يَقُوم، فأشارَ له برنابَا بِيَدَه أن يبقَى جالِسًا، وقال: «هكذا علّمنا المسيح، إنّ تعاليمه يجب أن تحيا فِينا». سكبَ الماءَ من وِعاءٍ صغيرٍ وبدأ بظاهر القَدَمَين، ثُمّ غرفَ الماءَ بيدَيه فغسلَ باطِنَهما، ثُمّ هَمّ أن

يُقبِّلَهما وهما مُبتَلَّتان، فارتجفَ إستِفانُوس لمّا رأى أستاذه يهُمّ بذلك، فشدّ جِذعه إلى الخلفِ في مُحاوَلَةٍ أن ينجُو من فِعلةِ أستاذه، فأشارَ له برنابا هذه المرّة بيدَه بحزم وبصوتِه برجاء. فسأله إستِفانوس وقلبُه يخفق: «لِمَ تفعلُ ذلك يا سيّدي؟!». «إنّكَ ستسبقني إلى المَلَكُوتِ الأعلى، وإنّ اللاّحق يخدمُ السّابِق». فازدادَ وجيبُ قلبِه، فأعادَ على مسامعه سؤالاً آخَر: «ماذا تقصدُ يا مُعلّمي؟!». «لقد رأيتُ هاتَينِ القَدَمَين تتوشّحانِ بالدّمِ، وهذا الرّأسُ يتعفّر بالتّراب، فأحببتُ أنْ أبارِكهما، وأنْ أقبِّلَهما قبلَ أنْ تمتدّ إليهما الأيدي الآثِمة». «هل كانَ حُلُمًا يا سيّدي؟!». «بل رُؤيا يا إستِفانوس، وإنّها واقِعةٌ لا مَحالة». «وما أدراك؟!». «لقد كنتَ مع المسيح». ثُمّ هَوَى على قَدَمَيه فقبّلهما، وقامَ إلى رأسِهِ فالتزمه بينَ يَدَيه وطبعَ عليهِ قُبُلاتٍ حَرَّى، ثمّ احتضنه طويلاً، قال له وهو يجهشُ بالبُكاء: «إنَّ كُلَّ شقاءٍ يَحُلُّ بالإنسانِ إنّما يَحُلُّ به من الله لِخَلاصِه حتّى إنّه يجبُ عليه أن يتهلّلَ لذلك. لقد قال المسيح ذلك يا أخي، فاصْبِرْ».

في النّوم، رأى المسيح، قال له: «ألا تُريدُ أن تلحقَ بي؟! إنّنا ننتظرُكَ هُناك»، وأشارَ إلى مكانٍ بعيدٍ غابَ في ضبابةٍ من النّور والغَمام. حَزِنَ على حياته قبلَ أن يعرفَ النّعيمَ الذي ينتظره. في الصّباح كانَ وجهه طافِحًا بالنّور. تركَ برنابا نائِمًا، سلكَ الطّرقَ المؤدّية إلى أورشليم، في بعضِ المنعرجات فَكّر: «نَمشِي إلى الموتِ أم إلى الحياة؟! ومِمَّ نخاف؟! إنْ كانتْ هذه الطّريقُ تؤدّي إلى النّعيم فَلِمَ الخشيةُ من السّباعِ الضّارية الّتي تكتَنِفُها من كُلِّ جِهة؟!». ثُمّ تابَعَ سيره، حَيّتْهُ شجرةٌ

تحمّمتْ بالنّور للتّو: «السّلامُ عليكَ في الشُّهداءِ الخالِدين».
طرفتْ عيناه. ابتسمَ في وجهها ومضى. بَدَتِ المسافةُ إلى المعبد طويلة، فِيمَ تطولُ والحتفُ لا بُدّ منه؛ «هل تسوقُنا أقدامُنا إلى حَتْفِنا؛ ففيمَ عِشْنا، وفيمَ اللهُ أوجَدَنا؟!». نفضَ رأسَه ليطردَ الشّيطان. عبرتْ رُوحَه بعضُ النّسَمات الشّذيّة، التفّتْ على عنقِهِ كسحابةٍ خفيفة، التفتَ لِيَرى مصدرها، فأعياه النّظر، لكنّه سَمِعَ صوتَها: «إنّه طريقُ القِدّيسين، طويلٌ، أوّله الجوعُ والعَطَش، وأوسطُهُ الألم والأذى، وآخِرهُ السّيفُ والقَنا، لكنّ أوجاعَهُ كُلَّها تُنسَى مع أوّل قطرةِ دمٍ». رَجَفَتْ شفتاه، هَمّ أن يبكي، فبلعَ ريقَه، ومضَى. قبلَ أن يهبِطَ الدّربَ الأخيرةَ المُوصِلَةَ إلى المعبد، تلقّاه عشرةٌ من حَرَسِ قَيافا على رأسِهم شاؤول. وقفَ أمامه الأخير: «إلى قبضِتنا انتهيتَ يا عَدُوَّ الله». «عَدُوُّ اللهِ مَنْ يقتلُ باسمِه وهو لا يعرفه». «أنا أَعرَفُ بالله مِنكَ ومن مسيحِك، لولا أنّ سيفًا يُوضَع على أعناقِ المُجدّفينَ أمثالُك لانتشرَ الكُفرُ بينَ العَوامّ، تستغلّون جهلهم لتبثّوا سُمُومَكم يا أعداءَ الحقّ». «المسيحُ أتَى من رَحِمٍ مُطهَّرة، أمّا أنتَ فمن أينَ أتيت؟!». «ماذا تقصِدُ أيّها الخَرِف؟!». «أنتَ تدري ما أعني، انظر إلى أصلك تعرفْ لِمَ تتعطّشُ إلى الدّماء، كأنّ ألفَ شيطانٍ يسكنُ روحَك». «بلى، أنا أتيتُ من رحمٍ مجهولة، لكنّها تعرفُ كيفَ تجتثّ أبناءَ الأفاعي، في قلبي ألفُ مشنقةٍ لك ولمنْ أرادوا أنْ ينقضوا الهيكل... مسيحُكَ أرادَ ذلك... سترى كيفَ سأنقَض دعوته الباطِلة مارِقًا مارِقًا... لأحرّقَنّكم كما تُحرَّقُ الدّوابُ في حفرة النّيران». «لنْ تَقدِرَ إلاّ على ما قدّر اللهُ لك. وإنّ الشّياطين كلّها الّتي تقفُ

إلى جانبِك لنْ تنفعَكَ بشيءٍ، كُلُّ السّموم الّتي تفحُّها في وجوه أولياء الله، سترتدّ إليكَ فتتجرّعها أضعافًا مُضاعَفة؛ أَعِدُكَ أنْ تذوقَ العذاب مرّتين، في الأولى وفي الآخِرة».
«تتهدّدني أيّها المَسخ وأنتَ لا تملكُ إلاّ ثوبَك، انظُرْ إلى مَبلغِ هذه القُوّة الّتي أتمتّعُ بها، انظرْ إلى الفُرسان والرّجال والخيول والسّلاح والعُدّة والعدد، هلْ تملِكُ منها شيئًا؟!». «أملكُ ما هو أقوى على البَلاء، وأصبرَ على الهول؛ أملكُ الإيمانَ والبُشرَى».
«أولستَ خائِفًا؟!». «لا يَخافُ إلاّ ذو شَكٍّ مثلك ولو حازَ سِلاحَ الكون كُلّه». «لأحرقنّكَ أنتَ وكُلَّ الّذين يُبشّرون بدعوةِ الكُفر، ولأنسِفَنّكم في ماءِ الأردنّ لتذوبوا مع غُثائه». «سنكونُ قِدّيسيه، وزارِعي بَرَكَتِه».

انقضّ عليه أربعةُ فُرسَان بإشارةٍ من شاؤول، أوثَقُوا يَدَيْه ورِجلَيه، ثُمّ مَدّوا وَثاقَ يَدَيه إلى نِيْرٍ مُعلّقٍ في سَرجِ الحِصان، وأُمِرَ بالحِصان فضُرِبَ ومَضى باتّجاه المعبد، كانت يدا إستِفانُوس تمتَدّان أمام صَدْرِه كلّما أسْرَعَ الحِصان فشدّ الحبل الذي يَربِطهما، أمّا رِجْلاه فحاولَ في الحبل المُرخَى بينَ قَدَمَيه أن يُحافِظَ على توازنه وهو يُهروِلُ خلفَ الحصانِ حتّى لا يتعثّر أو يسقط.

سُلِكتْ طريقٌ جانبيّة سِرّيّةٌ لا يعرفها إلاّ شاؤول، اقتيدَ الأسيرُ إلى سجنٍ أسفلَ المعبد، كانَ السّجنُ عبارةً عن قبوٍ كبيرٍ فسيحٍ، مُمتدٍّ فوقَ قناطر حجريّة مُصمَتة، كانت الأقواس يفتحُ بعضُها على بعضٍ، بدا أنّ المكان استُخدِمَ سابِقًا إسطبلاً للخيول من الرّائحة المُنتِنة التي فاحتْ منه

أوّل دخول إستِفانوس إليه، كانَ مُظلِمًا تتسلّل إليه أمواجُ خفيفةٌ من النّور قادمةٌ من نوافذ صغيرةٍ طوليّة تستقرّ في أعلى القِباب القارّة تحتَ الأرض. عندَما خَطَا إستِفانوس مع حَرَسِه أوّل خُطوةٍ في الدّرجاتِ الهابِطة إلى ذلك القَبو الرّهيب، تناهث إلى سَمْعِه أصواتُ صرخاتِ استِغاثةٍ قادمةٍ من جوفِ الأرض؛ أدركَ منذُ اللّحظةِ الأولى أنّ العذاب قادِمٌ إليه في التّوّ فهيّأ نفسَه لكلّ أنواعه، واستحضرَ إيمانه العميق ليُواجِه المحنة الزّاحفةَ إليه رويدًا.

كانَ المُعذّبون عُراةً إلاّ مِمّا يستر موضعَ حيائهم، شاهدَ أوّل دخوله أحدهم وقد رُبِطَتْ يداه إلى حلقةٍ في أعلى القنطرةِ وشُدّ فارتفعَ جِسمه عن الأرضِ قليلاً، فصارتْ يداه الضّعيفتان المُعذّبتان تحملان جسمه بثقله الكامل، كانَ يبدُو أنّ قُواه كُلَّها قد خارتْ من رأسِهِ المُدلاّةِ على صَدْرِه، ومن جذعه الّذي تقوّس إلى الدّاخل، ومن الدّماءِ الّتي تسيلُ في خُطوطٍ مُتعرّجةٍ على أنحاءِ جسمه كلّه. قفزَ قلبُه إلى حنجرته، دَخَلَه الرّعب، مدّ يده المُقيّدة وشدّها على موضعِ قلبِهِ ليستقرّ، تلا بعضَ الصّلوات، تذكّر أنّه يُعذّب في سبيلِ الخلُود، فاطمأنَّ قليلاً. مَضى به الحَرَسُ خُطواتٍ أخرى، فرأى سجينًا هُنا قَدْ أُلجِئَ ظهرُه إلى الجدار الحجريّ الّذي كانَ خشنًا لبروز رؤوسٍ مُدبّبةٍ منه كانتْ قد أعِدّتْ لهذا النّوعِ من التّعذيب، وحولَ جسدِهِ العاري كانتْ تلتفّ عليه عشراتُ السّياطِ الجلديّة السّوداء الّتي بدتْ كأنّها قطيعٌ من الأفاعي يتلذّذُ بِنَهشِ جسدِ هذا المِسكين، كانتِ السّياطُ لشدّة ما أُحِكمَ لَفُّها على جسده قد غاصتْ في لحمه، وأمّا ظهره فكانتِ الحجارةُ المدبّبة

الحادّة قد انغرزتْ فيه فاشتبكتْ مع فِقرات العِظام، بدا أنّ تعذيبه لم يمرّ عليه وقتٌ طويلٌ، لأنّ أنينَه كانَ مسموعًا، حينَ صارَ إستِفانوس قريبًا جِدًّا منه، فتحَ عينَيه فأبصره فاستبشر، رَسَم ابتِسامةً واهِنةً على شَفتَيه، جاهدَ أن يُوسِّعها أكثر، فافترّتْ عن أسنانٍ بدا منظرها مُرعِبًا؛ إذْ إنّها كانت مُحطّمةً والدّمُ الّذي بدا أنّه تجلّطَ منذُ فترة قد تحوّل إلى اللّونِ الأسود، ومعَ ذلك نَطَقَ بكلماتٍ لم يتبيّنْ إستِفانوس منها شيئًا، لكنّه حينَ صارَ خلفه، سَمِعَ كلمةَ المسيح: «إنَّ نِسيانَ كلمةِ الله الّتي بها خَلَقَ كُلَّ الأشياءِ، والّتي بِها يُقدِّمُ لكَ الحَياةَ الأبديّةَ لَخَطِيئةٌ كُبرَى». نَزَعَ يدَيْه المُقيّدَتَين من بينِ سواعدِ الحُرّاس، ثُمّ ركَزَ رِجلَيه في الأرض لِيجْمُدَ مكانه، وأمالَ عُنُقَه باتّجاه السّجين، وسأله بحُنُوّ وشوقٍ: «ماذا قُلتَ يا أخي؟!».
«اصبرْ لأجلِ كلمةِ الله، ومُتْ في سبيلها إنْ تطلّبَ الأمرُ ذلك».
«أنا أُشفِقُ على حالِكَ يا أخي». «لا تُشفِقْ عليّ أشفِقْ على نفسِك؛ إنْ لم تقدّمْها على المذبح لتلحقَ بي فواضَيعةَ الإيمان الّذي تُنادِي به». شعرَ أنّه صغيرٌ أمام عظَمَةِ هذا السّجين الّذي ربّما لا يعرفه أحدٌ، وأدركَ كم عليه أن يُقدِّم من أجل إيمانه أمام الله وأمام النّاس الّذين يترقّبون ماذا سيصدرُ عنه. دفَعَهُ الحُرّاسُ من كتفَيه ناهِرين، ومَضَوا به إلى مربطه هو الآخر، بدا الممرّ الّذي يسيرون فيه عريضًا يكفي لأنْ تصطفّ فيها بعضُ العَرَبات مُتباعدةً، وطويلاً لا تكاد تبدُو له نهاية، بحيثُ يُمكنُ أنْ تتسابق فيه الخيل. كانَ السُّجناء يُوثَقون إلى مرابطهم في الحلقات الحديديّة الّتي تُعلّق إمّا إلى الجُدران أو إلى الأعمدة الّتي يقفُ بعضُها في منتصف هذا الممرّ الممتدّ،

أو إلى السّقف العالي، وكانَ كُلُّ سجينٍ يُربَطُ إمّا بالحِبال الغليظة أو السّلاسل الحديديّة بحسبِ خُطُورته، أو مستوى تعذيبه.

سِيقَ إستِفانوس وسطَ هؤلاء السُّجناء إلى آخر الممرّ، كانَ عليه أنْ يُعايِنَ عذاباتِهم كُلَّها بنفسِه، حينَ قفزَ قلبُه إلى حنجرته مع أوّل صوتٍ سمعه أوّلَ دخُولِه بسبب هَلَعِه، لم يعد الآنَ بعدَ أنْ ربطَ الإيمانُ على قلبِه يخافُ مثلَما هاجمهُ هذا الشّعور في البداية، إضافةً إلى كلمات ذلك السّجين الّتي رفعتْ من معنويّاته وجعلته أكثرَ قُدْرةً على الصّمود؛ لكنْ لا أحدَ يدري ماذا ينتظرُه، وغالِبًا ما تسيرُ الأقدارُ في طرقٍ غيرِ تلك الّتي تتوقّعها!!

٧٤

أنا أقرّر كيفَ يموتُ أعداء الله

إنّهم يزيدون عن عشرينَ تلميذًا منذ ما يقربُ من شهرَين يجتمعون في بيتِ برنابا، وحينَ يضيقُ البيتُ الصّغيرُ عليهم، يخرجون ليجلسوا تحتَ الشّجرة، ويجلسُ أمامهم المُعلّمان برنابا وإستِفانوس، كانَ إستِفانوس قد حَفِظَ كُلّ إنجيل برنابا ووعاه، وأحاطَ بحدوده عِلْمًا، وبدَأ يأخذُ دورَ الأستاذ للتّلاميذ الجُدُد، كثيرًا ما كان برنابا يغيبُ عن هذه الحلقاتِ، يختفي أيّامًا وليالِيَ طويلة لا يعرفُ له إستِفانوس مُستقرًّا؛ كانَ طائرًا يحاول أن يبنيَ عُشّه على شجرةٍ من شَجَراتِ الخُلود، وباحِثًا عن غايةٍ يعرفها قلبُه ولا تراها عيناه، فيَتيه في الطّرقات يتبع بوصلةَ القلبِ لعلّها تهديه إلى ما لا تراه العين، لكنّ البوصَلة بعدَ أنِ ارتفعَ المسيح أحاطت بها جِهاتٌ مُتضارِبَة وسِياطٌ مرفوعةٌ في وجه الحَواريّين فاضطربَت.

«إنّه عَصرُ المِحنة؛ إنّه اختِبار الثّبات الأقسَى» قال ذلك برنابا لنفسِه وهو ينظرُ من بعيدٍ إلى جبل الزّيتون، رُبّما سنُساقُ كالخراف – كما قال المسيح – إلى المذبحة، ...، ربّما!! تنهّدَ وهو ينظرُ إلى المصير المحتوم، لكنّه حينَ أدركَ أنّ اللّحاقَ بسيّده قريبٌ، وأنّ البقاء في المحنة قليلٌ، وأنّ نعيم الأخرى طويلٌ؛ هانَ عليهِ كُلّ شيء... عادَ ففكّر مرّةً أخرى في أتباعِ المسيح الجُدُد: إذا كانَ قَيافا وكهنته تجرّؤوا على المسيح نفسه وطالَبوا بصلبِهِ وقَتْلِه ألا يُمكن أن يفعلوا ما هو أقسَى

من ذلك مع أتباعه؟! وماذا يُمكنُ أن يكونَ أقسَى من الموت؟! سأل نفسَه. أجابَها: أن ترى الموتَ وهو يرقصُ أمامكَ، وتشتهيه من شدّة العذاب، ولا يكون بإمكانِكَ احتِضانه والغَوْصَ فيه؛ ليرحلَ بكَ عن هذه الدُّنيا بِقَتَلَتِها وسَفّاحِيها!!

كانَ إستِفانوس يقرأ للتّلاميذ: «إنّ الخُبزَ لا يُفيدُ الحياةَ الزّمنيّةَ كما يُفيدُ العِلمُ الحياةَ الأبديّة». فالعِلمُ أوّل الطّريقِ إلى الخلود. أيّها الإخوة؛ العِلم جسدٌ والعملُ روحهُ، ولا يحيَى الأوّل إلاّ بالثّاني، وتَبِعاتُ الثاني غالِية؛ فَمَنْ أرادَ أنْ يكونَ عالِمًا فعليه أنْ يحتَمِلَ بالقُدْرِة ما يجلبُه عليه هذا العِلمُ من أذًى، ويشكر الله على ما يأتيه به من نِعَم.

اليوم وهو يعبرُ هذا الممرّ الطّويل في القبو شاهدَ أكثرَ من نِصفِ تلاميذه هُناك، «إنّه أفضلُ استِقبال يُمكنُ أن يستقبِلوه به وهم مُوثَقون كالنّعاج الّتي تنتظرُ الذّبح، ومُعلّقون كالخراف الّتي تُهَيّأ للسّلْخ»؛ قال ذلك لنفسِهِ ساخِرًا. لقد أُلقِيَ عليهم القبضُ في ليلةٍ واحدةٍ. كلّما مرّ بواحدٍ منهم ابتسم في وجهه، مَنْ كانَ فاقِدًا للوعي ارتجّ جسده لمروره بجانبه، ومن كانت إحدَى عينَيه مُتورّمةً أو مُطفأةً من العذاب، فتحَ له الأخرى وقالت له هذه العين: «إنّكَ علّمْتَنا قِيمةَ الصّبر فلا تَضْعُف؛ إنّه إنْ خذلكَ الواحِدُ منّا بعدمِ صبرهِ فإنّما هُوَ فرد، لكنّكَ إنْ خذلْتَنا أنتَ فكأنّما قد خذلتَ المسيح، وخذلتَ المسيحيّين من بعدهِ، فإنّما أنتَ جماعةٌ في فرد، وشتّانَ ما بينَنا!!». مَضَى وارتِجافةُ قلبِه عصفورٌ يضطربُ بجناحَيه مَخبولاً في قَفَصٍ ضيّق!!

جُوّعَ وعُطِّشَ ثلاثةَ أيّام، لم يذُقْ فيها كِسْرَةَ خُبزٍ واحِدة، وكانَ ماءٌ شديدُ البرودةِ يُرشَقُ على وجهه في ليالي الصّقيع فيمدّ لِسانه ليظفرَ بقطرةٍ أو اثنتين مِمّا يسيلُ على وجهه من الرَّشْق، ظلَّ مربوطًا على هيئةِ البَغل الّذي يَجُرّ عربةً طِيلةَ الأيّامِ الثّلاثةِ كذلك؛ كانت يداه قد قُيِّدَتا إلى نُصْبٍ حجريّ كأنّما هو تِمثالٌ غيرُ منحوتٍ يرتفعُ بطولِ إنسانٍ فوق الأرض، وفيه حلقتان معدِنيّتان تبعُدان عن بعضِهما أقلّ من البعدُ الّذي بينَ كَتِفَي الإنسان، بحيثُ إذا رُبِطَتْ كُلّ يدٍ إلى واحدةٍ من هاتَين الحَلَقتين عُرِّضَتا إلى سَحْقٍ وإلى ألَمٍ شديد، وكانَ طول الحبل الّذي يصلُ بينَ الرّسغين وبينهما يزيدُ عَنْ ذراعٍ، أمّا رِجلاه فقد رُبِطَتا إلى حلَقَتَين مُماثِلَتَين في الأسفل تبعُدان عن بعضهما المسافةَ نفسَها الّتي تبعدُ بها الحلقتان العُلوَيان، لكنّهما ترتفعان عن الأرض حوالَي شِبرَين؛ كانَ هذا الارتِفاع عن الأرض يُفقِد إستِفانوس موضعَ الارتِكاز عندَ قَدَمَيه، مِمّا يضطرّه أن يرتَكِزَ على قوّة يدَيه ويرمِي بصَدْرِهِ إلى الأمام مُلقِيًا جسده بزاويةٍ مائِلة ومُعتمِدًا على انفِراجَةِ الحبل، وهكذا كانَ يُمكن أن ترَى هذا السّجين كأنّه طائرٌ مُعلّقٌ في الفَضاء يُحاولُ الطّيران فيخذله جناحاه، كانَ الألم لا يُحتمل عند موضع الرُّسغَين، حيثُ القيدُ الحديديّ يشدّ عليهما بكاملِ وزنِ الجسم، مِمّا يعني أنْ يبدأ القيدُ الغَوصَ في اللّحم الطّريّ، كانَ هذا الغَوصُ يأكلُ من هذا اللّحم الطّريّ في كلّ لحظةٍ شيئًا، حتّى إذا انتهى من اللّحم في اليومِ الثّاني، بدأ يغوصُ في العَظمِ في اليومِ الثّالِث، كانَ ألمًا فوقَ الاحتِمال، أفظعَ بكثيرٍ من الألم الّذي تُسبّبه السّياطُ النّاهِشَةُ من الجسد

العاري.

كانَ على إستِفانوس أنْ يَرَى أصنافَ التّعذيب كُلَّها الّتي تُمارَس على أتباعِ المسيح أمامه، فلقد اختارَ له شاؤول صدر الممرّ الطّويل، قالَ له في أوّل يومٍ سيقَ به إلى هذا الموضع: «العُلَماءُ لهم صَدرُ المجلس»؛ قهقه يومَها فلمعث عيناه بشكلٍ مُرعِب، ثُمّ عادَتا إلى بَياضِهما. تابعَ حينَها: «يا إستِفانوس، المسيح وصلَبْناه، وأنتَ؟! سنجرّب معكَ وسيلةً أخرى». «المسيحُ لم يُصلَب، فلا تكنْ مِنَ الغاوين». أرجعَ يده عالِيًا إلى الخلف يومَها ثُمّ هَوى بها على وجهه، فأسالَ الدّمَ من أنفِهِ بلَطمته، قال له وهو يزفُر: «صُلِبَ أيّها الكافر». لكنّ إستِفانوس لم يتأثّر كثيرًا بهَيَجانه، ظلّ مُحافِظًا على رباطةِ جأشه، أخذَ نفسَه، ثُمّ قال له: «علمتُ أنّكَ قرأتَ التّوراة على غالامائيل، وعرفتَ كثيرًا من علومِ الفلسفة والمنطق، وكرّسْتَ كُلّ حياتِكَ منذ أنْ جِئتَ إلى أورشليم للعِلم والحقيقة؛ فهل تَفُوتُكَ حقيقةٌ كهذه واضِحةٌ كالشّمس؟!». أعطاهُ ظَهرَه وولّى بخطواتٍ سريعةٍ كأنّه يهربُ من كلماته.

في اليومِ الرّابع كانَ جسدُه قد ارتخَى، تكوّرتْ ساقاه قليلاً عندَ رُكبَتَيه، غابَ عن الوعي أكثرَ من مرّة، لم يكنْ ليُنقِذه من الذّهاب في الغِيابِ عن الوعي إلى بئر الموت غيرَ رَشَقاتٍ من دلاءٍ كبيرةٍ من الماء تناوبَ الحُرّاس والجَلاّدون على رَشْقِها في وجهه. صباح هذا اليومِ الرّابع جيءَ له بِطَعامٍ جيّدٍ وماءٍ وفير، كانَ عطَشُ الأيّام الثّلاثةِ السّابِقَة قد جعلَ الحياةَ تتكثّفُ في شيءٍ واحدٍ لا أكثر؛ شربة ماءٍ بِقَدْرِ غَرفة اليد

تكفي!! شربَ حتّى ارتَوى، ورَطّبَ تشقُّقاتِ فمه، ومرّنَ أمعاءه على استِقبالِ الطّعامِ جُزئيًا، فأكلَ قليلاً قليلاً حتّى اكتَفَى، شَعَر أنّه عادَ من الموت، نظرَ خلفه وهو جالِسٌ أمام النّصب، رأى الموت ما زال قائِمًا إلى جانِبه، ضَحِكَ في وجهه، قال له: «لن أتركك؛ سنلتقي قريبا».

جاءَ ثلاثةٌ من الحَرَس، مشى أمامَ اثنَين وخلفَ الثالث. صَعَدا من المقبرةِ إلى السّطح، بَدا العالَم يضجّ بالحركة في المعبد، لم يُصَدِّقْ عينَيه، أربعةُ أيّامٍ في القَبو غيّرتْ لديه تعريفَ النّعيم، أربعةُ أيّام ذهبت به بعيدًا إلى غياهبَ تُذهِلُ الإنسانَ عن وجوده، تأكّد أنّ الدّرجَ الّذي صَعَده للتّوّ مع هؤلاء الجلاّدين هو الحدّ الفاصل بين الجحيم والحياة الطّبيعيّة، هُنا بدا ما كانَ تعريفًا حقيقيًا للنّعيم؛ الشّمسُ بكاملِ بهائها تُطلّ من عليائها على التّراب المُقدّس، النّاس بكامل عافيتهم يروحون ويجيئون، أحسّ أنّ الحِجارةَ هُنا أرائكُ من ريشٍ ناعِمٍ، وأنّها هُناك مقامِعُ من حديدٍ مُفرّز، مع أنّها الحجارةُ نفسُها، فقط هو المستوى الّذي باعدَ بينهما؛ بينَ ما كانَ فوقَ الأرض وما كانَ تحتَها!!

سَمِعَ بعضَ المارّة يهمسُ: «أليسَ هذا إستِفانوس؟!». «لا، لا يُمكنُ أن يكونَ هُو، أنا أحدُ تلامذته وأعرفهُ جيّدًا؛ ليسَ هُوَ بالتّأكيد». توقّفَ إستِفانوس للحظاتٍ، فرّتْ من عَينَيه دمعتان حارّتان. تابَعَ الأوّل: «إنّه هو؛ أرى لمعةَ عينَيه الّتي كنتُ أراها تحتَ الشّجرة، لكنْ ألم يتغيّب منذ أربعةِ أيّامٍ عن التّدريس؟!». «بلى، هل أنتَ متأكّدٌ من أنّه هو؟!». «لا،

ليسَ تمامًا، ربّما يكونُ شبحًا يُشبِهه، ربّما شيءٌ منه...». نَهَره الحارِسان الواقِفان خلفَه، فمَضَى في طريقه ولم يسمَعْ بقيّةَ حِوارِهما، وإنْ كانا قد أذهلاه عن نفسِه حتّى لم يعدْ يعرفُها!!

أدْخلوهُ بابًا لم يره من قبلُ يقع تحتَ درجٍ لا يصلُ إليه إلاّ كهنةُ قَيافا، من الباب دلفوا إلى فُسحةٍ ترتفعُ فوقَها قُبّة، مغلقةُ الجوانبِ إلاّ من فتحةٍ بمقدار حجمِ الإنسان، في أوّلها بدا درجٌ لا يظهر منه إلاّ درجتان يصعدُ إلى جهةٍ مجهولة. صعد أوّلهم أمامه، ودفعه الباقِيان، وانتظمَ أربعتهم على ذلك الدّرج الّذي لم يكنْ يسمحُ إلاّ لصاعدٍ واحدٍ يعتليه لِضِيقه.

دخلوا به على شاؤول، كانَ يجلسُ إلى أسطونٍ في وسطِ بهوٍ صغير، مفروشٍ بالسّجّادِ المُوَشّى، ومُؤثّثٍ بشكلٍ باذخ، وله مَشربيّات فَخمة في نَوافذَ تُطلّ على فضاءٍ فسيح يُمكنُ رؤية الجبالِ البعيدةِ المُحيطة بأورشليم منها. أمّا أطرافُ البَهو فكانتْ محفوفةً بوسائدَ مُدبّجة. لم يكنْ في البَهو غيرُه، وقفَ على قَدَمَيه حينَ رآه، قال له: «لقد تغيّرتَ كثيرًا يا إستِفانوس؛ مُعلّمكَ كانَ أشدَّ احتِمالاً منك». «معلّمي بالطّبع أشدُّ احتِمالاً منّي، لكنّ أياديكم القذرة لم تمسّ شعرةً من جَسَدِه». اقتربَ منه أكثر، ضَيّقَ عينَيه الرّمداوَين فيه، وزَمَّ شفَتَيه، وأصلحَ الطّاليت الّذي كان يلبَسه، خفضَ رأسه ببطء، أطرقَ قليلاً، لَعِبَتْ أصابعه بسُبحةٍ كان يُمسِكها بينَ يدَيه، رفعَ رأسَه بهدوء قبلَ أن يقولَ بصوتٍ وَدود: «أنا تغيّرتُ يا إستِفانوس، تغيّرتُ كثيرًا، لا تظنّ أنّني أفعلُ ذلك بإرادتي، أنا جزءٌ من هذا المجلس الكَهَنُوتيّ، ولا أستطيع أنْ أُقَرّرَ فيه

وَحدي». صمتَ متوقّعًا من إستِفانوس أن يتكلّم، لكنّ الأخير عقدتِ المُفاجأةُ لِسانه، كانَ عليه أن يُعمِل عقله فيما سَمِع، فإنّ ما سَمِعَه الآن من شاؤول يتناقَض مِمّا سَمِعه عنه ورآه، لكنْ لا أحدَ يبقَى على حاله حتّى ولو كانَت صخرةً في قعر وادٍ؛ دَفَعَه الأمل في تغيُّر شاؤول السّفّاح إلى أنْ يقولَ العِبارةَ الأخيرة!!

أشارَ شاؤول إلى الحرس أنْ يبتعدوا ويقفوا عند الأبواب، وطلبَ منهم أنْ يأتوا بطعامٍ وفاكهةٍ وشرابٍ لهما، ثُمّ مدّ يده بترحابٍ جديدٍ، ومَشى إلى مُتّكَأٍ باذخٍ، وأشار لإستِفانوس بالجُلوس، تردّد الأخير قليلاً قبل أنْ يتحرّك الدّمُ في رِجلَيه ويدفعهما إلى متابعة غريمه، جلسَ حيثُ أشارَ له، تابعَ شاؤول وهو يرفَعُ أعلى عينَيه الحمراوَين إلى إستِفانوس بعدَ أنْ جلسَ عن يمنيه، وأمال جِذعه نحوه واضِعًا يُسراه على رُكبَةِ مُحدِّثه: «هل أنتَ مستعدٌّ على أنْ تعملَ معي؟!». «وماذا تنوي أن تفعل؟!». «أنْ أخدمَ الرّبّ». «كيفَ ستخدمه؟!». «الكَهَنةُ في المعبدِ مُرتَشون وكذّابون وصغيرُهم يتملّق كبيرَهم، وأنا قرّرتُ أن أتمرّدَ عليهم وعلى فَسادِهم». «تريدُني أنْ أكونَ صادِقًا معك؟!». «بالطّبع». «أنا لا أصدّقُ ما تَقول». «ستُثبِت لكَ الأيّامُ أنّني على صواب». «ولماذا تُعذّبُ أتباعَ المسيح؟!». «قلتُ لكَ إنّني كنتُ مُخطِئًا». «أَطلِقْ سَرَاحَهم إذًا». «لا أملكُ القَرار وحدي، هُناكَ مجلسُ الكَهانةِ سيجتمع بعد أسبوعٍ وسأطرح الأمر عليهم». «وتتركهم في العذاب الفظيع أسبوعًا آخر؟!». «دَعْكَ من التّفكير فيهم الآن، أريدُ أنْ أتبعَ معلّمكَ برنابا؛ هلاّ دلَلْتَني على مجلسه؛ فإنّي أعرفُ أنّه كان

يكتبُ خلفَ المسيح تعاليمَه». كانَ الشّكُّ قد بدأ ينهشُ صدر إستِفانوس، نظرَ إلى الدمِ المتجمّد على رُسغَيه، رأى فيهما أثرَ أنيابِ مُحدّثه، لوهلةٍ تخيّله ذئبًا يهمّ بافتِراسه، لَفَحَتْه رائحتُه الكريهة، قال له إستِفانوس: «أشمّ فيكَ رائِحةَ السّباع، هل أنتَ بشريٌّ؟!». اضطربَ من الدّاخل، حاولَ أن يُخفِي ارتجافةً في جفنَيه، ساعَدَه الرّمدُ الّذي يأكلُ عَينَيه في ذلك، قال له بعدَ ابتلَعَ حجرًا كبيرًا في جوفه: «دُلّني على مكانِ برنابا وسأُطلِقُ سراحَك». ردّ عليه إستِفانوس: «حَقًّا؟! ألا تعرفُ مكانه أنت؟!». «كَلّا، بحثنا عنه منذ يومَين ولم نجدْه». «كثيرًا ما يخلو بنفسِه في تأمّلاته». «وأينَ يفعلُ ذلك؟!». «لا أدري». «كيفَ لا تدري، وأنتَ ألصَقُ النّاسِ به، وأعرفهم بإنجيله؟!». «مَنْ قالَ لكَ ذلك؟!». «أففففف... لا تختبرْ صبري يا إستِفانُوس؛ خيرٌ لكَ أن تقولَ لي أين نجد برنابا». «لا أعرف». «يبدو أنّنا لن نتّفق إذًا». نادَى على الحَرس، ارفعوا هذه الجِيفةَ من هنا، سألحقُ بكم إلى هناكَ بعدَ قليلٍ.

رُبِطَ إلى الحَلَقاتِ الأربع، شَدَّ ثلاثتُهم السّوطَ المَضفور من جلدِ البقر على راحةِ أيديهم، وقفوا أمامه وعن يمينه وعن شِماله، انهالُوا عليهِ بالسّياط، حتّى اكتَسَى جسدهُ كامِلاً بثوبٍ من الدّمِ المُنشعِب في كلّ اتّجاه. لم يتركوه حتّى هبطَ شاؤول بعدَ زمنٍ بدا أنّه دَهرٌ متطاولٌ. وقفَ أمامه، مَدَّ قبضةً تعلّمتْ قَطْعَ الأشجارِ في الغابة، وَبَرْيَ السّهامِ في البرّيّة، والفتكَ بالوحوش فوقَ كُثبانِ الثّلج، قَبَضَ على ناصِيته المُضمّخة بالدّم، رَفَعَ رأسَه، قرّب فَمه من وجهه، ألصَقه بخدّه الأيمن، عَضّه بأسنانه الكَلْبِيّة، غاصتْ أنيابُه في خَدّ إستِفانوس، صَرَخَ

الأخير الّذي لم يصرخ مع السّياط المُنهالَة، رَفَعَ فمه من هُناك وبينَ أسنانِه قطعةُ لحمٍ من خَدّ إستِفانوس، لاكَها في فَمِه، اصطبغَ شِدقاه بالدّم، قال له وهو يعوي: «إنّ لكَ لحمًا أشهَى من سيّد الذّئابِ في الغابة؛ ليتَني تعرّفتُ إلى هذا الطّعمِ من قبل». ازدَردَ جزءًا منها، ثُمّ بصقَ وسط الذّهول الجُزءَ الآخَر في وجهه: «قلتُ لك إنّني لا أرحم، فمَنْ جرّأكَ على أن تختبر احتِمالي؟! قلتُ لكَ تعاوَنْ معي فلا أدري كيفَ طوّعتْ لكَ نفسُكَ ألا تُجيبني إلى طلبي؟! أتعرفُ يا إستِفانوس؛ سأجعل التّاريخ يتحدّث عن طريقةِ تعذيبي لإلهكم». «ليسَ إلهًا أيّها الفاجر، فالله لا يسكن في هياكل مصنوعات الأيادي. جعلتُمُ الله شيئًا، وهو الّذي لا يُشبهه شيء. يَا قُسَاةَ الرِّقَابِ، وَغَيْرَ الْمَخْتُونِينَ بِالْقُلُوبِ وَالآذَانِ! أَنْتُمْ دَائِمًا تُقَاوِمُونَ الرُّوحَ الْقُدُسَ. كَمَا كَانَ آبَاؤُكُمْ كَذلِكَ أَنْتُمْ! أَيُّ الأَنْبِيَاءِ لَمْ يَضْطَهِدْهُ آبَاؤُكُمْ؟ وَقَدْ قَتَلُوا الَّذِينَ سَبَقُوا. يا سفّاكي الدّماء لن تملكوا الهيكل إلى الأبد، الهيكلُ كما قال معلّمي سيزول، وستزولون معه». ثُمّ بَصَقَ دُفقةً من الدّمِ كامِلةً في وجهه، تراشقَ بعضُ الدّم على لحية شاؤول، مَسَحَها وعيناه من خلفِ احمِرارهما تبرقان، وقال بصوتٍ أقربُ إلى فحيح الأفعى: «ليس إلهًا صحيح؛ لكنْ أنا مَنْ سيجعله إلهًا... أنا... لقد كانت هذه خُطّتي أيّها البائس؛ خُطّتي الّتي لم تُعطِني فرصةً لأشرحها لك... أتحسبُ أنّني سأتركك تموتُ هنا، سأجعل ثلاثةَ أرباع شعبِ إسرائيل يرجمك بتهمة التّجديف، أنا أصوغُ التُّهَم أيّها المخبول في هذا المجلس، إنْ كنتَ تجهلُ ذلك فستعرفه منذ اليوم؛ أنا أقرّر كيفَ يموتُ أعداء الله، أنا الّذي صنعتُ من

قَيافا رَجُلاً قويًا، وهو لم يكنْ أكثرَ من ظِلٍّ لِما أقول، وصورةً مُشوّهةً لِما أُفكّر به؛ آنَ الآوان، لتعرفَ حقيقتي أيّها المِسكين، لكنّك لن تعرفها هُنا، ستعرفها هُناكَ قبلَ أن يأتيكَ الموتُ على دابّةٍ سوداء قادمةٍ من الجحيم، أتعرفُ كيفَ أعرفُ أنّها قادمةٌ من الجحيم، نعم أعرفُ... أعرفُ لأنّني أنا أيضًا قادِمٌ من الجحيم». سَكَتَ وهو يمدّ عنُقه بحركةٍ لولبيّة ويُقرّب أنفه من دمِ إستِفانوس ويشمّه طويلاً: «هذه الرّائحةُ أولى بالجحيم من الأرض». ثُمّ يُخرِجُ لِسانه ويلعَقَ الدّمَ، ثُمّ يبلعه بنهم: «أمّا هذا الدّم فجسدي أولَى به؛ إنّني أنقّي دمي بشربِ دِماءِ القِدّيسين... أيّها القِدّيس المحكوم عليه بالفَناء؛ ما أعذبَ دَمَك!!».

تراجَعَ إلى الخلفَ، نعقَ في وجه الحُرّاس: «يبيتُ اللّيلةَ هُنا، وغدًا في ساعة الضُّحى، يُسَاق إلى موضع الرّجم». اقتربَ أحدُ الثّلاثة قليلاً من شاؤول: «حاضر يا سيّدي، ولكنّنا نخشَى أن يموتَ إنْ ظلّ إلى الغد». «هو مسؤوليّتكم، اعملوا له كُلَّ ما يُبقيه حَيًّا إلى الغد؛ إنْ قضَى قبلَ أنْ يطلع عليه الصّباح؛ فلنْ أجعلَ الصّباحَ يطلُعُ عليكم أيضًا». قال كلمته الأخيرة، وخرجَ مخالِفًا بينَ ساقَيه كضبُع.

احتشدَ المِئات في ساحةِ الرّجم، إنّها السّاحةُ الأبرز في أورشليم الّتي كانت تُنفَّذ فيها أحكام المجمع الكهنوتيّ، غالبيّة الأحكام بالرّجم كانت تصدر بحقّ مرتكبي الزّنا، اليومَ سيُنفَّذ الفِعلُ نفسُه في قِدّيس!!

دخلَ على القبو خمسةٌ من أشدّاء الحرس، ربطوا يدَيه

خلفَ ظهره، وجمعوا بحبلٍ آخَر بين قَدَمَيه، ولفّوا حبلاً متينًا على وسطه، وأضجعوه على جنبه، ثُمّ جرّوه كذبيحةٍ عبرَ الممرّ الطّويل على مرأى من بقيّة المُعذّبين، كانَ أكثرهم من تلامذته، شَيّعوه بنظراتٍ باكِية، لكنّهم في أعماقهم تَمَنَّوا أنْ يكونوا مكانه؛ فهو اليوم سيموتُ موتته الأخيرة، أمّا هُمْ فعليهم أن يموتوا في كلّ يومٍ ميتاتٍ جديدةً قبلَ أن يأتي عليهم الموتُ الرّحيم، الّذي يكونُ الموتَ الأخير لسلسلةٍ لا تنتهي من الآلام.

أُلقِيَ في الحُفرةِ المُعَدّة للرّجم، ونُودِيَ في النّاسِ أنْ تعالَوا لِتَشهَدوا عَذابَ أكبرِ المُجدِّفين، كانَ المِئات قد تجمّعوا هُناك، عددٌ لا يُستهان به كان من أتباعِ تلامذة المسيح، لمْ يجرؤوا على فِعلِ شيء، فقط اكتفوا بأنْ يُراقِبوا نهايةَ أحدِ قِدّيسيهم وقلوبهم واجفةٌ لكنّها تلهجُ بالدّعاءِ له.

بدأتْ قذائفُ الحجارةِ تنهال على جسد القِدّيس، كانَ الحَرَسُ قد اعتَنوا به في اللّيلةِ السّابقة، وغسلوه من الدّماء، وطبّبوا له بعضَ الجروح، وأطعموه طعامًا ساخِنًا، وسَقَوه شرابًا سائِغًا، كُلُّ ذلك من أجلِ أن يذوقَ العذابَ من جديد، ويكتسي جسمه باللّون القانِي مرّة أخرَى؛ كانَ الهدف إلقاءَ الرُّعبِ في قلوبِ الّذين يَمشُون في الطّريق ذاته!!

سقطَ رأسه بعدَ عشراتِ الحجارةِ الّتي تسابَقَ الرّاجِمون إلى التّفنّن في أن تُصيبَ الرّأسَ إصاباتٍ مُباشرةً، اختلطَ الدّم المنسربُ من الرأسِ مع الشّعر، فزاوجَ بين الأحمر والأسود في مزيجٍ مُؤسٍ. ظَلّ إستِفانوس يتلو صَلَواتِه وروحُه تُغادِره شيئًا

فشيئًا، حرصَ على أنْ يكونَ صوتُه مسموعًا للحاضِرين، كان يطلبُ من الله ألاّ يُحاسِبهم على هذه الخطيئة، ويهتفُ كلّما ساعَده نَفَسُه: «مكتوبٌ أن تعبدَ الله وحدَه».

جَثَا على رُكبَتَيه، لم ترحمه الحجارةُ المُتساقِطة، كانت تُسمِعه أنينَ الموتِ في كلّ مرّة، اصطبَر، حاولَ أن يظلّ عقلُه واعِيًا مع فظاعةِ الألم، ليظلّ قادِرًا على أن يقول كلمة الله على أسماعِ الرّاجِمين والمُراقِبين؛ لكنّ عَينَيه خانَتاه في النّهاية، وجسدهُ خَذَله في نهايةِ المطاف، أطبقَ فمَه المُجَرّح، وخَرّ على يمينه، تابعتِ الحجارةُ تكوُّمها فوقه، نظرَ من خلالِ سَقطَتِه إليها وهي تَنهالُ عليه من أعلى فظَتّها نُجومًا، تكاثفتِ النّجُومُ عليه، رأى من بينِها طيفًا يبتسمُ في وجهه ويمُدّ يَدَيه إليه ليرتفع به، حاولَ أن يمُدّ يدَيه، لم يستطعْ، بدأتِ النّجومُ تختفي، غار ضووُها فجأة، ثُمّ ذابث في السّديم!!

٧٥

ألمْ تَكنْ أرضُ الله واسِعة؟!

ضمّهم بيتُ المجدليّة من جديدٍ. كانَ العالَمُ كُلُّه قد تغيّر، أنهارٌ من الحُزنِ الّذي لا يُفسَّر راحتْ تتدفّقُ هادرةً في أعماقِهم، وغماماتٌ من الشّوق المُعتَّق راحت تتكثّفُ أمامَ أعينهم، وشتلةٌ من ياسمين الذّكرى راحت تتمدّدُ في قلوبهم... هل كانوا أيتامًا بعدَ أنْ تركهمُ المسيح!! هل تحوّلوا إلى ثكالَى ومنفيّين وموجوعين ومُعذّبين بعدَ رحيلِ الأبِ والأخ والحبيب والصّديق والإنسان...؟! لم يعدْ لأيّ شيءٍ طعمٌ في قلوبِهم، المرارة تعلّقت بأهدابِهم حتّى تخثّرتْ بها أرواحهم، أيّ حُزنٍ أفظع من فقدِ المسيح؛ وأيّ معنًى للحياةِ بعدَ رحيله!!

التأمَ عِقدُهم من جديد، إنّه العَهدُ الرّسوليّ الأول؛ وأمانةُ الكلمةِ أثقلُ من جبال أورشليم كلّها، إنّها تُشبِهُ أن تزرعَ وردةً رقيقةً على أعلى قِمّةٍ تتقاذفُها هوجُ الرّياح؛ فأينَ القلوبُ الّتي تلتف حولَها وتحنو عليها لتحميها من العاصِفات؟!

أخذَ كُلُّ حوارِيٍّ مَكانه إلى الطّاوِلة، قال يَعقُوب لمريم بعدَ أنْ نظروا جميعَهم إليهِ يستنطِقونه: «إنّ سيفَ قَيافا قد وُضِعَ على رِقابِنا، وإنّه لن يرتاحَ حتّى يقضي علينا جميعًا». أجابَتْه: «وهل كنتَ تتوقّع أنْ يتركُوا دعوةَ المسيح دونَ أن تُضطَهَد، ألم يقلِ ابني لكم قبلَ أنْ يُرفَع: إنّكم ستُسَلّمون من أقربِ النّاسِ إليكم، وتُذبَحون بأيدي مَنْ تعرفونهم، وتكونون مُبغَضينَ من الجميعِ لأجلي، فاحفظوا أنفُسَكم بالصّبر؟!». ردّ

بُطرُس: «إنّها محنةٌ عظيمة، وإنّها اختبارٌ قاسٍ للإيمان؛ وإنّها دَعوةٌ يجبُ أن تُبَلَّغ؛ فإنْ لم يكنْ هنا؛ ففي هذه الأرض مُتّسَعٌ؛ ألمْ تَكُنْ أرضُ الله واسِعة؟!». قال تُومَا: «فإنْ بلغَ تعذيبُ قَيافا وزبانيته لنا مبلغًا لا يُحتَمل؛ فما نفعل؟!». أجابَ مَتّى: «أليسَ من الأَوْلى أن نحفظَ كلامَ المسيح قبلَ أن يضيع؛ أعني يجب أن تُكتَبَ تعاليمُه لتكونَ نِبراسًا للمُؤمنين الّذين سيأتونَ من بعدِنا؟!». أجابتْه مريم: «مَنِ استَطاع أنْ يكتُبَ فليكتُب». ثُمّ سألتْ: «مَنْ منكم يفعل ذلك؟!». «أنا» ردّ برنابا، وعقّب مَتّى: «وأنا». «احذروا أن تَكتُبُوا ما عَلِقَ من تخاريفَ في عُقُولِ بعضِ العَوامّ. اكتُبُوا بِصِدقٍ فإنّكم ستُحاسَبون على كُلّ حرفٍ يومَ تَقِفُون أمام الدّيّان».

سَكَبَتْ لهم المجدليّة في أوعيةٍ نُحاسِيّة شرابًا ساخِنًا: «أَدْفِئوا أعماقَكم؛ فإنّ بردَ الأيّامِ القادِم ذابحٌ». هتفَ يُوحَنّا: «إنّ قلبي يتقطّعُ ألمًا على ما حلّ بإستِفانُوس؛ أليسَ هو أحدُ تلامِذَتِك يا برنابا؟!». «بَلَى، لقد رُجِمَ بشكلٍ بَشِعٍ حتّى إنّ أقسَى القلوب لا تحتملُ أنْ ترَى نهايته؛ هذا السّفّاك شاؤول لا عَهْدَ له ولا ذِمّة؛ إنّه يستقوي بسُلطةِ قَيافا علينا». «وَمَنْ شاؤول هذا؛ أنا لم أسمَعْ به من قبلُ، ولولا تعذيبُهُ الشّديد لنا لَما سمعتُ به ألبتّة». أجابَه فيلُبّس: «هُوَ في الهيكلِ منذ زمنٍ بعيدٍ، أظنّ أنّه تربّى في المجلس الكَهَنوتيّ منذُ طفولته». «هُنا في المعبد؟!». «نعم؛ فلماذا لم يظهَرْ من قبلُ؟!». «كان أحدَ رجال قَيافا السّرّيين». «وفِيمَ أظهره الآن؟!». «لِذِئبيّته». «ذِئبيّته؟! ماذا تقصد؟!» إنّ لديه غريزةً غير سويّة؛ إنّه يتفنّن في تعذيبِ خُصومه؛ هو رجلُ قَيافا القَوِيّ». «سمعتُ أنّه

أعلى مرتبةً منه». «كيفَ يكونُ ذلك، وقد سمعتُ أنّه كانَ أحدَ حَرَسِه». «ذلكَ في الظّاهر، كان يتخفّى في حُرّاسِه، لكنّه تلقّى علومَ الدّين والدُّنيا والأُمم والفلسفةِ عن غالامائيل مدّةً طويلة». «وماذا سنفعل مع سَطْوَتِه؟!». «أظنّ أنّنا إنْ بَقِينا في أورشليم فإنّه سيقضي علينا جميعًا، إنّه لن يرتاحَ حتّى يشربَ من دمائِنا، وينهشَ من لُحومِنا، لقد سمعتُ أنّه أكلَ لحمَ إستِفانوس بالفِعل وشربَ من دمه؛ أشكّ أنّ بشريًا يُمكِنُ أن يقومَ بذلك». «وماذا ترى أن نفعل؟!». «نُغادِر أورشليم، ونسيحُ في الأرض، نحملُ دعوةَ المسيح، ونبلّغها للعالَمين». «أنا سأغادِر» قال ذلك بُطرُس، وتَبِعَه برنابا وتوما ويُوحَنّا وأندراوُس، ردّ يعقوب: «أنا سأبقَى». وشايَعَه مَتّى: «وأنا سأبقَى ولو إلى حينٍ، سأجدُ لي كهفًا في جبلٍ آوي إليه».

خَيّمَ الصّمتُ فترةً، بدا أنّ العالَم مُقدِمٌ على عهدٍ غامضٍ. الشّرّ ينتشرُ مثلَ ليلٍ أسودَ يحُلّ في القلوب فتعمَى، والنّاسُ تمشي مُطفأةَ العُيُون إلى وادي الضّلال السّحيق، والمؤمنون إمّا شُهدَاء، أو مساجين، أو مُطارَدون، أو مُشرَّدُون. ظلّ الهدوء مُخيّمًا، كأنّه غِلالةٌ ألقت بسِتارها على القلوب، فأغمضَ الحواريّون عُيُونهم، وألقَوا رؤوسَهم على صُدُورِهم، وذهبوا في أحلامٍ بعيدةٍ. سَرَى الصّمتُ عميقًا، سَقَطُوا في مهاويه، نَسُوا أنفُسَهم، أيقظهم صوتُ الأمّ برقّته المُتناهِية: «يا أبنائي، احفظوا عهدَ نبيّكم يَحفَظْ عَهْدَكُم». ردّتْ إليهم كلماتُها أنفاسَهم، شَهَقوا كأنَّ تلكَ الأنفاس كانتْ قد توقّفَتْ منذُ إطراقِهم، جاءَهم صوتُها من جديد: «أيُكم يعرفُ إلى أينَ صار يَهوذا؟!». أجابَها أندراوُس: «كانَ يملِكُ خيارًا؛ ربّما على

العكسِ مِنّا، نحنُ مع المسيح كُنّا ملائِكة، وكانَ هُو إنسانٌ من عالَمٍ قادمٍ... آه... ليتَني حَقًّا أعرفُ له مكانًا». «ليذهبْ إلى الجحيم» هتفَ يعقوب مُغضَبًا، ثُمّ أردف: «إنّه في خِيانته لا يختلفُ بشيءٍ عن شاؤول؛ فلئنْ كانَ شاؤول سببًا في تعذيبنا، فلقد كانَ هوَ سببًا في تعذيبِ المسيح». نَهَرتْه مريم قائِلةً: «المسيح نفسُه لم يقلْ عنه إنّه خائن، وهو في الحقيقة صديقُه قبلَ أن يُصبِحَ رَسولاً، ويعرفهُ أكثرَ منك... ثُمّ... كيفَ تقول كانَ سببًا في تعذيبِ المسيح؛ أنا أُمّه وأنا أقولُ لكَ إنّ ابني لم تُمَسّ شعرةٌ منه، فانظرْ مواضِعَ كَلِماتِكَ يا يعقوب قبلَ أنْ يَغوصَ لِسانُكَ في الوَحل، أتريدُ أن تفعل ما يفعله العوامّ، ففيمَ اتّخذكَ المسيح تلميذًا من خواصّه؟!». «أنا أعتذرُ يا أُمّي» قال يعقُوب بلهجةٍ بدا أنّه يقولها وهو غيرُ راضٍ. «أنا أراهُ يا أمّي». قالتِ المجدليّة. استرعتِ الجُملةُ الأخيرةَ انتباههم جميعًا، سألتْها مريم: «تَرَينَه؟!». «أعني في المَنام... إنّني أراه مرّة بهيئةِ مَلاكٍ... وأحيانًا أراه بهيئةِ... بهيئةِ شيطان؛ فأحتار... أرى على وجهه حُزنًا عميقًا مرّة، وأرى فيه قسوةً لا متناهيةً مرّة أخرى... لا أدري إنْ كنتُ أرى يهوذا نفسَه في الحالَتين... لكنّني أشعرُ في كلّ مرّةٍ تُجاهه بشعورٍ غريب؛ أشعر بأنّه بحاجةٍ إلى مُساعَدَتِنا، وأنّنا قَصّرْنا معه حينَ تركْناه ولم نَجِدّ في البحثِ عنه بعدَ اختِفائه». «إنّه شيطان يا مريم، سامِحوني على جرأتي؛ إنّني لا يُمكن أن أقبلَ فكرة أنّه كانَ يأكُلُ معنا، ويجلِسُ إلى المسيح... في الحقيقة لم نكنْ نراه إلاّ مرّة واحدةً كُلّ ثلاثةِ أشهُرٍ أو أربعة، ثُمّ يغيبُ كأنّه لم يعدْ موجودًا، لا أدري لماذا لم أُحِبّه أبدًا؟!». قال تُوما. «لا تقل ذلك

يا تُومَا، أنتَ أيضًا لم تُرافِق المسيح كثيرًا مثله». «لكنّني لا يُمكنُ أن أبيعَ جسده». «قلتُ لكم جسدُه لم يُمَسّ؛ فكيفَ تقول إنّه باعَه». «أقصدُ أنّه عَزَمَ على أن يبيعه». «لم يفعلْ». ردّت المجدليّة بِحِدّة؛ فسألها توما بالحِدّة نفسِها: «وما أدراكِ أنّه لم يفعل؟! أنتِ لم تشهدي مجلِسًا واحِدًا من مجالِسنا». «قال لي ذلك في المَنام». «ههه... في المنام، لم أكنْ أُدرِكُ أنّنا نسوقُ الحقائق بناءً على المنامات، إنّها أضغاثُ أحلامٍ يا مريم». «كُفُّوا عن هذا الجدل» أهابتْ بهم الأمّ. «إنّكَ تكرهه لأنّ المسيح أحبّه أكثرَ منك». ردّتْ المجدليّة مُحنَقَةً على تُوما، ثُمّ وقفتْ على قَدَمَيها، وصرختْ: «بل أحبّه أكثرَ منكم جميعًا، أنا أعرفُ لِمَ تكرهونه، لأنّه قالَ له ما لَمْ يقُلْه لكم». ثارتْ ثائرةُ بعضِ الحواريّين، هتفَ برنابا ليمتصّ الغضبَ الّذي بدأ يشتعل في الصّدور: «دَعُونا من يهوذا، عِلمُه عندَ ربّي، تركتُم شاؤول المُجرِمِ وانشغلتُم بيهوذا؛ على الأقلّ يهوذا أكلَ معنا في صحفةٍ واحدةٍ، لا أحدَ يُنكِرُ ذلك، ولا أظنّ أنّ أحدًا يُنكِرُ أيضًا أنّه جلسَ معنا إلى المائدةِ ذاتِها، وشربَ معنا من الكأس نفسِها، لقد كانَ قِدّيسًا... أقول كان... ولا علاقةَ لنا بِما صارَ إليه». «كيفَ تقولُ لا عَلاقةَ لنا بِما صارَ إليه؟!» ردّ يوحُنّا مُغضَبًا، وتابع: «إذا كانَ الأمرُ كذلك، فليذْهبْ كُلُّ واحدٍ مِنّا في حالِ سبيلِه، ولا عَلاقةَ له بالآخَر، ولا برسالةِ المسيح، ولا بتعاليمه، ولا بالمغزَى الّذي من أجلِه رَفَعهُ الله إليه». أعقبتْه المجدليّة قبلَ أنْ يُنهي كلامَه: «أنا لديّ أسبابي الّتي تجعلني أؤمن برسالةِ يهوذا كذلك». هاجَ أكثرُ من واحدٍ في وجهِها: «رِسالةُ يهوذا؛ لقد بالغتِ في الاحتِقار أيّتها المجدليّة، هل

تسمحينَ بأن تكفّي عن بعضِ الهَذَيانِ هذا؟!». ردّتْ عليهم: «ليسَ هذيانًا، لقد أعطاهُ المسيح ما لم يُعطِكم... نعم، أنتمْ لم تُوهَبوا ما وُهِبَ هُوَ من الأسرار». زَعَقَ بُطرُس في وجهها: «أسرار؟! أيّةُ أسرارٍ هذه؟!». «أسرارِ العالَم الّذي جاءَ منه يهوذا». حدَّقَ فيها مُغضَبًا، ثُمّ هتفَ مُستخِفًا بقولها: «هل ينتمي يهوذا إلى عالَمٍ غير عالَمنا؟! إنْ كانَ فِعلاً؛ فإنّه ينتمي إلى عالَمِ الدّوابّ». «احفظ لِسانَكَ أيّها الرّسول؛ لقد كُنتَ أنتَ هُناكَ أيضًا». «هُناكَ؟!». «بَلَى رأيْتُكم جميعًا». ابتسمتِ المجدليّة كأنّها تكشِفُ نواياهم: «لقد كُنتُمْ تجلِسون بينَ يَدِي المسيح؛ حينَ سألكم: كيفَ تعرفونني؟! فأجبتُموه: أنتَ مُعلِّمنا، فقال لكم: الحقّ أقولُ لكم ليسَ بينكمْ أحدٌ يعرفني. فغضِبتُم، وبدأتُم تُجدّفون عليه في قلوبِكم. فعلمَ ذلك منكم، فقال: لِمَاذا أدّتْ بكم هذه الإثارةُ إلى الغضب؟! إنّ الشّيطان الّذي بداخِلكم هو مَنْ دَفَعَكم إلى الغضب، فَلْيأتِ أيّ واحدٍ منكم ويكونُ قويًّا بِما يكفي فيستخلصَ إنسانَه ويقفُ أمام وجهي ومعه أسرارُ الكون، وما عُلِّمَ من أنباءِ الغيب. فقلتم له جميعًا: نحنُ نملك القُوّة والمعرفة. فأردْتُم أن تَقِفوا أمامه، فخذلتْكم أقدامُكم، وبقيتُم جاثِمين في أماكنكم كالثّيران الهَرِمة، وانتكستْ أرواحُكم في أجسادِكم فأثقلتْ حركتُكم، وهممتُم بالكَلام فخرجَ الصّوتُ كأنّه بقبقةُ دجاجٍ. ووحدَه وقف. وقفَ كنبيّ. ومَضى إليه كنهر، وعندَما التقتْ أنفاسُهما هوتْ عيناه فلم يستَطِعْ أنْ ينظُرَ في وجه المُعلِّم، فأدارَ وجهه بعيدًا، فقال له يسوع: تكلّمْ بما وُهِبْتَ من خبر، وحَدِّثْ بُما فُتِحَ عليكَ من أسرار. فقال له يهوذا: أنا أعلمُ مَنْ أنتَ وأعلمُ

اسمَ ذلك الّذي أخرجَكَ إلينا. فردّ عليه يسوع: وأنا أعلمُ مَنْ أنتَ. أدنُ منّي فأخبِرْنِي بما أوتيتَ أُخبِرْكَ بما أوتيتُ. ثُمّ سقطتْ عينا يهوذا بعيدًا، فنظرَ من النّافِذة، فرأى فيها ما لم تروا أنتم شيئًا منه، ولو رأيتموه لانخلعتْ له قلوبُكم، فلمّا نظر يسوع إلى الموضع الّذي ينظرُ إليه يهوذا، أخذه من يَدِه، وقال له: تعالَ بعيدًا عن هؤلاء؛ إنّهم لا يعرفون شيئًا مِمّا نعرف... ثُمّ لم أعدْ أرى في الحُلمِ شيئًا». أطلقتِ المجدليّةُ تنهيدةً كبيرةً، عاجَلها قبلَ انقِضائِها بُطرُس: «إنّكِ تُجَدِّفين بأسوأ مِمّا يُجدِّفُ به شِرارُ النّاس. كُلُّ ما قلتِه لم يحدُث في أرضِ الواقِع. هذا آخِرُ عهدي بِكِ وبكلّ مَنْ يرى ما تَرَين». قامَ من كرسيّه، ومَضَى باتّجاهِ الباب. ثارث من بعده جلبةٌ كُبرَى، احتدّ النّقاش بينَ الحواريّين. خرجَ أكثرهم على غيرِ ما دخل. أوصتْهم مريم ألاّ يُحدِثوا في رِسالةِ يسوع ما ليسَ منها اتِباعًا لأهوائِهم أو لخيالاتهم. استبقتْهُم المجدليّة بعدَ ثورةِ الغضبِ الّتي خرجَ بُطرُس تحتَ غُبارِها، أريدُ أنْ أقول لكم شيئًا قبلَ أن تخرُجوا: «من اليوم سأكتُب له رسائلي، سَتُخاطِبه روحي، سأبثّه كلّ أحزاني، وسأعرفُ منه ما يُصيبُ هذا العالَم المُتداعي». هتفَ أندراوُس في نفسه، وهو يهمّ بالخُروجِ هُوَ الآخَر: «شيطانةٌ تكتبُ لشيطان». أطبقَ فمه على كلماته حتّى لا تُسمَع، ومَضى غيرَ عازِمٍ على أنْ يَرَى أحدًا بعدَ اليومِ. قال لنفسه: «سأكتفي بهما، أنا الوحيدُ الّذي كنتُ من بينهم جميعًا تلميذًا للنّبِيَّين العَظِيمَين، وليسَ ذلكَ لأحدٍ سِواي، وسأموتُ على ما ماتا عليه». وخرج.

كان توما قد قرّر بعد تلك المحاورة العاصفة أنْ يترك

أورشليم، ويتّجه شرقًا نحو الهند ليبشّر بدين التّوحيد. لم يبقَ أحدٌ مِنَ الحواريّين بعدَ ذلك، أمّا برنابا ومَتّى فكانا آخِرَ مَنْ خَرَج، وأمّا أمّي، فقد قرّرتْ أن تبيتَ تلك اللّيلةَ عندَ المجدليّة.

٧٦

خُذْ من وجودي لفنائي ومن فنائي لخلودي

يا أمّاه، ها هو الموتُ الّذي نَجّى اللهُ منه ابنَكِ يُصيبُ حَوارِيّيه؛ أفكانَ على أصحابِ المنهجِ القَويم، والعقيدة الصّادقة أنْ يُبتَلَوا!! ما ظلّ أحدٌ منهم إلاّ أصابَته يَدُ الذّئب الرّماديّ؛ القاتلِ شاؤول، من أيّ جحيمٍ قَدِمَ هذا الشّيطان؟! يقولون إنّه فريسيّ؛ وإنّه يفعل ذلك لتسلمَ عقيدتُه؛ أفكانت عقيدتُه تأمرُ بالقتل والذّبح والسّلخ!! أيّ عقيدةٍ هذه الّتي لا تشبع إلاّ من لحومِ الضّحايا، ولا ترتوي إلاّ من دماء المذبوحين!!

«سأعودُ إلى النّاصِرة»، قالتِ الأمّ للمجدليّة، «هُناكَ نشأ المسيح؛ وهناك بدأ يمتلِئ بالحِكمة، ومن هناكَ انطلقَ النّور... سأعودُ لأحتضنه في غِيابه؛ فما من شجرةٍ إلاّ وأصبحت يتيمةً بعدَ رحيله، وما من حجرٍ إلاّ وبَكَى على فِراقه... سأعودُ لأستظلّ بظلالِ روحه، وآوي إلى شذى طُيُوبه، وأنام لأناجيه في منامي...». «معكِ حقّ يا أمّاه، المُصاب ثقيلٌ، لكنّ الإرثَ أثقل». «وماذا عنكِ؟!». «ليسَ الحواريّون بأحقّ منّي بكلمة الله؛ سأبيعُ بيتي هذا وهو كُلّ ما أملك، وأسافِرُ في فيافي الأرض؛ لأقول للنّاس الّذين سألتقيهم كم كانَ هذا النّبيّ العظيمُ يُحبّهم!».

على الباب، سمعَ يوسفُ النّجّار وَقْعَ خُطُواتِها، انتبه، كأنّ غريبًا في بلادِ الله طافَ ما طاف، ثُمّ عادَ حزينًا بعدَ غِياب!!

كان اللّيلُ قد بدأ ينشُرُ سوادَه، قال لها: «شجرةُ الحوش اشتاقتْ إليكِ، ياسمينةُ الدّار، عتبةُ البيت، يَدُ الباب، حجارةُ السّور، و... والأعوام السّبعون الّتي أحملها على منكبَيّ... كُلّها لم تكُفَّ عن السّؤال عنكِ؛ لِمَ كُلّ هذا؟! يا مريم؛ إنّ مُصابَنا واحدٌ؛ وإنّ المسيح ابني كما هو ابنُكِ، وإنّ الجُرحَ إذا أصابَ قلبَينِ بسهمٍ واحدٍ أوجع، وإنّني هَرِمتُ بحبّ هذا الفتى السّماويّ، وطويتُ على محبّته فؤادي. يا مريم إنّه لم يبقَ إلاّ أن تسألي الّذي أوجدَ كُلّ هذا ألاّ يُطيلَ بقاءَنا في الفانية».
بَكَى. سقطتْ دموعُه على خدّه سخينةً، توقّفتْ عندَ بعضِ الغُضون الّتي انتشرتْ في وجهه، صمتَ طويلاً قبلَ أن يُديرَ ظهره بهدوء، وتبدو من هُناكَ انحناءَته الّتي كشفتْ تقدّمه الموغِل في العمر، ثمّ غاب في جوفِ الباب.

دخلت أمّي البيت، كانَ كُلَّ شيءٍ صامِتًا ووحيدًا ومَشُوقًا. عَبَرتِ الممرّ إلى غرفتها، ألقتِ الجُدرانُ تحيّتها عليها، مدّتْ يَدًا لم تمتدّ من زمنٍ إلى فانوسٍ مُعلّقٍ فوق المحراب، أشعلتْه، فانتشَر نورٌ خفيفٌ في أرجاءِ الغرفةِ الّتي بدتْ هي الأخرى تغرقُ في الحُزن. تركتِ النّور الخافتَ يغمر الغرفة، وتوجّهتْ إلى المطبخ. توضّأتْ. وعادتْ إلى محرابِها. توغّل اللّيل بعيدًا في ظُلُماتِه، تركَتْ أمّي ثُلُثَه الأوّل وهي تُناجي الله بقلبٍ مَفطور. ليسَ كُلُّ ما على الأرضِ ينتمي للأرض، بعضُهُ ينتمي إلى السّماء؛ غُرفتُها في تلكَ اللّحظات كانتْ من هذا النّوع. في الهَزِيع الأخيرِ ظهرتْ لَها؛ كانَ اللهُ قدْ هيّأ كُلَّ شيءٍ من أجل هذه اللّحظة. نامَ أهل النّاصرة، أورشليم تمدّدتْ على كَتِفِ الجبال ونامتْ هي الأخرى، حتّى كَهَنَةُ المعبدِ سلبَهُم النّومُ

يَقَظَتَهم، فاندسّوا في فُرُشِهم الوثيرة واستسلَموا لسُلطانه. كانت فلسطينُ كُلُّها في تلكَ اللحظةِ من شمالها إلى جنوبها تغطّ في نومٍ عميقٍ. وحدنا كُنّا يَقظَى، ولِقاءُ الله بالعابِدِ يجعلُ قلبَه يَقِظًا، حتّى إذا نامتْ قلوبُ البشر اختصّه بنعمةِ اللّقاءِ بالمُناجاةِ دونَ سواه. ظهرتُ لها في المحراب كما كانَ يظهرُ لها جبريل، شهقتْ أوّل ما رأتْني، خفقَ قلبُها لرؤيةِ حبيبِها، هتفتْ بصوتٍ مضطربٍ: «أفَأنتَ أنت؟!». «نعم يا أمّي». استعادَتْ شيئًا من الهدوء، وقفتْ على قَدَمَيْهَا، خطَتْ باتّجاهي، ثُمّ مدّتْ يَدَيها، ولفّتهما حولي فلم تقبضْ على شيءٍ، تراجعتْ إلى الخلف مذهولةً، هتفتْ بصوتٍ مُغلّفٍ بالشّكّ: «أأنتَ هُو؟!». «إنّه أنا يا أمّي، الأنبياء لا يتمثّل بهم الشّيطان». «فَلِمَ قبضتُ على الفَراغ قبلَ قليلٍ؟!». «إنّها روحي يا أمّي، أمّا جسدي فهناك». «فأين؟!». في السّماء؟!». «فكيفَ تعيش؟!». «في نِعمةٍ لو عرفها البشرُ الفانون لَما غَفِلُوا عن العملِ لها طرفةَ عينٍ». «فكيفَ تتركُني وحدي هُنا؟!». «إنّه قَدَرُ الله يا أمّي، وإنّ أعمارَنا مقدورةٌ في اللّوحِ المحفوظ من قبل أنْ نُخلَق». «فهل أطلعكَ الله على يومِ لَحاقِي بك؟!». «إنّه الغيبُ، ولم يُعطِه الله لِبَشرٍ». «فادْعُ اللهَ أنْ يجمعني بكَ في عَلْيائهِ قريبًا». «إنّ ذلكَ كائنٌ يا أمّي، وإنّه لن يطول». «تبدُو حزينًا؟!». «ما عندَ الله يُنسيني شَقاءَ الدُّنيا». «فَلِمَ هذا الأسَى الّذي أراهُ في وجهِكَ وأُحِسُّه في صوتِكَ؟!». «إنّه الحُزنُ على ما سيأتي يا أمّاه». «وما ذاكَ يا بُنَيّ؟!». «سيكذِبون عليّ؛ سيقولون إنّني صُلِبتُ، ويقولون إنّني ابنُ الله». خَنَقتْني الكَلِمات، فغصصتُ بها، استعذتُ بالله من الشّيطان، ثُمّ

تابعتْ: «تعالى الله عَمّا يقولون عُلُوًّا كبيرًا. أخشَى أنْ يبدأ الضّلالُ من الّذينَ عهدتُ إليهمُ بالرّسالة». «أمعقولٌ أنْ يفعلوا ذلك؟!». «ليسوا هُمْ؛ حُبّهم لي سيدمّر كُلَّ شيء؛ ستنفخُ شياطينُ الإنسِ والجنّ في كلماتهم وكلماتي فيحرّفونها عن مواضِعها، ويدّعون أنّني قلتُ هذا الكلام أو أنّهم قالوه، وما قلته وما قالوه، ولكنّ الجَهَلَةَ يبثّون عليه عقائدَ فاسِدةٍ فَيَضِلّون ويُضِلّون بغيرِ عِلم». «وهل سيتسمرّ ذلك طويلاً؟!». «أخشَى أن يستمرّ بالفعل، إلاّ أن يستنقذ الله البشر بالنّبيّ الخاتم، لكنّ ظهوره سيكونُ على فترةٍ بعدَ أن يكونَ الظّلامُ قد عَمّ كُلَّ شيء». «يا بُنَيّ؛ إنّني حذّرتُ تلاميذَكَ أنْ يغيّروا أو يُبدِّلوا بعدك والله حَسِيبُهم، وإنّني لأرجو أنْ ألتحقَ بِكَ على أن أعيشَ إلى يومٍ يُشرَكُ فيه مع الله آلهةٌ أُخرَى». «يا أُمّاه، إنّها ليلةٌ وتكونين عندي». «ما أوحشَ القلبَ بعدَكَ يا بُنيّ... يا بُنيّ...». ثُمّ انقطَع النّور الّذي كنْتُه، وغابَ طيفي في الظّلام.

لم تنمْ مريمُ تلكَ اللّيلة، ظلّ طيفُ المسيح حاضِرًا أمامها، لم تتقبّلْ فِكرةَ أن يغيبَ مرّةً أُخرَى دونَ أن تلتحقَ بِه، ظلّتْ ساجِدَةً في المحراب تبتهل: «تساوى الأمنُ والخوفُ يا ربّ في حضرتك، وذلَّ الحَزْن والسّهل في مَلَكُوتِك، ورأيتُ ما غاب، وغابَ ما حضر، وعَزّ مَنْ بِكَ ذل، واكتفَى بكَ مَنْ عَشِق، وانتهَى إليكَ مَنْ سأل، وعاشَ مَنْ في وَجدِك قَضَى، ووجدَ مَنْ في طُرُقاتِكَ تاه، وارتقَى إليكَ قلبٌ نَقِيّ، وسَمعٌ خَفِيّ، وفؤادٌ رَضِيّ، وخاطِرٌ شَجِيّ، فلا تردَّ مَنْ سألك، ولا حسابَ لمن حازَ عطاءَك... يا ربَّ كُلِّ شيءٍ: خلّصْنِي منّي وامْحَضْنِي لك، فإنّ الشّقيّ ما انفصل عنك، والرضيّ ما اتّصل بك؛ خُذْ من

وجودي لفنائي، ومن فنائي لخلودي، ومن خلودي لرؤيتك؛ فإنْ رأيتُكَ فأيّ مطمعٍ بعدَ ذلكِ في عيش!! يا ربّ إنّما سمَّيتَها دُنيا، لأنّها دونَ كُلّ دونٍ، وإنّما سمّيتَها العاجِلة لأنّها تعجَلُ بالمرء إلى مُستَقرّه، فلا تجعل ما يعجلُ بي شرًّا، فإنّ عافِيَتَكَ أبرأ لي!! يا ربّ إنّما هُوَ من صُلبي وما قُلنا للنّاس إلاّ ما قُلتَ لنا، فلا تُؤذِ آذانَنَا بأنْ تسمعَ ما يُؤذيكَ، ولا أنْ تَرَى ما يُصمَد إليه من نَصَبٍ فتقذَى العين، وتنكسر الرّوح، وينفطر القلب، وتَشتاكَ الجوارح!! يا ربّ إنّه عيسَى، وإنّني مريم، وإنّه عيسى بن مريم، وإنّه كلمتُك، قلتَ: كُنْ فكان، وعمرتَ الرّوحَ في الجسدِ الميّت فانتفض، وسقيتَ غرسَه الطّيّبَ فاستوى، فلمّا آتَى أُكُلَه رفعتَه إليك فمن قال غيرَ ذلك فليسَ منكَ ولا منه ولا مِنّي!! يا ربّ أترضَى أن يطولَ البقاء في الفانيةِ على المشتاق؟! وأنْ يُعذَّبَ المرتحلُ بفقدان الرّاحلين معه، وأنْ يُؤخَّر الأجلُ فيطولُ التّوق!! يا ربّ أدري أنّكَ قلتَ: لا يسبقُ الكتابُ على أحد، وإنّ لكلّ أجلٍ كتابًا، ولكنّ أملي أن يكون اللّحظةَ أجلي، أجلي الّذي أقرّبه بهذه المُناجاة، أجلي الّذي أوحيتَ إليّ قبلَه أنْ أناجيكَ بهذه الكلماتِ حتّى يغذّ إليّ السّير، فإنِ انطلقَ مَلَكُ الموتِ من عندِك، فعجّل به إليّ وأنا أشهدُ أنّه لا إله إلاّ أنت، ودَعْه يُقرّبني من ابني الحبيب؛ فإنْ كان يجلسُ عن يمينِكَ وما ذلك إلاّ له، فأرنيه في اليومِ ولو مرّة واحدة حتّى يستقرّ به القلبُ الواجِب؛ يا ربّ لا تُسمِعني صياح الدّيكِ من غدٍ إلاّ في حضرتِك، ولا تُطلِعِ الفَجر عليّ مِنْ أُفقِك إلاّ وأنا عِندَك... يا... يا... يا ربّ». ثُمّ اضطجعث على جَنْبِها الأيمن، وراحتْ تُحلِّقُ في المَلَكوت.

دخلت عليها الملائكة، حملتها إلى النّخلةِ الّتي ولدَتْ تحتها عيسى، غُيّبَت في الثّرى الأخضر، لم يُقَمْ فوقَ قبرِها شيء، ولا أحدٌ يدري أينَ دُفِنَت؛ كانَ عليها ألاّ تنتمي إلى هذه الأرض، وقد كانت كذلك، إنّها تنتمي إلى السّماء. اصطفّ عددٌ من الملائكة غطّى المشرقَين، لم يَرَ ذلك أحدٌ غيرَ يوسُف، أحسّ بأنّ صفّ الملائكة الممتدّ من بيتِ لحم إلى النّاصرة يمُرّ ببابه، بَكَى بُكاءً صامِتًا حتّى ارتعشَ جسدُه، بلّ الثّرى بدموعه، قال: «جاءتْ نبيّة ورحلت مَلاكًا». في السّماء كانَ عددُ المُصلّين عليها أكبرُ بكثير من أولئك الّذين ضجّت بهم الأرض. النّهايات مُؤلمةٌ مثلُ البدايات، لكنّها سرعانَ ما تَنقضي!!

٧٧

يدُ العدالةِ الإلهيّة

لقد استحرّ القَتْلُ في الأتباع، نُمِيَ خبرُ وفاةِ مريم فارتاحت له قلوبُ كَهَنَةِ المعبد، اتّخذ شاؤول ذلك فرصةً للإمعان في التّنكيلِ بالحواريّين، دَفَعَ فرقةً من مِئَتَي خَيّالٍ وزّعَهم على عشرةِ أماكنَ ليُلقُوا القَبضَ على كُلّ مَنْ يعمل بتعاليم عيسَى، بِزَعمِ أنّها تُخالفُ شريعةَ موسَى. كانَ الحواريّون قد أنشؤوا فيما بينَهم شرائعَ ليُقِيموا خلالَها عِباداتِهم؛ من الطّهارة والعِمادِ والصّلاةِ والأعياد.

اتّخذَ بُطرُس الرّسول من (مرقس) مُساعِدًا له، وجدَ فيه نباهةً، وحماسةً لخدمةِ الكلمةِ المُقدّسة، واقترحَ عليه (مرقس) أنْ يضمّ إليهما في هذه الخِدمةِ العظيمة طبيبًا بارِعًا، يعرفُ مَعنَى مُعجِزات المسيح، وهو (لوقا)، فلم يُجِبْه بطرس إلى طلبه، وأخبره أنْ يتمهّل قليلاً ريثما يمتلِئ هو من الحِكمة.

كانت ليلةً لها ما بعدَها، سِيقَ إلى السّجن ذي الممرّ الطّويلِ العالِي المِئاتُ من أتباعِ المسيح، وبدأ التّنكيلُ بهم يطرحُ سؤال الموتِ والحياةَ أمامَ ناظِرَي السّجين، بلغَ العذابُ أشُدَّه حتى قال أحدهم: «إذا كانَ الله موجودًا، ونحن أتباعُ حبيبِه فلمَ يُبقينا في هذا العذاب، أينَ هُوَ لِيُنقِذَنا من الهَلاك؟!». آخَر صرَخ من ألمِ الأذى الفظيع: «يا ربّ أينَ أنت؟!». كثيرون نَطَقُوا بكلمةِ الكُفرِ لينجُوا من موتٍ مُحقّق، وآخَرون ماتُوا

وهم يردّدون: «إنّني أراه، ها هو يمدّ إليّ يده في مَلَكُوته العظيم».

أشرفَ شاؤول بنفسِهِ على الحَمْلِةِ الّتي ألقتِ القَبْضَ على عددٍ كبيرٍ من التّلاميذِ الاثنَي عشر، كادَ قلبُه يطيرُ من الفَرَح حينَ رأى (يعقوب) و (بطرس) يُساقَان مُنَكّسِي الرّؤوس، يرسفون في القيودِ إلى السّجن، شَدَّ يعقوب من شعرِ رأسه، وحدّقَ في وجهه بعَينَيه الرّمداوَين، وهو يفحّ: «أخيرًا وقعتَ في يَدِي أيّها الشّيطان». فبصقَ يعقوب في وجهه: «أشهدُ أنّ إبليس يتعلّم منكَ أيّها القَذِر». رفعَ خنجره، وأغمدَه في طرفِ خاصِرة يعقوب، أنَّ يعقوب من الطّعنة، كَزّ على أسنانه، رفع شاؤول الخنجر يقطُرُ دمًا، قال له: «عليكَ أنْ تُصلّي لِرَبِّكَ لأنّني لم أغمسْه بالسّم صباحَ هذا اليوم، أردتُ فقط أنْ أجرحَ الشّيطان الّذي يسكنُك؛ لعلّه يسيلُ مع دمائِكَ النَّجِسَة، لا أريدُكَ أن تموتَ بسهولة، أريدُ أن أراكَ تتلوّى أمامي من الألم، وتتمنّى الموتَ ألفَ مرّةٍ قبلَ أن تلقَاه». بَصَقَ يعقوبُ في وجهه من جديد: «أُقسِمُ بربّ عيسَى أنّني لن أدعَكَ تفرحُ بذلك». أجابه شاؤول: «وَلِمَ تُقسِمُ بربّ عيسَى أيّها المُهرطِق؛ أَقْسِم بعيسَى نفسه؛ ألمْ تتّخذوه إلهًا؟!». «أيُّها الفاجِرُ وتتقوّل علينا أيضًا؟! إنّ فُجورَك لن يَدَعَكَ تعيشُ طويلاً». رد عليه شاؤول باستِهزاء، وهو يلعَقُ ما سالَ من دمه على صفحةِ الخِنجر: «قد يكونُ ما تقول صحيحًا؛ لكنّني أُقسِمُ أنّني سأقتُلَك قبلَ أن أُقتَل، وسأرى نهايتَكَ أمامي، وأرقُصُ على انفراطِ روحكَ وهي تختلجُ في جوارِحَك هابِطَةً إلى مثواها الحقيقيّ في الجحيم، ولن أدعَكَ ترى موتي، سأستبقُ هلاكَك

ولو بأيّ ثمنٍ». ثُمّ دفعه إلى الحَرَس الّذين اقتادوه حسبَ أوامر شاؤول إلى زنزانةٍ خاصّة.

أمّا بُطرُس، فقد رُبِطَ بالسّلاسِل من أعلى رأسِهِ إلى أخمصِ قدَمَيه، قال لهم شاؤول: «أنا أعرفه وإنْ كانَ لا يعرفني، هذا شيطانٌ ماردٌ، جسدهُ الضّخم قادِرٌ على أنْ يُقطّع الحديد والزّرد، أوثِقوه بالكامِل، وجُرُّوه مُهانًا مُطاطِئ الرّأسِ على جحشٍ يُشبه جحشَ سيّده يوم هَمّ بدخول أورشليم». ثُمّ أمِرَ به إلى زنزانةٍ أخرى خاصّةٍ تقبعُ تحتَ المعبدِ الّذي يعجّ بالمُفاجآت!!

دخلَ عليهِ شاؤول في مساءِ اليومِ الّذي اعتُقِلَ فيه، قال له: «رَبُّكَ ليسَ حَيًّا ليُنقِذك». أجابه: «الرّبّ لا يموت». «لقد قتلناه، وتركنَا جسده عارِيًا على الصّليب، وسمحْنا لرجلٍ ثريّ أنْ يأخذه مقابِلَ مبلغٍ ماليّ كبيرٍ؛ أتعرفُ أيّها الغِرّ، نَهَمِي إلى لَعْقِ دماءِ الشّياطين أمثالِك أقلّ بكثيرٍ من نَهَمِي إلى اكتنازِ جيبي بالذّهب، ما يلمَع من الذّهب أشدّ إغراءً مِمّا يلمَع من الدّم، وإنْ كانَ قلبي يهتزّ طربًا لكلّ ما يَلمَع». «أيّها الجَشِع، ستطالُكَ يدُ العدالةِ الإلهيّة، وسينقلبُ كُلُّ ذلك عليك». «العدالة الإلهيّة؟! قلتَ لي العدالة الإلهيّة... أيّها الأحمق؛ أنا العدالةُ الإلهيّة، أنا يدُ الله الّتي أطلقَها من أجلِ أن أنشرَ العَدلَ في البلدِ المُقدَّس، الأرضُ لا تُنبِتُ الزَّرْعَ أيّها الأبله إلاّ باجتثاث الشّوكِ، والجسدُ لا يصحّ إلاّ باقتِلاع الشّر، وأنتمُ الشّرّ الّذي أرسلَني الله لأقضي عليه، من أجلِ أنْ ينعُمَ البشر بالعدل والسّلام... بدلَ أنْ تقضي وقتَكَ في البُكاء أيّها القِدّيسُ الجبان، اقضِه بالصّلاةِ لإلهكَ

لعلّه يرحمُ روحَكَ فيكتفي بإهباطه إلى الطّبقة الرّابعة من الجحيم بدلَ أن يسخطها في الطّبقةِ السّابِعة».

تناهى خبرُ الاعتِقالات إلى الأتباع كُلِّهم، فهربَ عددٌ منهم إلى الجبال بدينهم، وتوارَى كثيرون منهم عن الأنظار، واحتَمى آخَرون بالكهوف عن أن تطالُهم يدُ شاؤول الآثِمة، وعَلِمَ (مَتّى) بذلك كُلِّه؛ فاختارَ أن يرحلَ بنفسِه وبما خَطّهُ من إنجيله إلى (الحبشة).

في الصّباح، الّذي استعجل شاؤول طُلوعَه، قادَ (يعقوب) إلى ساحةٍ في هضبةٍ مستويةٍ تُطِلّ على المعبد. التفّ في المكان عددٌ من الحُرّاسِ يُغَطّونَ وجوههم بأقنعةٍ من حديدٍ لا تُرَى منها إلاّ عُيُونهم، ويلبسونَ دُرُوعًا من الزّرد تنسدلُ على صدورهم الّتي بدتْ مشدودةً قويّة، وتنامُ على جنوبهم سيوفٌ مُذهّبة، وترتفع فوقَ رؤوسهم رِماحٌ مُشرَعة. كانوا جُزءًا من فرسان الهيكل أو فرسان المَسِيّا الّذين استعارهم شاؤول من قَيافا، المعبَد أيضًا يُقدّمُ بهذا عنصرًا جديدًا في الصّراع، هذه الطّبقة من الفُرسانِ الأشِدّاء لا تظهر إلاّ في الحالاتِ الطّارِئة، ولا يستدعيهم شاؤول إلاّ إذا كانَ الأمرُ عظيمًا، ولا بُدّ فيه من التّغلّب على أرواحِ شياطينَ كثيرةً تسكُنُ جسدَ هذا المُجرِمِ الّذي سينفّذ فيها حُكمُ العدالةِ الإلهية؛ العدالة الّتي أهبطَها شاؤول من السّماءِ إلى الأرضِ لِتقعَ في يده؛ ويُصبِحَ الحاكمَ بأمرِ الله فيها!!!!

أُجثِيَ (يعقوب) على قَدَمَيه، ألجأه إلى ذلك ماردٌ ضَخمٌ حليقُ الرّأس والوجه، مفتولَ السّاعِدَين، مكتنزَ البطن،

يلبسُ ثوبًا قصيرًا، ويتدلّى إلى جانِبه سيفٌ بطولِه؛ يبدو أنّه رومانيّ يستعينُ به شاؤول بالتّنسيق مع الحاكم في مثل هذه الحالات!! أمرَ شاؤول اثنَين من الحرس الثلاثة الواقِفِين خلفَ يعقوب أن يُديروا وجهه إلى القُبّة المُذهّبةِ الّتي ترتفع فوقَ الهيكل. دنا منه شاؤول، جَثا هو الآخَر على رُكبَتَيه، أمالَ جِذعَه باتّجاهه، وهمسَ في أذنه: «أكانَ الأمرُ يستحقُّ كُلَّ هذا؟!». أجابه: «كانَ يستحقّ أن يبعثَ بإبليس مثلك لكي نموتَ على يدَيه، أيُّ شهادةٍ أوضح من تلك الّتي على يَدِ سَفّاحٍ أفّاكٍ مثلك؟! إنّها لا تليقُ إلاّ بالقِديسين». «تجاهلَ شاؤول جوابَه، وسأله من جديد: «أتعرفُ لماذا جعلتُهم يُدِيرون وجهكَ جهةَ المعبد؛ أتعرف؟! كانَ ذلك من أجلِ أن تَحظَى روحُكَ بشيءٍ من السّلام ولو للحظةٍ عابرة؛ السّلام الّذي فَقَدَتْه طَوال حياتها». «إنّه أمرٌ كتبه الله علينا؛ ورضينا به، نحنُ إلى عِلّيّين، وأنتَ قريبا إلى سِجّين». نهضَ شاؤول وهو يُقهقِه: «ليسَ فوقَ الأرضِ مَنْ يبعثُ بالمُهرطِقين إلى الجحيمِ أفضلَ مِنّي». ثُمّ أشارَ إلى السّيافِ الرّومانيّ، فتقدّمَ من الضّحيّة، شعرَ يعقوب بوقع خُطُواتِهِ باتّجاهه فشدّ صدره ورفع رأسه ليموتَ شامِخًا، قال قبلَ أن يهوي السّيف العِملاقُ على عنقه: «يا الله؛ أشهدُ أنّه لا ربَّ سِواك». ثُمّ تدحرجتْ عُنُقُهُ مع آخر كلمةٍ قالَها. صفّقَ شاؤول للسّياف، توقّفتْ يَداه عن ذلك لَحظةً، رنا إلى رأسِ القِدّيس الّتي تدحرجتْ باتّجاهه، شاهدَ عَينَيه مَفتوحَتَين ووادِعَتَين كأنّهما عَينا نبيّ؛ وباسِمَتَين كأنّما رأتا بُشرَى تسرّ الرّوح، أمّا هو فقال بأسًى حقيقيّ: «مِسكينٌ أنتَ يا يعقوب، كانَتْ تَليقُ بكَ مِيتةٌ أفضَلَ من

هذه!!».

أشارَ بيده لمجموعةٍ تقفُ بعيدًا خارجَ دائرة فرسانِ المَسِيّا، اقتربوا وفي أيديهم المعاول، قال لهم: «ادفنوه هُنا». وصل الخبر إلى أخيه (يوحنّا)، صلّى لروحه الطّاهرة، ثقبَ الحُزنُ قلبه فبكى، ارتجف. نشقَ دموعه السّاخنة لكنّه تذكّر المسيح فابتردث. بعد زمنٍ ليسَ بالبعيد ستحمل اليدُ الّتي كانت تقذفُ بأرواح الشّهداء شهبًا في السّماء، ستحمل المشعل الّذي سيحرقُ كلّ شيءٍ في اللّحظة ذاتها الّذي ظنّ فيه آخرون أنّه سيضيءُ كلّ شيء!!

في المَساء امتلأتْ روحُه بالعفن؛ شعرَ أنّ جاثومًا يضغطُ على صدره فيضيقُ به نَفَسهُ، قامَ فمشَى في رُدهةِ غرفته الفسيحةِ الخاصّة، ظلّ يمشي ويهذي: «كُلُّ ذلك لم ينفَعْ مع هؤلاء الكَفَرَة؛ ماذا يُمكنُ أنْ يكونَ هناك عذابٌ عندَ البشريّ أوجعُ من القَتل؟! إنّني أقتلُ في كلّ يومٍ منهم أحدًا، لكنّ هؤلاءِ المجانين يرحّبون بالموتِ كما لو كانوا يُرحّبون بحبيبٍ مُنتظَر... لا بُدّ أنّ أرواحهم النّجِسة مُغيّبة لكثرةِ ما لهث فيها الشّياطين».

جلسَ إلى أريكةٍ باذخة، خبَطَها بيده مُحنَقًا، ركل برجله الطّاولة الرّابضَة أمامه، صَرَخ، فدخل عليه أحدُ الحرس، لَمّا رآه، شتَمَه، وزَعَقَ فيه مُحنقًا: «مَنْ سَمَحَ لكَ بالدّخول أيّها الحَيَوان؟!». تجمجمَ الحارسُ في مكانه، تراجَعَ إلى الوراء دونَ أن يُديرَ ظهره، وفي لحظةٍ خاطِفة وَلّى هارِبًا.

قامَ من جديدٍ يذرعُ الرّدهة، نفخَ. بصق. لعنَ الآلهة. طلبَ

منها أن تلعنه. لعنَ اليومَ الّذي وُلِدَ فيه. لعنَ صائدَ الذّئاب. لعنَ أمّه الّتي تركتْه. لعنَ أباه الّذي لم يعرفْه. لعنَ التّعاليمَ السّرّية الّتي علّمها له غالامائيل. لعنَ شيمون الّذي لم يكنْ أكثرَ من ظِلّ له. فكّر به هو الآخَر: أيمكن أن تكونَ لديه أفكارٌ جديدةٌ في القضاء على هذه الطّائفة النّجسة؟! لعنه من جديد: إنّه أحمق؛ ببّغاء، خنزير، لا يعرفُ غيرَ ترديد مَقولاتِ الآخَرين؛ لا أدري كيفَ احتملتُه هذه السّنوات كُلَّها. فكّر أن يقتلَ قَيافا ويحلّ مَحَلّه؛ لكنْ ما فائدةُ ذلك؟! لعنَ الفكرة الّتي خطرت بباله للتوّ. لعنَ اليومَ الّذي قرّر فيه أنْ يركبَ السّفينة إلى فلسطين. لعنَ الّذي شجّعه على ذلك؛ ذلك العجوز الخَيّاط الّذي كان يقرأ من الصّحف البالية في معمل صناعة الخِيَم. لعنه هو الآخر؛ ولكنْ بصوتٍ خافتْ. لم تنتهِ لعناتُه... ظلّ يمشي حتّى تعب؛ استلقى على أريكةٍ وثيرة، اضطجع على جنبه الأيمن فأحرقه، هتف: ما أخشنَ هذه الأريكةَ اللّعينة! انقلبَ إلى جنبه الأيسر فوجدَ حُرقةً أكبر، عادَ فنام على ظهره فأحسَّ أنّ أشواكًا تخترقُ ثيابه وتغوصُ في لحمه. صرخ. نامَ على وجه. أحسَّ أنّ غُبارًا كثيفًا يخرجُ من الأريكة النّاعمة ويدخل في فمه. كادَ يختنق. قفز من أريكته كالمَلسُوع. صرخَ. مَشَى بسرعةِ أرنبٍ في الرّدهة. أحسَّ بأنّ رأسه يكادُ ينفجر، ضغطَ عليه بشدّة، وهتف: «أيّتها الشّياطين؛ ليسَ هذا وقتُ اللّهو معي، اخرجي من أفكاري؛ اخرجي أيّتها الكائِناتُ القذرةُ اللّعينة». باغته صوتُ طَرْقٍ على الباب. صمتَ. ظلّ صامتًا فترة. عادَ الطَّرقُ مِن جديد. تأكّدَ أنَّ أحدًا ما بالفعل يستأذنه بالدّخول، أدار جسمه باتّجاه الباب، هتفَ بصوتٍ

يائس: «مَنْ هُناك؟!».

٧٨

سنصنعُ من العجين خُبزًا

«أنا شيمون». «ادخلي أيّتها الببغاء اللّعينة». «جِئتُ لأدخِلَ بعضَ الرّاحةِ على قلبِك». «هل تعلّمتَ الرّقصَ أيّها الضّرّاط؟!». «لا تَسخرْ مِنّي يا أخي. قد أكونُ ظِلّكَ كما تُحبّ أنْ تُسمّيني أحيانًا، ولكنْ هل رأيتَ أجسامًا بلا ظِلال!! وحدها الشّياطين تتحرّك دونَ ظِلالٍ يا أخي». «وَمَنْ قال لكَ إنّني لستُ شيطانًا؟!». «أعرفُ أنّ أمرَ أتباعِ المسيح يشغلك، لقد وجدتُ لكَ حَلاًّ». «تكلّمْ أيّها الفصيح». «رأسُ الفِتنةِ بُطرُس». «لقد قتلتُ من قبله يعقوب». «يعقوبُ طويلُ اللّسان فحسب، جريءٌ؟! نعم، لكنّه لا يُفكّرُ أبعدَ من أنفِه، كان يهمّه أنْ يقفَ بالكلمةِ في وجهك ويبصُقَ فيه، أمّا بطرس فيخُطّط لقرونٍ قادِمةٍ يرى فيها دعوةَ المسيح تنتشرُ في كلّ مكانٍ، ليسَ في أورشليمَ فحسبُ، ولا في فلسطينَ كُلِّها، بل في أوروبّا والعالَم الغربيّ بأكمله، إنّه يرى أنّ أوروبّا مثلَ الشّرق قد غرقتْ في الوثنيّة وتعدّد الآلهة، وأنّه لِزامًا عليه وعلى التّلاميذ أنْ ينشروا مِشعلَ المسيحِ الخالِدَ بينهم. وقد أحكمَ خُطّته بذلك، ويُعاونه مرقس، ولوقا، والأخيران فيلسوفٌ وطبيبٌ، وهُما يَفدِيانه بروحَيهما، وسيتبعانه إلى حيثُ يشاء». «هل أنتَ متأكّدٌ مِمّا تَقول أيّها الضّرّاط؟!». «لا تَقُلْ هذه الكلمةَ مرّة أخرى أمامي أيّها الخبيث؛ فإنّ الثّديَ الّتي أرضعتْكَ هي الثّديُ ذاتُها الّتي أرضعَتْني، وتذكّرْ أنّ مرتبتي في الأخويّة لا تقلّ عن مرتبتك، وكُرسِيِّي في فرسان المَسِيّا لا ينزلُ عن كرسيِّكَ

قيدَ أنمُلة... دَعْكَ من جُنونِك؛ أجّلْهُ قليلاً وفكّرْ معي بعقلِكَ لا بيدِك». هدأ شاؤول، وارتاح قلبُه لردّ شيمون، كان لا يزال حتّى هذه اللّحظةِ يُعطيه ظهره، استدارَ نحوه، ومشى إليه برفق، ثُمّ مَدَّ يَدَيه وأحاطَ بهما جانِبَي رأسِ شيمون، وقرّب شَفَتَيه ثُمّ طبعَ قُبلةً على جبينه، وقال: «لن أنسَى ذلك». أنزلَ شيمون يَدَي شاؤول برفق، ونظر إليه بعينَين دامِعَتَين: «كنتُ ظِلّكَ فاحْمِلِني إلى شَجَرِ الرُّؤيا، إنّ من نعمل من أجله ستجثو البشريّة كُلُّها على رُكبَتَيها أمام عَظَمتِه، فلا تُضيّعْ أهدافَنا الكُبرَى ببعضِ السّذاجات».

جَلَسَ شيمون إلى أحد المقاعد الوثيرة، وأقعى شاؤول عندَ رجلَيه، ووضع يمينه على فَخِذ صاحبه، وهاتفه: «فماذا ترى يا أخي؟!». مَسَحَ شيمون بحنوّ شَعرَ شاؤول، ظلّ يعبثُ بخصلاتِ شعره المتهدّلة على جانبَي رأسه بهدوء، حتّى قال له: «أتعلمُ أيَّ قدرٍ هذا الّذي بعثَ بنا إلى هُنا لكي نعملَ من أجله؟! إنّه ليسَ بشريًا خالِصًا، ولا جِنّيًا نَقِيًا، ولا إلهيًا مَحْضًا؛ بل فيه من كلّ هؤلاء. وإنّ أورشليم اليوم الّتي ترزح تحتَ حُكمِ الرّومان، ويزرع المجنون (كاليغولا) على كل بوابات المعبد فيها تماثيله، وتماثيل النسر الرومانيّ ستكونُ عاصِمةَ مسيحنا المُنتَظَر، وسيبسُطُ عليها وعلى بِقاعِ العالَم كُلِّها سيطرته، وستمتدّ سطوته حتّى تدخُلَ كلّ أرضٍ، وسيُخرِجُ أعداءَه من جحورهم ويَقضِي عليهم، وسيرفع رايةَ العدل، ولن نخذله، سنكونُ نحن أوفَى جُنودِه... أتعرفُ أنّني أراه في المَنام في كلّ ليلةٍ؛ قادِمًا من السّحاب، مثلَ مَلاكٍ أو قِدّيس، في يُمناه سيفٌ من نار، وفي يُسراه رُمحٌ من اللّهب،

تطمئنُّ له أفئدةُ اليهود، وتنخلعُ له أفئدةُ الآخَرين، سيأمرُ النّار أن تلتهمَ في جوفِها كُلَّ مَنْ لا يُؤمنُ به وبنا... أتعرفُ أيّها العزيز شاؤول؛ إنّ قُوّته مهما كانت هائلة، وهي بالفعل كذلك، فلن تنتصرَ وحدَها، لا بُدّ أن يكونَ جيشُه قد هُيِّئَ لِقُدومه، فينصاعُ لأوامره أوّل ظُهُوره... أتعرفُ أيّها الأخ أنّ أفضلَ شيءٍ نعملُه أنا وأنتَ وبقيّة الإخوة والفُرسان أن ننذرَ حياتنا لتشكيلِ جيشِه، وإعدادِ أتباعِه... إنّ لذائذ الحياة وزخارفها ومناصبها كلّها تهونُ أمام هدفٍ إلهيّ مثل هذا... يا أخي... يا شاؤول ماذا أعددتَ لذلك اليوم؟! القَتلُ وحده في الأتباع لا يُلغِي الفِكرة... هَدمُ بيوتهم لا يُشتّتُ أواصرهم... إغلاقُ معابدهم لا يمنع من أنْ يُقيموا معابدهم على أرضٍ أخرى؛ ألم تكنْ أرضُ الله واسِعة!! نَقبُ أفئدتهم بالرّماح لا يوقِفُ سيلَ الإيمان المتدفّق من القُلوب... إنّ بطرُس يعملُ بذكاءٍ أكثرَ مِمّا نتصوّر، وإنّ الشّيطان بكلّ ألاعيبه ليقفُ عاجِزًا أمام ما يُفكّرُ به... فماذا تُرانا فاعِلين؟!». «أقتلُه وأمزّقُ جَسَده».

«لم تفهمْني يا شاؤول؛ ألم أقلْ إنّكَ لا تعرفُ غيرَ لغةِ البطش، طريقةُ الصّراع مع الذّئاب تنفعُ في الغابةِ يا أخي ولا تنفعُ هنا!!». «ولكنْ ألسنا في غابة؟!». «بلى؛ لكنّها غابةُ البشر وهي أشدّ فتكًا من غابةِ الوحوش، الوحوشُ تتبعُ غريزتَها، والبشرُ يتبعونَ شياطينهم، وشتّان ما بينَ الغريزة والشّياطين».

«فماذا ترى يا شيمون؟!». «أرى أن تتقرّبَ إلى بطرس».

«أتقرّبُ إليه؟! هل جُنِنت؟!». «أنْ تدخلَ إلى قلبِه». «قلبُه مُستنقعٌ فاسِدٌ. كُنْ ضِفدعًا واستمتِعْ باللّهو هُناك». «النّقيق لا يُناسِبني». «يا شاؤول؛ ما يظهر لك من خارج البيت لا يدلّ

على ما في داخله من تفاصيل؛ السّرّ يكمُنُ في التّفاصيل... ادخلْ إلى هُناك واعرفْ كيفَ تتعامَل مع المُنَمنمات المبثوثة بينَ الحُجُرات». «أنتَ افعلْ... أنا لا قُدرةَ لي!!». وقفَ شيمون، انتصبَ على قَدَمَيه فجأة، مَدّ يده إلى جانِبه، استلّ خنجرًا لمَعَ على ضوء القنديل المُعلّق على الجدار لمعةً خاطِفة، اقتربَ من شاؤول، أرْكَعَه على جَنبِه، وركزَ حافّة الخنجر الحادّة على عنقه، وهتف: «أُقسِم بربّ مُوسَى أنّني أجدُ في نَفسِي لذّةً لا تُقارِنها لَذّةٌ لو أنّني ذبحتُكَ كما ذبحتُ الخنزير في ليلةِ الانضِمام إلى الفُرسان.. أتريدُ أن تعرقلَ عملَ الآلهةِ أيّها الأبله؟! أينَ ما تعلّمْتَه من غالامائيل أيّها الغبيّ؟! كنتَ تدعوني الضّرّاط... هَاه... فماذا تكونُ أنت؟! الفَسّاء؛ النّهّاق، البَعّاق، النّعّاب، الجَبان الّذي قلبُه كجناحِ بَعوضَة... هَاه... ماذا تَكون؟! قُلْ لي... أتدّعي أنّكَ تحمي مجدَ إسرائيل وتعمل لِقِيامته؟!». ضغط شيمون على طرفِ الخنجر، فغاصَ قليلاً في رقبةِ شاؤول، سالَ بعضُ الدَّمِ على رَقَبَتِه، ابتسمَ، لقد شعرَ أنّ حرارة الذّئاب تدفّقتْ فيه من جديد، فاحث من الدّم رائحة الحليب ذاته، في غرفةِ المُرضِع في كوخ الغابة الشّماليّة، أدركَ أنّ شيطانَ الرّغبةَ قد استيقظَ في أعماقه... ابتسمَ شيمون لابتِسامته، ولمعث عيونهما وهي تلتقي في منتصفِ المسافةِ بين الجسد والرّائحة المُتصاعِدة، شَدّه شيمون من جلبابِه، وأقعده، هتفَ شاؤول وابتِسامته تزدادُ اتّساعًا: «الآنَ أشعرُ بأخويّتكَ تمامًا». سقطتْ قَطَراتٌ من الدّمِ في حِجره، مَدّ يَدَه إلى عُنُقِه، مسَحَ بعضَ ما سال من ذلك الدّم ذي الرّائحة المُشترَكة، أرسلَ يدَه المُلطّخة بالدّم إلى

شيمون، قرّبها من شَفَتَيه، أمسكَها شيمون بيُمناه، ثَبّتَها هُناك، مدّ عُنُقَه كذِئب، وراحَ يلعقُ الدّمَ بنَهَم... ثُمّ... ثُمّ انفجرَ الاثنان بالضّحك.

جَلَسا على مقعدٍ باذخٍ مُستطيل يلتِقطان أنفاسَهما كما لو كانا قد رَكَضا أميالاً طويلة. قال شاؤول وهو يضع باطنَ يدَيه على رُكبتَيه، ويحني صدره، ويُميلُ رأسه: «وماذا نفعل ببطرس؟!». «كُنْ صَدِيقَه الأقرب إلى قلبه، تذلَّلْ له، أَشْعِرْهُ أنّكَ أكثرُ من شقيقٍ بالنّسبةِ له، أبسُطْ له وجهك، وألِنْ له جانِبَك، وامنحْهُ قلبَك ولو إلى حِين، وأرِقْ ماءَ وجهِكَ بينَ يدَيه، ولو تطلّبَ الأمرُ أنْ تنحني له وتُقبّلَ يَدَه كُلّما رأيته فافْعلْ دونَ تردّد». «لا أستطيع يا شيمون». «إنْ كرّرتَ هذه الكلمةَ مرّة أخرى على مسامعي فسأجزّ عُنُقَك هذه المرّة سريعًا، لن يقفَ الخنجر عندَ أوّل العنق، سأجعل عنقكَ تنفصلُ عن جسدك في أقلّ من لَمح البصر». «الأمرُ صعبٌ يا أخي». «دَرِّبْ نَفْسَكَ عليه، انظرْ إليكَ في المرآة وتمرّنْ على هيئة الخُضُوع وتقبيل الكَفّ، واشتِمام الرّائحة، وإسبال العيون، وانتقاء الكلمات، ورَسْمِ الابتِسامات، وإذابة المشاعر، واقتِناص اللّحَظات». «سأفعل... سأفعل أيّها الذّئب، ولكنْ أتدري أنّ بُطرس في السّجن؟!». «مَتى قبضتَ عليه أيّها الأبله؟!». «منذُ حوالي أسبوع». «سنصنعُ من العجين خُبزًا». «ماذا تقصد؟!». «في اللّيلِ وهو نائمٌ أدخِلْ عليهِ بعضَ الحَرَس، ودونَ أن يشعر فُكّ قُفْلَ قُيودِه، واتركْه على يَدَيه ورِجلَيه، حتّى إذا تحرّك انفتحتِ القيود وسقطت، فيُحسّ أنّ يدًا إلهيّةً امتدّت إليها فحَلّتْها... ثُمّ أخلِ الزنازينَ من الحرسِ؛ حتّى إذا نَظَر من

نافِذة زنزانته اطمأنّ قلبُه، وسأقول لكَ ماذا ستفعل حينَ ينفتحُ له باب الزّنزانةِ ويخرجُ إلى الممرّ... سأقول لك... لكنْ قبلَ ذلكَ؛ أليسَ لديكَ طعامٌ يا أخي؟! منذُ ساعاتٍ وأنا أجلسُ في كنفِك ولم تأمر أحدًا من خدمِكَ أنْ يأتِيَنا بشيءٍ؟!».

مرّتْ ساعةُ صَمْتٍ عميقٍ لا يقطعه سِوى أصواتِ مَضْغِهما لِلُّقم وهم يُدخلونها في أفواههم، وصوتُ ارتِشاف الشّراب وهم يتجرّعونه بعدَ كلّ لقمةٍ لتُسهّل عمليّة الازدِراد. قال له شيمون على الباب وهو يُودّعه: «هل عرفتَ ما عليكَ فِعله يا شاؤول؟! إيّاكَ أنْ تتخلّى عن الحِكمة!». هَزّ الأخير رأسه وهو يكادُ ينفجرُ من الدّاخل. عادَ إلى غرفته، ألقى بنفسِه على أحدِ الأسِرّة، أعطى عينَيه للسّقف، بَدا أنّ الطّريقَ الّتي سَلَكَها في السّابِق كانت خاطِئة، بعضُ الطّرق لا يُدْرِكُ الإنسانُ أنّه لم يكنْ على صَوابٍ في سلوكها إلاّ حينَ يصيرُ في نهايتها؛ النّهايات في الطّرق الخاطِئة غالِبًا ما تكونُ قاتِلة، وتحتاجُ إلى حياةٍ جديدةٍ من أجل التّعافي من نتائجها الكارثيّة!! كانَ سقفُ غرفته الفسيحة، تتداخل أجزاؤه في قِباب مُتشابِكة، تُشكّل في تداخلها مشهدًا بديعًا، إضافةً إلى النّقوش الّتي عَمِلَ على نحتها فَنّانٌ خَطّ بالعِبريّة القديمة أهمّ وصايا موسَى. هتفَ في نفسِه: «لو كانَ مُوسَى حَيًّا فَمَنْ سأكونُ بالنّسبةِ له؛ هارون مثلاً!! لا...لا!! فرعون مثلاً؟! ربّما؛ الدّينُ لا يُلغي صَداقتَنا؛ مَن تربّى في قصري فسيحظَى بمحبّتي... لا...لا!! أظنّ أنّني سأكونُ السّامريّ! نعم، سأصنع من ذهبِ العقول عِجلاً يُعبَد من أجل المُخلِّص المُنتظَر... أفاقَ من خيالاته على وَقْعِ أصواتٍ خُيّلَ إليه أنّه يسمعها آتيةً من

السّاحةِ البعيدة الّتي تمتدّ أمام المعبَد، قامَ من سريره واتّجه إلى باب الشّرفة المُطلّة على السّاحة، خَطَا خطواتٍ عديدةٍ وهو يذرعها قبلَ أنْ يصلَ إلى جانِبها الحجريّ المنحوت على هيئةِ أعمدةٍ صغيرةٍ، أرسلَ نظره إلى السّاحة، تخايلَتْ له هيئاتٌ لِبضعةِ أشخاصٍ يتجادلونَ بصوتٍ مرتفع، كانَ الظّلامُ سائِدًا، ورغم وجود بعضِ القناديل المُشتعلة القائمة في منتصفِ السّاحةِ، إلاّ أنّه لم يتبيّن على وجه الدّقّة مَنْ يكونون، عيناه لا تُساعِدانه في النّهار فكيفَ يكونُ الأمرُ واللّيل طامسٌ!! كانتِ المشاعل تَتُوسُ وهي تُرسِلُ ضوءَها الخافِت عبر السّدُفات المُحيطةِ بالمكان... أرعَى سمعه ليتبيّنَ بعضَ أقوالهم، لكنّ نَسَماتِ الهواء شتّتِ الأصواتِ فاختلطَ بعضُها ببعض، ومع ذلك شَعَر أنّ صوتَ شيمون أحدُ هذه الأصواتِ المُتجادِلة... هتفَ في نفسه: «وما يهمّني أصواتُ مَنْ تكون؟!». ولأنّ الوقتَ متأخّرٌ جِدًّا قدّر أنّهم لا بُدّ أن يكونوا من كَهَنَةِ المعبد... مرّتْ دقائق مُضجِرة قبلَ أن يتفرّقوا جميعًا، ويذهبَ كلّ واحدٍ منهم باتّجاه مُختِلف.. استطاع أنْ يتبيّن منهم (غالامائيل)، عرف ذلك من خلال مشيته السّريعة، وجسده المُكتنز والقصير، وأكّدَ له المِشعل الّذي مرّ به في طريقِ مغادرته ذلك، حينَ أضاءَ ثوبه الأرجوانيّ الواسِع... واحدٌ فقط من هؤلاء توجّه جهةَ الشّرفةِ الّتي يقفُ شاؤول فوقها، هتفَ في نَفسِه: «لا بُدّ أنّه قَيافا». كانت روحه المُضطربة ما زالت تتأرجحُ في ترقوته لا تجد هدوءًا بعدَ نِقاشه الثّائر مع شيمون، انتظرَ حتّى صارَ قَيافا تحتَ شُرفته تمامًا، بدتْ مِشيتهُ تتهادَى كأنّها مِشيةُ قائمٍ على حافّة القبر،

هتفَ به: «قَيافا... قيافا... أيّها الحَبْر الأعظم». لكنّه ظلّ ماشِيًا كأنّه لم يسمع شيئًا، عرفَ شاؤول أنّ قَيافا قد فقدَ سمعه أو بعضه كذلك، حدّثَ نفسه قائلاً: «مَتى يترجّل هذا العَجوز الخَرِف عن كرسيّ الحبر الأعظم، لكنْ مَنْ سيحلّ مكانه؟! لا بُدّ أنّ انتخابًا سيجري هذه المرّة في المجلسِ الكهنوتيّ، لن تمرّ فِعلة (حَنّان) في المجلس مرورَ الكِرام، لن يكونَ الأمر بالتّعيين، ولا بالقرابة، التّصويتُ برفعِ اليد بعدَ التّرشيح في الغرفةِ السّريّة سيكونُ سيّدَ الموقف». عادَ إلى غرفته، رَمَى نفسه على السّرير، لكنّ حجرَ القلقِ كانَ يغوصُ عميقًا في بحر قلبِه فيشعر بضيقٍ لا يُطاق. نهضَ من على سريره فجأةً. قرّر أنْ يدخل على قيافا غرفته، إنّها لا تبعدُ كثيرًا، في ذاتِ الطّابق، سيتطلّب الأمر أن يلتفّ قليلاً إلى جَهتها عبر الشّرفةِ نفسِها، وفي لحظاتٍ يكونُ حاضِرًا داخلَها. لم يُمهلْ نفسَه لِيُفكّر أكثرَ من ذلك، هتفَ وهو يستعدّ للخروج: «الحجر الّذي يضغطُ على القلب يُمكنُ أنْ أفجّره في لحظةِ غضبٍ، لا تهمّني النّتائج؛ المهمّ أنْ أرتاح».

٧٩

اصنَعْ لهم إيمانًا جديدًا

لفّ ثيابَه على جَسِده، غَطّته حتّى لم يعد يُرَى منه شيءٌ غيرُ رأسِه الّذي بدا أعلاه مثلَ كُرةٍ نُحاسيّة، ثُمّ اعتمرَ القُلُنسُوَة، وأخفَى وجهه تحتها، فتَحَ صُندوقًا صغيرًا يستقرّ في صدر خزانةٍ طوليّة مخفيّة في الجِدار كأنّها جُزءٌ منه، تناول من هناك قارورةً سوداء بحجمِ الكفّ، كانت لها أذنان صغيرتان على جانِبَيها، نَظَمَ خَيْطًا رفيعًا متينًا من ثقبِ الأذنَين، وأحكم تثبيتَها في جيبِ جُبّته، مسحَ عليها بباطن يده ليتأكّد من أنّها لن تتحرّك من مكانها. نهض، مشى واثِقًا، عبرَ الشّرفة، دار إلى الجهة المُتعامِدة، نزلَ ثلاثَ درجاتٍ مُنبَسِطات، قابلَتْه فُسحةٌ صغيرةٌ تنطقُ بالهدوء الشّفيف، ذرعها مُسرِعًا ليجدَ نفسه مقابلَ الباب الخشبيّ العالي، ذي اللّون الدّاكِن، والمِقبض الذّهبيّ، دَفَعَه مرّةً واحِدةً ليُلقِيَ الرّوعَ في قلبِ قَيافا، كانَ قيافا قدْ تخفّفَ من ملابِسه وتدثّر تحتَ الغِطاءِ الحريريّ الّذي صُنِعَ له خِصّيصًا من بلاد فارس، هل يستعيضُ الكَهَنةُ بالبذخ على الأرائك والأسرّة عن الزّوجات؟! هذا الّذي بلغَ من العُمرِ عَتِيًا ألم يَحِنّ قلبُه إلى أنثَى ناعِمة يرتاحُ معها في وسطِ لُهاثِ الحياةِ خلفَ التّعاليم الكَهَنُوتيّة الصّارِمة؟! أليسَ له قلبٌ بشريّ مثل الآخَرين، أليسَ له جسدٌ يتوقُ إلى نِصفِهِ الآخَر؟! لا.. لا... مَنِ العاقل الّذي يُسلّم جسده لامرأة؟! النّساءُ أفاعٍ؛ لها ملمسٌ ناعمٌ ونابٌ يقطُرُ سُمًّا، مجنون مَنْ يرى في النّساء غير المكر والخُبث والخديعة

و.. والفجور. راوَدَتْهُ هذه الخَواطرُ وهو ينحني ليتناول نَعله المخلوع ويضعه في مكانه المُخصَّصِ له؛ ثُمّ رقصَ قلبُه بين ضلوعه لَمّا عَلِمَ أنّه لم يلمَس جسدَ امرأةٍ في حياتِه باستثناء مُرضعته، ولم يُجالِس جميلةً واحدةً باستِثناء الذّئاب، خُيّلَ إليه أنّ التّعاليم الّتي وضعها المجلسُ الكَهَنوتي بعدَ رحيل يوشَع بن نون هي الّتي تُفرِزُ أمثالَه في خِدمةِ المَعبَد. جاءَه صوتُ قَيافا المُضطجِع على يمينه مُولّيًا ظهره له: «توقّعتُ أنْ تأتي... ألا تستطيع أن تؤجّل الأمر إلى الصّباح أيّها العزيز؟!».

خَطَر بباله أنّه يسمع صوتَ مُنافِقٍ اعتادَ على حِفظِ الكلمات الرّتيبةِ ذاتِها، لكنّ بقايا من رحمةٍ غابرة مرّتْ بجانب قلبِه فأحسّ بالإشفاق على هذا المِسكين، حَزِنَ قليلاً؛ لا بُدّ أنّها كَلِماتُ مَنْ لا يستطيعُ الإفلات من رائحة الموت في غرفةٍ خاليةٍ من كلّ شيءٍ إلاّ منه. عبرتْ ليالي الغابةِ أمام ناظِرَيه سريعًا، سالَ بعضُ اللّعاب على أطرافِ شِدقَيه، شمّ رائِحةَ شواء الذّئاب، رأى نفسَه يلتهمُ لحمها الّذي يسيلُ عَرَقُها فوقَ النّار شَهِيًّا، عبرته رائحةٌ أخرى جرحتْ عليه لذّته الأولى؛ إنّها رائحةُ شِواءٍ كذلك، لكنْ شواءُ لحمٍ آدميّ... أصابَه الغَثَيان للحظات، كادَ يتقيّأ، لولا أنّه عبرَ المسافةَ الفاصِلة بينه وبين الخابِية المصنوعة من الخَزَف، تناولَ الكأسَ الفِضّيّة الّتي بدتْ مُذهّبةً على انعكاس ضوء القِنديل الأصفر، غمرها في الخابِية، وشرب، كَرَعها دُفعةً واحدةً، حينَ شعرَ أنّه انتهى رمى الكأس بكلّ ما أوتي من قُوّة على أقربِ قنديل، فهوى حُطامًا. جاءه صوتُ قَيافا هادِئًا: «الذّئاب تخدمُ مجدَ الرّبّ، لو كنتَ ذئبًا حقيقيًّا...». أثارتْ كلمات قَيافا غريزتَه، فتناولَ

عصاه المركوزة خلفَ الباب، وراحَ يطوفُ على الأواني الخَزَفِيّة الّتي تستقرّ على النّوافذ العالية العميقة المنتشرة على جدران الغرفة... كسرَ ثلاثًا أو أربعًا من تلك الّتي حملها النّاجون من ظُلمِ فِرعون إلى هُنا، كان عُمرها يزيدُ عن ألفَي عام. ثلاثُ قوارير من خَزَفٍ لَمّاع - صنعتْها أيدي المَهَرةِ من عُمّالٍ فارسيّين استقدمهم الفرعون الأب - تناثرتْ قِطَعًا صغيرةً على الأرضيّة المغمورةِ بالسّجّادِ الفاخر، بعضُ القطع المكسورة ارتطمت بحجارة الحوافّ الأرضيّة المكشوفة فأصدرتْ أنينًا بدا أنّه أنينٌ بشريّ... جاءه صوتُ قَيافا أكثرَ هُدوءًا وهو يولّي له ظهره دونَ أنْ يُغيّر هيئته: «قلبُ ذئب، ويدُ لِصّ». ردّ عليه شاؤول وهو يلهث بأنفاسٍ مُتقطّعة، كان لُهاثه أشه بلهاثِ وَحْشٍ جريح: «هل يصلح مَنْ هذه صِفاته للجلوس على كرسيّ الحَبْر الأعظم؟!». «تستعجل موتي؟!». «أكثرَ مِمّا تتصوّر». «الموتُ قَدَر». «وأنا القدَر». «أتظنّ أنّكَ قادرٌ على أن تحتلّ مكاني بهذه السّهولة؟! أحلامٌ بائسة؛ سأوصِي بأنْ يَستثنوك». «لن يكونَ لديكَ الوقتُ الكافي لتفعل ذلك». «إذًا لقد حانتْ منيّتي. هل من فُرصة؟». «كلاّ». «إذا فعلْتَها فافْعَلْها بهدوء، أرجوك لا تجْعلْني أتألّم... أنا عَجوز، ويؤذيني أدنى شيء». «قلتُ لكَ ليسَ بعد... أخطأ حَنّان حينَ ولاّك... قلتُ لكَ لا تقتلْه بهذه الطّريقة، فأبيتَ أنْ تسمعَ لي، وماذا تتوقّع النّتيجة؟! نحملُ دمَ المسيح بأيدي غيرِنا؛ ماذا سيقولُ التّاريخُ عنّا أيّها الأخرق؟! قلتُ للكهنةِ الآخَرين أنّ التّاريخ يحتاجُ إلى دِماءٍ شابّةٍ لكي تكتبه فلم يَسمعوا، وقلتُ لهم إنّكَ خَرِفتَ فلم يُعيروا كلامي أيّ انتِباه،

وأنبأتهم بأنّكَ ستجرّ علينا الويلاتِ بآرائِك فهَزِئوا بي... كانوا يظنّون أنّني شابٌ أرعن، ولِصٌّ قاتِل، وهل التّاريخ إلاّ من صُنع هذين الصّنفَين!! الآنَ أنا سأكتبُ التّاريخ بالطّريقةِ الّتي أريدها... الآن، ستعرفُ الأجيال المسيحيّة أنّني ربُّها، ورَسُولُها وصانِعُها، ومُؤسّسها، ومُبدِئُها، ومُعِيدُها». «لقد شطَحَ بكَ الخَيال والخَبالُ كثيرًا يا شاؤول». «ليتني أستطيع أنْ أحتفِظَ بكَ حتّى تكونَ شاهِدًا على عبقريّتي، أو ترى عَظَمَةَ أفعالي، لكنّني... وارباه... لا أستطيع... تعالَ... تعالَ اجلسْ هُنا بجانبي». نَهَضَ قَيافا من سريره، كانت ثيابه خفيفةً تُظهِرُ جسدًا نحيلاً نهشتْهُ السّنون، ونحتتْ في جذعه الخُطوب، بدا صدره المكشوف المليء بالشّعر الأشيب مُقزِّزًا، كانت عِظامُ صدره بارِزة، وعَظْمتا التُّرقُوَة تَنفِران كأنّهما حجرا صُوّان صغيران، أمّا عيناه فبَدَتا على الضّوء الخافِت ذابِلتَين كَحَبَّتَي جوز، تنضحان بالرّعب، وأمّا شِفاهه فكانت زرقاء يابِسة فقدتْ كثيرًا من قُدرتها على الكلامِ أو الصُّراخ. نظر شاؤول في وجهه عميقًا وابتسم، وضع يديه على كتفَيه حينَ صار في مواجهته، وهتف: «لا تخفْ... ستجري الأمور بسلاسة... الّذين خَدَمُوا الرّبّ بمثل خِدمتك عليهم أن يموتوا بطريقةٍ تليقُ بمكانتهم الرّفيعة». مَشَيا معًا، حتّى أراحا جَسَدَيهما على أريكةٍ تستقرّ عن يمين السّرير، قال شاؤول: «أُحبّ في اللّحظاتِ الأخيرةِ أنْ أسمَعَ مِنَ التوراةِ شيئًا». «عِندَكَ عِلمُ التّوارة كُلّها يا شاؤول؛ فَلِمَ تسخر منّي؟!». «قلتُ لكَ التّوارة لا ما كتبتموه في التّوارة». تنهّد قَيافا: «إنّها مسألةٌ طويلةٌ يا شاؤول». «أعرفُها من أوّل يومٍ يا قَيافا». «وهل

ستكشفها للنّاس... هل ستعمد إلى أن تقول لهم ما غيّرناه وبدّلناه فيها؟!». «كلاّ يا مجنون، ولكنّني سأفعل مثلَ هذا الشّيء في كِتابٍ آخَر». «أيّ كتابٍ أيّها الحبر الأعظم؟!». «صرتَ تُناديني به من الآن، ما هو كائنٌ كائنٌ لا محالة». نَهَضَ قيافا، لَكأنَّ الموتَ قد نَهضَ معه، بدا جِذعُه من الخلف جِذعَ شجرةٍ رفيعةٍ يابسةٍ قد احدودبث. تناولَ من إحدى الخزائن صُحُفَ موسَى، عادَ فجلسَ إلى جانبِ شاؤول. عاجَلَه قائلاً: «اقرأْ لي ما قالته التّوارة عن بعضِ أنباءِ الغيب». «لقد قالتْ كثيرًا، أعرفُ ما يهمّك... دَعْنِي أختصرْ عليك؛ المسيح نبيّ، ومحمّد نبيّ، وهو مكتوبٌ في هذا الّذي بينَ يديّ فحسب، أمّا تلكَ الّتي في الزّقوق بينَ أيدي النّاس، فأخفينا منها هذا وغيره». «إذًا ففيمَ قتلْنا النّبيّ يسوع؟!». «تسألني؟!». «أسألك فيمَ قتلْناه بهذه الطّريقة؟!». «يا بنيّ، لو عِشتُ إلى زمنِ محمّد، وعشتَ معي إلى ذلك الزّمن فسنقتله كذلك». «ففيمَ؟!». «تسألني وأنتَ الأدرى!!». «قُلْ لي». «من أجل المسيّا». «ففيم!!». «عَجَبًا لك، وأنتَ الأعلمُ مِنّي». «قُلْ لي». لأنّ المسيح كانَ ضعيفًا، لم يكنْ يحملُ في يده سِلاحًا، وكُنّا نريدُه أن يكونَ مَلِكًا فأبى، وكُنّا نُجهّز له شيئًا فرفض». «وما أدراكَ كيفَ يكون محمّد حينَ يجيء؟!». «أتمنّى أنْ أعرف». سادَ صمتٌ طويلٌ في الغرفة، لمْ يكنْ من شيءٍ يُسمَع إلا أصوات لُهاث العجوز المتقطّعة، وأنفاسُ الشّابّ المُتلاحِقة. قَطَع صَمْتَهما قولُ شاؤول: «لقد أعددتُ خُطّة مُحكَمة». «مَنْ أوحَى لكَ بِها؟! إنْ كان عقلُك؛ فهو مريضٌ لا يتكفّل إلاّ بالكوارث». «لا، بل شيمون». «على الأقلّ أذكى منك». «أعِدِ

الصّحف إلى مكانِها، هل يعلمُ بوجودها أحدٌ غيرُك؟!». «نعم». «إذًا عليّ قَتْلُهم». «لستَ مُضطرًا، يعلمون أنّها موجودةٌ ولكنّهم لا يدرون أين». «وأنتَ مِنْ أينَ عرفتَ بها؟!». «مِنْ حَنّان، وقد ماتَ سِرُّه معه بعدَ أنْ صارَ إليّ». «وأنتَ سيموتُ معكَ سِرُّكَ كذلك». «ذلكَ مكتوبٌ على علماءِ بني إسرائيل». «ما هو؟!». «أنْ يموتوا ومعهم أسرارهم». «تعرفني يا قَيافا، أريدُ أن أتّفق معكَ قبلَ أن تُغادِرَنا على بضعةِ أشياء؛ يا قَيافا، هؤلاء المَرَقَة لا يُجدي معهم السّوط، ولا السّيف، ولا الصَّلْب، وإنّ الوَحشَ الكامِنَ في أعماقِي لم يُشفَ من تشوّقه الحميم إلى الدّم، إنّني لم أستطعْ أن أنزِعَ الإيمان النّاشِبَ في أحشائِهم مع أنّني نزعتُ هذه الأحشاء نفسَها!! فماذا أنا فاعِلٌ؟! قُلْ لي أيّها الحبر الرّاحل؛ فأنا أكادُ أُجَنّ». «اصنَعْ لهم إيمانًا جديدًا». «هل تقصدُ ما أقصده؟!». «نعم؛ إيمانًا مسيحيًّا جديدًا... إنّ التّعذيب وسيلة غيرُ مُجدِية، وعبر التّاريخ لم تنفع، وإنّ هناكَ طريقةً أجدى بكثير». «أتعرف يا قَيافا إنّ أشدّ ما يُغضبني هو أنّ أنجع وسيلةٍ لتحقيقِ الهدف وإرغام الخصم، وهي الموت لم تعد لها قيمة». «الفناءُ للجسد، أمّا الخلود فللفكرة. سَمّمِ الفِكرة يَمُتْ كُلُّ شيءٍ بعدها، ويُصبحْ بلا قِيمة». «سأفعل أيّها العزيز. والآنَ حانَ دوري لكي أقومَ بواجبي الّذي تُمليه عليّ خِدمةُ الرّبّ». دسّ شاؤول يده في جيبه، وأخرجَ القارورة السّوداء، رفَعَها أمام عينَيه: «مَلَكُ الموتِ ليسَ أسود، إنّه يلبسُ ثِيابًا بيضاء؛ القاروة هي السّوداءُ فحسب... افتحْ فَمَكَ أيّها العزيز، لن يكونَ الأمر صعبًا ألبتّة، لقدْ حلّيْتُها لكَ بالنّبيذِ الفاخِر، افتحْ فَمَك وتناول إكسير

الخُلود... الموتُ شكلٌ آخر من أشكال الحياة، إنّه يفتح البابَ على مِصراعَيه لها... ستغادرنا هذه اللّيلةَ نعم، ولكنْ لن يطولَ الأمر حتّى نلتقي من جديد، سنلتقي وسأخبرك أنّنا حقّقْنا الأهدافَ كُلَّها الّتي سَعَيْنا لها، وأنّنا صنعنا القُوّةَ العُظمَى الّتي كنتَ تأمُلُ بها وسيطرنا على العالَم، سيطرنا على كلّ شيءٍ فيه». فتَحَ قَيافا فمه باستِسلام، وأغمضَ عينَيه بهدوء، كأنّه كان يتوقُ إلى لحظةٍ كهذه، أمالَ شاؤول القارورةَ قليلاً، تراجَعَ قيافا برأسِه إلى الوراءِ، هتف بصوتٍ أجشّ: «المجدُ للربّ، المجدُ لشعبِ إسرائيل المُختار...». صمتَ قليلاً، أدار وجهه إلى شاؤول وهو ما يزال مُغمضَ العينَين: «تذكّرْ يا بُنيّ أنّنا لن نسودَ العالَم بأعدادِنا، النّبوءات تقول إنّنا سنكونُ أقلّ شعوبِ العالَم عددًا، وأصغر الأمم وجودًا، لكنّنا سنسودُ العالَم بأدواتِنا، نجعل من شعوبِ الأرضِ كُلِّها دُمًى تتحرّكُ بأيدينا، أيدينا الّتي صنعناها بذكاءٍ يعجزُ عنه الأبالِسة». «يا قَيافا هل هذا وقتُ الحِكمة، هل الحِكمة لا تتجلّى إلاّ بينَ يدي الموت. تجرّعْ يا أخي قدَرَك... ياااه... لكنّني نسيتُ... كدتُ أن أتسبّب بكارثة حقيقيّة...». أغلقَ القارورة ووضعها على طاولةٍ قريبةٍ، دسّ يده في جيبِه الآخَر، أَخرجَ رَقًّا من الرّقوق المختومة بختم المجلس الكَهنوتيّ، قَرَّبَهُ من يَدَي قَيافا: «يا عزيزي... الوصيّة الثّمينة... وقّعْ في طرفها الأسفل... العالَم كلّه ينتظرُ ذلك منك». «لقد حقّ القولُ يا شاؤول فما يمنع منه شيءٌ، وإنّني أدركُ أنّه لا مفرّ، ويلٌ للعالَم الّذي ستحكمُه أفكارُكَ أيّها الشّيطان، ويلٌ للأمم الّتي ستهتدي بضلالِك... لقد صنعتَ مُعجِزةً توازي مُعجزة الأنبياءِ الصّادقين، اصعدْ يا بُنيّ على

أعلى قِمّةٍ في أورشليم، وانظرْ إلى العالَم المترامي الأطراف أمامَكَ في الجهات كُلِّها، واهتفْ بصوتٍ عالٍ: أنا سيّد هذا الكون، أنا إمامُ هذه الأمم جميعِها». «سأفعل أيّها العزيز... سأفعل... أرجوك لا تَخُطّ آخر كلماتِك بيدٍ مُرتِجفة، الأيادي المُرتجفة لا تجترح المُعجزات، ولا تصنع التّاريخ... امنحِ العالَم قبضةً قويّة وأنا سأمنحك هدوءًا أبديًا وذِكرى شذيّةً عاطِرة... سأجعل الأجيال تحتفظُ بشجاعتك في الخالِدين». وقّعَ قيافا على الرّق، ثُمّ تناولَ شاؤول القارورة، وقرّبها من شفتي قيافا: «لم يبقَ إلاّ هذه الخُطوة الأخيرة في طريق المُعجِزات». «هاتِها أيّها الحَنون، هاتِها». أخذها قيافا وجرعها دُفعةً واحدةً، قامَ من على الأريكة، لكنّ السّمّ سرى سريعًا في جسده العَجوز فتمايل، تلقّاه شاؤول بينَ ذراعَيه القويّتين، حمله كطفل إلى السرير، وأراحَه هناك، وغَطّاه بحنوّ، نظرَ في عَينَي قَيافا، كانت عيناه صافِيَتَين تمامًا، وتنطقانِ بالشّكر العميم: «لقد فعلتَ ما ينبغي عليكَ فِعله، موتي لن يوقفَ العَجَلة، ولن يمنعْني من أنْ أقولَ لك النّصيحةَ الأخيرة؛ اذهبْ إلى غالامائيل، ستجد عنده الكثير مِمّا يجب أن تسمعه منه». ثُمّ أسبلَ عينَيه.

في الصّباح، تأخّر عن الصّلاةِ الأولى، صلّى الكَهَنةُ من دونه، التفتوا في وجوه بعضهم، والتقتْ عُيُونهم في الدّروب الواصِلة إلى مُنتَهَى اليقين، نَهَضُوا جميعًا، وصعدوا إلى غرفته، دخلوا إلى سريره، كان يبدو نائمًا نومًا عميقًا مُطمئنًّا... تراجعوا إلى الوراء، شكّلوا حلقةً دائريّة، وارتفعتْ أصواتهم بالنّشيد!!

٨٠

هل يستقيم ذيلُ الكلب؟!

«أُقتلْ كُلّ مسيحيّ في السّجن بالسّيف في يومٍ واحدٍ، وادفنْ جُثَثهم تحتَ التّراب دونَ أن يُحسّ أحدٌ من الحُجّاجِ فوق المعبدِ بشيءٍ، ولا تُبقِ إلاّ على بُطرس في زنزانته». كانَ هذا أوّلَ أمرٍ أصدره شاؤول للجلاّدين بعدَ أن جلسَ على كرسيّ الحَبر الأعظم.

ذرعَ (شيمون) الأرضَ مُسرِعًا إلى (مرقس)، وافاه إلى بيته دونَ حرسٍ أو مظاهر، طرقَ بابه، وانتظر أمامه بأدبٍ، واجهه مرقس مُتجهّمًا. سأله: «تعرفني أيّها الحكيم؟!». «القَتَلَة تفوحُ رائحةُ الدّماء من ثِيابهم، وتقطرُ دِماءُ ضحاياهم من أصابِعهم، فكيفَ لا أعرفكَ يا شيمون؟!». «اسمعْني أيّها الحكيم؛ كانَ بإمكاني أن آتي بكتيبةٍ من الجُندِ تقتلعُكَ وبيتَكَ من هُنا، لكنّني جِئتُ مُسالِمًا؛ أرأيتَ... ها أنذا وحدي، ولا أحملُ أيَّ سِلاحٍ». «وماذا تريد؟!». «مُعلّمُكَ في السّجن». «بطرس؟!». «ومَنْ غيرُه!!». «كثيرون». «هذا ما يَهمُّك». «ثُمّ....؟!». «جِئتُ لأعرضَ عليكَ إطلاقَ سراحِه». «مقابل ماذا؟!». «لا شيءَ... لا شيءَ... عدا الذّهب... أنا أريدُ أن أسديَ له ولأتباعِهِ خِدمةً جليلةً». «وَمَنْ بَعَثَك؟!». «شاؤول». «شاؤول بذاته... الوحشُ السّفّاح!!». «لم يَعُدْ كذلك، إنّه فيما يبدو تغيّر بعدَ أن تسلّمَ منصبَ الحبر الأعظم». «قُلْ لي يا شيمون؛ هل يستقيم ذيلُ الكلب؟! أرأيتَ ذاتَ يومٍ غُرابًا يُمكنُ أنْ يستعيرَ صوتَ

بُلبلٍ؟!». «أعرفُ أنّكم عانَيتم كثيرًا، جِئنا لتُصلِحَ الأوضاع... الرّبّ يقبلُ التّوبة؛ ألا تقبلونها أنتم، ألمْ يقل لكم المسيح أحِبّوا أعداءَكم؟!». «لستُ غَنِيًّا كما تظنّ». «عشرون دينارًا ذهبيّةً، ويَبيتُ بطرس في بيتك». «قلتُ لكَ لا أملكُ إلاّ نفسي وكُتُبي». «فلْتَكُنْ عشرةً». «أنا لا أجدُ ما آكلُه في بيتي؛ خُبزُنا كَفافُنا». «نصفُ المسيحيّين أغنِياء، دَعْهم يفتدوا نَبِيَّهم الجديد ببعضِ المال». «اذهبْ إليهم إذًا». «ديناران تَكفِيان؛ لا تُعِدْني خائِبًا... يااااه... أفأنتَ بخيلٌ إلى هذا الحدّ!!».

استيقظَ بطرس في صباحِ اليومِ الّذي تلا رحيلَ قَيافا، تثاءَب بتثاقُل فتساقَطَتْ قُيودُ يدَيه؛ أصابته الدّهشة، تلمّسَ بإحداهما الأخرى، وفرح، نظرَ إلى قَدَمَيه فوجدَ الزّردَ ما زالَ جاثِمًا حولها، لكنّه حدّث نَفسَه: «مَنْ أزال قُيودَ يَدَيّ فلن يتركَ رِجلَيّ تنوءان بالأصفاد»، نهضَ ليستكشفَ الأمر، فانحلّ الزّرد وتساقط كأنّه من عجينٍ. نفضَ قَدَمَيه، وتوجّه إلى بابِ الزّنزانة، ارتقى على أطرافِ أصابِعه لينظُرَ من خلال نافِذتها المرتفعة، كان الممرّ خالِيًا من أيّ بشريّ، شَكّ أنّه في حُلمٍ، أعادَ النّظرَ في يدَيه وقَدَميه، فتبدّدَ شيءٌ من الشّكّ، رفعَ يديه أمام وجهه فرأى أثرَ القيد لكنّه لم يرَ القيدَ نفسِه، خاطبتْه نفسُه بالمُعجِزات، شعرَ بروح المسيح تُغلّفه، هتفَ من أعماقه: «لن أرَعى خِرافَه وأنا في الزّنازين، هو يعرفُ ذلك». أعادَ النّظر من خلال النّافذة، ومن جديدٍ بدا له الممرّ الّذي يحوي الزّنازين على الجانِبَين خالِيًا تمامًا. جرّبَ أنْ يقولَ شيئًا، فلمْ يُفلِح؛ لم يكنْ لديهِ ما يقوله، فَكّر في الكلماتِ، رتّبها في ذِهنه، وتدرّب عليها هُناك، ثُمّ نطقَ بها دُفعةً واحِدةً: «أيُّها الحُرّاس؛

تعالَوا خُذوني». لكنّ الصّمتَ المُطبِق ظلَّ سيّدَ الوقت، هتفَ من جديد: «أيّها الحُرّاس لا أستحقّ كرمَ المسيح والرّؤيا في وقتٍ واحدٍ... قلتُ لكم تعالَوا خُذوني». لكنّ كائِنًا حيًّا واحِدًا لم يظهر، ولا صوتًا بشريًّا أو غيرَ بشريٍّ قد سُمِع. خُيّل إليه من جديد أنّه يحلم. عنّت بباله فكرة أن يفتحَ الباب حتّى يتقيّن من أنّه ليسَ حُلْمًا، دفعَ البابَ الثّقيل إلى الخارج، وعَجِبَ من جديدٍ، في لحظاتٍ وجدَ نفسه وحيدًا في الممرّ، عَبَرَه هذه المرّة بسرعة، ظلّ ينهبُ الأرضَ بخطواته حتّى وصل إلى نهاية الممرّ، واجهه بابٌ جديدٍ، لم يكدْ يتلمّسه ليعرفَ كيفَ يُفتَح، حتّى أطلّ عليه من النّافذة جُنديٌّ رومانيّ، ابتسمَ في وجهه، انحنَى قليلاً فيما يبدو ليُزيلَ أقفال الباب الحديديّ العملاق، انفتَح الباب على المُطلَق، بدا الفضاءُ فسيحًا أكثرَ مِمّا كانَ عليه الأمر قبل الاعتِقال؛ هكذا خُيّلَ لِبُطرس... انتظر لكي يسمع شيئًا من الجُنديّ الرّومانيّ، لكنّ الأخير ظلّ على ابتِسامته ووداعته غير المعهودَتَين، خطا بطرس خطوةً اختِباريّة ظنّ أنّ يد الجنديّ ستقفُ حاجِزًا في طريقه، لكنّ الجنديّ صار ينظر إلى الأفق في ضجرٍ كأنّما يستعجل بطرس بالرّحيل، خطا هذه المرّة خُطوَتَين دُفعةً واحدةً، ثُمّ أسرعَ الخُطا، وهو يلتفتُ خلفه، ثُمّ زادَ من سرعته حتّى غاب في الزّحام!!

هبطَ اللّيل على أورشليم مع آخر صيحات الضّحايا الّذين هبطتْ أجسادُهم إلى قاعِ الأرض، وغُيّبتْ في الثّرى المُقدّس.

وصلَ إلى بيتِ (مرقس)، قبّله الأخير على جبينه، وجَثا

لِيُقبِّلَ يَدَيه، لكنّ بطرس أنهضه: «لا تفعلْ». رَفَعَ مرقُس نظره إلى أعلى، رأى أستاذَه واهِنًا بما يكفي ليبكي؛ بَكَى. استمرّ في بُكائِه حتّى ارتجّ جسده، هبطَ إليه بُطرس، مسح دُموعَه، ونظرَ في عَينَيه: «يومُ البُكاءِ لم يأتِ بَعدُ؛ ستنوحُ الأرضُ على ما نفعل. انهضْ». صَمَتا حتّى سَمِعَا هيعةً في الخارج، طارَ قلبُ مرقُس، نظر بطرس بهدوء عبرَ النّافِذة، كانَ هُناكَ جنودٌ من حَرَسِ المعبد إضافةً إلى آخرين رومان قد أحاطُوا بالبيت، نهضَ من مكانه، جلس إلى أقربِ مِقعد، أسندَ ظهره إلى الخلف، رفع رأسَه إلى السّقف، لم يكنْ هُناكَ سقفٌ حاجِب، لقد صارَ من زُجاجٍ، امتدّ بصرهُ إلى السّماء، همسَ في رِئَتَيه: «إنْ كانَ يُريدُ أن يقتلني خارجَ السّجن؛ فأنا منذ رحيلِكَ أيّها المسيح وأنا أنتظر لحظةَ لَحاقِي بك». كان مرقُس قد خرجَ يستطلع الأمر، عادَ إليه: «سيّدي، رَسول شاؤول بالباب يريدُ أن يَراك». «وماذا يُريدُ هذا السّفّاح؟!». «لا أدري، الرّسول لم يقبَلْ أنْ يَقول شيئًا إلاّ لك». نهضَ متثاقِلاً واجِفًا، صارَ على الباب: «أنتَ بطرس؟!». «نعم». «لقد أمرَ شاؤول بكلّ هذه الخيول وما عليها من طعامٍ ومال هَدِيّةً لك». نظرَ بطرس من خلف الرّسول، كان هناكَ أكثرُ من عشرةٍ من الخيول يتهادَى فوقَها فُرسانُها، وقد اكتنزتْ رِحالُها، أردفَ الرّسول: «وهؤلاء الّذين يركبونها عبيدٌ لكَ سخّرهم سيّدي لِخِدمتك».«ليسَ بي حاجةٌ إلى شيءٍ مِمّا بعثَ به إليّ سيّدك، قُل له: «إنّني لا أقبلُ هدايا اللّصوص والقَتَلَة». «وهذه رِسالةٌ منه إليك». «الهدايا لا؛ كما قلتُ لك، أمّا الرّسالةُ فسأقرؤها». دفعَ بها إلى مرقُس الّذي كان يُراقِب المشهدَ من خلفه: «ماذا يُريدُ هذا الأفّاك؟!». قرأ

مرقس: «لقد عَلِمْنا صِدْقَ دعوتك، وجلاءَ موقفك، وإنّني باسم الموقع الّذي أشغله أودّ أن تعتبر هذه الهدايا جسرَ محبّةٍ بيننا، وإنْ كنتُ قد أخطأتُ في حقِّكَ فيما مضى، فإنّني لأقفُ اليومَ بينَ يديكَ نادِمًا لكي تقبلَ اعتذاري وتوبتي. أخوك: شاؤول الطّرسوسيّ». ضيَّقَ بطرس عينَيه، وهمس: «إنّه كاذب، هذا الشّيطان لا يُتقنُ غيرَ الدّجل، لن أسمحَ لسافِكِ دماء أنْ يتحوّل إلى قِدّيس بينَ عَشِيَّةٍ وضُحاها». صمتَ قبلَ أنْ يُتابِع: «يا مرقُس أعدِ الرّسالةَ إلى شاؤول واكتب له: «مغفرةُ جرائمك الشّنعاء ليسَ بيدي، أمّا أنا فلا أقبلُ قاتِلَ أخي أخًا لي». في لحظاتٍ كان موكب شاؤول يعودُ خائبًا ويختفي خلفَ الطّرق المتعرّجة.

قال مرقس: «والآن أيّها المُعلِّم، ماذا نفعل؟!». «إنّ شاؤول يُخطّطُ لأمورٍ لا تخطر على بال مَردةِ الشّياطين، وإنّني أرى أنّ البقاء بينَ يدَيه سيجعلنا عرضةً لجحيمه الّذي لا يَهدأ، لا بُدّ من الرّحيل». «إلى أينَ يا سيّدي؟!». «إلى حيثُ قال معلّمي: ارعَ خِرافي». «متى سترحل؟!». «ليسَ قبلَ أنْ أعرفَ ما حلّ بالآخَرين». «لم يبقَ منهم في فلسطين إلاّ برنابا». «والمجدليّة؟!». «رحلث تُبشّر بدعوة المسيح إلى (الإسكندريّة)». «وأندراوس؟!». «ذهبَ شَرْقًا». «ومَتّى؟!». «ذهبَ جنوبًا؛ تعرفُ أنه رحلَ إلى الحبشة». «ولوقا؟!». «هُنا». «سيرحلُ أحدكما معي». «اجعَلْنيه يا سيّدي». وجثا مُتوسِّلاً. «لا بأسَ، سترتحل أنتَ معي. لكنْ سنتريّثُ قليلاً. يجب أن أرى برنابا، لديه كلمةُ الله، كانَ أكثرنا حرصًا على تسجيل ما شاهده عن المسيح، أينَ هو يا مرقس؛ منذ دخولي السّجن

لم أسمعْ عنه، أيكونُ شاؤول قد قتَلَه فيمن قتل!!». «كلاّ يا سيّدي، لكنّه مُختفٍ عن الأنظار». «أتعرفُ مكانه؟!». «نعم». «أُدعُه إليّ إذًا». «سأدعوه اللّيلةَ إنْ شِئت».

يُتبَع...